المتنبى

فى الدراسات الأدبية الحديثة فى مصر

الجزء الأول

قضايا التاريخ الأدبى

الدكتور ضيف الله هلال العتيبى
أستاذ النقد الأدبى الحديث المشارك
جامعة الملك عبد العزيز - بجدة

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر، إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، ادارة الشئون الفنية.

العتيبى، ضيف الله هلال.

المتنبى فى الدراسات الأدبية الحديثة فى مصر: قضايا التاريخ الأدبى/ ضيف الله هلال العتيبى . - ط١ . - القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧ .

٤٣٢ص ؛ ٢٤سم

تدمك: ٨ ٩٣٦ ٢١٥ ٩٧٧

١ - الشعر العربى - تاريخ - العصر العباسى الثانى

٢ - الطيب المتنبى، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، ٩١٥ - ٩٦٥

أ - العنوان ٨١١,٥

الكتاب : المتنبى فى الدراسات الأدبية الحديثة فى مصر جـ١

المؤلف : د. ضيف الله هلال العتيبى

رقم الإيداع : ٢٤٦٢١ / ٢٠٠٦

تاريخ النشر : ٢٠٠٧

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 936 - 8

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

البريد الإلكترونى : DarGhareeb@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

أبى العزيز :

أهدى إليك هذا العمل المحـدود ، عسى أن يكون عند حسن ظنك ، وأن ترى فيه ما يحقق آمالك التى ترجوها . .

أبـى هـذه الدوحـــة مـن أمـلْ   وفـــيـهــا حــيــاتى ربيع أهلْ
ولولاك مــا كــان فــيــهــا الـمنى   ولاغــرســهــا فى الزمـان اكـتـملْ
تناجـيك منـهــا زهور الحــيــاهْ   وتشــدو الـطيــور بلحـن الغــزلْ
ســتــبــقى ظلالاً لـمن يســتظلْ   وروضًــا لمن كــان يـشكو المـللْ

❊ ❊ ❊

أبى أنـت يا مـن رفـــعت الـعَلـم   وأشـــعلـت فىَّ طمــوح الـقــممْ
سأمضى على الدرب رغـم الصعابْ   وأغــزو إلى الـمـجـد رغم الـظُلَمْ
أعـيــد إلى النفس مـا تشـتـهـيـه   وأخلـق مــجــدًا لهــا من عــدمْ
ولست عـن الـمـجـد بالملتــهى   وفى الـقلب منى لهــيب الـهــممْ

ابنك

ضيف الله العتيبى

القاهرة / فى   ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٣هـ
٣ مــــــارس ١٩٨٣م

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

المقدمة

المقدمة

أ - اختيار الموضوع وأهميته :

موضوع هذا البحث هو « المتنبى فى الدراسات الأدبية الحديثة فى مصر ». وهو موضوع يستهدف دراسة ما كتبه الدارسون المصريون عن المتنبى فى العصر الحديث . والكتابة عن المتنبى من الموضوعات الطريفة والشيقة فى آن واحد وكان حبى لشخصية المتنبى وشعره من العوامل الأساسية التى حببت دراسته إلّى. ذلك لأنه من أكبر شعراء العربية وأعظمهم مكانة فى عصره وبعده .

وهذا الحب للمتنبى وشعره إنما هو امتداد لحب قديم حين جعلت دراستى لنيل درجة الماجستير نقد الحاتمى له دراسة وتحليل .

وتواصلت خطواتى بعد ذلك وستتواصل - بإذن الله - على طريق هذا الحب له . وقد دفعتنى إلى هذه الدراسة الحديثة عوامل أخرى ، ترجع أساسًا إلى أن الدراسات المصرية الحديثة عن المتنبى أغنى الدراسات العربية ، وتعد - بدون شك - القاعدة الأساسية لهذه الدراسات .

وقد ظهر أثر هذه الدراسات فى الدراسات العربية الحديثة عن المتنبى ، وهذه الدراسات المصرية فى نظرى أخصب الدراسات الحديثة عنه ، ثم إننى أريد أن أرد بعض الجميل للمثقفين فى أرض الكنانة الذين دافعوا عن الحضارة الإسلامية ، والذين درسوا الأدب العربى كله دراسة تعد الأساس الأول فى تاريخ الأدب العربى .

ولقد تعددت الدراسات الحديثة فى مصر عن المتنبى وأضافت كثيرا من الآراء الجديدة عن شاعر العروبة الأكبر ، فقد تناولت هذه الدراسات حياته وثقافته ودينه ونبوته وأخلاقه وعروبته ورحلاته ، ودرست لغته الشعرية ، وألفاظه ومعانيه ، وصوره وأخطاءه فى اللغة والنحو والعروض والقافية ، كما درست موضوع السرقات فى شعره دراسة مستفيضة - سواء أكانت من الشعراء القدماء ،

أم من فلسفة أرسطو أم من الفارابى- واستطاعت هذه الدراسات أن تدرس النقد العربى القديم حول شعر المتنبى دراسة منهجية جديدة ، وأن تقومه تقويمًا موضوعيًا دقيقًا .

ومن هنا تبدو أهمية هذه الدراسة التى أريد فيها أن أتتبع كل الدراسات التى ظهرت فى مصر فى العصر الحديث عن المتنبى وشعره ، وأوزعها اتجاهات لأتبين من خلالها موقف مؤرخى الأدب ونقاده فى مصر من هذا الشاعر من ناحية وموقفهم من آراء النقاد القدماء الذين شغلوا به من ناحية أخرى ، ولأتبين أيضًا مدى تأثرهم بدراسة المستشرقين له ، ومدى استفادتهم من نظريات النقد الغربى الحديثة . وهى دراسة أراها امتدادا طبيعيًا للدراسات الكثيرة التى دارت حول المتنبى فى النقد العربى القديم ، وهى الدراسات التى استقطبت جهود الدارسين فى الوقت الذى لم يتجه فيه أحد منهم إلى هذه الدراسات الحديثة عن المتنبى .

وتنقسم هذه الدراسات الحديثة عن شعر المتنبى قسمين كبيرين :

القسم الأول : دراسات خاصة عن المتنبى وشعره .

القسم الثانى : هو دراسة عامة - تعرضت من بين ما تعرضت له للمتنبى وشعره .

هذا عدا ما كتب عن المتنبى من مقالات فى المجلات والصحف المصرية تحتاج إلى وقت وتنقيب وبحث لكى تضم إلى هذه الدراسات عن المتنبى وشعره.

ب- منهج البحث:

يخضع هذا البحث للمنهج التاريخى التحليلى الذى يربط الفكرة بأختها ، ويخرج من ذلك إلى تحليل الأثر الأدبى ، وإبراز عناصره ، وهذا ينطبق على الفصول الخمسة الأُول التى تضم الباب الأول وهو « قضايا التاريخ الأدبى » .

أما الفصول الخمسة الأُخر ، فهى تخضع للمنهج النقدى ، الذى يتعامل مع النصوص الأدبية فى دراسة الأثر النقدى ، ومن هنا ظهر المنهج اللغوى ، والمنهج الفنى ، والمنهج النفسى ، والمنهج المتكامل ، من خلال هذه الفصول، وهى مناهج اتخذها المصريون فى دراساتهم الحديثة عن المتنبى ، ومن هنا كان لابد من تطبيقها عند دراستنا لهذا الباب وهو : « قضايا النقد » .

وطبيعة الموضـوع هى التى حددت منهجه فقد قسمتـه إلى بابين كبيرين يضم كل باب منهما خمسة فصول ، بدأتها بمقدمة وأنهيتها بخاتمة .

الباب الأول : يتناول دراسة « قضايا التاريخ الأدبى » ، ويتكون من خمسة فصول ، ومن البدهى أن يكون الفصل الأول : عن حياة المتنبى ونسبه وأسرته ، وعن نشأته وثقافته ، ورحلاته المتعددة ، ومقتله .

أما الفصل الثانى : فقد تحدثت فيه عن عقيدة المتنبى ودينه ، ثم تطرقت للحديث عن تشيعه وقرمطيته ونـبوته، وما كان من تعدد الآراء حول هذه القضايا الأربع والرد عليها .

وتناولت فى **الفصل الثالث** : القضايا السياسية ،وأسهبت فى الحديث عن علاقاته السياسية فى حياته المبكرة ، ثم تناولت علاقاته السياسية مع سيف الدولة الداخليـة والخارجـية ودرسـتهـا دراسة مـتـأنية توضح مـدى تطور هذه العلاقـة وتدهورها فى آن واحـد . ثم بحـثت علاقـاته السـياسـيـة مع كـافور الداخليـة والخارجيـة والسبب فى انقطاع هذه العلاقة واندثارها. ثم أنهـيت الفصل بدراسة خروج المتنبى من مصر ، وما كان من علاقاته السـياسية مع البويهيين - وما كان له من شعر سياسى فى كل من العراق وفارس .

وكان **الفصل الرابع** : عن قضايا المجتمع ، ودرست فيه عروبة المتنبى من شعره ، ومـشاعر العروبة فى سيفـياته ، وما كان له من علاقات مـهمة فى حياته كقضية العروبة والأعاجم ، ومـا كان من تعصبه للعرب ضدهم ، وكانت خاتمة الفصل دراسة البداوة والحضارة فـى شعره ، وما كان من تفضيله البداوة على الحضارة .

والفـصل الـخـامس : خاص بدراسة قـضايا الذات ، وفيه بحـثت طموح المتنبى وتمرده ، وتشاؤمه وآراءه فى الحيـاة والناس ، وبهذا الفصل اكتمل الباب الأول من الدراسة .

وأما الباب الثانى الذى يتناول بالدراسة « قضايا النقد » . فقد بدأته - فى الفصل الأول مـنه - بدراسة القضـايا اللغوية والنـحوية ، وفيـه تناولت الظواهر اللغـوية عند المتنبى بالـدراسة والتـحليل ، ثم تابعت دراسة المـآخذ اللغـوية ،

وموقف القدماء وآراء المحدثين فيها . ثم تناولت بعد ذلك الظواهر النحوية وما أخذه النقاد اللغويون على المتنبى من أخطاء نحوية ، وأوضحت موقف القدماء وآراء المحدثين ثم تحدثت بعد ذلك عن أخطائه فى العروض والقافية .

أما الفصل الثانى : فكان عن القضايا الفنية ، وفيه درست بناء القصيدة عند المتنبى ،و الصورة الفنية ، وما كان من تعقيده المعنوى واللفظى . ثم ختمت الفصل بالحديث عن الموازنة بين المتنبى وغيره من الشعراء .

والفصل الثالث : خاص بسرقات المتنبى وفيه بحثت مقاييس السرقة ومصطلحاتها وأنواعها وأوضحت سرقاته من الشعراء الجاهليين ، والإسلاميين والعباسيين . ونبهت إلى آراء المحدثين ، وموقفهم من هذه السرقات الأدبية . وتحدثت عن تأثير المتنبى فى الشعراء المحدثين .

وكان **الفصل الرابع** : عن القضايا الفلسفية ، ودرست فيه فلسفة المتنبى وما توصل إليه الباحثون فى دراساتهم عن هذه الفلسفة ، ثم تتبعت أثر الفلسفة اليونانية فيه ، ودرست الرسالة الحاتمية دراسة شاملة ، ووازنت بين حكم المتنبى وحكم أرسطو ، وما كان من موافقة المتنبى فى شعره لحكمه أو مخالفتها . ثم وازنت بين فلسفة المتنبى والفلسفات المعاصرة ، وأوضحت أن هذه الفلسفات ربما اتفقت مع فلسفة المتنبى فى بعض مواقف الحياة .

وختمت البحث **بالفصل الأخير** ، وهو عن القضايا النفسية وتحدثت فيه عن المنهج النفسى فى دراسة المتنبى ومحاولات تطبيقه على شعره . وتناولت الخوف فى أدبه كأثر نفسى له تأثيره الكبير على نفسية المتنبى ، ثم أوضحت ما كان من أثر الإخفاق فى شعره ، وختمت الفصل بدراسة مطالع الكافوريات ، وكيف تصور نفسية المتنبى . وأوجزت فى الخاتمة معالم البحث والنتائج التى استطاعت هذه الدراسة أن تصل إليها .

جـ - مراجع البحث :

ومن أهم الدراسات الحديثة عن المتنبى دراسة الدكتور / محمد عبد الرحمن شعيب « المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث » وهذه الدراسة على الرغم من

عمقها ومتانتها وحداثتها أيضًا فإنها كانت دراسة عامة عن المتنبى ، فلم تدرس فترة نقديـة محدودة عن نـقد المتـنبى وشعره ، وإنـما درست نقـده فى شتى العـصور والأقاليم الإسلامية .

وتنفـرد دراستى هذه بأنهـا ، دراسة خـاصـة عن « المتنبى فى الدراسـات الأدبية الحديثة فى مصر » .

وهذا التفرد يميزها عن غيرها من الدراسات الحديثة ، إذ لم يسبق أن درس هذا الموضـوع بهذه المنهجيـة من قبل ، مما يجـعل له حق التفرد والتمـيز فى مجال الدراسات الأدبية الحديثة .

وبعد - فقد بقى أمر لابد مـن التنويه به وفاء لكل من وقف بجانب البحث وصاحبه حتى ظهر على هذه الصـورة التى انتهى إليها . ولا أظننى قادرًا على أن أوفى أستاذى الجليل الدكتور **يوسف خليف** حقه من الشكر والتجله . فقد تبنى البحث بأستاذية فذة ، وعبقرية نادرة ، وأخـوة صادقة . فقد كان معى دومًا على الطريق يدلنى على الجديد والجـيد فى كل أمر تناولته بالبـحث والدراسة . وكان معى بفكره الثاقف وقلبه الكبير فى كل خطوة من خطوات الدراسة والبحث .

جزاه الله عنى خير الجزاء ، ووفقه لما فيه الخير والصـلاح .

❊ ❊ ❊

الباب الأول

قضَايَا التَارِيخ الأدبىْ

الفصل الأول
قضَايا الحيـــاة

أ- نسب المتنبى وأســــرته .

ب- نشأته وثقافتـــــه

ج- رحلاتـــــه فى الأمصار الإسلاميَّــة

د- مقتل المتـــــنبى

نسب المتنبى وأسرته :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى [(١)] ، وزاد بعضهم بن الحسن بن عبد الصمد [(٢)] وحذف بعضهم الحسن [(٣)] ، وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جنى / الفتح الوهبى على مشكلات المتنبى / تحقيق د. محسن غياض / بغداد . ط . الجمهورية ١٩٧٣/ ٢٧ . وديوان أبو الطيب المتنبى بشرح عثمان بن جني المسمى بالمفسر / تحقيق د. صفاء خلوصى بغداد ط. الجمهورية ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م / ٣٥. وانظر ، أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور / تونس ط. الدار التونسية للنشر ١٩٦٨/ ٩ والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى / الوساطة بين المتنبى وخصومه / تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ومحمد على البجاوى/ مصر ط. عيسى البابى الحلبى وشركاه ط. رابعة ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٦م /٣. وأبو على محمد بن الحسن الحاتمى / الرسالة الموضحة فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبى وساقط شعره / تحقيق د. محمد يوسف نجم / بيروت ط ١٣٨٥هـ ، ١٩٦٥م / ٦، ٧ ومحمد بن أحمد بن فورجة / الفتح على أبى الفتح / تحقيق عبد الكريم الدجيلى / بغداد ط . دار الحرية للطباعة ١٩٧٤م / ٣٥. والثعالبى / يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ظ دار الفكر ط ثانية ١٩٧٣م ، ١٣٩٣هـ / الجزء الأول / ١١٠. وابن رشيق القيروانى / العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / بيروت ط دار الجيل ط رابعة / ١٩٧٢م / ٤٥. وابن سيده / شرح مشكل أبيات المتنبى ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين / العراق وزارة الإعلام / ٩٧٧/ ٢٨، وأبو الحسن على بن أحمد الواحدى/ شرح ديوان المتنبى / ط برلين سنة ١٨٩١م / ٥٠ . وضياء الدين بن الأثير / الاستدراك فى الرد علي رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية / تقديم وتحقيق حنفى محمد شرف / القاهرة ط الأنجلو المصرية ١٩٥٨/ ٣٥. وأحمد بن على بن معقل المهلبى الأزدى / مآخذ الأزدى على الكندى / تحقيق هلال ناجى / المورد / المجلد السادس / العدد الثالث / عدد خاص ، أبو الطيب المتنبى / بغداد ط الحرية ١٩٧٧ م / ١٣٩٧هـ / ١٧٥ .

(٢) أحمد بن الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ط ١٣٤٩هـ، ١٩٣١/ ١٠٢. وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى / المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم / ط دائرة المعارف العثمانية / ط١٣٥٨هـ / الجزء السابع / ٢٤ . وابن عساكر / تاريخ دمشق ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / السفر الثاني / ٣١٣، ٣١٤. والمقريزى / المقفى / ترجمة المتنبي فى كتاب المتنبى لمحمود شاكر / السفر الثانى / ٣٤١ .

(٣) ابن خلكان .وفيات الأعيان وانباء الزمان / المجلد الأول / تحقيق د. إبراهيم السامرائى بغداد ط ثانية ١٩٧٠/ ٢١٩.

ابن عبد الـجبار [(١)] ، وبعض آخر يضـيف الكوفى [(٢)] ، الكندى الجـعفى [(٣)] ، وفريق ثالث يقـصر من اسمـه على أحمد بن الحـسين بن عبـد الصمد الجـعفى الكوفى الملقب بأبى الطيب [(٤)] .

ولد بالكوفـة فى سنة ثلاث وثلاث مئـة [(٥)] ، بمـحلة تسـمى كندة فنسب إليهـا ، وليس هو من كندة التى هى القبـيلة ، بل هو جُعْـفى القبيلـة بضم الجيم وسكون العين المهملة [(٦)] ، وكان أبوه يعرف بعيدان السقاء [(٧)] ، لأنه كان يسقى الماء لأهل الكوفة فى زمانه .

وقد اختلف المؤرخون فى نسبه اخـتلافات متعددة ، وتباينت آراؤهم حول أسرته ونشأته ، وازداد الخـلاف تباينًا فى العصر الحـديث ، حيث ظهرت بعض الدراسات الحديثة والمعاصرة تنكر أصله العربى وتوضح أسباب الغموض حوله،

---

(١) ابن العديم / بغية الطلب ترجمـة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شـاكر / السفر الثانى / ٢٦ . وابن خلكان / وفيـات الأعيان / المـجلد الأول / ١٢ . والمقـريزى / المقفى ترجـمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٣٤١ .

(٢) ابن الأثير / اللباب فى تهذيب الأنساب / بغداد ط مكتبة المثنى / الجزء الثالث / ١٦٢ .

(٣) أبو الفداء / المـختصـر فى أخبار البـشر / قسطنطينيـة بدار الشاهانبـة سنة ١٢٨٦ هـ / الجزء الثانى/ ١١١ . والعباس / معاهد التنصيص على شواهد التخليص / مصر ط ١٢٧٤/ المجلد الأول / ١٤ .

(٤) ابن العديم / بغيـة الطلب ترجمة المتنبى ضمن كتـاب المتنبى لمحمود شاكـر/ السفر الثانى / ٢٦ ، والبديعى / الصبح المنبى عن حيـثية المتنبى / تحقيق . مصطفى السـقا ، محمد شتا ، عبده زيادة عبده / ط دار المعارف بمصر ١٩٦٣م / ٢٠٠ .

(٥) أحمـد بن الخطيب البغـدادى / تاريخ بغداد / المـجلد الرابع / ١٠٢ . وأبو العلاء المـعرى رسالة الغـفران / ٣٥٨ ، ٣٥٩ . وابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبـقات الأدباء / ٢١٩٩ . وابن الجـوزى / المنتظم فى تاريخ الملوك والأمـم / الجزء السـابع / ٢٤ والبـغداد / خـزانة الأدب / القاهرة ط السلفية ١٣٤٨هـ / ٣٠٣ .

(٦) أبو الفداء / المختصر فى أخبار البشر / الجزء الثانى / ١١١ .

(٧) أحـمد بن الخطيب البـغـدادى / تاريخ بغداد / المـجلد الرابع / ١٠٣ . وابن الأنبـارى نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٠٢ . وابـن الجوزى / المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / الجزء السابع/ ٢٤ . وابن خلكان / وفـيات الأعيـان / تحقيق مـحمد محى الديـن عبد الحمـيد / القاهرة ط النهضة المصـرية ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م / الجزء الأول / ١٠٥ وخير الدين الزركلى / الأعلام / ط . ثالثة ١٣٨٩ ، ١٩٦٩م / الجزء الأول / ١١٠ ، ١١١ .

وتردها إلى أمور شتى ودراسات أخرى ترد أصله إلى العرب بجنوب الجزيرة العربية ، وتستند إلى بعض الروايات القديمة حول نسبه، ودراسات أخرى ترد أصله إلى العلويين الذين ينتهى نسبهم إلى الإمام على ﷺ .

وأول ما ظهر الشك فى نسب المتنبى فى دراسات المستشرقين عنه ، فقد ألف المستشرق الفرنسى بلاشير كتابًا ضخمًا حاول فيه الانتقاص من المتنبى بكل ما أوتى من قوة [(١)]. يقول عنه وقد شك فى نسبه: « وليس لدينا عن أسلاف المتنبى لأبيه معلومات تصعد إلى أبعد من أبيه الحسين ، وكان هذا يقول : إن أصله من جنوبى الجزيرة العربية ، مدعيًا الانتساب إلى جعفى وهى بطن من سعد العشيرة من مذحج التى استقرت جماعة منهم عند الفتح الإسلامى فى العراق » [(٢)].

وقد شايع الدكتور بلاشير كثير من أدبائنا المعاصرين ومنهم الدكتور طه حسين الذى ألمح فى كتابه مع المتنبى إلى أنه لقيط يقول : « هو لا ينسب نفسه إلى رجل ، لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال ، وإنما ينتسب إلى الآباء والجدود من غلبه المفاخرون وقهره المنافرون ، وقطعوا عليه السبل ، وسدوا عليه أبواب الحيلة ، فاتخذ الآباء والجدود تعلة ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه ، ويستعير من أعمالهم ما لايجد فى أعماله .

هو إذن لا ينتسب إلى الرجال ، لأنه لا يريد أو لايستطيع أن يجد فى الانتساب إلى الرجال غناء » [(٣)]. وهكذا استطاع الاستشراق ضرب واحد من أبرز الشخصيات الممتازة التى يعتز بها الأدب العربى والفكر الإسلامي ، حدث هذا بينما مجد الاستشراق شخصيات أخرى مهزوزة ومضللة ، وليست موضع تقدير البحث الأصيل : أمثال بشار وأبى نواس والحلاج والسهروردى وابن عربى » [(٤)].

---

(١) أنور الجندى / آفاق جديدة فى الأدب/ مصر ط الأنجلو المصرية ١٩٧٨ / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) د. ر . بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى/ دمشق ١٩٧٥م ، ٤١ ، ٤٢ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / مصر ط دار المعارف الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٦/ ١٥ .

(٤) أنور الجندى / آفاق جديدة فى الأدب / ١٦٢ ، ١٦٣ . وخصائص الأدب العربى / ١١٤ ، ١١٥.

ويتضح شك الدكتور طه حسين فى نسب المتنبى من جهة أبيه فى قوله: «أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئًا يسيرًا جدًا ، كانوا يزعمون أن أبا المتنبى كان سقاء فى الكوفة . تحدث المؤرخون بذلك ، وهم بين متحدث به يريد أن يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فملأ الدنيا وشغل الناس، أو بين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان يبيع الماء على الناس ، وكان هو يبيع ماء وجهه على الممدوحين » [1] وهو بعد هذا يمضى فى حديثه عن المتنبى ، فلا يرى المؤرخين يذكرون من أمر والده شيئًا ، كما أن ديوانه لا يذكر شيئا عنه يقول : «وجائز أن يكون المتنبى عربيًا وجائز أن يكون من عرب الجنوب جعفى الأب ، همدانى الأم. ولكن الشيء الذى ليس فيه شك هو أن ديوانه لا يثبت هذا ولا يؤكده بل لا يسجله ولا يذكره. ومن يدرى ، لعل ديوانه ينفيه ، ولعله ينفيه نفيًا هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح .

أكان المتنبى يعرف أباه ؟؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبى شيئًا . فأنت تقرأ ديوانه من أوله إلى آخره وتقرأه مستأنيًا متمهلاً ، فلا تجد فيه ذكرا لهذا الرجل الطيب الذى أنجب للقرن الرابع شاعره العظيم . ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده! وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أنهم كانوا يعرفون أبا المتنبى ويسمونه حسينًا فإنهم لم يتفقوا على جده، ولم يجمعوا على الاسم الذى يلصقونه به ، فهو الحسين حينًا ، وهو عبد الصمد حينًا آخر » [2] .

وفى قول طه حسين هذا ما يتناقض مع الأسباب الحقيقية ، وهى أن اختلاف المؤرخين فى أبى رجل من الناس أو جده لا يكون دليلاً على ضعة فى النسب أو ضعف فى الأرومة!! إن مثل هذا الكلام من باب الظن والشك ، وفى

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ١٣ . وانظر فى ذلك . محمد كمال حلمى بك / أبو الطيب المتنبى / القاهرة / ط الشباب ١٣٣٩ هـ ، ١٩٢١ / ١٢١ ، ١٢٢ . وعبد الرحمن صدقى / جنون العظمة فى المتنبى مرض نفسى / مجلة الهلال عدد خاص بالمتنبى / المجلد الثالث والأربعون نوفمبر ١٩٣٤ م أغسطس ١٩٣٥ / ١١٧٧ ، ١١٧٨ . ومصطفى الشكعة / من فنون الأدب العربى / ١٠١ . وإبراهيم على أبو الخشب / تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى / مصر ط دار الفكر العربى / ٢٩٦ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ١٢ ، ١٣ .

كتب التاريخ والتراجم ، نجد كثيرا من الخلاف بين المؤرخين فى أسماء الآباء والأجداد ، ومثل هذا لا يكون طعنًا فى النسب واختلاف النسابين والمؤرخين فى أسماء عمود النسب شائع لأن علم الأنساب العربية يعتمد على الرواية ، والرواية يقع فيها التحريف والخطأ والسقط والنسيان وما إلى ذلك ، فليس يربط ذلك بعضه ببعض معنى يقيمه أو يذكر به ، أو يحفظه من الإسقاط . ولو شئنا لضربنا له الأمثال بمن لا يختلف فى أمره ، ولا يقال فيه ما يقول الدكتور فى أبى الطيب أنه لا يعرف أباه [1] . ومع ذلك فإننا نجد فى ديوان المتنبى تلميحات إلى نسبه وأسرته على خلاف ما ذكر الدكتور سابقًا [2] .

ويدلى الدكتور طه حسين بحججه وأدلته حول شكه فى نسب المتنبى ويتخذ من النصوص الأدبية ، وثائق تاريخية لا تقبل الشك وهو يظن أن المتنبى لم يخف أمر نسبه إلا لضعة فيه ، وهو يعترف أيضًا أن المتنبى عرف الكثير من أمر جده وأبيه ، ولكن يبدو أنه كان كثير الغرور مسرفا فى الكبرياء لكى يعوض عن نقصه هذا ، واتخذ دليلا على ضعف نسب المتنبى بالإشارة إلى قضية مهمة - كما يراها - وهى أن جريرا لا يعرف عن والده شيئًا ولكن جريرا أضاف إليه من الخصال والخلال والأخلاق ما لم يكن سبب حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول واستطاع بعد ذلك ، أن يظهره للناس كما هو ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ،وأن طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده شعره ، وأعانه على أن يخلق أباه خلقًا جديدًا .

أما المتنبى فلم يستطع شعره أن يغلب غروره ، ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقًا جديدًا . ومن يدرى! لعل مصدر ذلك أن جريرا كان يعرف أباه فصوره كما أراد ، لا كما كان ، وأن المتنبى لم يعرف أباه ، فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان » [3] .

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الثانى ط القاهرة ط مدنى ١٩٧٦ / ٣٧ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان أبى الطيب المتنبى / تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلبى / مصر ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، ط ثانية ١٣٧٦ هـ ، ١٩٥٦م / الجزء الأول ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، وص ٣٥٢ ، والجزء الرابع / ٥٨ ، ١٨٨ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ١٣ ، ١٤ .

لم يكف طه حسين أن يشكك فى نسب المتنبى من ناحية أبيه وجده ، وإنما شكك أيضًا فى أسرته كلها ، وهو إذ ينكر ذلك يفضى بالأسباب التى يرى فيها خيوطًا توضح ضعف هذه الأسرة ، يقول : « ومن حقك أن تسألنى لم أطيل الحديث عن نسب المتنبى وأظهر الشك فى معرفته لأمه ومعرفته لأبيه ما دمت لا أميل إلى الجدال فى عنصره العربى الصريح ؟؟ من حقك أن تلقى علىَّ هذا السؤال . فاعلم يا سيدى أنى لم أثر هذه المناقشة الطويلة لأعرفه أكان المتنبى عربيًا أم أعجميًا ، وإنما أثرتها لأنتهى منها إلى حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبى لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه، التمس لذلك ما شئت من علة فهذا لا يعنينى ، وإنما الذى يعنينى ، ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور المتنبى الصبى بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين قد كان العنصر الذى أثر فى شخصية المتنبى ، وبغض إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه ، وإنما كانت حياة يحيط بها كثير من الغموض ، ويأخذها كثير من الشذوذ» (١).

ويتابع الدكتور طه حسين بلاشير فى رأيه حول الشك فى نسب أم المتنبى وجدته ، يقول عن أمه: « فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أباها ، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية . وكل ما نعرفه أن أمها قد عطفت على المتنبى ، وأحبته وكلفت به وعمرت حتى رأته رجلا . وهذه السيدة التى قتلها حب حفيدها ، فيما يقال وكما سنرى ، لا نعرف لها اسمًا ولا أبًا ، وإنما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولون : إنها همدانية صحيحة النسب ، وأنها كانت من صوالح نساء الكوفة ، وهذا ما يعرفه عنها التاريخ ، وهو كذلك كل ما يعرفه عنها ديوان المتنبى - استغفر الله - فديوان المتنبى لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور وصاغته الكبرياء، ووضعه جموح الشاعر فى غير موضعه من الرثاء وهو قوله :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِى بِنْتَ أَكْرَمَ وَالِدٍ ... لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِى أُمَّا

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٢١ .

فأقل ما فى هذا البيت أن المتنبى يذكر لنا جدته ، فقد كانت بنت أكرم والد ، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدها . ولكن المتنبى لم يذكر لنا شيئًا عن هذا الوالد الذى كان أكرم الناس »[١] . وحين لم يمدح المتنبى والده أو يفخر به أو يرثه فى شعره اتخذ الدكتور طه حسين هذا سببًا فى طعن المتنبى فى نسبه يقول فى ذلك « لم يمدحه المتنبى ، ولم يفخر به ، ولم يرثه ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات ، أكان ذلك لأن المتنبى لم يعرف أباه؟ أم كان ذلك لأن المتنبى عرف أباه ولكنه لم ير له خطرًا ، ولم ير فى ذكره ما يرفع من شأنه ويرد عنه كيد الكائد وحسد الحسود ؟؟ أم كان المتنبى يزدرى أباه ويكبر شعره عن أن يقف عنده مادحًا أو هاجيًا أو نادبًا أو راثيًا ! »[٢] .

وفى هذا الكلام نلاحظ أن النتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرًا من شعراء العرب لم يذكروا فى أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس فى ذلك أى دليل على ضعة أسرهم ، بل اننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وَمَا سَوَّدَتْنِى عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى اللَّهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلاَ أَبِ

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلاً ، ويريد أن يقول : إنه ساد بنى عامر ببأسه وأعماله المجيدة ، بالضبط كما قال المتنبى :

لاَ بِقَومِى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجدودى
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا ... دَ وَعَوْذُ الجَانِى وَغَوْثُ الطَّرِيدِ[٣]

على أن المتنبى يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه اطلاقًا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبى وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبه غير صحيح .

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ١٧ ، ١٨ وانظر فى ذلك بلاشير / أبو الطيب المتنبى ، دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة . د. إبراهيم الكيلاني / ٤١ ، ٤٢ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ١٢ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى ١/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبى كان عربيًا صميمًا وأن العرب - كما يقول الدكتور شوقى ضيف - لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالاً لكان المتنبى هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال . وقد لبس درعًا ، وشد فى وسطه منطقة وسيفًا ، وفى إحدى يديه رمح مصوب ، وفى الأخرى ريشة شاعر، وهو يمتطى حصانًا وكأنه يطلب القتال والنزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصياحهم فى أعدائهم،وأنه ليصيح بكل قوته هادرًا عاصفًا ، يريد أن يوقظ من حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ   وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

وليس فى ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين ، وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عسرا » [١].

أما أن المتنبى لم يمدح والده أو يرثه أو يفخر به فى شعره ، فهذا سبب لا يختص به المتنبى وحده ، وإنما يشاركه فى ذلك كثير من شعراء العصر العباسى، فديوان البحترى يخلو من الحديث عن أبيه ،والحزن عليه حين مات ، وهو يخلو أيضا من ذكر أمه وبكائه عليها حين ماتت ، فهل نرتب على ذلك أنه كان متهمًا فى نسبه العربى ،وأنه لم يكن يستطيع الحديث عن جده وأبيه القريبين لضعف فى أسرته ؟؟ [٢].

ولو رجع الدكتور طه حسين إلى كثير من كتب الشعر وكتب الأدب ، وحاول أن يجمع لنا أسماء الشعراء الذين رثوا آباءهم وحزنوا عليهم ، ليثبت أن

---

(١) شوقى ضيف / (٥) تاريخ الأدب العربى . عصر الدول والإمارات . الجزيرة العربية - العراق - إيران / القاهرة ، ط دار المعارف ١٩٨٠م ، وأبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى ٢/ ٣٢٢ ، ٢٣٣ .

(٢) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ط دار المعارف بمصر ١٩٧١ / ٧٣، ٧٤.

هؤلاء كانوا من أشراف ذوى الأنساب ، وأن سائر الذين لم يفعلوا هم من السوقة اللقطاء الذين لا يعرفون آباءهم ولا يثبتون أنسابهم لكان ذلك صعب المنال ، لأننا لا نستطيع أن نجعل من الشعراء الذين فخروا بأسرهم من ذوى الأنساب الشريفة ، وغيرهم مطعونين فى أنسابهم لأنهم لم يذكروا آبائهم وأجدادهم فى أشعارهم [١] .

والأهم من ذلك أن المتنبى لم يرث والديه لأنه فقدهما معا فى صغره ، فكيف نبحث عن رثاء له فيهما ، وقد رأيناه حين كبر وعرف الحياة كتب قصيدته الميمية فى رثاء جدته ، لكونه مدينا لها بالكفالة دون أبويه [٢] .

ثم إن المتنبى لم يهمل أمه إهمالا تاما لسر من الأسرار ، بل شأنها شأن غيرها من أمهات الشعراء والرجال الذين لا نعرف عن أمهاتهم شيئًا وهم السواد وقل من ذكروا من أمرهن شيئًا فى كتب التراجم [٣] .

وهل كان طه حسين يريد أن يمدح المتنبى أمه والعرب عامة لا يفعلون ذلك ، أم كان يريد أن يذكر اسم أمه فى شعره والعرب قلما يذكرونها أو يفعلون إلا للضرورة . أم كان يريد المتنبى أن يفخر بأمه والعرب أيضًا لا يفخرون بأمهاتهم . . . إنما يفخرون بآبائهم وأجدادهم ، أم كان يريد منه أن يرثى أمه ويظهر الحزن على موتها ؟؟ والعرب أيضًا لا يفخرون بأمهاتهم . . . إنما يفخرون بآبائهم وأجدادهم ، أم كان يريد منه أن يرثى أمه ويظهر الحزن على موتها ؟؟ والعرب أيضًا قلما يرثون أمهاتهم أو يظهرون الجزع على موت النساء عامة [٤] .

وتفسير طه حسين لهذا البيت من قصيدة المتنبى السابقة فيه خطآن ، الخطأ الأول لأنه استنتج أن المتنبى قد شكك فى نسب جدته ، والحقيقة أنه قد فخر وفاخر بها ، فهى فى البيت «بنت أكرم والد » . . . وفى هذا من الاعتزاز والفخر

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الثانى / ١٩ ، ٢٠ .

(٢) منجي الكعبى / مظاهر العظمة والطموح فى شعر المتنبى / لبنان مجلة الآداب – السنة الخامسة والعشرون / العدد الحادى عشر ، نوفمبر ١٩٧٧ / ٢٠ .

(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الثانى / ٦٥ .

(٤) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الثانى / ٦١ .

ما فيه . . . والخطأ الثانى لأن هذا البيت لا يعنى أنها ليست محتاجة إلى الفخر بنسبها ، لأن المتنبى حفيدها - كما هو الأمر فى تفسير وتصور طه حسين - بقدر ما يعنى أنها ليست محتاجة إلى أمجاد المتنبى ، وذلك لأنها بنت أكرم والد ، وأنها لو لم تكن كذلك لكبر أبوها فى الأعين كونها له أمًا . ولكنها بنت أكرم والد بصرف النظر عن كل ما قد ينالها وينال أباها من مجد كونها والدة لهذا الشاعر الكبير وأنها أم والدة ولدته لا جدة بدلالة قوله :

لَئِنْ لَذَّ يَوْمَ الشَّامِتِيْنَ بِمَوْتِهَا ... لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى لآنافِهِمْ رَغْمَا

وهذا استنتاج نعتمده حقيقة بدلالة النص واضح صريح فصيح فيه «كونك لى أمًا» ، وفيه « لقد ولدت منى لآنافهم رغمًا » وأنها أم والدة ولدته أمها ابنة أكرم والد لو لم يكن ابنها عظيمًا [1] .

ويورد طه حسين أبياتًا من شعر المتنبى ويرى أنه لا ينتسب فيها إلى شىء من الآباء والأجداد :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْـ ... ـبَاحِثِ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ ... مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَذُوا حِيلَهْ

فَخْرًا لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ ... وَسَمْهَرِىٌّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ

وَلْيَفْخَرِ الْفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ بِهِ ... مُرْتَدِيًا خَيْرُهُ وَمُنْتَعِلَهْ

أَنَا الَّذِى بَيَّنَ الإِلَهُ بِهِ الأَقْـ ... ـدَارَ وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ

جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشِّرَافُ بِهَا ... وَغُصَّةٌ لاَ تُسِيغُهَا السَّفِلَهْ

إِنَّ الْكِذَابَ الَّذِى أُكَادُ بِهِ ... أَهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الَّذِى نَقَلَهْ

فَلاَ مُبَالٍ وَلاَ مُدَاجٍ وَلاَ ... وَانٍ وَلاَ عَاجِزٍ وَلاَ تُكَلَهْ

---

(١) مدنى صالح / مع المتنبى وطه حسين / آفاق عربية / السنة الثالثة / العدد ١١٢ آب ١٩٧٨ / ٧٩ . وأبو الحسن على بن أحمد الواحدى / شرح ديوان المتنبى ط برلين ١٨٩١ / الجزء الأول ٣٩٣ .

وَدَارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لِقَى ... فِى المُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَهْ
وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بِقَافِيَةٍ ... يَحَارُ فِيهَا المُنَقِّحُ القُولَهْ
وَرُبَّمَا أُشْهِدُ الطَّعَامَ مَعِى ... مَنْ لاَ يُسَاوِى الخُبْزَ الذَّى أكَلَهْ
وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِىَ وَأَعْرِفُهُ ... وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ (١)

فالمتنبى كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس ،وإنما ينسب نفسه إلى متجزئ له بعض يمتاز من كله ،وبعضه هذا يفوق آباء الباحثين عن نسبه المتقصين لأمره .

وهو لا ينسب نفسه إلى رجل ، لأنه لا يحفل أولا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال ، وإنما ينتسب إلى الآباء والجدود من غلبه المفاخرون وقهره المنافرون ، وقطعوا عليه السبل وسدوا عليه أبواب الحيلة ، فاتخذ الآباء والجدود تعلة ، ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عنده نفسه ، ويستعير من أعمالهم ما لا يجد فى أعماله » (٢) .

ويمضى على هذا المنوال فى مناقشة شعر المتنبى «ما عسى أن يكون هذا الكذاب ؟ أتراه ليس نسب المتنبى من قريب أو بعيد ؟؟ ليس فى ذلك عندى من شك ، فقد اتهم الرجل فى نسبه ، وسئل » عن أبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد ، أن يجب سائليه وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس ، وأن يزدرى الكائدين له والمرجفين به والمؤلبين عليه . ومع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير ، لأن هذا الإسراف فى الفخر والغلو فى التيه والإغراق فى ازدراء العائبين دليل فى حقيقة الأمر على العجز والنكول » (٣) .

وقد حدد الأستاذ محمود شاكر المراد من قول المتنبى :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البـ ... ـاحث والنجل بعض من نجله

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوان تحقيق د. عبد الوهاب عزام / بيروت ط دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م / ٢٠٧ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ١٥ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ١٦ .

فقال : « وأنا أتولى تفهيم الدكتور معنى هذا الشعر ، فالمتنبى يقول : أنا ابن من ولده يفوق أبا الباحث ، ويعنى بذلك نفسه « هذا كل ما أراد المتنبى أن يقوله . أن الحقيقة المقررة هى الولد بعض الوالد ، أى جزء منه فإذا كان الولد وهو جزء ، يفوق أباك « وهو كل » فما ظنك « بالكل» الذى يكون جزؤه «خيرا من الكل أبيك» ولذلك قال المتنبى : « بعضه » ولم يقل : « نجله » [1] .

ويستمر الأستاذ شاكر فى رده على قول الدكتور طه حسين هذا ، ويحاول أن يضع حدا لمحاولة التشكيك فى نسب المتنبى وأنه لم يفخر بنفسه أو بجدوده فى شعره ، فلو سمع المتنبى هذا التعريض من سامع فأولى به أن يسكت عنه فى شعره ، وإن شاء تكلم فيه فى مجلس مقنع يراوغ فيه بالحجة ويدافع بالحيلة حتى يقطع عن نفسه شر هذا اللسان ولا يتحامق فيتحداه هذا التحدى المؤذى الداعى إلى الشر والمماحكة وطلب الوقيعة بقوله فى ذكر ذلك المفترى عليه :

وربما أشهد الطعام معى من لا يساوي الخبز الذى أكله
ويظهر الجهل بى ، وأعرفه والدر در برغم من جهله

« ونرجو الدكتور أن يتفهم على سبيل الجد ، لا سبيل العبث كما يقول عن نفسه » قول أبى الطيب « ويظهر الجهل بى وأعرفه » فإن هذا لا يقوله من يخشى أن يتطلع الناس إلى نسبه فينكروا منه سوأة أنكرها هو من قبل » [2] .

ثم إن هذا الرجل الذى تتهمه بالضعة من ناحية أبيه وأمه ونسبهما أو صلتهما، تراه يدأب دائمًا على عدم الفخر بالجدود والآباء « ولو صح أنه مما يجوز أن يفخر به حين يكاد بالكذاب » ويتهم فى نسبه ، فكيف يجوز أن يذكره فى غير مناسبة تقتضيه ، أو تحمل عليه ؟؟ أيأتى الرجل وفيه العيب والعار ليدل الناس على عاره وعيبه » [3] وهو يقول وهو بمصر فى قصيدة الحمى ولغير مناسبة :

وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدٍّ هُمَامِ [4]

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الثانى / ٢٤ .
(٢) المرجع السابق / ٥٣ ، ٥٤ .
(٣) المرجع السابق / ٥٤ .
(٤) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٦٧ .

إلى غيـر ذلك من شعره الذى يدل دلالة صـريحة ، على أنه لم يكن يشـعر بالضعة فى نسبـه وإنما كان يكتم أمرًا عظيمًا يخـاف منه على نفسه ، وإن الرجل إذا كان يشعر بالضعة فى نسبه لا يأتى فينبه الناس إلى شعره لغير سبب ولا علة إلى ذكر هذا النسب ، ولو عمل ذلك لكان أجهل الجهلاء وأشأمهم على نفسه [١].

أمـا دعوى أن والده كـان سـقاء بالكوفـة فى زمـانه فـهى دعوى كـانت من مـصنوعات حكام العـراق وتجـاره الذى كان الوزيـر المهلبى يقـوده إذ ذاك ، لأن المتنبى ترفع عن مدحه ولم يدع بهذا الاسم قبل سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة[٢].

ومن هنا بدأ شعراء العراق يتبارون فى هجاء المتنبى ويطعنون فى نسبه ومن هؤلاء الشعراء ابن سكرة وابن الحجاج والحـاتمى ، ومن شعرهم الذى هجوا فيه المتنبى قول أحدهم :

أَىُّ فَـضلٍ لِشَـاعـرٍ يَطْلُـبُ الفَـضْـــ ـــلَ مِنَ النَّاسِ بُـكْرَةً وَعَـــشِـــيَّـــا
عَـاشَ حِـينًا يَبِـيـعَ فِى الْكُوفَـةِ المَـا ءَ وَحِـينًا يَبِـيعُ مَـاءَ المُـحَيَّـا [٣]

ونفهم من حيـاة أبى الطيب المتنبى أنه كان ذا همة عاليـة ، ومجد أثيل ، وقد كان يستعلى على مجلس سيف الدولة حيث يقول :

سَـيَعلَمُ الـجَمْعُ مِـمَّنْ ضَمَّ مَـجْلِسنَا بِأَنَّنِـى خَـيْـرُ مَـنْ تَسْـعَى بِـهِ قَـدَمُ
أَنَا الَّـذِى نَظرَ الأَعْـــمَى إِلَـى أَدَبِى وَأَسْـمَـعَتْ كَلِمَـاتِى مَنْ بِهِ صَـمَمُ [٤]

فهو هنا يفضل نفسه على من ضم مـجلس سيف الدولة الحمدانى ، وفيهم سيف الدولة نفـسه ، ولم يزد أبو فراس وهـو عدوه القوى فى منزلتـه الأدبية أن قـال: «ومن أنت يا دعى كندة» وفى قوله دعى كـندة نظر فمـا نظن الرجل ادعى لكندة ، وأصحابنا يزعمون أنه كان يخفى نسبه! وكان أولى بأبى فراس وأوقع فى

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الثانى / ٥٤ .

(٢) محمود مـحمد شاكر / المتـنبى / السفر الأول / ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥، وانظر فى ذلك : إبراهيم العريض / فن المتنبى بعد ألف عام / بيروت ط دار العلم للملايين ط أولى ١٩٦٢م / ٥٩ .

(٣) ابن خلكان / وفيات الأعيان / ١/ ١٠٥ . والبديعى / الصبح المنبى / ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٤) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٤٨٣ .

نفس المتنبى أن يقول له : « من أنت يا ابن سقاء كوفان » ، ولو أنه علم ما علمه التنوخى ومن شايعه من شعراء العراق وشاعر البصرة الحسن بن لنكك الذى كان على صلة ببلاط الوزيرالمهلبى وزير معز الدولة أحمد بن بويه الديلمى عدو بنى حمدان ، أترى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذكرهم ، ولم يعفهم ذمه لهم فى أشعاره ، كانوا لا يتقصون خبره وقد استفحل شأنه بينهم فيعلمون أنه كان ابن سقاء ، فيلمزونه بذلك ، ويستخفون به ويتنادرون عليه ؟ وهذا ابن السقا بالكوفة يتحداهم ، ويتحدى أميرهم سيف الدولة ذاته ، وأبا فراس عدوه فى المجلس إذ يقول :

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ ... وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي ... أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ (١)

إنهم يطلبون له عيبا ، فيعجزهم الطلب ، ويكون بعد ذلك معروفا فى العراق بعد أن كان الرجل ابن سقاء يسقى الناس على بعير له (٢).

وراوى هذه القصة أو الدعوى التى كان فيها والد المتنبى عبدان السقاء هو على بن المحسن التنوخى عن أبيه المحسن التنوخى الذى كان تلميذاً للحاتمى (٣) عدو المتنبى فى بغداد تقول الرواية : « أخبرنا على بن المحسن التنوخى عن أبيه قال : حدثنى أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدى . قال : كان المتنبى ، وهو صبى ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بعبدان السقا يسقى لنا ولأهل المحلة » (٤).

ويذكر التنوخى أن أباه سأل المتنبى عن نسبه حيث يقول : « قال أبى . فاتفق مجىء المتنبى بعد سنين إلى الأهواز منصرفا من فارس ، فذاكرته بأبي الحسن ،

---

(١) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٤٨٥ .

(٢) محمود شاكر / المتنبى / السفر الأول / ٣٣ ، ٣٤ ، ٥ .

(٣) الخطيب البغدادى / الجزء الثانى / ٢١٤ .

(٤) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٢ ، ١٠٣ . وانظر فى ذلك : ابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢١٩ ، ٢٢٠ . وابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب لمحمود محمد شاكر / ٢/ ٢٥٤ .

فقال: تربى وصديقى وجارى بالكوفة ! فأطراه ووصفه. وسأل المتنبى عن نسبه، فما اعترف لى به ، وقال : أنا رجل أخبط القبائل وأطوى البوادى وحدى ، ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أُنتسب إليها، وما دمت غير منتسب إلى أحد ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » [1] .

ولقد فند الأستاذ محمود محمد شاكر أخطاء هذه الرواية فقال : إننا نشك فى رواية المحسن التنوخى لأسباب منها : أن القاضى أبا على المحسن بن على التنوخى ولد سنة سبع وعشرين وثلاث مئة ، وتقلد القضاء فى سنة تسع وأربعين وثلاث مئة ، فكان من أصحاب الوزير أبى محمد المهلبى ، وكان المتنبى حين دخل بغداد فى طريقه إلى عضد الدولة بشيراز ، لقد ترفع عن أن يمدح الوزير المهلبى ، فأغرى به الشعراء وغيرهم ، كأبى على الحاتمى صاحب الرسالة المعروفة بالحاتمية ، فلا عجب أن يكون محسن التنوخى من أعداء أبو الطيب لصلته بالوزير المهلبى ، فقد بلغ به الحال أن كان من ندمائه ، ولا عجب أيضًا أن يسند التنوخى أيضًا « كذبه » إلى بعض شيوخه لئلا يفتضح . ولذلك زعم كما قدمنا لك [2] .

ويقول التنوخى أيضًا : « اجتمعت بعد موت المتنبى . بسنين مع القاضى أبى الحسن ابن أم شيبان الهاشمى الكوفى وجرى ذكر المتنبى : فقال : كنت أعرف أباه بالكوفة شيخًا يسمى عبدان يستقى على بعير له ، وكان جعفيًا صحيح النسب » [3] .

والقاضى ابن أم شيبان يحتاج أمره إلى بعض النظر ، إذا حدث عن المتنبى لأنى أخشى أن تكون صلته قريبًا بحياة المتنبى وما لقيه من العلويين ، وهذا الشيخ التنوخى أنه سأل المتنبى عن نسبه « فما اعترف له به » وإذا كان شابًا فى السابعة والعشرين من عمره، وكان المتنبى قد نيف على الخمسين فما نظن أن

---

(١) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٣ ، وابن العديم بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) محمود محمد شاكر . المتنبى ١/ ١٩ ، ٢٠، ٢١ . وانظر عبد الغنى الملاح / المتنبى يسترد أباه . دراسة فى نسب المتنبي / بغداد . دار التأخى للطباعة والنشر / ٤٠ .

(٣) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٣ .

القاضى التنوخى كان يجرؤ أن يسأل المتنبى عن ذلك ، لبعد ما بينهما ولتعالى المتنبى وترفعه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضًا لما يعلم من صلة القاضى بالوزير المهلبى وتحققه بخدمته « كما قال عن نفسه » فمن يترفع عن الوزير أبى محمد المهلبى ، وهو من هو فى سياسة عصره ودسائسه لا يتبذل مع صاحبنا القاضى التنوخى ، فإذا كان القاضى قد سأل المتنبى حقا كما يقول : فما يكون جواب المتنبى عن ذلك فى هذا الكلام الملفق الضعيف الذى يضع من رأى صاحبه ويستفسد من عقله ، «أنا رجل أطوى البوادى وحدى وأخبط القبائل» فلم يكن أبو الطيب ممن يطوى البوادى وحده إذ ذاك ، بعد أن سار اسمه مسير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبى لم يخف أن يخرج غير محروس يوم قتل وقد أوعدوه وأرصدوا له وتحقق هو ذلك لا يقول : « ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها » وليس هناك أدل من قوله « وما دمت غير منتسب إلى أحد ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » أهذا يقوله من أوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة فى عصر كانت تذهب فيه النفوس مع كلمات الوشاية ، ودسائس العصر ومكر أهله؟! . وترى القاضى يبالغ فى روايته عن المتنبى حين سأله عن أبى الحسن محمد بن يحيى العلوى ، وهذه المبالغة تدل على أنه كان يريد أن يولد كلامًا ، فأطال فيما روى ليوهم السامع بطول روايته وأن المتنبى حركته الذكرى فقال : عن أبى الحسن العلوى : «تربى وصديقى وجارى بالكوفة . . . وأطراه ووصفه» (١) ويظهر أن المتنبى عندما ذهب إلى أنطاكية واللاذقية ، وكان التنوخيون ينزلونها من قديم ، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجال من تنوخ هناك نباتة من المودة ، ثم نمت وربت واهتزت فمدحهم ورثاهم ، ورمى دونهم ، ودفع عنهم ، وأقام طويلاً بينهم معززًا ،وقد كان من أصحاب أبى الطيب من التنوخيين ، وأبناء أعمامهم عداوة ، فلما مات محمد بن إسحاق التنوخى رثاه المتنبى ، وجرى فى أنطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شمتوا بموته ، فلجأ هؤلاء الشامتون إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى الشماتة عنهم ، فما كان إلا أن قال فى ذلك (٢) :

---

(١) محمود شاكر / المتنبى / ١/ ٢٠ ، ٢١ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول / ٢٠ ، ٢١ .

أَبْنَاءُ عَمٍّ كُلُّ ذَنْبٍ لامْرِئٍ   إلاَّ السُّعَايَةَ بَيْنَهُمْ مَغْفُورُ
طَارَ الوُشَاةُ عَلَى صَفَاءِ وِدَادِهِمْ   وكَذَا الذُّبابُ عَلَى الطَّعَامِ يَطِيرُ [١]

ثم عادوا فسألوه أن يزيد فكان مما كان قاله على لسانهم :

رَثَى ابْنَ أَبِينَا غَيْرُ ذِي رَحِمٍ لَهُ   فَبَاعَدنَا مِنْهُ وَنَحْنُ الأَقَارِبُ
وَعَرَّضَ أَنَّا شَامِتُونَ بِمَوتِهِ   وَإلاَّ فَزَارَتْ عَارِضَيْهِ القَوَاضِبُ
أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنَّ بَيْنَ بَنِي أَبٍ   لِنَجْلِ يَهُودِيٍّ تَدِبُّ العَقَارِبُ [٢]

فهذه العداوة التى كانت بين التنوخيين تدفعنا إلى عدم الثقة بأقوال أبى على التنوخى فلا نطمئن إليها لأنه لا يخلو من هوى ، وليس غريبا أن يكون التنوخى ممن يحمل لأبى الطيب فى صدره بعض الشحناء ، لصلته بأبناء عمومته فقد تحمله هذه الشحناء على وصف الرجل بكل نقيصة . وخير لك أن تعلم أن والد المحسن هذا كان ممن ولد بأنطاكية وشب بها ثم رحل عنها ، فلعل رحيله عن أنطاكية لحدث وقع بين أسرته وبين أقاربهم ، وبقيت فى صدره وصدر أبنائه حزازات موروثة وأحقاد لبنى عمه ، ولا عجب فقد كانت هذه الفترة من العصر العباسى مرجلا يغلى بالأحقاد بين الأعمام وبين الأخوة ، حتى قتل الرجل منهم أباه وعمه وأخاه ، وهتك عرضه ، واستباح حرماته، وخاصة من رقى درجات الإمارة ، أو أدرك سببا من السلطان ، كأصحابنا التنوخيين وهم نسل ملوك تنوخ الأقدمين [٣] .

ثم إن كل شيء فى مسيرة هذا الشاعر يؤكد بطلان هذه الدعوى فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتاب أبناء الأشراف ، ويبعد أن ينتظم فى مسلك هؤلاء الأبناء،وأبوه سقاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به [٤] .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى ٢/ ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى ١/ ١٠٨ .
(٣) محمود محمد شاكر / المقتطف عدد خاص عن المتنبى / الجزء الأول من المجلد الثامن والثمانين سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٦م / من ص ١٣ إلى ١٧ .
(٤) شوقى ضيف / (٥) تاريخ الأدب العربى . عصر الدول والإمارات / ٣٤١ ، ٣٤٢ .

وفيمـا قدمناه من دلائل وحجج ما ينفى هذه الدعوى من حـياة المتنبى فى العصر القديم والحديث . ولو سلمنا بكل ما قاله الرواة عن هذه الدعوة المختلقة فإنها لا تنفى نسب المتنبى « وكل ما رموه به أن أباه كان سقاء يبيع الماء للناس ، وليس فى ذلك ما ينفى نسـبه اليمنى العربى ، وإنما كل ما فيه - إن كان صحيحا - أنه نشأ فى أسرة متواضعة وفرق بين التواضع ورقة الحال وبين الضعة »[(١)].

ولو لم يكن المتنبـى نبيل الأصل ما خرج فـى شبابه إلى القبـائل يجمعـها حوله وإلى العشائر يدعوها إلى التضافر حوله لغرض كبير ، ولو كان ابن سوقة ما كان مـدحه لكثيـر من عظماء الرجـال وليس فى شعره بيـت واحد ينم عن أصل خسيس ، ولو كان وضيع الأصل لنم عليـه ولو بيت واحد من شعره ، وما خلق له هذه المهنة السابقة غير حساده وأعدائه[(٢)] .

أما ما يدعيه الدكتور طه حسين من أن المـتنبى لم يفصح عن شخصيته ونسبه فى شعره كمـا أن ديوانه لم يصور المتنبى كشاعر عظيم فـى القرن الرابع الهجرى ، فهذا ما نراه باطلاً فقد ظهرت الدراسات المـعاصرة وحاولت أن تدرس حياة المتنبى كـاملة كمـا هى فى ديوانه واسـتطاعت أن تدرس بيـئة الشـاعـر وحيـاته وديوانه ، واتخذت من النصوص الشعرية خيـوطًا تثبت نسب المتنبى اليمنى العربى ، واتضح من خلال هذه النصوص أن المتنبى ذو عصبية يمنية من جهة أمه وأبيـه[(٣)].

لذا ترى ممدوحيه فى أيامه الأولى من قبائل يمانية . مدح شجاع بن محمد الأزدى ، وعلى ابن أحـمد الطائى ، وعـبيد الـله بين يحيى البـحتـرى ، وأخاه

---

(١) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) إبراهيم ناجى / المعـرى والمتنبى / مجلة الهـلال / الجزء الثامن - السنة السادسـة والأربعون ربيع الآخر سنة ١٣٥٧ هـ - يونيه سنة ١٩٣٨م / ٩٤٠ .

(٣) لوى ماسينيون / المتنبى أمام العصر الإسـماعيلى للإسلام / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خـاص / أبو الطيب المتنبى / ترجمة د. أكـرم فاضل بغداد ١٩٧٧م - ١٣٩٧/ ٦١ ، ٦٢ . واندريه مايكل / الـمتنبي شاعـر عربى / الأقلام - ملـف خاص - مهـرجان أبى الطيب المتنبى - السنة الثالثـة عشرة - العدد الرابع - كانون الثـانى بغداد / ١٩٧٨/ ٦١ .وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى ١/ ٢١ . وزكى المحاسنى / المتنبى / ٢٣ .

عبادة[1] ، ومدح التنوخيين فى اللاذقية ، ومنهم على بن إبراهيم التنوخى الذى قال فيه :

أَمُنْسِيَّ الكِنَاسَ وَحَضْرَمَوْتَا   وَوَالدتِى وكِنْدَةَ والسَّبِيعَا [2]

وقال على لسان بعض التنوخيين يفضل اليمن على خندف :

قُضَاعَةُ تَعْلَمُ أَنِّى الفَتى الَّـ   ـذِى ادخَرَتْ لِصُرُوفِ الزَّمَانِ
وَمَجْدِى يُدِلُّ بَنِى خِنْدِفٍ   عَلَى أَنَّ كُلَّ كَرِيمٍ يَمَانِى [3]

ويقول فى مدح عبيد الله بن يحيى البحترى :

كَفَى بِأَنَّكَ مِنْ قَحْطَانَ فِى شَرَفٍ   وَإِنْ فَخَرْتَ فَكُلٌّ مِنْ مَوَالِيكَا [4]

وفى مدح أبى عبادة بن يحيى البحترى :

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ المَجْدَ من مُضَرَ   حَتَّى تَبَحْتَرَ فَهوَ اليَوْمَ من أُدد [5]

وقال للحسين بن إسحاق التنوخى ، وقد هجاه بعض الناس ونسب إلى المتنبى :

أَبَتْ لَكَ ذَمِّى نَخْوَةٌ يمَنِيَّةٌ   وَنَفسٌ بِهَا فى مَأزِقٍ أَبَدًا تَرْمِى [6]

وبعد هذا الشعر الذى لاحظنا فيه ما يدل دلالة صريحة على أن المتنبى من أصل عربى من ناحية أبيه وأمه ، نلحظ فى شعره حسًا قوميًا يتعصب فيه للعرب ضد الأعاجم الذين كانوا متسلطين على العرب فى العصر العباسى الثانى [7] .

(١) الشيخ أحمد الإسكندرى / تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى / مصر ط السعادة ١٣٣٠هـ ، ١٩١٢م / ٢٧٥. وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٣٢ . ومحمد عوض محمد / المتنبى والعروبة / مجلة المجلة العدد السابع ذو الحجة سنة ١٣٧٦هـ - يولية ١٩٥٧/ ٢٨ ، ونعمان القاضى كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية . القاهرة . ط مركز الشرق الأوسط ١٩٧٥م / ٧٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٢٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٨٨ .

(٤) الواحدى / شرح ديوان المتنبى ١/ ١٠٠ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٥٢ .

(٦) المصدر السابق ٤/ ٥٨ .

(٧) ارجع لأبى البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى ١/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ والجزء الرابع ٥٨ ، ٥٩ .

ثم إن هذا الرأى له ما يؤكده فى بعض الروايات القديمة تقول إحدى هذه الروايات : « قال أبو الحسن : كان عبدان والد المتنبى يذكر أنه من جعفى وكانت جدة المتنبى همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها . وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات » (١).

ولم تقف محاولة الدكتور طه حسين عند الطعن فى نسب المتنبى فحسب، وإنما تراه يدرس عصره وبيئته الاجتماعية ويتخذ من ذلك وسيلة لجعل حياة المتنبى العامة حياة شاذة فقد جعل من الغموض فى نسبه وطفولته عقدة اجتماعية أثرت فى حياته كل الأثر . وكانت سببا فى عقدته من الناس ، لأنه كان يشعر بهذه الضعة يقول : «وليس من شك عندى - ولك أن تشك فى أن المتنبى لما تقدمت به السن قليلاً عرف من أمر نفسه ومن أمر أسرته ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه فى الكوفة فآثر الرحيل . فهذا هو الأمر الاجتماعى الذى يتصل بشخص المتنبى وأسرته ، ومكانه ومكان هذه الأسرة فى طبقته الاجتماعية . ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعنى بأن طفولة المتنبى لم تكن طفولة عادية مألوفة وبأن صبا المتنبى لم يكن صبا عاديا مألوفا ، وبأن الكذاب الذى يكاد به عند أبى العشائر ويراه أهون عنده من ناقله ، لم يكن كذابا كله وإنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظًا وحفيظة ويذوده عن الكوفة ، بل يبغض إليه الحياة فى العراق ويحمله على أن ينفق عمره غريبًا مجولاً فى الآفاق» (٢).

ويربط الدكتور طه حسين بن مولد المتنبى وفساد عصره ، ويرى أنه كان أثرًا من آثاره (٣).

وطه حسين فى دراسته عن المتنبى متأثر بالنقد التاريخى الفرنسى ، ويبدو ذلك فى تطبيقه قوانين تين فى النقد وهى ثلاثة ، الجنس ، والبيئة ، والزمان ،

---

(١) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٣ ، وابن العديم / بغية الطلب ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥٤ . وابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٢٠ . والمقريزى / المقفى ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر ٢/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٥ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣١ ، ٣٢ .

ومن هنا اتضحت فى دراسته ظروف الأديب الجغرافية والطبيعية وأحداث عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية (١).

وهو يتأثر أيضًا بطريقة سانت بيف ، « كلاهما يعطى أهمية كبرى لترجمة الفرد ليس كفرد ، وإنما ينظر إليه كظاهرة اجتماعية ، ثمرة من ثمار البيئة والتفكير عندهما ظاهرة اجتماعية لا فردية ، يتتبعان الفرد فى كل مراحل حياته ، ومن خلال تصرفاته وأقواله يصدران الحكم عليه بعد دراسة يعمل فيها العقل والاستنباط ، كل العمل ، فالفرد لا يفكر ولا يقدر ولا يتروى إلا من حيث هو عضو من أعضاء الجماعة التى يعيش فيها ، والتى يستحضرها فى نفسه استحضارًا ملحوظًا ، أو غير ملحوظ ، حين يفكر أو يقدر أو يروى ، فالنتاج الفنى فى مختلف أشكاله ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تكون إلا فى الجماعة التى تسمع وترى الأثر الأدبى فتتأثر به . معنى هذا أن الحياة هى التى تلد الفن بعضًا منها ومن واقعها فالفنان ثمرة من ثمار مجتمعه وبيئته ثمرة لما يحيط به من ثقافة وسياسة ودين ولغة ونشأة » (٢).

وهو عندما يدرس المتنبى يتابع الدكتور بلاشير فى منهجه التاريخى لدراسة المتنبى إذ أن الأثر الأدبى يصور حياة الأديب بأحداثها وآمالها وطموحها وصراعاتها ، بل أن دراسته تتخذ وسيلة لفهم نفسية الشاعر (٣).

ويلاحظ أن بلاشير أكثر إمعانًا فى التاريخيات ، وطه حسين أدق فى النقديات (٤)، ومع ذلك لا ننكر « أن العمل الأدبى ما هو إلا تفاعل بين نفسية الكاتب وبيئته » (٥).

---

(١) عبد العزيز الدسوقى / تطور النقد العربى الحديث فى مصر / ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، انظر فى ذلك / وليم فان أوكونور / النقد الأدبى - الأدب الأمريكى فى نصف قرن / ترجمة صلاح أحمد إبراهيم / بيروت ١٩٦٠ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) الأب كمال قلته / طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه / القاهرة ط دار المعارف ١٩٧٣م / ١٥٩، ١٦٠ .

(٣) رشيدة مهران / طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية / مصر ط الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية ١٩٧٩/ ٣٢٣ .

(٤) على شلق / المتنبى شاعرًا ألفاظه تتوهج فرسانًا ، تأسر الزمان / العراق مهرجان المتنبى تشرين الثانى ١٩٧٧/ ٢٠ . وانظر حليم كنعان / أنتيجة كان الشعر عند المتنبى أم غاية ؟ / بيروت / المكشوف السنة السادسة - العدد ٢٧٥ تشرين ثاني ١٩٤٠ / ٦ .

(٥) كوثر عبد السلام البحيرى / الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبى مع دراسة مقارنة بين النقد العربى والغربى / القاهرة ط الأنجلو المصرية ط أولى ١٩٧٩م / ١٠٦ .

ويجب أن نفهم أن طه حسين تأثر فى شكه فى نسب المتنبى - إلى حد كبير - بالشك الديكارتى ، وفى النقد يمكن لناقد الأدب أن يلائم بين هذا الشك وما يذهب إليه كل من سانت بيف وتين ، أو يقدم الشك فى تفسير الأعمال الأدبية فى ضوء البيئة والزمن والعبقرية أو الموهبة ، ولعلنا من هنا نفهم لماذا يكثر فى نقوده من عبارات الترجيح والاحتمال والظن ، وأكبر الظن ، وأكاد لا أشك ، وأكاد أقطع [١] .

وفى بعض الأحيان نراه يعتمد فى نقده على تذوقه ومنطقه الخاص به «فنقده انطباعى تظهر الذاتية فيه واضحة» [٢] .

ويعترف طه حسين بأن « ديوان المتنبى إن صور شيئًا فإنما يصور لحظات من حياة المتنبى ، لا أكثر ولا أقل ، كما أن هذا الكتاب الذى بين يديك! إن صور شيئًا فإنما يصور لحظات من حياتى أنا ، لا أكثر ولا أقل » [٣] .

وفى هذا القول يتضح أن المتنبى إذا صور لنا هذه اللحظات من حياته فقد صور لنا كل ما نبغيه وكل ما نرجوه من أى شاعر [٤] .

ونحن إذ نذكر تأثر طه حسين بالمنهج التاريخى فى دراسة الأدب لا نريد أن نغض من قيمته فى الدراسات الأدبية ، لأن الدارس للمؤلف الذى أمامه لابد أن يحيط بكافة ما ألفه ليكون حكمه صحيحًا شاملاً ، وهذا المنهج من الواجب على كل ناقد أن يرعاه مهما كانت نزعته فى النقد ذاتية أو موضوعية ، لأنه من الأسس العامة لكل نقد صحيح ، وليس هناك ما هو أمعن فى الخطأ من أن نكتفي فى الحكم على الكاتب بقراءة أحد مؤلفاته فقط [٥] .

---

(١) أحمد كمال زكى / النقد الأدبى - أصوله واتجاهاته / مصر نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٢/ ٨٩ .

(٢) الأب كمال قلته / طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه / ١٤٨ . وانظر فى ذلك : إبراهيم عبد الرحمن وآخرين / طه وقضية الشعر / ط الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م / ١٠٠ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٧٩ .

(٤) عباس محمود العقاد / مع المتنبى للدكتور طه حسين / الهلال - الجزء الخامس السنة الخامسة والأربعون أول مارس ١٩٣٧م وذو الحجة ١٣٥٥ هـ / ٥٣٨ .

(٥) محمد مندور / فى الأدب والنقد / القاهرة ط نهضة مصر / ٢١ .

والذى أهم من كل شيء أن الدكتور يدرس شاعراً عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وليس من الواقع أن يدرسه دراسة حديثة تاريخية تعتمد فى شأنها على دراسات ولمحات القرن كالقرن التاسع عشر ، كما أن الزمان والمكان والبيئة تختلف تمامًا عن كل ما أراده ، ومن هنا نرى أن نقده أوغل فى التاريخ الأدبى ، وليس فى شيء من النقد أن تدرس حياة الأديب من خلال شعره أو ندرس النصوص ونستنبط كل ما فى حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من أمور لا تفيد النقد فى شيء ، وإنما تكون دراسة فى علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة لا أكثر ولا أقل .

وإذا كان لابد من دراسة للشاعر فعلينا أن ندرس نتاجه دراسة فنية موضوعية؛ لأن «النقد الأمين والتقدير الحساس يجب أن يوجه للشعرُ لا للشاعر»[(١)] .

ولقد غلا بعض الباحثين الذين عنوا بدراسة نسب المتنبى ؛ فرأوا أنه ينتهى بأصله العربى إلى العلويين واعتمدوا فى ذلك على روايات قديمة ومنها الرواية التالية : « واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعرابًا فنشأ فى خير حاضرة » [(٢)] .

ويتخذ الأستاذ محمود محمد شاكر من هذه الرواية حجة على أن المتنبى ينتهى بنسبه إلى العلويين [(٣)] . ويرجح اتصال المتنبى بالعلويين برواية أخرى تؤيد ما سبق أن قاله وهى : « أخبرنى صديقنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى ، مولى الحموى البغدادى قال: رأيت ديوان أبى الطيب المتنبى بخط أبى الحسن على بن عيسى الربعى . قال : فى أوله : الذى أعرفه من نسب أبى الطيب أنه : أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفى ، وكان يكتم نسبه، وسألته عن سبب طيه ذلك ، فقال : إنى أنزل دائمًا بعشائر وقبائل من العرب . ولا أحب أن

---

(١) لويز بوجان / الشعر . الأدب الأمريكى فى نصف قرن / ترجمة سلمى الخضراء الجيوسى / بيروت ط دار الثقافة ١٩٦١ / ١٢٣ . وانظر فى ذلك أيضًا : وليم فان أوكونور / النقد الأدبى – الأدب الأمريكى فى نصف قرن / ترجمة صلاح أحمد إبراهيم / ١٩٦٠/ ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
(٢) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٦ . وانظر عبد القادر بن عمر البغدادى / خزانة الأدب / ط السلفية ١٣٤٨هـ / ٣٠٣ .
(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٧١ ، ٧٢ .

يعرفونى خيفة أن يكون لهم فى قومى ترة . وهذا الذى صح عندى من نسبه . قال: واجتزت أنا وأبو الحسن محمد بن عبيد الله السلامى الشاعر على الجسر ببغداد . وعليه جملة السؤال رجل مكفوف فقال لى السلامى : هذا المكفوف أخو المتنبى ، فدنوت منه فسألته عن ذلك فصدقه ، وانتسب هذا النسب . وقال: « ومن هنا انقطع نسبنا » . وكان مولده بالكوفة فى كندة سنة ثلاث وثلاث مئة وأرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله »[(١)] .

ومعروف أن المتنبى درس فى مدارس الأشراف وسنه خمسة عشر عامًا ، ومدح علويًا من آل عبيد الله ، وإذا لم يكن المتنبى علويًا ، فهو علوى وأخو العلويين من الرضاع ، والرضاع لحمة كلحمة النسب ، ولذلك حرم الله به ما يحرم النسب . استمع إليه يقول فى مدح عبيد الله العلوى :

خَيْرُ قُرَيْشٍ أَبًا وَأَمْجَدُهَا ... أَكْثَرُهَا نَائلاً وَأَجْوَدُهَا
تَاجُ لُؤىٍّ بنِ غَالِبٍ وَبِهِ ... سَمَا لَهَا فَرْعُهَا وَمَحْتِدُهَا
قَدْ أجْمَعَتْ هَذِه الخَلِيقَةُ لِى ... أَنَّكَ يَا ابن النَّبِىِّ أوْحَدُهَا
وَأَنَّكَ بِالأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِمًا ... شَيْخَ مَعَدةٍ وَأنْتَ أمْرَدُها[(٢)]

ولنشوء المتنبى بالكوفة فقد تقرب من العلويين ، ولم يكن عجيبا أن تكون القصيدة الأولى فى الديوان ، وقد نص الديوان على أنها مما قال فى صباه يمدح بها رجلاً علويًا وهو محمد بن عبيد الله العلوى ، وقد قيلت هذه القصيدة فى سنة ثمانى عشرة وثلاث مئة ، وبتذوقها ودراستها رأيت أن هذا العلوى من لدات المتنبى ، وأنه كان يجله ويحبه ويحفظ له ما أسدى إليه من معروف أو ضيعة[(٣)] .

---

(١) ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥١، ٢٥٢ . وابن عساكر / تاريخ دمشق / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٠٥ ، إلى ٣١٠ .

(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٦٩ ، ٧٠ . ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٩٥، ٢٩٦ .

وبعد مدة من الزمن علم من جدته أمر علويته ، فقلق وأنف أن يبقى أمرها مكتوما ولكنه لم يستطع إلا أن يفارق الكوفة إلى الشام فى أواخر سنة عشرين وثلاث مئة ، وحاول أن يظهر أمر علويته فجمع جموعًا من المقاتلة تنصره على إظهار نسبته العلوية ، فأخذ وسجنه العلويون فى سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة؛ لأنه حاول أن يظهر نسبته العلوية ، وكان الذين أدخلوه السجن وقيدوه وآذوه وساموه الخسف جماعة من العلويين وبعد خروجه من السجن فى سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة ، خرج من السجن علويا كارها للعلويين مزورًا عنهم وهذا ما قاله ابن العديم خرج « مخالفا للشيعة وأضمر هذه الكراهية وانطوى عليها »[1].

ولعل هذا هو السبب فى كتمان نسبته إلى العلويين خوفًا من الأدعياء ، ولا تصح نسبته هذه إلا مع ما افترضناه – وهو كتمان المتنبى لنسبه العلوى . يقول : « وبعد تردد طويل وحيرة . بين تذوق الأخبار ، ودلالة تذوق الشعر ، لم أجد مناصًا من أن أُفرض فرضًا يزول به هذا الغموض الذى يكتنف حياة هذا الشاعر ، ويرفع اللثام عن مكنون شعره الذى دلنى عليه التذوق . وأخذت هذا الفرض ، وعرضت عليه شعر أبى الطيب كله متذوقًا متأنيًا ، فلان لى عصبه ، واستقام معوجه ، وأسفر كل ما كان عليه نقاب وحجاب ، وتحرك كل ما تذوقته من شعره ، وتحركت معه أخباره . فعندئذ بلغت حد القطع بأن أبا الطيب «علوى» النسب فرضًا يشبه الحقيقة !! والفضل فى ذلك كله لخبر الأصفهانى الذى ذكر فيه «أولاد أشراف الكوفة» . وقد قام «عمود الصورة» كلها كما رأيت ، على هذا الذى ادعيته ، وليس فى يدى شىء غير لفظ الأصفهانى ، ثم دلالات شعر أبى الطيب »[2] .

ويرى الأستاذ شاكر أن المتنبى حين قدم على ابن طفج بالرملة فى سنة ست وثلاثين وثلاث مئة . قال : لفظت الناس لما بلغتك ، لفظ المسافر حثالة زاده ، إذ نزل أرضًا كثيرة الخصوبة :

وفارقت شر الأرض أهلا وتربة ... بها «علوى» جده غير هاشم[3]

(١) محمود شاكر / المتنبى ١/ ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٦ إلى ٨٤ .

(٢) محمود شاكر / المتنبى / ١/ ٧٢.

(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تحقيق وتقديم عبد الوهاب عزام / ١٨٢ .

أى أنه دعى من الأدعياء لا علوى ، فاستوقفنى ذم هذا العلوى ، لأنه ذم صادر من نفس جريحة ، ثم أنى لم أكد أمضى فى قراءة بعض الأبيات حتى رأيت شراح ديوانه يذكرون أن ابن طفج ظل يحاور أبا الطيب ويداوره ويرجوه مرة تلوى الأخرى أن يقول قصيدة يمدح بها صاحبه أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوى. فبعد لأى ما استجاب له أبو الطيب ، وقال فى مدح هذا العلوى . ولكنه يذكر فى هذا المدح ذمًا مشينًا ذم به ذلك العلوى ويفسر ذمه قبل أن يدخل فى المدح :

أَتَانِي وعِيدُ الأَدْعِيَاء وأَنَّهُمْ ... أَعَدُّوا لِيَ السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ

وَلَو صَدَقُوا فِي جَدِّهِم فَحَذِرْتَهُمْ ... فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَولُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ [1]

ومن هنا يتضح أنه ليس علويًا واحدًا بل هم أكثر من ذلك أرصدوا له فتيانًا سودًا ليقتلوه عند مروره بكفر عاقب فى طريقه إلى ابن طفج [2]، وعلى هذا يفسر شاكر عداء العلويين لأبى الطيب ، وإذا صح ما كان من علاقة بين المتنبى والعلويين على أثرها دخل المتنبى مدارس الأشراف من العلويين ، ثم ما لبثوا لأمر ما أن يفتكوا به فى الشام ، ثم منعوه أيضًا من الدخول إلى الكوفة ليرى جدته العجوز . . . التى أرسلت إليه تشكو شوقها وطول غيابه عنها ، ويوضح هذا ويزيده تأكيدًا ما كان من رثاء المتنبي لجدته بعد موتها إذ يقول :

هَبِينِى أَخَذْتُ الثَّأْرَ فِيْكِ مِنَ العِدَا ... فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فِيْكِ مِنَ الحُمَّى

ثم يقول :

لَئِنْ لَذَّ يَومَ الشَّامِتِينَ بِمَوْتِهَا ... فَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لآنَافِهِمْ رَغْمَا [3]

فالمتنبى يثبت هنا أن لجدته ثم له أعداء ، وكان همه أو أكثره أن يأخذ منهم « ثأرها » وثأره ، وأن هؤلاء الأعداء قد شمتوا بموتها يوم توفيت . فهذه

---

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ١٥١ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول / ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ١٠٦ ، ١٠٧ .

الجدة العجوز الصالحة قد اتخذت لنفسها أعداء يرضون أنفسهم بالشماتة ، وهؤلاء الأعداء لابد أنهم من الكوفة والأرجح أنهم كانوا من العلويين والهاشميين. لما رأيت قبل من الصلة أو العداوة القائمة بينهم وبين أبى الطيب المتنبى ، ويعقب على ذلك ، ويرى أن هؤلاء الأعداء لأبى الطيب وجدته لابد أن يكونوا من أشراف الكوفة ، إذ لايعقل أن يكون هؤلاء الشامتون من الأعداء من طبقة السقائين والنساجين ومن شابههم ، ولو كان ذلك كذلك لما حفل المتنبى بذكرهم ولا التعريض بهم ، وأن يجعل نفسه رغمًا لآنافهم ، وهو من هو فى التسامى والكبرياء والغلو فى الترفع والعظمة [(١)]. ولكن هذه الأسباب التى ساقها محمود شاكر يرى أن المتنبى رجل أصيل ينتهى نسبه إلى العلويين حيث «تزوج رجل من العلويين ، ولا جرم أن يكون من كبارهم بنت جدة المتنبى ، فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين غير « عبدان السقاء » [(٢)] ، ولأمر ما أريد هذا الرجل العلوى على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويون على ذلك، ففارقها وطلقها ، فرجعت إلى أمها بجنينها أو طفلها ، وقامت بأمره ، حتى بلغ مبلغ الفتيان ، ودلته على الطريق بعد أن صرحت له بحقيقة أمره ، وصحيح نسبه، وكان من حزمها أن حذرت الفتى من عواقب التصريح بأمر نسبه، وأخذت عليه المواثيق والعهود ، بحبها له وحبه لها ،وأنه إن فعل كان فى ذلك هلاكها وهلاكه ، فبقى على ذلك متململاً حتى كان من أمره ما كان من ادعائه العلوية بالشام ، فقبض عليه فاضطر إلى الإخلاد والتسليم ، وحرص على أن يطيع أمر جدته ، بعد أن علم حزمها وصواب رأيها وإخلاصها له المشورة ومحضها له النصيحة » [(٣)].

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول / ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) يمكن أن يكون « عبدان السقاء » هذا جده لأمه .

(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول / ٤٥ ، ٤٦ . وممن أخذ برأى شاكر فى علويته. انظر : محمد سعيد العريان / المتنبى يعشق / الرسالة / العدد ١٥٣ السنة الرابعة / ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ يونيه ١٩٣٦م / ٩٣٥ ، ٩٣٦، ٩٣٧ وإبراهيم العريض / فن المتنبى بعد ألف عام / ٥٩ . ومجلة العلوم اللبنانية / لغز استعصى على الحل فى حياة المتنبى / العددان مارس وحزيران سنة ١٩٦٣ / ٢٠ ، ٢١ . والبيان الكويتية / السنة الخامسة / العدد ٥٠ ربيع الأول ١٣٩٠هـ ، مايو ١٩٧٠م . وعبد الغني الملاح / المتنبى يستر أباه ، دراسة فى نسب المتنبى / بيروت ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ / ط ثانية من ص ٤٧ إلى ص٥٧ .

ويتخذ الأستاذ محمود شاكر من النصــوص الشعرية وثيقة تاريخية يؤخذ بها فى إثبات نسب المتنبى يقول : أن المقصود بقول المتنبى :

لاَ بِقَومِى شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِى ... وَبنفْسِى فَخَرْتُ لاَ بِجدُودِى

وَبِهِمْ فَخْرَ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا ... دَ وَعَوذُ الجَانِى وَغَوثُ الطَّرِيد [1]

أبناء على ﷺ ، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ومن هنا - كما ترى - يثبت لنا أن المتنبى علوى النسب [2].

وكأن الأستاذ شاكر ومن جاراه يأخذونه أيضًا بهذه الرواية التى ذكرها التنوخى عن القاضى أبى الحسن بن أبى شيبان الهاشمى الكوفى ، «قال : وقد كان المتنبى لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب فى الدعوتين ، وحبس دهرًا طويلاً ، وأشرف على القتل . ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » [3].

وهو وغيره يرون أن المتنبى ادعى العلوية فى الشام دون أن يدعى النبوة، ومن ثم فهم يرون فى دعوته هذه حركة سياسية واضحة [4] ، وربما دخل سجن العلويين بأسبابها ، فكانت وبالا على حياته .

ويبدو أن المتنبى لم يدع العلوية ولا النبوة كما قال كثير من الباحثين فى عصره وبعده وإنما كانت حركته فى بادية السماوة بالشام حركة سياسية وما يتبعها من خروج على السلطان فى عصره ، وما كان من لؤلؤ والى حمص من قبل

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

(٣) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٣ ، ١٠٤ . وانظر فى ذلك : ابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٢٠ . والمقريزى / المقفى / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٤) إبراهيم العريض / لغز استعصى على الحل فى حياة المتنبى / مجلة العلوم اللبنانية / عدد أيار وحزيران سنة ٩٦٣ / ٢٠، ٢١ . وعبد العزيز الدسوقى / المتنبى بين محمود شاكر وطه حسين / الثقافة السنة الخامسة - العدد ٥٢ يناير ١٩٧٨/ ٦٧ .

الإخشيد إلا أن قضى على حركتـه وأدخله السجن وبقى به نحو عامين . ثم تعود إليه حريته ويخرج مادحًا لأمراء الشام فى تلك الفترة .

وتتميز الدراسات المعاصرة عن المتـنبى وشعره بمناقشة واعية لآراء الأستاذ محمود شاكـر حول علوية المتنبى فلم يقبلها كثير من البـاحثين على علاتها دون مناقشة واعية تدل على تصور واضح لحياة المتنبى وشعره خلال القرن الرابع[(١)] .

ومحاولة الباحثـين لدراسة آراء الأستاذ محمود شاكر تتـسم بالموضوعية ، والنزاهة فى الحكم على الأثر الأدبى ، إذ إن مـحمود شـاكر يعتـرف فى مواطن كثيرة من كتابه بأنه إنما بنى نسب المتنبى اعتمادًا على الاستنباط الشخصى لا على أدلة تاريخيـة ووثائق محدودة ثـابتة . لكن هل يصح لنا فى البـحث التاريخى أن تبنى النظرية كما هى فى العلوم الطبيعـية ؟ وهل يحق لنا أن نتوسع فى الاستنباط إلى هذا الحد البـعيد الذى يتنافى مع حـقائق التاريخ المـدونة ؟ هل هذه النظرية التى يجب أن نعالجها فـى هذا المبحث . وذلك لأنه إذا بنيت النظرية فى العلوم الطبيعية أولا ثم عـمد إلى تطبيق الحقائق عليها فتكون هذه الحقـائق دائمًا أمامها فى البحث وتكون مستمرة وحية . أعنى أن النظرية إذا سبق وضعها وتحديدها فى أسلوب علمى ، فلم يسبق وجـود هذه الحقائق وتكوينها ، إذ أنهـا موجودة منذ القدم ، ثم تبقى هذه الحقائق نامية ومتجددة لا تزول من عالم الوجود ، ولاتقف مع فترة محدودة من سـير الزمان . فالحقائق العلمية لا تمـر عرضًا فى الحياة ، ولا يكون وجودها صـدفة فى الطبيعـة . لذلك يصح لنا أن نمهد لفـهم أسرارها بوضع نظريات عنهـا ، ثم نستـعرض مـا يتجـدد منها مع الزمن بعـد وضع تلك النظرية للمـقايسة والتطبـيق . أما فى علم التاريخ فـلا يصح لنا هذا ، بل يجب

---

(١) وديع تلحوق ب. ع/ أبو الطيب المـتنبى ونسبه العلوى / المـقتطف الجزء الثـامن من المجلد التاسع والثـمانين ، يوليـو ١٩٣٦م ، ١٢ ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ . ونعـمان القاضى / كافوريات أبى الطيب دراسة نصية / ٦٥ . وعـبد المنعم محمد جاسم / حول نسب المتنبـى / المورد المجلد السـادس العدد الثـامن خريف ١٩٧٧ / ١٣٩٧هـ عـدد خاص بأبى الطيب المتنبى بغداد ط دار الحرية / ١٥٤ . وعبد العزيز الدسوقى / الثقافة قضايا وملاحظات (١) / المتنبى بين مـحمود شاكر وطه حـسين / السنة الخامسـة العدد ٥٦ مايو ١٩٧٨/ ٦١ ، ٦٢ . وخليل شـرف الدين . المـوسوعـة الأدبيـة الميسـرة (١) . أبو نواس . ابن الرومى . المتنبى. بيروت . ط مكتبة الهلال / ١٩٨٠/ ٢٢ ، ٢٣ .

علينا أن نحدد فيه الحقائق وإثباتها ، إلى الاستنتاج والاستنباط - ضمن نطاقها - ونتمكن من وضع النظريات بعد أن نقيس أصولها من حقائق التاريخ وحوادثه . والسبب فى هذا كله أن حوادث التاريخ وقتية الحدوث ، محدودة الميلاد . تتصل بفترة خاصة من الزمن ويزول وجودها بزوال تلك الفترة ، فلا يمكننا تغيير أى نظرية ما ، واستبدالها بغيرها ، إلا بالاعتماد على وجود حقائق محددة يشهد التاريخ بإقرارها ووجودها فيه [١].

تلك هى النظرية الجديدة ، أو دحض القديمة بموجب سياق هذه الحقائق والحوادث فأنت ترى إذن أنه لا يمكن أن ننقض جميع حوادث التاريخ بالشك فحسب ، ولا يمكن أن ننفيها بمجرد عدم ارتياحنا إلى صحتها ، ثم لا يمكن أن يكون لنا رأى فيها . يكون أساسه محض فكرة فقط ، وتكون حقيقته مجرد نظرية فحسب ، ثم يعمل بعد ذلك إلى تكييف الحوادث التاريخية وتفسيرها بأشكال جديرة تلائم نظريتنا المستحدثة ، التى تفتقر إلى بعض الأدلة التاريخية المحدودة تدعمها وتثبتها . ثم إن الاستنتاج والاستنباط فى المباحث التاريخية لهما قيود وحدود أيضًا ، فيجب إما إذا جاء منافيًا لجميع ما فى التاريخ من الأدلة والحوادث ، وفرض عليه حقائق جديدة لا علم له بها من قبل فلا يمكننا إذ ذاك أن نقبل به ونتغاضى عن الحقائق السابقة مهما كان شأنها . فإذا كان نسب المتنبى العلوي نظرية ، وإذا كان يستند إلى الاستنباط والاستنتاج فحسب ، كما يقول الباحث نفسه بصراحة تامة [٢]، فلا يمكن للتاريخ أن يعترف به ، ولا يمكن لأى كاتب أن يسلم بصحته ، لأن النظرية والاستنباط وحدهما لا تفيدنا شيئًا فى تقرير الحقائق التاريخية ، لا سيما وجميع المصادر تروى خلاف ما يرميان إليه . والصلة مقطوعة بين الباحث الحالى وبين الحوادث التى مر عليها عشرات القرون عن غير طريق هذه المصادر الأدبية [٣].

---

(١) وديع تلحوق . ب . ع / أبو الطيب المتنبى ونسبه العلوى / المقتطف الجزء الثامن من المجلد التاسع والثمانين . يوليو ١٩٣٦م - ١٢ ربيع الآخر هـ/ ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٧٢ .

(٣) وديع تلحوق . ب - ع / أبو الطيب المتنبى ونسبه العلوى / المقتطف / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

ولنأت للبحث عن الأدلة التى حاول الأستاذ شاكر أن يثبت بها أصل المتنبى الجديد وهل يمكن لنا الاعتماد عليها . أول برهان يقيمه الكاتب على احتمال نسب أبى الطيب المتنبى إلى أب علوى هو أنه ولد فى الكوفة ، والكوفة معقل الدعوة العلوية منذ القدم ، ودخل فى صغره إلى مكتب لأولاد الأشراف فيها . نعم لقد كانت الكوفة كذلك ، وكان يغلب على كل من فيها أن يكون متشيعًا لآل البيت، ولكن لا يشترط أن يكون كل من فيها متصلا بهم فى النسب، ثم أتيح لأبى الطيب أن يدخل إلى مدرسة يتعلم فيها أولاد الأشراف ، فلا يمكننا أن نتخذ من هذه الحادثة البسيطة جدًا ما يحملنا على الظن أو القول إن أبا الطيب كان يمت إلى العلويين بنسب فأعطى هذا الامتياز العظيم . لأن التعليم لم يكن محتكرًا قط فى الإسلام ولم يكن هناك مدارس خاصة بأولاد الأشراف دون غيرهم، بل كان يتاح للمتنبي وغيره من أبناء المسلمين أن يتعلموا فى المدارس ويجلسوا إلى جانب أولاد الأشراف والأمراء ، وعلاوة على هذا أيضًا فقد كان بعض الأشراف والأحزاب السياسية مثل العلويين والفاطميين وغيرهم يبنون المدارس ويدخلون فيها الطلاب ليستغلوا هذا الموقف ويصبحوا دعاة لهم يتكلمون على منابرهم ، ومن تفرغ للبحث فى نظم التعليم فى الدول الإسلامية يتضح له صحة هذا القول ، ونرى فى المدارس الشهيرة مثل النظامية والمستنصرية وبيت الحكمة يتضح له صحة هذا القول ، فلا يستغرب أن يدخل أبو الطيب المتنبى إلى مدرسة فيها أولاد الأشراف ولا يستدل من هذا أنه أتيح له ذلك لاتصاله بالنسب مع العلويين [١] .

أما قضية عدائه للعلويين والتعريض بهم فى شعره ، والترفع عن المسير إليهم ومدحهم ، التى اتخذها الكاتب أدلة على صلة أبى الطيب بنسبهم وحرمانه من المجاهرة بهذا الشرف العظيم ، فلا تساعده على قبول هذه النظرية المفروضة، إذ لم نلمح فى شعر المتنبى عداء صريحًا ، يختص بالعلويين من هم أصحاب مذهب دينى أو مبدأ سياسى ، ولم تكن علاقته بهم إلا حوادث خاصة وليدة ظروف خاصة ، ولا يمكن الاعتماد عليها واتخاذها مبدأ المثل فى ذلك القول [٢] .

---

(١) وديع تلحوق - ب- ع / أبو الطيب المتنبى ونسبه العلوى / المقتطف / الجزء الثامن من المجلد التاسع والثمانين / ٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق / ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

وإذا كان قد ترفع عن السير إليهم ، فقد ترفع عن المسير إلى كثيرين غيرهم من الأمراء والوزراء والخلفاء أيضًا ، وإذا كان قد عرض ببعضهم فلم يحجم عن التعريض بسواهم من مختلف الناس وإذا كان قد افتخر بنفسه أمام بعضهم وهو يمدحه ، فقد فعل مثل ذلك أمام سائر ممدوحيه ، أما تلك الثورة القوية فى صدر المتنبى التى تتجلى فى شعره ، فلا نرى أنها كانت موجهة ضد العلويين دون غيرهم من الناس . إنها ثورة النفس الجبارة التى تمرددت على كل من يحيط بها ، ونقمت على كل من فوقها . ولا يحتمل أن يكون قد اختص بقوله هذا العلويين الذين لم يكونوا فى عصره إلاَّ فئة تضاءلت قدرتها ومكانتها وقل أنصارها ، وحزبًا غلب على أمره فى ميدان النزاع السياسى إلى حد بعيد [١] .

ولو كان لأبى الطيب مثل هذا الأب العلوى الشريف النسب لما سكت عن ذكره بل لأنشد فيه من القصائد السائرات ما يملأ الدنيا نشيدًا باسمه وتغنيًا بذكراه [٢] .

ومن هنا نرى أن هذه الآراء الثلاثة حول نسب المتنبى تعطينا صورة واضحة لما لهذا الشاعر العظيم من مكانة بارزة فى الشعر العربى عامة ، فالنقاد بين مادح له وقادح فيه ، مما يدل على عظمته ، وإلا فما الداعى إلى الاختلاف فى الرأى بين هؤلاء النقاد والمؤرخين جميعًا ؟

والرأى الأول : نرى فيه غلوًا كبيرًا فى حق المتنبى ، حيث إن الدراسات القديمة والحديثة لا تجزم بضعة نسب المتنبى وحقارة أصله ، وقد فندنا - فيما مضى - مزاعم المستشرقين والدكتور طه حسين ومن شايعه بكل صدق وأمانة ، ورددنا آراءهم إلى نقد ذاتى أو رأى شخصى ، دون موضوعية تعطى كل ذى حق حقه ، ومن هنا رجحنا فساد هذا الرأى الذى ينكر وجود الشعر العربى متمثلا فى المتنبى .وهو يؤمن « بأن التذوق الأدبى والفنى قد يكون وسيلة لاكتشاف حقائق التاريخ والاقتصاد والوصول من خلاله إلى معرفة حياة الأديب أو الشاعر » [٣] . ولذا حملوا النصوص الشعرية ما لا تحتمله مما جعل دراساتهم أكثر إمعانًا فى الدراسات الاجتماعية والاقتصادية ، دون جدوى .

---

(١) المرجع السابق / ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٦٥ .

(٣) عبد العزيز الدسوقى / الثقافة / قضايا وملاحظات (١) المتنبى بين محمود شاكر وطه حسين / السنة الخامسة / العدد ٥٦ مايو ١٩٧٨ م / ٦٠ .

أما الرأى الثانى : فهو أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى الواقعية ؛ لأنه يأخذ فى الاعتبار كل الروايات الصحيحة التى ذكرها التاريخ حول نسب المتنبى ، وهو إذ يأخذ بها يدرسها دراسة تمحيص وتأن تجعل من السهل قبول هذا الرأى وهو يدرس شعر المتنبى بموضوعية حقة ، ونقد فنى خالص فى غالب الأحيان. أضف إلى ذلك أنه درس نسب المتنبى من خلال شعره ورأى فيه ما يؤيد عروبة المتنبى التى تعصب لها ، وتفانى فى الإحساس بها ومن هنا :

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِى الإفْهَامِ شَىءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ (١)

ونحن إذ نأخذ بهذا الرأى ، فإننا لا نقبله على علاته لما سبق أن قررناه من أن هذا الرأى يتفق وحياة المتنبى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أيضًا ، وهو بهذا ينفى نبوة المتنبى وعلويته وقرمطيته . لذا فهو أجدر رأى نأخذ به فى دراستنا هذه .

أما الرأى الثالث : فهو رأى متطرف جدًا ؛ لأنه لا يقبل الروايات التاريخية كما هى ، بل ينفيها فى بعض الأحيان ، ويحتج بها فى أحيان أخرى ، وهى لا تدعم هذا الرأى أو ترجحه . كما أنه يجعل المتنبى علويًا على الافتراض لا على اليقين . وهو يرى أن النص الأدبى صوره لحياة مبدعة ومرآة لعصره ، وسجل لتاريخ فكره وقلبه ، ويرى أن الدارس الناقد يستطيع من خلال التذوق الفنى - أن يصل إلى حقائق فى مثل قوة الحقائق التاريخية عن حياة مبدعة ، وظروف عصره، وتقلبات أيامه ، ولكن العمل الأدبى غير هذا ، لأنه عالم مستقل له طبيعته الخاصة ،وكل ما فيه من أفكار وأحداث ، ووقائع فهى خاصة بطبيعته الفنية ، ولا علاقة لها بالعالم الخارجى ، حتى ولو كانت بعض عناصرها من جزئيات هذا العالم الخارجى ، وليس هذا الرأى الذى توصل إليه الأدباء يرقى إلى درجة الحقائق التاريخية ، لأن أحداث التاريخ ووقائعه وسيرة المفكرين والأدباء لها طرق خاصة فى معرفتها وتمحيصها وإثباتها ،وليس من بين هذه التذوق الفنى والأدبى لشعر الشعراء وأدب الأدباء (٢) .

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٢٧٨ .

(٢) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) المتنبى بين محمود شاكر وطه حسين / الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٦ مايو ١٩٧٨م / ٦١ ، ٦٢ .

وإن كان ثمَّة فضل لهذا الرأى فهو إثباته لنسب المتنبى العربى ، ولكن عن طريق ملتوية عن وجهة الحق ودقة البحث العلمى .

أسرة المتنبى :

وأما فيما يخص أسـرة المتنبى فلا نعلم من أمرها إلا القليل ، وهذا القليل لا يعطينا صورة واضـحة عنهـا ، ومن الواضح أن المتنبى ولد بمـدينة الكوفة ، وفى بيئة عربيـة صحيحة ، ولأسرة عـربية خالصة وإن كانت أسرته رقـيقة الحال فليس فى هذا ما ينقص من مكانة المتنبى فى المجتـمع الإسلامى ، وليس عجيبًا ألا تؤرخ حيـاة شاعر كـبيـر كأبى الطيب ، فهـا هى حياة الخـلفاء وكبـار القادة والمـفكرين لم تدون منهـا إلا أحداث ، لا تفى بالـغرض ، وهى فى الغـالب ، غامضة خلال سنى الشباب والشيخوخة .

ويبدو أن العرب لم يعنوا بتدوين حياة العظماء قدر عنايتهم بآثارهم ، وأنهم سلكوا حتى حين يدونون حياتهم سبيل الرواية والخبر .

ولم يشر فى شعره إلى قبيلته أو نسبه لكننا نرى فيه ذكرا لجدته لأمه ، فقد رثاها ، وكان يدعوها والدته فى أشعار فيها :

أَمُنْسِـى الكِنَاسَ وَحَــضْـرَمَــوْتَا وَوَالِدَتِى وكِـنْدَةَ والسَّـبِـيْـعَــا [1]

وكل هذه أماكن فى الكوفة عرفها المتنبى فى نشأته وصباه .

ويظهر أن وفـاة والد المتنبى كانت عندمـا أكثر القـرامطة من غاراتهم على الكوفة فى سنوات ٣١٥ هـ ، ٣١٦ هـ ، ٣١٩ هـ فرأى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ومدح بها أحد العلويين متصوفًا يدعى هارون بن على الأوراجى . ولا نراه يمدح حاكـمها الأعجمى ولا خليـفتها ولا أحدًا من ذوى الـسلطان وكأنما وقف حـائلاً بينه وبينهم مـا رآه بأم عينه مـن فسـاد الحكم وتسلط الحكام الأعـاجم ، ويتألم لمـا أصابهم من خنوع وذل ويفعم صدره بمـشاعر العروبة ، وتثـور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من كل أعماقه [2] :

---

(١) أنعـام الجندى / دراسـات فى الأدب العربى/ بيـروت ط دار الأندلس ط ثانيـة ١٩٦٧/ ٢٢٥، ٢٢٦ .

(٢) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٢٥٧ .

إِلَى أَىِّ حِـينٍ أَنْتَ فِى زِىٍّ مُـحْـرِمِ   وَحَـتَّى مَـتَى فِى شَـقْـوَةٍ وَإِلَى كَمِ ؟
وَإِنْ لا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًـا   تَمُتْ وتقـاس الذُّلَّ غَـيْـرَ مُكَرَّمِ
فـثِبْ وَاثِقًـا بِـاللَّهِ وِثْبَـةَ مَـاجِـدٍ   يَرَى المَوتَ فِى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِى الفَمِ (١)

وغير ذلك مما كان يهجو به الأعاجم فى رحلته إلى شيوخ البوادى فى طرابلس واللاذقية ويشحذ همم العرب وقوميتهم ضد الأعاجم المستبدين .

وبعد ذلك يعود إلى الكوفة فى مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل أكان أبوه لا يزال حيًا أم أنه توفى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنًا أن أمه ماتت قبل أبيه ، بل لعلها فارقته وهو فى الكتاب ، وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأبيه ولا لأمه ذكرًا فى ديوانه بينما نراه يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاءً حارًا ينم عن صدق حب ومودة فى قصيدته التى مطلعها :

أَلاَ لاَ أُرِى الأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلاَ ذَمًّا   فَمَا بَطْشُهَا جَهْلاً ولا كَفُّهَا حِلْمَا (٢)

يقول فيها :

وَلَوْ لَـمْ تَكُونِى بِنْتَ أَكْـرَمِ والدٍ   لَكَان أَبَاكِ الضَّـخْمِ كَـونُكِ لِى أُمَّا

وفى تسميته لها بأنها أمه قد يشهد بوفاة والدته فى باكورة حياته وأن جدته هى التى قامت على تربيته . وهى التى رثاها من بين أسرته جميعًا برثائه لها واحترامه الضخم فقد قال إبان اعتقاله :

بِيَـدِى أَيُّهَـا الأَمِـيـرُ الأَرِيبُ   لاَ لِشَىءٍ إِلاَّ لأَنِّى غَـرِيـبُ
وَلأُمٍ لَـهَـا إِذَا ذَكَـرتْنِى   دَمُ قَلْبٍ فِى دَمْعِ عَـيْنٍ يَذُوبُ (٣)

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) شوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٣٤ ، وأبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ١٠٢ .
(٣) شوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٣٤ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى/ المجلد الأول / الجزء الأول / ٢٢ .

ثم إن المؤرخين يذكرون شوق جدته إليه ولا يذكرون شوق أمه إليه ، لذا لم يكن لأمه أثر فى حياته وشعره أبدًا [1] .

واختلف الباحثون حول زواج المتنبى ، واضطربت الآراء ، والسبب فى هذا الاضطراب هو الغموض فى حياة المتنبى وأسرته ، كما أن شعره لم يفصح عن ذلك سوى نتف منه متقطعة لا تثبت من الأمر إلاَّ شيئًا قليلاً .

أما من ناحية زواجه فقد تحدث عنه الأستاذ محمود شاكر فقال: « كان المتنبى لسنته تلك ، سنة ٣٢٣ هـ عزبًا لا يأوى إلى سكن من النساء ، ولعل جدته رأت أن تهدئ منه قليلاً بالزواج ، فزوجته على رغبة منه قريبًا من سنة ٣٢٥ هـ قبل خروجه من الكوفة ، وذلك لأن المتنبى بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦هـ ، ذكر لأول مرة فى شعره « الأبوة » فمما عرفناه من خلق أبى الطيب أنه كان إذا نزل به أمر أو وجد فى حياته من جديد ، فسرعان ما يتلجلج ذلك فى صدره ولا يستقر حتى يشير إليه فى شعره ، لكثرة ما تلد الحوادث فى شاعرية هذا الرجل من المعانى والآراء . . . قال أبو الطيب فى قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران قريبًا من سنة ٣٣٢ هـ يذكر المرأة :

وَتَرَى الفُتُوَّةَ وَالمَرُوَّةَ وَالأُبُوَّةَ   فِى كُلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتِهَا
هُنَّ الثَّلاثُ المانِعَاتِى لَذَّتِى   فِى خَلْوَتِى لاَ الخَوْفُ مِنَ تَبِعَاتِهَا

ولعل ولده هو الذى ذكره فى قوله « الأبوة » هو « محسد » الذى ورد ذكره فى خبر مروى وهو بواسط سنة ٣٥٤ هـ وفيه أنه أجاز شعرًا أنشد ، وورد ذكره أيضًا فى مقتل المتنبى وأنه قتل معه .

فلو فرضنا أنه قتل فى الثلاثين من عمره أو أقل ، لكان هذا التاريخ الذى حددناه لزواج المتنبى هو أقرب إلى الصواب إن شاء الله » [2] .

---

(١) حسن الأمين / المرأة فى حياة المتنبى وشعره / الرسالة / العدد ٥٦٩ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ ، مايو سنة ١٩٤٤م / السنة الثانية عشرة / ٤٥٠ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول / ١٢٠ ، ١٢١ . والبيتان فى شرح ديوان المتنبى للعكبرى / ١/ ٢٧٧ .

ويختلف الدكتور عبد الوهاب عزام مع الأستاذ شاكر حول السنة التى حددها لزواج المتنبى فيقول : قال أبو الطيب فى قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد ابن عمران وهو أحد ممدوحيه فى الشام قبل اتصاله ببنى حمدان :

فِى النَّاسِ أَمْثِلَةٌ تَدُورُ حَيَاتُهَا كَمَمَاتِهَا وَمَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا
هِبْتُ النِّكَاحَ حِذَارَ نَسْلٍ مِثْلِهَا حَتَّى وَفَرْتُ عَلَى النِّسَاءِ بَنَاتِهَا

وهذا يدل على أنه لم يتزوج إلى ذلك الوقت . وإذا أخذنا بترتيب الديوان فقد أنشأ هذه القصيدة بعد مفارقته بدر بن عمار . أى بعد سنة ٣٢٩ هـ ، وسن أبى الطيب حينئذ زهاء ستة وعشرين عامًا . ولا ندرى متى تزوج ؟ ، ولكن دلنا على أن له عيالاً حين قال : لسيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ وقد أزمع المسير لنصرة أخيه ناصر الدولة وسأله أن يسير معه فقال :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَى الأَعِزَّةِ جَارُهُ وَيَذِلُّ مِنْ سَطَوَاتِهِ الجَبَّارُ
كُنْ حَيْثُ شِئْتَ فَمَا تَحُولُ تَنُوفَةٌ دُونَ اللِّقَاءِ وَلاَ يَشِطُّ مَزَارُ
وَبِدُونِ مَا أَنَا مِنْ وِدَادِكَ مُضْمِرٌ يُنْضَى المَطِيُّ وَيَقْرُبُ المُسْتَارُ
إِنَّ الَّذِى خَلَّفْتُ خَلْفِى ضَائِعٌ مَالِى عَلَى قَلَقِى إِلَيْهِ خِيَارُ
وَإِذَا صُحِبْتُ فَكُلُّ مَاءٍ مَشْرَبٌ لَوْلاَ العِيَالُ وَكُلُّ أَرْضٍ دَارُ
إِذْنُ الأَمِيرِ بِأَنْ أَعُودَ إِلَيْهِمُ صِلَةٌ تَسِيرُ بِشُكْرِهَا الأَشْعَارُ [(١)]

وقد أعلن أن له عيالاً يشفق عليهم ، وقد نزح من العراق وحده فيما نعلم. فهؤلاء العيال زوجه وأولاده أو زوجه وحدها ، وقد كنى عنها ، تزوج الشاعر قبل سنة ٣٣٧ هـ وإن صح ترتيب الديوان فى القصيدة التائية كما قلت آنفًا فزواجه بين سنتى ٣٢٩ هـ و ٣٣٧ هـ » [(٢)] .

---

(١) المصدر السابق / ٢/ ٨٧، ٨٨ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٧ .

ويبدو أن كلام عبد الوهاب عزام أقرب إلى الصحة ، ففى الشعر الذى استدل به مسحة من الصدق الذى يوضح مقدار صحة رأيه فى هذا الشأن .

ولا نجد فى شعر أبى الطيب ذكرا لأهله من بعد إلاَّ فى مصر حين يقول فى قصيدة مدح بها كافورا فى شوال سنة سبع وأربعين وثلاث مئة :

يُضَاحِكُ فِى ذَا العِيْدِ كُلٌّ حَبِيبَهُ   حِذَائِى وَأَبْكِى مَنْ أُحِبُّ وأَنْدبُ
أَحِنّ إِلَى أَهْلِى وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ   وَأَيْنَ مِنَ المُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مَغْرِبُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَبُو المِسْكِ أَوْ هُمُ   فَإِنَّكَ أَحْلَى فِى فُؤَادِى وَأَعْذَبُ

ويقول فى قصيدة الخروج من مصر :

عِيْدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَّ يَا عِيدُ   بِمَا مَضَى أَمْ لأَمْرٍ فِيْكَ تَجْدِيدُ
أَمَّا الأَحِبَّةُ فَالبَيْدَاءُ دُونَهُمُ   فَلَيْتَ دُوْنَكَ بِيْدًا دُوْنَهَا بِيْدُ

وله بعد ما هرب من مصر يذكر شوقه إلى ابنه وإلى شيخ كان له محبا يسمى «الحسين» :

لَوْلاَ مُحَمَّدُ بَلْ لَولاَ الحُسَيْنُ لَمَا   رَأَيتُ رَأْيِى بِوَهْنِ العَزْمِ مُخْتَلِطَا (١)

وأحسب محمدا هنا محرفة عن محسد وهو مشهور فى أخبار أبى الطيب . وفى هذا بيان أن ابنه لم يكن معه فى مصر . وأحسبه ترك أهله بالشام ثم لحقوه بالكوفة أو سبقوه إليها » (٢) .

وتراه يقول فى رثاء ابن سيف الدولة فى بعض نسخ الديوان :

وَقَدْ ذُقْتُ حُلْوَاءَ البَنِينَ عَلَى الصِّبَا   فَلاَ تَحْسَبَنِّى قُلْتُ ما قُلْتُ عَنْ جَهْلِ (٣)

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تحقيق وتصحيح د. عبد الوهاب عزام ، ٣٦ .
(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبو الطيب بعد ألف عام / ١٩٨ . وأبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/١٨٣ ، ٢/٣٩ .
(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / حققه عبد الوهاب عزام / ٢٣٤ .

ولا نعرف من أولاده إلاّ محمدا ، ولم يذكره فى شعر إلاّ فى البيت السابق من مقطوعة طائية ملحقة ببعض نسخ الديوان .

وعندنا من أخبار محسد مع أبيه نتف .

ذكر الحاتمى فى حدثه عن لقاء أبى الطيب فى بغداد أن الشاعر غضب على رجل كان حاضرًا مجلسه فقال : « يا محسد خذ بيده وأخرجه » (١) .

وفى طبقات الأدباء عن أبى زكريا التبريزى أن المتنبى كان بواسط جالسًا وعنده ابنه محسد قائمًا ،وجماعة يقرأون عليه فورد إليه بعض الناس فقال: أريد أن تجيز لنا هذا البيت وهو :

زَارَنَا فِى الظَّلَامِ يَطْلُبُ سِتْرًا ... فَافْتَضَحْنَا بِنُورِهِ فِى الظَّلَامِ

فرفع رأسه وقال يا محسد قد جاء بالشمال فأته باليمين فقال:

فَالتَجَأنَا إلَى حَنَادِسِ شَعْرٍ ... سَتَرَتْنَا عَنْ أَعْيُنِ اللُّوَّامِ (٢)

ونجد فى ديوان أبى الطيب ذكرًا لأهله بعد توديع ابن العميد ، إذ يقول :

وَقد كُنْتُ أَدْرَكْتُ المُنى» غَيْرَ أَنَّنِى ... يُعَيِّرُنِى أَهْلِى بِإدْرَاكِهَا وَحْدِى

وَكُلُّ شَرِيْكٍ فِى السُّرُورِ بِمُصْبحِي ... أَرَى بَعْدَهُ مَنْ لاَ يَرَى مِثْلَهُ بَعْدِى (٣)

ويذكرهم كذلك فى توديع عضد الدولة .

وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِيْنٍ ... يُقُولُ لَهُ قُدُومِى ذَا بِذَاكَا

وَمِنْ عَذْبِ الرِّضَابِ إذَا أَنَخْنَا ... يُقَبِّلُ رَحْلَ « تُرْوُكَ » وَالوِرَاكَا

يُحَرِّمُ أَنْ يَمَسَّ الطيب بَعْدِى ... وَقَدْ عَبِقَ العَبِيْرُ بِهِ وصَاكَا

وَيَمْنَعُ ثَغْرَهُ مِنْ كُلِّ صَبٍّ ... وَيَمْنَحُهُ البَشَامَةَ والأَرَاكَا

يُحَدِّثُ مُقْلَتَيْهِ النَّوْمُ عَنِّى ... فَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ عَنْ نَدَاكَا (٤)

---

١) ياقوت الحموى / معجم الأدباء / ٦/ ٥١٢ .

٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٩ .

٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٦٩ .

٤) المصدر السابق / ٢/ ٣٩١ ، ٣٩٢ . الثوية / مكان بالكوفة ، قريبًا منها ، على ثلاثة أميال.

نشأته وثقافتـه :

لا نعلم من أخبـار نشأة المـتنبى إلاَّ النزر القليل الذى لا يمدنا بمـعلومات واضحة عن نشأته ، إلاَّ ما كان من أنه كان يختلف إلى مدارس الأشراف العلويين فى الكوفة (١) .

فشب على الفصاحة والبلاغة والقدرة التامة على نظم الشعر وهو لون العود.

أما عن خروجـه إلى البادية فلم تحدد المـصادر الأدبية متى خـرج إليها ، وفى أى سنة أيضًا ، ومتى رجع إلى الكوفة ؟ (٢) .

ولكن الرواية التى تدلنا على خروجه هى التى ذكرها صاحب الصبح المنبى إذ يقول : كان أبو الطيب وهو صبى ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان محبّا للعلم والأدب ، فصحب الأعراب فى البادية وجـاءنا بعد سنين بدويًا قحًا » (٣) ويذكـر المسـتشرق بلاشـير أنه خـرج إلى البادية فى أواخر سنة ٣١٢ هـ وأنه مكث بها سنتين (٤) .

ويذكر الدكتور شـوقى ضيف أن المتنبى خرج إلى البادية فى التـاسعة وعاد فى السنة الثانية عشرة من عمره (٥) ، وهو بهذا يتفق مع بلاشير فى رأيه والراجح أن هذا التـاريخ هو الأقرب إلى الصـواب . أمـا خروجـه من الكوفة إلى بغـداد فيرجح أنه كان فى إحدى السنوات التالية ٣١٥ هـ ، ٣١٦ هـ ، و ٣١٩ هـ وذلك عندما أغار القرامطة على الكوفة (٦) .

وسواء أكان خروج المتنبى لتلقى اللغة الفصـيحة من أصحابها فى البادية ، أم كان خروجه نتيجة لغـارات القرامطة على الكوفة ، فإنه من الواضح أن المتنبى

---

(١) الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٦.

(٢) الخطيب البـغدادى / تاريخ بغـداد / المجـلد الرابع / ١٠٢ . وابن الأنبارى نزهة الألبـاء فى طبقات الأدباء / ٢١٩ .

(٣) يوسف البديعى / الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / ٢٠ .

(٤) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى الـتاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٥١، ٥٢ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٢٣ .

(٥) شوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٤٣ .

(٦) المرجع السابق / ٣٤٤ .

حقق كل ما يطمح إليه من تعلم اللغة من أصحابها فى البادية ، وهذا ما يؤكده الخطيب وغيره ، إذ يقول : « ونشأ بالشام ، وأكثر المقام بالبادية ، وطلب الأدب وعلم العربية ونظر فى أيام الناس وتعاطى قول الشعر من حداثته ، حتى بلغ فيه الغاية التى فاق أهل عصره وعلا شعراء وقته » (١) .

وقد مكث أبو الطيب فى العراق ثمانية عشر عامًا أمضى شطرًا منها فى البادية يقول :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِى ... وَلاَ أُعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانَا
وَهكَذَا كُنْتُ فِى أَهْلِى وَفِى وطَنِى ... إِنَّ النَّفِيْسَ غَرِيْبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسَّدُ الفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِى ... أَلْقَى الْكَمِىَّ وَيَلْقَانِى إِذَا حَانَا

« فهذا كلام يشف عن أن بلده قد نبا به » (٢) .

ويبدو أن ثقافة المتنبى العامة لم تكن مقصورة على ما حصله فى كُتَّابِ الكوفة فحسب ، وإنما كان له مصاحبة جيدة بعلماء عصره فقد لقى كثيرين من أكابر علماء الأدب منهم أبو إسحاق الزجاج وأبو بكر السراج وأبو الحسن الأخفش وأبو بكر محمد بن دريد وأبو على الفارسى (٣) وعلى السكرى ونفطويه وابن درستويه كما لقى أيضًا من أصحاب ابن دريد أبا القاسم عمر بن سيف البغدادى وأبا عمر موسى (٤) . وصحب أيضًا أصحاب أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب. فقرأ على أبى موسى الحامض ، وأبى عمر الزاهد وأبى نصير (٥) .

---

(١) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٢ . وابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢١٩ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبو الطيب بعد ألف عام / ٤٧ . أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ٢٢٣ .

(٣) ناصف اليازجى / العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب / المتنبى / بيروت ط دار العراق ١٣٥٥هـ/ الجزء الأول / ٣.

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٢٤ .

(٥) محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ١٥ .

ويشك الدكتور شعيب فى مشيخة المتنبى على كثير من العلماء ، فيقول : إذا كان الزمن قد سمح للمتنبى بمعاصرة بعض هؤلاء العلماء . فأغلب الظن أنه لم يسمح له بالتلمذة على أيدى كثير منهم ، فالمتنبى ولد سنة ثلاث وثلاث مئة وقد توفى الزجاج سنة ٣٠١ هـ أو فى سنة ٣١٠ هـ كما يقول ابن النديم . وقد مات الأخفش سنة ٣١٥ هـ وابن السراج سنة ٣١٦ هـ فهل جلس أبو الطيب مجالس للدراسة بين أيدى هؤلاء الفطاحل وهو ابن ثمان أو اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة سنة ؟!

وبعد هل انتفع أبو الطيب بأبى موسى الحامض الذى توفى فى سنة ٣٠٥هـ أى قبل أن يدرج المتنبى على رجليه ؟ وحقًا أن المتنبى قابل أبا على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٠هـ ولكنا لا نجد فيما بين أيدينا من المراجع ما يثبت تلمذة المتنبى على الفارسى ، وإن تعرضت إلى سؤال أبى الفارسى له المشهور . كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ وسواء أكان ذلك السؤال اختباراً أم استفهامًا وهو ما نرجحه بدليل قوله فراجعت كتب اللغة ثلاث ليال . . . إلخ فإن ذلك لا يثبت أن المتنبى كان من طلابه . وربما كان هذا السؤال عندما كان المتنبى بأرض فارس أى بعد سنة ٣٥٤هـ بعد أن توطدت بينهما الصحبة . وفى ذلك ما يفضى على ظن تلمذة الشاعر لأبى على الفارسى . وقد ذكر أن الفارسى كان يتردد على أبى الطيب ويكتب عنه ويستنزله إذا مر بداره مما يفهم منه أن العلاقة كانت بينهما علاقة صداقة ومناقشة علمية أكثر منها تلمذة وتبعية (١) .

وعرف المتنبى بين شعراء عصره بذكائه الحاد وقوة حافظة فقد رووا أن وراقا قال : « ما رأيت أحفظ من هذا ابن عبدان قط ! فقلت له كيف ؟؟ فقال : كان ليوم عندى وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعى سماه الوراق وأنسبه أبو الحسن يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه . فقال : فأخذ ينظر فيه طويلاً فقال له الرجل : يا هذا أريد بيعه وقد قطعتنى عن ذلك فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة (فبعيد . فقال له : إن كنت حفظته) فمالى عليك ؟ قال أهب لك الكتاب. قال فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه على إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى

(١) محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ١٥ ، ١٦ .

كمه، وقام فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن . فقال : ما لى إلى ذلك سبيل قد وهبته لى ! قال فمنعناه منه وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه »[1] .

وكان المتنبى لغويًا عالمًا باللغة أدق العلم . يدل على ذلك ما رواه أبو على الفارسى عنه عندما سأله يومًا : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟! فقال له فى الحال : حجلى وظربى . قال الشيخ أبو على الفارسى فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لها ثالثًا فلم أجد ، وحسبك من يقول : مثل أبى على فى حقه ذلك[2] .

وله مواقف أخرى تظهر لنا مكانته اللغوية الكبيرة ، فلما سمع بعض الناس يقولون : خرجت البطرقة ، لم يقبل ذلك ؛ لأن الصواب البذرقة بالذال وهي الخفارة . وأخبرنا الشيخ أبو بكر عن ابن مقلد العمانى أن المتنبى سئل أن يعطى دنانيرم ويخفر فأبى . وقال : « أبذرق ومعى سيفى » وقاتل حتى قتل[3] .

كما أن له ردودًا على كتاب المقصور والممدود لابن ولاد المصرى ، توضح لنا ما كان يتمتع به من مقدرة ثقافية ولغوية[4] .

وعن ثقافة المتنبى الفلسفية فقد أشارت المصادر القديمة والمراجع الحديثة إلى أثر الثقافة اليونانية فى الثقافة الإسلامية عن طريق ترجمة الكتب اليونانية فى الفلسفة والمنطق والأدب إلى اللغة العربية ، وإلى دراسة أدباء العرب لها منذ العصر العباسى الأول[5] .

---

(١) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٣ ، وانظر فى ذلك ابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٢٠ . ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ٢٠ ، ١٠٢١ .

(٢) ابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء /٢٢٢. ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٤٣. حجلى : جمع حجل : طائر . والظربى : جمع ظربان : دويبة .

(٣) ابن مكى الصقلى / تثقيف اللسان / تحقيق عبد العزيز مطر القاهرة ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦/ ٨٤ . وابن منظور / لسان العرب / صورة عن ط بولاق / ١١/ ٢٩٤، ٢٩٥.

(٤) انظر فى ذلك : على بن حمزة البصرى / التنبيهات على المقصور والممدود لابن ولاد / تحقيق عبد العزيز الميمنى / ضمن كتاب المنقوص والممدود للفراء / مصر ط دار المعارف.

(٥) أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى ابن جلجل / طبقات الأطباء والحكماء / تحقيق فؤاد سيد ط المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٥٥م ، وابن النديم / الفهرست / ط القاهرة . وصاعد =

وقد اهتم مثقفو القرن الرابع الهجرى بهذه الثقافة ودرسوها دراسة وافية ، ولم يكن المتنبى بعيدًا عن هذه الثقافة ، فقد درس الفلسفة على يدى أبى الفضل الكوفى والتصوف على الأوراجى [(١)] ، ويبدو أنه أكب على كتب الفلسفة ، ويتضح ذلك من ذكره لبعض الفلاسفة فى شعره ولتمثله ببعض آرائهم ، ولاستخدامه الأقيسة المنطقية فى أشعاره ، يقول :

مَنْ مُبَلِغُ الأَعْرَابِ أَنّى بَعْدَهَا ... شَاهَدْتُ رسْطَاليسَ والإسْكَنْدَرَا

وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرَا [(٢)]

ويقول أيضًا :

يَفْنَى الكَلَامُ وَلاَ يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ ... أَيُحِيطُ مَا يُفْنَى بِمَا لا يَنْفُدُ [(٣)]

وتصادف أن نزل بلاط سيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ ، وكان ينزله حينئذ الفارابى وظلا معا نحو سنتين ولابد أن يكون قد اطلع على كتبه ، ولا نستبعد أن تكون ثمة صداقة تعينه كانت تربط الفيلسوف بالشاعر ، فقد ملك كلاهما الفكر الفلسفى والحكمى فى إمارة سيف الدولة ، وكان موضع الإعظام والتبجيل فى بلاطه . وكان المتنبى يحب الاطلاع ، والمظنون أنه أفاد كثيرًا من قراءته لكتب الفارابى ، وكلنا يعرف أن المتنبى نقل كثيرًا من الصيغ والأفكار والعبارات الفلسفية ، ولكنه لم يحولها عن حقيقتها ، فالباحث يحس دائمًا بمكانها وأنها مجتلبة اجتلبها الشاعر ليدل على ثقافته وليحقق لنفسه ما يريده فى صناعته .

= ابن أحمد الأندلسى / طبقات الأمم / مصر ط السعادة . ويوسف القفطى / أخبار العلماء بأخبار الحكماء / القاهرة ، ط الخانجى ١٣٢٦ . وابن أبى اصيبعة / عيون الأنباء فى طبقات الأطباء / بيروت ط دار الفكر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م . وإسماعيل مظهر / تاريخ الفكر العربى فى نشؤه وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية / مصر ط ١٩٢٨م . وعلى سامى النشار / نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام / ط النهضة المصرية ١٩٥٤م .

(١) مصطفى عبد الرازق / فيلسوف العرب أو المعلم الثانى / القاهرة ط دار إحياء الكتاب العربى سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م /٨١ .وعبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٧، ٨ .

(٢) العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ١٧٠ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٤٠ .

ومن يقرأ ديوانه يحس إحساسًا واضحًا أن الشعر عنده كان يعتمد على الصياغة الفلسفية والعقل المتفلسف ، وقد ذهب يستخدم هذه الحكم مضيفا إليها ضروبًا من الأقيسة المنطقية حتى ينال ما يريده (١) .

وسوف نعرض لأثر الفارابى فى المتنبى مستضيئين فى ذلك بكلام الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وأنه ليقول : « وجملة القول : أن المتنبى سليل الفارابى فى فلسفته » (٢) . ويذكر أن الفارابى استطاع أن يؤثر فى تفكير المتنبى ومذاهبه الخلقية ، إلا أنه لم يستطع أن ينتزع منه فلسفة القوة وحب المال الذى يراه الفارابى من دأب الجاهلية .

ويقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق أيضًا : « وإذا جئنا إلى ما يدور فى شعر أبى الطيب من المعانى الفلسفية وجدنا لذلك أصولاً فيما وصل إلينا من كتب الفارابى » (٣) . حيث إن المتنبى يكثر من القول فى الطبع وإن يعسر تغييره أو يتعذر فيقول : « وتأبى الطباع على الناقل » ويقول أيضًا :

أَبْلَغُ مـا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الطَّبْـــــعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ (٤)

ويقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق : قد أشار الفارابى فى كتابه بين رأيى الحكيمين إلى مسألة الخلاف بين أرسطو وأفلاطون فى أن الأخلاق كلها عادات تتغير ، وأنه لا شيء منها بالطبع ، وأن الإنسان يمكن أن ينقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتياد والدربة كما جاء ذلك فى كلام أرسطو أو أن الطبع يغلب العادة كما ذكر أفلاطون فى كتابه السياسة (٥) .

ونرى أن المتنبى فى قوله : (٦)

قَضَاءٌ مِنَ اللَّهِ العَلِيِّ أَرَادَهُ أَلاَ رُبَّمَا كَانَتْ إِرَادَتُهُ شَرّاً (٧)

---

(١) شوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ٣٢٥ / ٣٢٧ .
(٢) مصطفى عبد الرازق / فيلسوف العرب أو المعلم الثانى / ٩٤ .
(٣) مصطفى عبد الرازق / فيلسوف العرب أو المعلم الثانى / ٩٥ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٣٣٦ .
(٥) الفارابى / الجمع بين رأى الحكيمين / القاهرة ط السعادة ١٩٢٥م - وسنة ١٩٠٧م .
(٦) مصطفى عبد الرازق / فيلسوف العرب أو المعلم الثانى / ٩١ .
(٧) البديعى / الصبح المنبى / ١٠٦ .

متأثر بقول الفارابى : « كل كائن فبقضائه وقدره ، والشرور أيضًا بقدره وقضائه » [1].

❊ ❊ ❊

رحلاته فى الأمصار الإسلامية :

رحلته إلى الشام :

رحل المتنبى إلى الشام فى سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة ، فأقام فيها برهة وعاد إلى العراق ، ولم تطل مدته هناك ، والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه فى صباه إنما هى فى الشام [2] إلاَّ قوله :

كُفِّى أَرَانِى وَيْكِ لَوَمِكِ أَلْوَمَا　　　هَمٌّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجُمَا [3]

وقد طوى الجزيرة ومر برأس عين وانتهى إلى منبج ، وهناك أقام يمدح جماعة من رؤوساء العرب ، وأول قصائده الشامية فى الديوان يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابى المنبجى حيث كان لبنى كلاب جاه فى نواحى حلب [4] ، ولم تطل إقامته فى حلب لأنه كان غير مطمئن بها ، إذ كانت فى ذلك الوقت موضع النزاع بين الإخشيديين والعباسيين ، فيرحل عنها إلى أنطاكية وهناك يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس، ولعل خير ما قاله فى أنطاكية قصيدتان فى مدح المغيث ابن على العجلى [5]. ثم يتجه بعد ذلك إلى طرابلس ويمدح بها عبيد الله بن خراسان الطرابلسى [6] .

---

(١) الفارابى / عيون المسائل ، ضمن مبادئ الفلسفة القديمة / ط مؤيد ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م / ١٨ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٤٥ . وأبو العلاء المعرى رسالة الغفران / ٣٥٨ ، ٣٥٩.

(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/٢٧ .

(٤) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبو الطيب بعد ألف عام / ٥١ .

(٥) طه حسين / مع المتنبى / ١٠٩ .

(٦) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٧. هناك من يرى أنه ابن خلكان .

ويقدم أبو الطيب إلى اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلاث مئة [١] ، وفى هذا ما يرد على رأى بلاشير الذى يرى أن المتنبى مدح وجهاء اللاذقية فى أواخر سنة تسع عشرة وثلاث مئة [٢] ، وكان سنه حينئذ تسعة عشر عامًا ، حيث إنه ينبئنا بأنه مدح الحسن بن إسحاق التنوخى ولم تتجاوز سنه العشرين ، وإذن فقد كان المتنبى فى اللاذقية فى أواخر سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة وسنة اثنتين وعشرين ثم غاب عنها ، ثم رجع إليها فى هذه السنة نفسها أو فى أوائل سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة وهى السنة التى نكب فيها ودخل السجن فيما نرى [٣] .

ولعل فى هذا ما يؤيد رواية ابن العديم وغيره السالفة الذكر ، وهو أن المتنبى وصل إلى اللاذقية بعد نيف وعشرين وثلاث مئة ،وكانت عودته إلى اللاذقية بعدما وصل إلى طبرية ومكث بها وقتًا قصيرًا ، ولزم أحد رجال التنوخيين ، ونراه يمدح فيها ثلاثة من التنوخيين أولهم محمد بن إسحاق التنوخى، والثانى : الحسين بن إسحاق التنوخى ، والثالث هو : على بن إسحاق التنوخى [٤] ويدعى النبوة كما زعم بعض النقاد القدامى فيقبض عليه لؤلؤ والى حمص من قبل الإخشيديين ويزج به إلى السجن حوالى سنة ٣٢٢ هـ، وظل فيه نحو عامين [٥] . غير أن طه حسين يرى أنه دخل السجن فى سنة ثلاث أو أربع وعشرين وثلاث مئة فنحن نراه يمدح أحد التنوخيين [٦]، ويبرئ نفسه من تهمة رماه بها وهى تهمة الهجاء له فيقول :

وَمَــا أَرِبْتُ عَلَى الـعِــشْـرِيْـنَ سِنِّى فَكَيْفَ مَـلَلْتُ مِنْ طُولِ البَـقَـاءِ [٧]

---

(١) ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٦١ . والمقريزى / المقفى / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٣٤٦/٢ والبديعى/ الصبح المنبى / ٥١ .

(٢) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٧٢، ٧٣ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٧٨ .

(٤) طه حسين / مع المتنبى / ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

(٥) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٦٣ ، وشوقى ضيف / الفن ومذاهبه في الشعر العربى / ٣٠٤ .

(٦) هو الحسين بن إسحاق التنوخى .

(٧) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ١٠ .

وأقل ما يفهم من هذا البيت أن الشاعر قاله سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة [١] ، وهناك من يرى أنه سجن فى سنة ٣٢٤ هـ أو فى السنة التى تليها ويؤخذ ذلك من أنه قال : فى قصيدته التى أرسلها من سجنه إلى الوالى يمدحه:

فَولَّى بِأَشْيَاعِهِ الخَرْشَنِىُّ   كَشَاءٍ أَمسَّ بِزَأْرِ الأُسُودِ [٢]

والخرشنى : هو بدر الخرشنى والى حلب من قبل الخليفة العباسى ، وثابت فى كتب التاريخ أن الإِخشيد استولى على حلب فى سنة ٣٢٤هـ بعد أن تركها الخرشنى والى بغداد ، فإن كان أبو الطيب يقصد بهذا البيت نزوح الخرشنى إلى بغداد . قبل استيلاء الإِخشيد على حلب فيكون سجنه فى هذه السنة أو التى تليها [٣] .

وقد أشار بلاشير إلى أن الحياة السياسية بعد خروج المتنبى من سجنه فى أواخر سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٦م بقيت على حالتها السابقة ، فقد خضعت البلاد من مصر إلى حمص لسلطان الإِخشيد ، ورضى الناس عن الأحوال عامة وعم الهدوء النسبى بأرجاء تلك الولايات وظلت الشام حتى سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٦م تحت حكم الخليفة المباشر ، ثم أدى ظهور التنافس بين والٍ وآخر إلى أن استولى محمد الإِخشيد على حلب فى سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٦م ، وكاًن وضع شمالى الشام لا يزال محفوفا بالمخاطر ، ولكن المتنبى كان ملزما أن يعيش حياة الشاعر الجواب فى الشام ، وتراه يمدح أمير طرسوس محمد بن زريق ويمنحه على قصيدته عشرين درهمًا [٤] .

وفى سنة ٣٢٨ هـ ، ٣٢٩ هـ ، ٩٤٠ م كان ابن رايق واليًا على شمال الشام ودمشق ، فعين اثنين على تلك البلاد . وهما محمد بن يزداد وبدر بن عمار فمدح الأخير بخمس قصائد وبقى عنده أكثر من سنة [٥] .

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٥٩، ٦٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٤٤ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٣٠ .

(٤) بلاشير . أبو الطيب المتنبى / ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٥) المرجع السابق / ١٦٣ ، ١٦٤ .

والظاهر أن رجلاً اسمه ابن كروس أفسد ما بينه وبين بدر فتركه المتنبى ، واتجه إلى صديق اسمه على بن أحمد الخراسانى فمدحه بقصيدة فيها لون من الثورة والسخط على ابن كروس ، بل إنه يهجوه فيها بعدما حصل له من فساد بينه وبين صاحبه بدر [١] ، وكان على هذا والى على طبرية يقيم فى مدينة جرش بوادى الأردن [٢] .

وبقى المتنبى فى شبه عزلة من منتصف سنة ٣٢٩ هـ إلى أن رحل مضطهده بدر إلى بغداد ، ومن الواضح بعد ذلك أنه قصد أنطاكية مباشرة حيث أضحى منذئذ فى حماية قاضى تلك المدينة محمد بن عبد الله بن محمد بن الخصيب[٣] ، ونراه يمدح بعض أعيان انطاكية وهم القاضى أبو الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسين وأخوه أبو سهل سعيد ، والمدعو أبا أيوب أحمد بن عمران الذى لا نعرف اسمه كاملاً [٤] .

وفى سنة ٣٣٠ هـ آخر سنة ٩٤١م دخل المتنبى حلب مادحًا مساور بن محمد ثم شرع بعد ذلك فى مدح أشخاص منهم على بن أحمد بن عامر ، وكان موظفا فى ديوان الرسائل والآخر هو على بن محمد بن سيار وهو رجل حرب ، وكان أبوه على الأرجح واليًا على أنطاكية ، وأما الثالث وهو على بن صالح الروذبادى ، وكان يشغل نفس الوظيفة فى دمشق فى سنة ٣٣٣ هـ ، ٩٤٤م [٥] .

ثم مدح بعد ذلك الحسين بن على الهمذانى ، وهو ابن على الخراسانى صديق الشاعر القديم وحاميه وكان المتنبى مدحه يومئذ ، ويظهر أن الحسين المذكور كان أيضًا فى خدمة مصر . ويبدو أن المتنبى وصل فى الشهور الأخيرة من سنة ٣٣٤ هـ ، إلى غايته ، وكان محمد الإخشيد نزل دمشق فحكوا له عن أبى الطيب فأمر بإدخاله وسأله أن ينشده شيئًا من شعره ، ولم يخف الأمير حماسته ومنح الشاعر مكافأة جليلة ، ولا ريب أن هذا كان محقًا فى اعتبار نفسه

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٦٥ .
(٢) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٣) المرجع السابق / ١٨٣ .
(٤) المرجع السابق / ١٨٨ .
(٥) المرجع السابق / ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ وطه حسين / مع المتنبى / ١٥٧ .

يومئذ المداح الرسمى للإخشيديين والدليل على ذلك هو أن موت محمد الإخشيد فجأة فى ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ / تموز ٩٤٦ م لم يغير شيئًا من وضع المتنبى، فقد انتقل دون صعوبة أو تردد إلى خدمة أنوجور وهذا ابن المتوفى وخلفه ، ورثى المتنبى الإخشيد مشيدًا بشجاعته وكرمه ، وصفات الأمير الذى دعى ليخلفه[١] ، وهذا ما يؤكده قول ابن العديم « قدم الشام فى صباه وجال فى أقطارها ، وصعد بعد ذلك إلى الديار المصرية ، وكان بها سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة» [٢] .

وفى سنة ست وثلاثين وثلاث مئة [٣] دعاه الأمير الحسن بن عبيد الله بن طغج إلى الرملة ليمدحه ، والحسن هذا ابن أخى الإخشيد محمد بن طغج ومدحه بقصيدة هى :

أَنَا لائِمِي إنْ كُنْتُ وَقْتَ اللَّوائِمِ عَلِمتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ [٤]

وفى الرملة مدح أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى بقصيدة هى :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهْو عِنْدَ الكَوَاعِبِ وَرُدُّوا رُقَادِي فَهْو لَحْظُ الحَبَائِبِ [٥]

ويختلف الدكتور طه حسين مع هذا الرأى ويرى قدوم المتنبى إلى الرملة فى أوائل خمس وثلاثين وثلاث مئة ورحل عنها فى نفس السنة بعد أن أقام عنده عدة شهور[٦] ، الرأى الأول هو الراجح عند شراح ديوانه [٧] ، وبعد ذلك سار المتنبى

---

(١) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر /٢/ ٢٤٩ . والمقريزى / المقفى / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر /٢/ ٣٥٠ .

(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٧٣، ٧٤ ، ٧٥ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣١٥ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ١٤٧ .

(٦) طه حسين / مع المتنبى / ١٥٠ .

(٧) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤ / ١٢١ .

سنة ست وثلاثين وثلاث مئة من الرملة إلى أنطاكية فمر ببعلبك وفيها على بن عسكر فخلع عليه وحمله وسأله أن يقيم عنده فمدحه بأربعة أبيات ورحل إلى أنطاكية فمدح أبا العشائر بالقصيدة التالية :

أَتُراهَا لِكَثْرَةِ العُشَّاقِ تَحْسبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِى المَآقِى (١)

ثم مدحه فى ثلاث قطع أخرى ، وقد أغار على أنطاكية يأنس المؤنسى قائد الإخشيديين ، وفوجئ أبا العشائر فقاتل عن نفسه حتى خرج إلى حلب ، وفى هذه الغارة قتل الطخرور وأمه . . . ثم رجع أبو العشائر إلى أنطاكية ، وكان أبو الطيب قد رجع إلى الرملة بعد أن سمع بعودته خرج يقصده ، ولما كان بطرابلس أراده إسحاق بن كيغلغ أن يمدحه وكان أن مر المتنبى بطرابلس وبها إسحاق هذا، وكان يجالس ثلاثة من بنى حيدرة وكان بين أبى الطيب وبين أبيهم عداوة قديمة. فقالوا : ما نحب أن يجاوزك ولم يمدحك وإنما يترك مدحك استصغاراً لك ، وجعلوا يغرونه به ، فراسله وطلب أن يمدحه ، واحتج أبو الطيب بيمين أن لا يمدح أحداً إلى مدة فعاقه عن طريق ينتظر قضاء تلك المدة وأخذ عليه الطريق وضبطها . ومات الثلاثة الذين يغرونه به فى مدة أربعين يومًا . فقال أبو الطيب يهجوه بطرابلس ، وقال لو فارقته قبل قولها ، لم أقلها أنفة من اللفظ بما فيها . قال : وأملاها على من يثق به ، فلما ذاب الثلج وجف عن لبنان خرج كأنه يسير فرسه ، وسار إلى دمشق وأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورجلاً فأعجزهم (٢) ، ثم ظهرت القصيدة وهى القصيدة التى مطلعها :

لِهَوى النُّفُوسِ سَرِيْرَةٌ لاَ تُعْلَمُ عَرَضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّى أَسْلَمُ (٣)

وهو الذى مدحه المتنبى عندما خرج من السجن بقصيدته الرائية :

حَاشَى الرَّقِيبُ فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُهُ وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانهَلَّتْ بَوادِرُهُ (٤)

---

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٣٦٢ .
(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ١٢١ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ١١٥ .

وهو الذى سام المتنبى الذل والمهانة عند دخوله السجن فى حمص منذ اثنتى عشرة سنة [(١)] فلا غرابة أن يهجوه المتنبى ، ثم سار إلى أنطاكية ، فلقى أبا العشائر ومدحه بقصيدتين وثمانى قطع [(٢)] . ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه «مع المتنبى» أن أبا الطيب وصل إلى أبى العشائر فى أواخر سنة ست وثلاثين وثلاث مئة فأتمها عنده ، وأقام معه وجهًا من سنة سبع وثلاثين مئة ، حتى قدم سيف الدولة أنطاكية فى جمادى الأولى من هذه السنة فمدحه واتصل به وانتقل معه إلى حلب [(٣)] .

وتتفق كثير من المصادر الأدبية والمراجع أن المتنبى دخل حلب فى سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة [(٤)] ، ومدح سيف الدولة فى كثير من أشعاره ، وأثنى عليه طول مكوثه عنده ، وكان يرى فيه رمزًا للعروبة وفخرها ، حيث استطاع أن يحمى البلاد العربية ضد دولة الروم الشرقية . واختلف الباحثون فى إقامته فى حلب عند سيف الدولة ، فبعضهم يرى أن إقامة المتنبى فى بلاط سيف الدولة كانت ثمانى سنوات من جمادى الأولى سنة ٣٣٧ هـ ، تشرين ٩٤٨م إلى ربيع الآخر ٣٤٥ هـ ، آخر حزيران ٩٥٦ م [(٥)] ، وبعضهم يرى أنه أقام لدى سيف الدولة تسع سنوات [(٦)] .

---

(١) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ١٩٩ إلى ٢٠٣ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٨٢، ٨٣ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ١٦٦ .

(٤) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٢١٥ . وبروكلمان / تاريخ الأدب العربى /٢/ ٨٢، ٨٣ . وتاريخ الشعوب الإسلامية / نقله إلى العربية نبيه أمين الريحانى ، ومنير البعلبكى . بيروت ط دار الملايين ط٧ -١٩٧٧م / ٢٤٣ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٩١ . وطه حسين / مع المتنبى / ١٦٨ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٣٨. وشوقى ضيف / الفن ومذاهبه في الشعر العربى / ٣٠٦ .ومحمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ٢٦ . وانظر فى ذلك : ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى / ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥٠ . وابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / القاهرة ط النهضة المصرية ١٣٦٧ ، ١٩٤٨م . الجزء الأول / ١٠٣ . والمقريزى / المقفى / ترجمة المنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر /٢/ ٣٥٠ . ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ٧١ .

(٥) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٢٥١ ، وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٨٤ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٤٠ .

(٦) بروكلمان / تاريخ الأدب العربى / ٢/ ٨٢ ، ٨٣ . ومحمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ٢٦ .

ويبدو أن الرأى الأخير هو الأقرب إلى الصواب ؛ وذلك لذكر المصادر الأدبية لرحلة المتنبى إلى مصر فى سنة ست وأربعين وثلاث مئة ، وأكدت هذه المصادر أن المتنبى دخل مصر للمرة الثانية (١) .

المتنبى فى مصر:

كان للمتنبى مكانة بارزة فى البلاط الحمدانى ، فهو شاعر سيف الدولة الأول مما أثار عليه حسد شعراء البلاط وغيرتهم فأخذوا يدسون عليه لأى سبب من الأسباب ، أضف إلى ذلك ما كان من تعدى ابن خالويه عليه فى مجلس سيف الدولة فلم يرد بدًا من أن يسافر إلى الفسطاط بعد ما استأذن سيف الدولة ، فى السير إلى إقطاعه فأذن له ، وامتد باسطًا عنانه إلى دمشق ومنها إلى مصر (٢) ، وقد دخلها فى سنة ست وأربعين وثلاث مئة (٣) وكان ذلك فى جمادى الآخرة من نفس السنة (٤) .

وكانت القصيدة الأولى فى مدح كافور هى :

---

(١) ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥٠ . وابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الجزء الأول / ١٠٣ ، والمقريزى / المقفى / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٣٥٠. ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ١١١ .

(٢) أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ١١، ١٢ . وعبد القادر بن عمر البغدادى / خزانة الأدب / القاهرة ط السلفية ١٣٤٨هـ/ ٣٠٧.

(٣) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٣٣٣. وبروكلمان/ تاريخ الأدب الغربى / ٢/ ٨٢، ٨٣. وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٠٢. وطه حسين / مع المتنبى / ٢٧٩ . وشوقى ضيف . الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ٢٠٧ . وعصر الدول والإمارات / ٣٤٨. وانظر فى ذلك الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٦٢٣. وأبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ٢٨١. وابن خلكان / وفيات الأعيان / القاهرة تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / الجزء الأول / ١٠٣ . وابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥٠/ والمقريزى / المقفى/ ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٣٥٠/ ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ١١١ .

(٤) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٦٢٣. وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٤٦ . ومحمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ٢٧ .

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الـمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا [1]

وقد كان كافور ذكيًا ، فقد أغراه أنه سوف يوليه حاكمًا على صيد فى الشام [2] ، وما زال المتنبى يمدح كافوراً بكثير من قصائده على أمل أن يحقق له هدفه الذى طالما تمناه حتى إذا لم يحقق له مطلبه أخذ المتنبى يعرض به فى شعره ، وأخذ الوزير ابن حنزابه يدس عليه لأن المتنبى لم يمدحه فى شعره .

وقد أقام أبو الطيب بمصر أربع سنين وستة أشهر من جمادى الآخرة [3] سنة ست وأربعين وثلاث مئة إلى التاسع من ذى الحجة سنة خمسين وثلاث مئة[4] .

ومدح كافوراً حين قدم عليه ، وختم مدائحه بقصيدة أنشده إياها فى شوال سنة تسع وأربعين وثلاث مئة ، وبقى بعد ذلك سنة وشهرين لم ينشد كافورا شيئًا من شعره وبين القصيدتين الأولى والآخرة ثلاث سنين وأربعة أشهر ، مدح فيها كافوراً بتسع قصائد وقطعتين فيها كلها ثلاثة وسبعون وثلاث مئة ،وذلكم ربع ما مدح به سيف الدولة [5] .

ووجد فى مصر مولى آخر للإخشيد لم يكن حبشيًا ،وإنما كان روميًا هو فاتك ، وكان الإخشيد أقطعه « الفيوم » حتى لا يحقد على كافور ما صير إليه من وصاية على ابنه وإدارته لشئون الدولة ، وقد مدحه المتنبى دون أن يراه ليؤذى كافوراً ولذلك نراه يمدح فاتكا وقد أعطاه أربعة آلاف جنيه منعلة بالذهب ، فسماه أهل مصر بفاتك المجنون فلقيه المتنبى على رقبة من كافور فقال يمدحه سنة ٣٤٨ هـ : [6] .

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مَالُ فَلْيُسعدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ يُسْعِدِ الحَالُ

---

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ٢٨١ .
(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١١٢ .
(٣) جلال الدين السيوطى / حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . مصر ط ١٨٦٠م/ ٢٥٧.
(٤) ابن خلكان / وفيات الأعيان / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد / ١/ ١٠٣، وبروكلمان/ تاريخ الأدب العربى / ٢/ ٨٢, ٨٣ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى ترجمة إبراهيم الكيلانى/ ٣٧٦ .ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب ، دراسة نصية / ٢٠٤ . وشوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٤٩ .
(٥) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١١٠ .
(٦) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٧٠٤ .

فوصله بالجوائز والعطايا حتى بلغت قيمتها عشرين ألف دينار ، ومات فاتك فرثاه المتنبى وذم كافوراً وأكثر من هجائه [١] .

أما قصة هروبه من مصر فقد ذكر المؤرخون أن المتنبى صمم على الرحيل بعد وفاة فاتك التى كانت فى ليلة الأحد وقت العشاء الآخرة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاث مئة ، فهو لم يمكث بها إلا شهرين يدبر لرحيله يقول البديعى : « وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام فى لطف ورفق ولا يعلم به أحد من غلمانه ، وهو يظهر الرغبة فى المقام . وطال عليهم التحفظ . فخرج ودفن الرماح فى الرمل ، وحمل الماء على الإبل فى الليل من النيل عدة لعشر ليال وتزود لعشرين » [٢] .

ولم يسلك المتنبى طريقًا معهودة بين مصر والعراق ، فقد تجنب طريق الشام إذ كانت فى سلطان كافور ثم إنه لم يسلك طريق دمشق الكوفة ، ولا طريق الفرات ، ولم يسلك أيضًا طريق الحاج المصرى إلى الحجاز ، ولا الحاج العراقى من المدينة إلى الكوفة فهذه المواضع التى ذكرت فى الرواية والتى ذكرت أيضًا فى قصيدته المقصورة لم تكن من منازل الطرق المعروفة فى المسالك [٣] فقد سار كما قال صاحب الواضح « فاهتبل المتنبى غفلة كافور ودفن رماحه براً وسار ليلته وحمل بغاله وجماله وهو لا يألو سيراً وسرى هذه الثلاثة أيام حتى وقع فى تيه بنى إسرائيل إلى أن جاوزه على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل ، والمناهل الأواجن وترك الكوفة » [٤] وقال يقتص حاله :

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدَا كُلِّ مَاشِيَةِ الهَيْدَبَى [٥]

---

(١) عبد الله عبد الرحمن الأصفهانى / الواضح فى شعر المتنبى /١٢ . وعبد القادر بن عمر البغدادى / خزانة الأدب ط . السلفية ١٣٤٨/ ٣٠٨.

(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٢٤ .

(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ١٣ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٣٦/١ . الخيزلى : مشية فيها استرخاء من مشية النساء . والهيدبى مشية فيها سرعة من مشى الإبل .

وبهذا انتهز المتنبى غفلة كافور وانشغاله بالعيد وما يصاحبه من سنن ، وأخذ طريقه التى رأى أن يسلكها . ولما اجتاز أبو الطيب بلبيس [(١)] نزل على عبد العزيز بن يوسف القيسى فأضافه وأكرمه وسيره [(٢)] . وكتب إليه أبياته التى أولها :

جَزَى عَرِبًا أَمْسَتْ بِبُلْبَيْسَ رَبُّهَا ... بِمَسْعَاتِهَا تَقْرَرْ بِذَاكَ عُيُونُهَا [(٣)]

وكان المتنبى يعرف عبد العزيز من قبل . وله فيه ثلاثة أبيات أولها [(٤)] :

لَئِنْ مَرَّ بِالفُسْطَاطِ عَيْشٌ لَقَدْ حَلاَ ... بِعَبْدَ العَزِيْزِ المَاجِدِ الطَّرَفَيْنِ

وعبر أبو الطيب بموضع يعرف بنجة الطير [(٥)] ، حتى خرج إلى ماء يعرف بنخل بعد أيام [(٦)] ، يقول المتنبى :

فَمَرَّتْ بِنَخْلٍ وَفِى رَكْبِهَا ... عَنِ العَالَمِينَ وَعَنْهُ غِنَى [(٧)]

وسار حتى قرب من النقاب [(٨)] . وأشرف على ما نسميه اليوم رأس النقب وهو على حدود مصر الحالية [(٩)] ، يقول :

وَأَمْسَتْ تُخَيِّرُنَا بِالنِّقَا ... بِ وادِى المِيَاهِ وَوَادِى القُرَى [(١٠)]

---

(١) ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثانى / ٢٦٢.

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٣٦ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٤٥ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديون المتنبى / ٢٤٩/٤.

(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تحقيق وتقديم د. عبد الوهاب عزام / ٣٦.

(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٥٤ .

(٦) يوسف الديعى / الصبح المنبى / ١٢٥ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلاني / ٣٨٣ . وأحمد رمزى بك / خروج المتنبى من مصر الرسالة - السنة العشرون - العدد ٦٩٦ سنة ١٩٥٢م ، ص ٨٥٧. وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٥٤ .

(٧) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٣٨/١ .

(٨) ياقوت . معجم البلدان / مصر ط السعادة أولى ١٩٠٦/ ٣٠٦ .ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٢٥ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٣٨٣ .

(٩) أحمد رمزى بك / خروج المتنبى من مصر / الرسالة - السنة العشرون - العدد ٦٩٦ / ٨٥٧.

(١٠) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٣٨/١ .

ثم انحرف نحو الجنوب الشرقى للوصول إلى تربان [١] ، يقول :

وَقُلْنَا لَهَا أَيْنَ أَرْضُ العِرَاقِ فَقَالَتْ وَنَحْنُ بِتُرْبَانَ : هَا [٢]

ثم رأى رائدين لبنى سليم على قلوصين ، فركب الخيل ، وطردهما حتى أخذهما فذكر أن أهلهما أرسلهما رائدين فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين وسارا معه حتى توسط بيوت بنى سليم آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبى النجم وذبح له وسار معه إلى النقيع فنزل ببادية معن وسنبس وهناك أكرمه عفيف المعنى وذبح له . ثم سار من عنده إلى أن وصل حِسْمَى [٣] ، وهى أرض كثيرة النخيل والخير فطابت له حِسْمَى فأقام بها شهراً [٤] ، يقول :

وَهَبَّتْ بِحِسْمَى هُبُوبُ الدَّبُو رِ مُسْتَقْبِلاَتِ مَهَبَّ الصَّبَا [٥]

ونزل عند وردان بن ربيعة الطائى ، فاستغوى عبيده ، وأجلسهم مع امرأته فكانوا يسرقون له الشيء بعد الشيء ، وظهر لأبى الطيب فساد عبيده . رأى أن يذهب فى جنح الليل وأخذ عبيده ورماهم فوق ظهور الإبل وأخذ فى المسير فأخذ بعض العبيد السيف فى الليل ، فدفع به إلى عبد آخر معه فرسه ، وجاء ليأخذ فرس أبى الطيب فتنبه له فقال الغلام : أخذ الفرس يغالطه ، عدا نحو الفرس ليقعد فى ظهره ، فالتقى هو وأبو الطيب عند الحصان ،، وسل العبد السيف فضرب رسنه وضرب أبو الطيب وجه العبد ، وأمر الغلمان بقتله ، وكان هذا العبد أشد من معه فقال أبو الطيب مقطوعته التى يقول فيها :

---

(١) في معجم البلدان مذكور بتران بالضم موضع فى بلاد بنى عامر / ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثانى / ٥٦ . وانظر في ذلك بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة في التاريخ الأدبى/ ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٣٨٣ ، ٣٨٤ . وأحمد رمزى بك / خروج المتنبى من مصر / الرسالة السنة العشرون - العدد ٦٩٦ / ١٩٥٢/ ٨٥٧.

(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٩.

(٣) أ- موسل / شمال الحجاز / نقله إلى العربية د. عبد المحسن الحسينى - اسكندرية ط . رمسيس ١٩٥٢ / ١٣٨ ، ١٣٩ . قال ياقوت : هى أرض ببادية الشام بينها وبين وادى القرى ليلتان وأهل تبوك يرون حِسْمَى فى غربيهم وفى شرقيهم شرورى وبين وادى القرى والمدينة ست ليال . ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثالث / ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٤) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٢٥ ، ١٢٦ وبلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٣٨٤ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٥٤ .

(٥) أبو البقاء العكبرى/ شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٩ .

أَعْـدَدْتُ لِلـغَـادِرِيْنَ أَسْـيَـافَـا　　　أَجْـدَعُ مِنْهُمْ بِهِـنَّ آنَافَـا [1]

ثم أخذ يهجو وردان بقوله [2] :

إنْ تَكُ طَـيٌّ كَـانَتْ لِـئَـامَـا　　　فَـأَلأَمُـهَـا رَبِيْـعَـةُ أَوْ بَـنُوهُ

وإنْ تَكُ طَـيٌّ كَـانَتْ كِـرَامَـا　　　فَـوَرْدَانَ لِغَـيْـرِهِـمِ أَبُوهُ [3]

وقد كان المتنبى أرسل رسلا إلى بعض العرب ، وعاد إليه رسوله بدون خبر عن العرب التى طلبها ، فرأى أن يسير إلى دومة الجندل [4] التى تحمل الآن اسم الجوف [5] ، وكان ذلك لإشفاقه أن تكون عليه عيون بِحِسْمَى ، ثم اتجه نحو الشرق فواصل الكفاف والكبد [6] ، يقول :

رَوَامِى الكِفَـافِ وَكَـبْـدِ الوِهَادِ　　　وَجَـارِ البُـوَيْرَةِ وَادِى الغَـضَى [7]

وبعد ذلك ورد البويرة [8] بعد ثلاث ليال ، ولما توسط بسيطة [9] ، وهى أرض قرب الكوفة ، رأى بعض عبيده ثورًا فقال هذه منارة الجامع ، ونظر الآخر إلى نعامة فقال : هذه نخلة فضحك أبو الطيب فقال :

بُسَـيْطَةُ مَـهْـلاً سُـقِـيْتِ القِطَارَا　　　تَرَكْتِ عُـيُـونَ عَـبِـيْدِى حَـيَارَى

فَظَـنُّوا النَّـعَـامَ عَلَيْكِ النَّخِـيْلَ　　　وَظَنُّـوا الصُّـوَارَ عَـلَيْكِ المَـنَارَا

فَـأَمْـسَكَ صَـحْـبِى بِأَكْـوَارِهِمْ　　　وَقَدْ قَصَدَ الضِّحْكُ فِيْهِمْ وَجَارَا [10]

---

1) المصدر السابق / ٢/ ٢٩٢ .
(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ٢٦٨ .
(٤) ياقوت / معجم البلدان / المجلد الرابع / ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٥) المصدر السابق / المجلد الثالث / ١٧٣ وانظر فى ذلك بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٣٨٤ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٥٥ .
(٦) ياقوت / معجم البلدان / المجلد السابع / ٢١٢ ، ٢٦١ . وانظر بلاشير أبو الطيب المتنبى/ ٣٨٤ .
(٧) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٣٩ .
(٨) ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثاني / ٣١١ .
(٩) أرض فى البادية بين الشام والعراق . ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثانى / ١٨٣ ، ١٨٤ والعكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٤٠ .
(١٠) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ١٤٧ .

ثم سار حتى وصل عقدة الجوف بعد ليال [١] ، واستمر فى مسيره حتى سقى بالجراوى [٢] وواصل سيره مارا بمنطقة الشغور [٣] ، يقول :

وَلاَحَ لَهَا صُوَرٌ والصَّبَاحُ ... وَلاَحَ الشَّغُورُ لهَاَ وَالضُّحَى [٤]

وسار حتى أتاه المساء فى موضع يقال له « الجُمَيْعِيَّ » [٥] ، وواصل سيره ماراً بالأضارع والدنا [٦] .

يقول :

ومَسَّ الجُمَيْعِيَّ دِئْدَاؤُهَا ... وَغَادِى الأضَارِعَ ثُمَّ الدَّنَا [٧]

وسار إلى أَعْكُشٍ [٨] حتى إذا ورد الرُّهَيْمَةَ [٩] قال :

فَيَالَكَ لَيْلاً عَلَى أَعْكُشٍ ... أَحَمَّ البِلاَدَ خَفِيَّ الصُّوَى

وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فِى جَوْزِهِ ... وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى

ودخل الكوفة فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة [١٠] ، وبعضهم يرى أنه وصل إلى الكوفة فى شهر جمادى الآخرة من نفس السنة [١١]، والراجح أنه وصل إليها فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة [١٢].

(١) ياقوت / معجم البلدان / المجلد السادس / ١٩٣ .

(٢) يرى ياقوت أن « الجروى » مياه لطئ بالجبليلين - ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثالث / ٧٢ .

(٣) يقول ياقوت : هو موضع بالبادية معروف بادية قلب بالسماوة قرب العراق تقول العرب إذا وردت شغورا فقد عرقت . ياقوت / معجم البلدان / المجلد الخامس / ٢٧٨ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ١/ ٤٠ .

(٥) ياقوت / معجم البلدان / المجلد الثالث ١٤٠ .

(٦) الدنا والأضارع / موضعان قرب الكوفة / ياقوت / معجم البلدان / المجلد الرابع / ٨٩ .

(٧) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٤٠ .

(٨) موضع قرب الكوفة - ياقوت / معجم البلدان / المجلد الأول / ٢٩٢ .

(٩) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٤٠، ٤١ .

(١٠) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٢٧ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى/ ٥٥ .

(١١) محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ٢٩ .

(١٢) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ١٩٩ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٤٢ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم =

المتنبى فى العــراق :

رحل المتنبى من مصر إلى العراق ، ونزل الكوفة فى ربيع الأول سنة ٣٥١هـ[١]، وحدث حين إقامته هناك أن خرج رجل خارجى ، كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بنى كلاب واجـتمعت إليه فـئة من القرامطة ، فـقام إليهم أبو الفـوارس دلير بن لشكروز وانصرف الثائر قبل وصول دلير إلى الكوفة فمدحه أبو الطيب وأنشده فى الميدان [٢] ، ولم ينزع فى تلك الفترة إلى قول الشعر ، لأنه لم ير فى مجتمع الكوفة من يستحق مديـحه ، ولم يقل فيها سوى مقصورته المـشهورة ، وكان قد خرج من الفسطاط فى يوم عرفات سنة ٣٥٠ هـ فكأن هذه قد اقـتضته ثلاثة أشهر أو أقل أو أكثـر قليلاً [٣] . ويلاحظ أن المتنبى لم يطمئن إلى حـياته فى الكوفة ولم يرض لنفسه لهذا الخمول الذى لم يخلق له [٤] . فانتقل إلى بغداد فوصلها وأقام بهـا منذ سنة ٣٥٢ هـ [٥] ، ويرى الدكتور عزام أنه بقى فـيها منذ جمادى الآخرة إلى شعبان من نفس السنة حـيث إن الوزير المهلبى بارح بغداد فى جمادى الآخرة إلى البصرة ومات قبل أن يرجع إلى دار الـخلافة ولا نعلم كم أقام بها قبل هذا وأحسبه لم يطل الإقامة بها [٦] .

وقد نزل المتنبـى فى ربض حميد فى الجانب الغـربى منها فى دار على بن حمزة البصرى اللـغوى الذى روى ديوانه ، وروى عنه ابن جنى بعض أشعار أبى الطيب وبقى ضيفه حتى رحل عنها فى شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة[٧] .

= الكيلاني / ٣٨٥ . وحياة أبى الطيب وشعره / المورد / المجلد السادس/ العدد الثالث / عدد خاص / أبو الطيب المتنبى / بغداد ١٣٩٧هـ/١٩٧٧/ ٤٧. وطه حسين / مع المتنبى /٣٣٨، ٣٣٩ . ومحمود محمد شاكر/ المتنبى / السفر الأول / ٢٧٠ .

(١) مـحـمـد حلمى بك / أبـو الطيب المـتنبى حـيـاته وخلـقـه وشـعـره وأسلوبه / ١٣٣٩هـ، ١٩٢١م/ ١٦٧ . وعبد الوهاب عـزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عـام /١٤٣ . وطه حسين / مع المتنبى /٣٣٨، ٣٣٩ . ومحمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول / ٢٧٠ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٢٧٠ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٣٩ .

(٤) طه حسين / مع المتنبى / ٣٤٧ .

(٥) فيصل السامر / الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب / بغداد سنة ١٩٧٣م/ ٢٨٠ .

(٦) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٢٠ .

(٧) المرجع السابق / ٢٢٠ .

ولم تكن بغداد متأهبة لاستقبال الشاعر العظيم ، حيث إنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فقد أساء الشاعر فى حلب إلى أولاة الأمر فى بغداد إساءة ليس من اليسير نسيانها بهذه السرعة والسهولة (١) ، ولو عدت إلى قراءة بعض شعره وجدت له أثرًا فى حياته الأدبية والسياسية استمع إليه يقول :

فَـدَتْكَ مُلُوكٌ لَمْ تُسَمَّ مَواضِيَا ... فَإنَّكَ مَاضِى الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلُ

إذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَة ... فَفِى النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبُولُ (٢)

ويقول طه حسين : « معز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين ما أشك فى ذلك ، فهو قد لقب بلقب يضاف إلى الدولة ، ولكنه ليس ماضيًا ولا عضبا ، وإنما هو لفظ لا يغنى شيئًا . والبيت الثانى صريح فى ذلك ، فقد جعل المتنبى أمير حلب سيفا للدولة يحميها ويذود عنها ، على حين أن منافسه فى بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول ، وقد كان أثر هذا البيت عميقا جدا فى الشرق الإسلامى كله ، وبغداد وخاصة فقد ذكر هذا البيت حين وصل إلى بغداد فى آخر حياته ، وعيب عليها فيها وفى غيرها من الشرق الإسلامى . وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد عابه الصاحب بن عباد (٣) . وعد طه حسين هذا البيت من أقذع وأوجع بيت فى الهجاء . ولهذا كانت النفوس موغرة ضده خاصة معز الدولة ووزيره المهلبى ، لأنه مدح خصمهما سيف الدولة وخلد ذكره دونهما (٤) .

ولقد حاول الوزير المهلبى أن يوليه عملاً فى خدمته ، ولكن المتنبى أبى أن يمدحه فألب هذا عليه شعراءه على هجائه (٥) ، وربما لم يمدحه لأنه كان عازمًا على العودة إلى حلب وخشى أن يكون مدحه لحكام بغداد سببًا فى إحداث الجفوة التى لا رجعة فيها بينه وبين سيف الدولة (٦) .

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣٤٥ .
(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تحقيق وتقديم د. عبد الوهاب عزام / ٢٨٩ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٤) محمد مندور / النقد المنهجى عند العرب ، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر / ١٨٧ .
(٥) كارل بروكلمان / تاريخ الأدب العربى / نقله إلي العربية الدكتور عبد الحليم النجار / ٢/ ٨٢ .
(٦) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٢٢٣ .

ومن الحق أنه لم تكن لديه رغبة فى أن يمدح الخليفة العباسى ولا السلطان معز الدولة البويهى ، وكأنه رأى فى ذلك إذلالاً لنفسه ، وقد تعرض لهما ، ولإخوانهما من الأعاجم بالقدح الجارح ، وأنكر تسلطهم على الرغبة واستطالتهم عليهم بالقهر والظلم مع ما هم فيه سادرون من لهو ومجون [١] ، وربما كان من أسباب انصراف المتنبى عن مجالس المهلبى أنه كان يعزف عن الشراب بينما كانت مجالس المهلبى يكثر فيها الشراب كما ذكر ابن خلكان ذلك[٢].

وتختلف المراجع الحديثة حول إقامته فى بغداد هل كانت نحو ثلاثة أشهر، كما ذكر الدكتور عزام [٣] ، أو كانت سبعة أشهر [٤] ، أو كانت ثمانية أشهر [٥] ، أو تعدى ذلك إلى تسعة أشهر [٦].

ومن الواضح أنه أقام فى العراق منذ أن قدم إليها فى ربيع الأول سنة ٣٥١هـ ، إلى أن سافر إلى فارس فى صفر سنة ٣٥٤ هـ وذلك زهاء ثلاث سنوات [٧].

المتنبى فى فارس :

رحل المتنبى إلى فارس - كما قلت سابقًا - فى صفر سنة ٣٥٤ هـ ، بعد ما يئس من معز الدولة ووزيره المهلبى ، وكان السبب الحقيقى فى سفره إلى فارس ما ذكره صاحب الواضح فى مشكلات شعر المتنبى ، إذ يقول : « وكان السبب فى قصده أبا الفضل ابن العميد على ما أخبرنى أبو على بن شبيب القاسانى ، وكان أحد تلامذتى ودرس على بقاسان سنة ثلاث مئة وسبعين ، وتوزر للأصفهيد بالجبل ، وأبوه أبو القاسم توزر لوشمكيربجرجان ، عن العلوى العباسى نديم أبى الفضل بن العميد الذى يقول فيه :

(١) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٢ .

(٢) أشار إلى مجالس شرابه . الحاتمى / الرسالة الموضحة / ١١٩ .

(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٢٠ .

(٤) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٢ .

(٥) طه حسين / مع المتنبى / ٣٥٠.

(٦) محمد مهدي البصير / في الأدب العباسى / ٣٤٠ .

(٧) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢١٥ . وعبد الرحمن البرقوقى/ شرح ديوان المتنبى / ٥٨ .

أَبْلِغْ رِسَالَتِى الشَّرِيفَ وَقُلْ لَهُ قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِى الغُلْوَاءِ

أن المعروف بالمطوق الشاشى كان بمصر وقت المتنبى فعمد إلى قصيدته فى كافور :

أُغَالِبُ فِيْكَ الشَّوقُ وَالشَّوُق أَغْلَبُ

وجعل مكان « أبا المَسك » أبا الفضل وسار به إلى خراسان وحمل قصيدة عن المتنبى إلى أبى الفضل وزعم أنه رسوله فوصله أبو الفضل بألفى درهم واتصل هذا الخبر بالمتنبى ببغداد فقال : رجل يعطى لحامل شعرى هذا فما تكون صلته لى » (١) .

وسار المتنبى إلى الأهواز أكبر مدن خوزستان « عربستان اليوم » وهى أرض غنية حيث توقف عدة أيام ، ثم سار نحو الجنوب الشرقى مارًا برامهرمز ، ثم سار فى رحلته إلى نهر الزاب الذى يعلوه جسران مشهوران ، واستطاع أبو الطيب أن يشاهد من فوق رابية مدينة أرجان فرآها ضيقة البقعة والدور والمساكن فضرب بيَده على صدره ثم قال : « تركت ملوك الأرض وهم يتعبدون لى وقصدت رب هذه المدرة فما يكون منه » (٢) ، وعمد بعد ذلك إلى أن يرسل غلامًا على راحلته إلى أبى الفضل بن العميد ، فدخل عليه وقال : يا مولاى : أبو المتنبى خارج البلاد وكان ذلك وقت القيلولة وهو مضطجع فى فراشه فقام منه وأمر حاجبه باستقباله وأمر أهل البلد أن يستقبلوا أبا الطيب المتنبى ، وبعد ذلك استقبله أبو الفضل واجلس على كرسى عليه مخدة ديباج وقال أبو الفضل : مشتاقًا إليك يا أبا الطيب ثم أفاض المتنبى فى حديثه عن شعره وأن غلامًا له احتمل سيفًا وشذ عنه (٣)، وقد أنزله بعد ذلك فى دار وكان يزور ابن العميد كل يوم، ولبث عنده شهرين (٤) ، أو ما يقاربهما (٥) ، ومدحه بثلاث قصائد كانت أولاها :

---

(١) عبد الله الأصفهانى / الواضح في مشكلات شعر المتنبى /١٣، ١٤ . وانظر فى ذلك عبد القادر بن عمر البغدادى / خزانة الأدب / القاهرة ط السلفية ١٩٤٨م/١٠٩، ٣١٠ .

(٢) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى /١٦ .

(٣) عبد الله الأصفهانى / الواضح في مشكلات شعر المتنبى / ١٦. وخزانة الأدب / ط السلفية / ٣١٠.

(٤) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام/١٦٨، وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٦٢ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى /٢/ ١٦٠ .

بَادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا   وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

والثانية هى :

جَـاءَ نَيروزنا وأنت مراده   وورت بالذى أراد زناده [1]

وبعد هذه القصيدة - وقبل القصيدة الثالثة قطعتان قال الشاعر إحداهما حين ورد كتاب من أبى الفتح بن أبى الفضل بن العميد أولها :

بِكُتُبِ الأَنَامِ كِتَابٌ وَرَدْ   فَدَتْ يَدَ كَاتِبِهِ كُلُّ يده [2]

وثانيتهما يقال يصف مجمرة رآها عند ابن العميد وأولهما :

أَحَبُّ أُمْرِئٍ حَبَّتْ الأَنْفُسُ   وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهُ مُعْطِسُ [3]

ثم تأتى بعد ذلك القصيدة الثالثة ، وهى التى يودع فيها الشاعر أبا الفضل بن العميد وهى التى مطلعها :

نَسِيْتُ وَمَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ   وَلاَ خَفَراً زَادَتْ بِهِ حمرة الخَدِّ [4]

وعندما أزمع المتنبى الرحيل عن ابن العميد ، أرسل الصاحب بن عباد من أصبهان ليزوره المتنبى ويمدحه وكان إذا ذاك لم يستوزر بعد ، فلم يقم له المتنبى وزنًا ، فأخذ الصاحب يكن الحقد والبغض لأبى الطيب فألف رسالة فى نقد شعره ، وتتبع هفواته اللغوية [5] فى رسالته المسماة الكشف عن مساوئ المتنبى، ثم تأهب المتنبى للرحيل إلى أهله بالكوفة حتى جاء ابن العميد كتاب من عضد الدولة فى طلب المتنبى ، فأخبره ابن العميد به فقال المتنبى : « مالى وللديلم؟ فقال أبو الفضل : عضد الدولة أفضل منى ويصلك بأضعاف ما كنت وصلتك به، فأجاب بأنى ملقى من هؤلاء الملوك أقصد الواحد بعد الواحد

---

(١) المصدر السابق / ٢/ ٤٧ .

(٢) المصدر السابق / ٢/ ٥٨ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى/ شرح ديوان المتنبى / ٦٢، ٦٣ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٥٩ .

(٥) الثعالبى / يتيمة الدهر / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد/ الجزء الأول/ ١٢٢ .

وأملكهم شيئًا يبقى بقاء النيرين . ويعطوننى عرضًا فانيًا ولى ضجرات واختيارات فيعوقوننى عن مرادى فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه » [1] .

« فكاتب أبو الفضل عضد الدولة بهذا الحديث فورد الجواب بأنه مملك مراده فى المقام والظعن . فسار المتنبى من أرجان فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبى عمر الصباغ أخى أبى محمد الأبهرى صاحب كتاب حدائق الآداب ، فلما تلاقيا وتسايرا استنشده فقال المتنبى : الناس يتناشدونه فاسمعه [2] « فأخبر أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس العالى . فبدأ بقصيدته التى فارق مصر بها :

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى   فِدا كُلِّ مَاشِيَةِ الهَيْدَبَى

ثم دخل البلد فأنزل دارًا مفروشة ، ورجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى وأنشده أبياتًا من كلمته وهى :

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَا   حَ فَوْقَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلاَ
وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا   وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ العِدَا
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بالعِرَاقِ   وَمَنْ بِالعَوَاصِمِ أَنِّى الفَتَى
وَأَنِّى وَفَيْتُ وأَنِّى أَبَيْتُ   وَأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا [3]

فقال عضد الدولة : هو ذا يتهددنا المتنبى [4] .

وقد أنشأ أبو الطيب عند عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة طردية وقطعة . وإحدى القصائد تعزية فى عمة عضد الدولة التى توفيت ببغداد ، والأخريات ليس فيها من التاريخ إلا وصفه هزيمة وهشوذان الكردى الثائر على بنى بويه فى قصيدتين وأولى القصائد القصيدة التى مطلعها:

---

(١) الأصبهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى/١٩، ٢٠. وعبد القادر البغدادى خزانة الأدب/ ط السلفية ١٣٤٨هـ/ ٣١٣ .

(٢) الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢٠.

(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى /١/ ٤١، ٤٢ .

(٤) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢٠.

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قُولَتِي وَاهًا لِمَنْ نَأَتْ وَالبَدِيلُ ذِكْرَاهَا [1]

ويتضح من كتاب الواضح فى مشكلات شعر المتنبى أن القصيدة التى أنشدها [2] هى التى وصف فيها شعب بوان فى طريقه إلى شيراز :

مَغَانِي الشِّعبِ طِيبًا فِي المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ [3]

ولكن ترتيب الديوان وعنوان الأولى فى النسخ وقوله فى الثانية يصف ابنى عضد الدولة :

وَلَمْ أَرَ قَبْلَهُ شِبْلَيْ هِزَبْرٍ كَشِبْلَيْهِ وَلاَ مُهْرَيْ رِهَانِ [4]

وهو لم يرهما إلا بعد قدومه إلى شيراز ، وغشيانه مجلس عضد الدولة ، وهذا يدل على أن الأولى هى :

أوه بديل من قولتى واها [5]

وقد وصل عضد الدولة المتنبى صلات كثيرة رواه صاحب الواضح حيث يقول : « وحمل إليه عضد الدولة من أنواع الطيب فى الأردية الأمنان من بين الكافور والعنبر والمسك والعود » . وقلد فرسه الملقب بالمجروح وكان قد اشترى له بخمسين ألف شاة وبدره [6] . دراهمها عدلية ، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل وعمامة قومت خمسمائة دينار ، ونصلا هنديًا مرصع النجاد والجفن بالذهب » [7] .

وقد أقام أبو الطيب المتنبى فى شيراز زهاء ثلاثة أشهر وقرئ عليه ديوانه ، ثم أنشد قصيدة الوداع فى شعبان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة [8] .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ٤/ ٢٦٩ .

(٢) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢١ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ٢٥١ .

(٤) المصدر السابق / ٤/ ٢٦٠ .

(٥) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام/ ١٧٣، ١٧٤ .

(٦) البدرة : كيس يسع قدرًا من الدراهم أو الدنانير .

(٧) عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢١ .

(٨) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام/ ١٧٥ . وعبد الرحمن البرقوقى/ شرح ديوان المتنبى/ ٦٤ .

مقتل المتنبى :

اختلف المؤرخون حول مقتل المتنبى ورووا لذلك روايات مختلفة ، ومن هذه الروايات رواية البديعى التى تقول : « قال الخالديان كنا كتبنا إلى أبى نصر محمد الجبلى فسأله عما صدر لأبى الطيب المتنبى بعد مفارقته عضد الدولة ، وكيف قتل ؟ وأبو نصر هذا من وجوه الناس فى تلك الناحية ، وله فضل ، وأدب جزل ، وحرمة ، وجاه ، فأجابنا عن كتابنا جوابا طويلا يقول فى أثنائه : وأما ما سألتما عنه من خبر مقتل أبى الطيب المتنبى فأنا أسوقه لكما ، وأشرحه شرحًا بينًا » (١) .

« وأما شرح الخبر فإن فاتكا صديق لى ، وهو كما سمى « فاتك لسفكه الدماء » ، وإقدامه على الأهوال فى مواقف القتال . فلما سمع الشعر الذى هجى به ضبه اشتد غضبه ، ورجع على ضبة باللوم ، وقال له : كان يجب ألا تجعل لشاعر عليك سبيلا ، وأضمر على ما أظهر ، واتصل به انصراف المتنبى من بلاد فارس ، وتوجهه إلى العراق ، وأعلم أن اجتيازه بحبل . ودير العاقول ، فلم يكن ينزل عن فرسه ، ومعه جماعة من بنى عمه رأيهم فى المتنبى مثل رأيه ، من طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد ، وكان فاتك خائفًا أن يفوته ، وكان كثيرًا ما ينزل عندى ، فقلت له يومًا وقد جاءنى وهو يسائل قومًا مجازين عن المتنبى : قد أكثرت المسألة عن هذا الرجل . فأى شىء تريد منه إذا لقيته ؟ فقال : يا أبا نصر والله لئن اكتحلت عينى به أو جمعتنى وإياه بضعة لأسفكن دمه، ولامحقن حياته إلاَّ أن يحال بينى وبينه قلت له كف رعاك الله - عن هذا القول ، وارجع إلى الله ، وأزل هذا الرأى عن قلبك ، فإن الرجل شهير الاسم، بعيد الصيت ، ولا يحسن منك قتله على شعر قاله ، وقد هجت الشعراء الملوك فى الجاهلية ، والخلفاء فى الإسلام ، فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه ، وقد قال الشاعر :

هَجَوتُ زُهَيْرًا ثُمَّ إنِّى مَدَحْتُهُ ... وَمَا زَالَتْ الأَشْرافُ تُهْجَى وتُمْدَحُ

(١) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٧٠ .

ولم يبلغ من جرحه مـا يوجب قتله، فقال : يفعل الله مـا يشاء وانصرف ، ولم يمض لهذا القول غير ثلاثة أيام حتى وافانى المتنبى ، ومعه بغال موقرة بكل شىء من الذهب ، والطيب والتجـملات النفيسة ، والكتب الـثمينة ، والآلات ، لأنه كان إذا سافر لم يخلف فى منزلة درهمًا ولا شيئًا يساويه ، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره ، لأنه كان قد انتخبها ، وأحكمها قراءة وتصحيحًا قال أبو نصر : فتلقيته، وأنزلته دارى ، وسألته عن أخباره ، وعـمن لقى ، فعرفنى من ذلك ما سررت به له ، وأقبل يصف ابن العـميد وفضله ، وأدبه ، وعلمه ، وكـرم عضد الدولة ، ورغبته فى الأدب ، وميله إلى أهلـه ، فلما أمسينا قلت له يا أبا الطيب: على أى شىء أنت مجتمع ؟ قال : على أن أتخذ الليل مركبًا ، فإن السير فيه يخف على. قلت : هذا هو الصـواب رجاء أن يخـفيـه الليل ، ولا يصبح إلاَّ وقـد قطع بلدًا بعيـدًا ، وقلت له : والرأى أن يكون معك مـن رجالة هذه البلدة الذين يعـرفون المواضع المخفية جماعـة يمشون بين يديك إلى بغداد ، فقطب وجهه وقال : لم قلت هذا القول ؟ فـقلت : لتستأنس بهم فـقال : أما والجراز فى عنقى فـما بى حاجـة إلى مؤنس غيره ، قلت : الأمـر كما تقـول ، والرأى فى الذى أشرت به عليك ، فـقـال : تلويحك ينم عن تعـريض ، وتعـريضك ينبى عن تصـريح ، فعـرفنى الأمر ، وبين لى الخطب ، قلت: إنَّ هذا الجـاهلى فاتكًا الأسـدى كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو غير راض عنك ، لأنك هجوت ابن أخته حنبة ، وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراز والتيقظ ، ومـعه أيضًا نحو العشرين من بنى عمه ، قولهم مثل قوله ، فقال غلام أبى الطيب وكان عاقلا : الصواب ما رآه أبو نصر ، خذ مـعك عشرين رجـلا يسيرون بين يديك إلـى بغداد ، فاغـتاظ أبو الطيب من غلامه غـيظًا شديدًا ، وشتمـه شتمًا قبـيحًا ، فقال : والـله لا أرضى أن يتحدث الناس بأنى سرت فى خفارة أحد غيـر سيفى ، قال أبو نصر ، فقلت : يا هذا أنا أوجه قومًا من قـبلى فى حاجة يسيرون بمسيرك وهم فى خـفارتك فقال: والله لا فعلت شـيئًا من هذا ثم قـال : يا أبا نصر : أبخرء الطيـر تخشينى ؟ ومن عبـيد العصـا تخاف على ؟ والله لو أن مخـصرتى هذه ملقاة على شـاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخـمس ، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيـات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده . معاذ الله أن أشـغل فكرى بهم لحظة عين . فقلت له : قل

إن شاء الله فقال : هى كلمة مقولة لا تدفع مقتضيًا ولا تستجلب آتيًا ، ثم ركب فكان آخر العهد به » [١] .

ورواية الأصفهانى فى الواضح فى مشكلات شعر المتنبى يقول : « وأخبرنا أبو الحسن السوسى فى دار الوقف بين السُّورَين قال : كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبى ، وورد المتنبى علينا ونزل عن فرسه ومقوده بيده وفتح عيابه وصناديقه لبلل مسها فى الطريق وصارت الأرض كأنها مطارد منشورة فحضرته أنا وقلت : وقد أقمت للشيخ نزلاً ، قال المتنبى : إنَّ كان لم يأته ثم جاءه فاتك الأسدى ، بجمع وقال : قد سار الشيخ من هذه الديار وشرفها بشعره والطريق بينه وبين ديرقنة خشن قد احتوشه أهل العياثة والخرابة والصعلكة ، وبنى أسد يسيرون فى خدمته إلى أن يقطع هذه المسافة وتبر كل واحد منهم بثوب بياض ، فقال المتنبى : ما أبقى الله يدى هذا الأدهم وذباب الجراز الذى أنا متقلده فإنى لا أفكر فى مخلوق ، فقام فاتك ونفض ثوبه وجمع من رتوت [٢] الأعاريب الذين يشربون دماء الحجيج حسوا ، سبعين رجلاً ورصد له ، فلما توسط المتنبى الطريق خرجوا عليه فقتلوا كل من كان فى صحبته وحمل فاتك على المتنبى وطعنه فى يساره ونكسه عن فرسه ، وكان ابنه أفلت إلا إنه رجع يطلب دفاتر أبيه فقنح [٣] خلفه الفرس أحدهم وحز رأسه وصبوا أمواله يتقاسمونها بطرطورة »[٤] .

ورواية ثالثة تقول : « وقيل سبب قتله أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة ثم أرسل له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال : إن سيف الدولة كان يعطى طبعا ، وعضد الدولة تطبعا ، فغضب عضد الدولة ، فلما انصرف جهز عليه قومًا من بنى ضبة فقتلوه بعد أن قاتل قتالاً شديدًا ، ثم انهزم ، فقال له غلامه أين قولك :

---

(١) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٧٣، ١٧٤ .

(٢) جمع رت وهو الرئيس . والرتوت الخنازير فلذلك آثر المؤلف هذه الكلمة دون كلمة رؤساء أو زعماء .

(٣) وضعت على النون علامة التشديد فى الأصل والصواب تخفيفه أى عطفه وأداره.

(٤) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢٥، ٢٦، ٢٧.

الطرطور : قلنسوة طويلة يلبسها الأعراب ، والهاء ضمير عائد إلى ابن المتنبى إذ لعله لبس طرطورة فى السفر تشبها بالأعراب ، أى جعلوا طرطورة لا يقتسمون الأموال به .

فَـالخَـيْلُ وَاللَّيْـلُ وَالبَـيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِى   وَالحَرْبُ والطَّعْنُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ [1]

فقال : قتلتنى قتلك الله ثم قاتل حتى قتل . وقيل : إنَّ الخفراء جاءوه وطلبوا منه خمسين درهما ليسيروا معه ، فمنعه الشح والكبر فتقدموه، ووقع به ما وقع » [2] .

ورواية رابعة تقول : « وقال عضد الدولة بشيراز : المتنبى جيد شعره بالعرب فأخبر المتنبى به فقال : « الشعر على قدر البقاع » [3] .

ولنقف هنا للتأمل فى الرواية الأولى المطولة قبل أن نقيسها إلى رواية أخرى يقول الخالديان أنهما كتب إلى أبى نصر محمد الحبلى ثم يقولان : «وأبو نصر هذا من وجوه الناس فى تلك الناحية » ، وليس فى الرواية تصريح باسم ناحية ، ولكن ذكرت ضمنا فى نسبة أبو نصر « الحبلى » والذى أراه أنها نسبة إلى حبل . وهى بلدة بين النعمانية وواسط على دجلة تبعد عن النعمانية خمسة فراسخ إلى الشرق والجنوب ، وعن دير العاقول ثلاثة عشر فرسخًا فهذا الراوى من بلدة تبعد عن مقتل أبى الطيب نحو أحد عشر فرسخًا وهو يزعم أنه صديق للشاعر وقاتله وكلاهما نزل فى داره قبل القتل بأيام قليلة . وخلاصة هذه الرواية :

١) أن فاتكا الأسدى خال ضبة العينى الذى هجاه أبو الطيب كان يكثر السؤال عن الشاعر ليقتله انتقامًا لأخته التى هجاها . وقد صرح بهذا لأبى نصر .

٢) إن أبا الطيب المتنبى نزل على أبى نصر بجبل فأخبره ونصحه بالحذر فلم يقبل واحتقر فاتكا وقومه ، وغلا فى كلامه غلواً لا يليق برجل عاقل .

ورواية صاحب الإيضاح تؤيد رواية البديعى فى أن أبا الطيب المتنبى أبى أن يسير فى خفارة أحد ، وتخالفها فى أن فاتكا هو الذى عرض على المتنبى أن يخفره ، ومعنى هذا أنه ما كان مبيتًا شرًا وأنه لو قبلت خفارته ما قتله . وفى هذه الرواية مطاعن متعددة ، فمثلاً ، فقول أبى الحسن السوسى : « كنت أتولى الأهواز من قبل المهلبى » ومن هنا يؤخذ منه أن مرور أبى الطيب بالأهواز فى عهد المهلبى والمهلبى توفى سنة ٣٥٢ هـ كما تقدم .

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه . تحقيق وتقديم د. عبد الوهاب عزام / ٢٧٠. والطعن والضرب.

(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٣) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢٥ .

والمطعن الآخر : لو أن فاتكا لقى أبى الطيب فى الأهواز فعرض عليه خفارته فأبى فعزم على سلبه أو قتله ، ما صبر عليه حتى قطع المسافة من الأهواز فعرض عليه خفارته من الأهواز إلى واسط وهى خمسون فرسخا ثم سار من واسط حتى جاوز النعمانية ، ثم إنَّ قول فاتك أن الطريق إلى ديرقنة موحش بعيد أن يقال فى الأهواز وبينها وبين ديرقنه مراحل كثيرة وبلدان عامرة ، وإنما يقال مثل هذا فى موضع قريب من ديرقنه مثل النعمانية أو حُبَّل .

أما خفارة فاتك لأبى الطيب وفى نفسه ما فيها مستبعد ذلك . ولذا فإن رواية أبى نصر أجدر بالقبول بعد حساب المبالغة فيها كقول أبى الطيب عن بنى أسد : « أبخرء الطير تخوفنى . . . » فالرجل مهما بلغ به التكبر والتهور كان أن أعقل من أن يقول مثل هذا القول [(١)] .

وأما الروايتان الثالثة والرابعة لا تثبت أمام النقد . فأبو الطيب قد أفرغ ما فى وسعه فى مدح صاحبه ونال من جوائزه ما ملأه شكرا . فكيف يقول ما نسب إليه ؟ وكيف وهو يعلم أن كلامه حرى أن يبلغ عضد الدولة ؟ وتدل أخباره فى شيراز أنه كان حذراً كل الحذر أن تنقل عنه كلمة تسخط عضد الدولة [(٢)] ، ثم إنَّ أبا الطيب ليس غبيًا إلى هذا الحد فلا يحفظ عهداً ولا مودة ، كما أنه ليس ضعيف المكر والحيلة ، وقد سدت عليه الطرق فى كل مصر من الأمصار الإسلامية سواء فى حلب أو فى الفسطاط أو فى بغداد . فكيف يقول هذا الكلام؟ وهو يعرف أنه لا يبقى له فى هذه الأمصار من يحبه أو يوده وأغلبهم أصبح عدواً له ، وهو قد هجاهم فى شعره ، فليس من المعقول أن يغلط مرة رابعة وقد جرب فى مراته السابقة ونال النكد وسوء الطالع . ومن هنا لا صحة لهذه الرواية ثم انظر إلى هذه الرواية فى الصبح المنبى « وحكى عبد العزيز بن يوسف الجرجانى وكان كاتب الإنشاء عند عضد الدولة عظيم المنزلة منه قال : لما دخل أبو الطيب مجلس عضد الدولة ، وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه ، وقال له: سله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا ؟ قال : فامتثلت أمره ،

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٢) المرجع السابق / ٧٨، ١٧٩ .

وجاريت المتنبى فى هذا الميدان ، وأطلت معه عنان القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أن قال : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم ، ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه ، وكان ذلك منه أوكد الأسباب التي حظى بها عند عضد الدولة » [١] .

ويقول عبد الوهاب عزام وهذه أشبه بحزم أبى الطيب . ولماذا يقول الشاعر فى أمير أفاض عليه عطاءه ، إن هذا عطاء متكلف وسيف الدولة كان يعطى طبعًا؟ أكان يبغى ارضاء سيف الدولة وهو فى شيراز ولايبالى إغضاب عضد الدولة ، وقد قصده وبذل فى مدحه وسعه ونال من عطاياه ما أثقله شكرا . ورواية «الشعر على قدر البقاع» سبيلها فى الرد والدحض سبيل أختها . ثم ما الذى يغرى عضد الدولة بقتل شاعر عظيم أشاد بذكره وآثره بالمدح على ابن عمه معز الدولة ، ووعده أن يرجع إليه ليخلد مآثره إنَّ أعداء عضد الدولة أولى بهذه التهمة [٢] .

ولا نرى صحة لما ادعاه بعض الباحثين من أن عضد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذى يكاد به أبو الطيب ففضل أن يرفع يده عن دمه ، فأغرى بعض أتباعه بأن يوقع فى نفس أبى الطيب شيئًا من الخوف والرعب ، فيخف أبو الطيب للرحلة عن شيراز ويبتعد عن دياره ليلقى حتفه فى مكان آخر ولذلك «استأذنه المتنبى فى المسير عن شيراز ليقضى حوائج فى نفسه ثم يعود إليه » وكان هذا من أبى الطيب ضربًا من ضروب دهائه ومخادعته فلما عزم على الرحلة، كان من دهاء عضد الدولة أن زاد كرمه ليوقع فى نفسه أنه مصدقه ، فأمر أن تخلع عليه الخلع الخاصة ، وتعاد صلته بالمال الكثير ويقينًا أن أبا الطيب حين وجد ذلك ، ما يريده عضد الدولة ، وما يراد به ، ولذلك أشار فى آخر قصيدة مدحه بها وهو مفارق له فى أول شعبان سنة ٣٥٤ هـ إشارات كثيرة منها قوله :

وَمَنْ قَدْ ظَنَّ نَثْرَ الحَبِّ جُودًا وَيَنْصِبُ تَحْتَ مَا نَثَرَ الشِّبَاكَا [٣]

وهذا المثل ، هو مثل لما تراه قبل أمر عضد الدولة ، ثم انظر إلى يأس أبى الطيب وقد علم أنه قد أحيط ، وأنه مقتول لا محالة . . . إذ يقول :

---

(١) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٦١ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٧٩ .

(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه . تحقيق وتقديم د. عبد الوهاب عزام / ٤٥٢ .

وَأَيَّا شِئْتِ يَا طُرُقِي فَكُونِي أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلاَكَا
وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ امْتِسَاكَا [1]

وقد روى العكبرى . . . أن عضد الدولة قال : تطيرت عليه من ترك النجاة بين الأذاة والهلاك .

أن سامع هذه القصيدة يشعر إن فيها ما يتطير منه . ولكنه لم يلبث أن قال فى قصيدة أخرى يمدح الأمن فى بلاد عضد الدولة :

أَرُوضُ النَّاسِ مِنْ تُرْبٍ وَخَوْفٍ وَأَرْضُ أَبِى شُجَاعٍ مِنْ أَمَانِ
تُذِمُّ عَلَى اللصوصِ لِكُلِّ تَجْرٍ وَتَضْمَنُ لِلصَّوَارِمِ كُلَّ جَانِى [2]

وفى هذا إعراب عن إشفاق أبى الطيب من الطريق وتوقعه شرا فيها ، وأنه عرف أن الطريق خارج مملكة عضد الدولة مخوفة . هذا ما يعرف عنه كلامه . وأحسب أنه عرف فى العراق وفى طريقه إلى أرجان فشيراز أنَّ السبل آمنة فى أرض عضد الدولة مخوفة فى بلاد العراق حيث سلطان معز الدولة البويهى . ولا أدرى أتوقع مع هذا شرا من عدو يقصده بسوء أم لا [3] .

ويقترب الأستاذ محمود شاكر إلى شىء من الصواب فى رواية قتله وهو يعتمد فى ذلك على رواية فى ترجمة لحياة المتنبى فى كتاب المقفى [4]، حيث يرى أن أبا الطيب لما وصل إلى دير العاقول . وهى ضيقة بالعراق اجتمعت عليه بنو أسد وبنو ضبة فقتلوه وقتلوا غلمانه وقتلوا ولده محسدا ، وقد قدمنا لك أن سيف الدولة كان أوقع بعمرو بن حابس من بنى أسد ، وببنى ضبة ، وببنى رياح من بنى تميم ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة وقد هجاهم أبو الطيب فى مدحه لسيف الدولة فى تلك السنة . وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سببًا فى أن أحفظ عليه هؤلاء القوم من بنى أسد وبنى ضبة ، قال أبو الطيب لسيف الدولة ، وذلك قديمًا فى سنة ٣٢١ هـ :

(١) المصدر السابق / ٤٥٤ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوانه المتنبى / ٤/ ٢٥٨ .
(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٧٦ ، ١٧٧ .
(٤) المقريزى / المقفى - ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٣٥٣ .

مَـــهْـــلاً! أَلاَ لِلَّـهِ مَــاصَنَعَ القَنَا في عَـمْرو حَـابٍ وَضَـبَّـةَ الأَغْـتَامِ
لَمَّــا تَحَـكَّمَتِ الأَسِنَّةُ فِـيْـهِمُ جَـارَتْ وَهُـنَّ يَجُـرْنَ فِى الأَحـكَامِ
فَتَـرَكْـتَـهُمْ خَلَـلَ البَـيُوتِ كَـأَنَّمـا غَـضِـبَتْ رُءُوسُـهُمُ عَلَى الأَجْـسَامِ
أَحْـجَـارُ نَاسٍ فَـوقَ أَرْضٍ مِنْ دَمٍ وَنُجُـومُ بَـيْضٍ فِى سَـمَـاءِ قَـتَـامِ
وذِرَاعُ كُلِ أَبِـى فُــلاَنٍ كُنْيَــةً حَـالَتْ فَـصَـاحِـبُـهَـا أَبُو الأَيْتَامِ (١)

واعلم أن بنى أسد وبنى ضبة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين ، والظاهر أنهم كانوا قد انحازوا إلى الأعاجم مخدوعين ، وصاروا بعد من شيعة بنى بويه الفاطميين . وليس يبعد أن يكون كافور هو الذى أمدهم بالمال ليقتلوا الرجل، وتوسط له فى ذلك بعض أصحابه من أهل العراق العباسيين أو الفاطميين ، وذلك بسبب هجائه له . هذا مختصر القول فى مقتل أبى الطيب فى ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ هـ . ولا يأخذ الأستاذ محمود شاكر برواية قتل فاتك الأسدى بسبب هجاء ضبة بقوله:

مَــا أَنْصَفَ الْقَــومُ ضَـبَّــهْ وَأُمُّـــــهُ الطُّرْطُبَّــــهْ
وَإِنَّمَـــا قُلْتُ مَــا قُلْتُ رَحْـمَــةً لاَ مَــحَــبَّــهْ (٢)

وما أدرى لماذا قبل الأستاذ محمود شاكر هجاء المتنبى لبنى أسد وبنى ضبه وجعله سببا فى قتل المتنبى ، ولم يقبل أن يكون هجاءه لضبة سببًا فى قتله ، مع أن هذا الهجاء أقوى من هجائه لبنى أسد وبنى ضبة مجتمعة . بل إنه يزيد هذا السبب قبولاً فى الأذهان ، وتصديقًا فى القلوب .

وترد اعتبارات أخرى لبعض المحدثين الذين يحلو لهم التطرف فى الآراء ، ومن ذلك ما رآه بعضهم من أن معز الدولة البويهى ووزيره ربما كان لهما يد فى قتل المتنبى ، لأنه استخف بهما فى أرض لهما فيها السلطة والسلطان ولم يتقدم

---

(١) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ٤/ ١١، ١٢، ١٣ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/ ٢٠٤، ٢٠٥.

نحوهما مادحًا حينما وفد إليهما ، مع أن شعره فى غيرهما من الملوك والولاة ملأ الأرض مشرقًا ومغربًا ، ويا ليته اقتصر على ذلك بل أعمل لسانه فى النيل من العجم وتحريض العرب ضدهم .

ويبدو أنهما وجدا فى فاتك هذا المغيظ المحنق والمكلوم من المتنبى فسلطاه عليه وأغرياه به [1] .

وهذا الرأى الذى زج بفاتك فيه - لا أراه مقبولاً وذلك لسبب واضح وهو أن الوزير المهلبى الذى كان حانقًا على المتنبى توفى سنة ٣٥٢ هـ أى قبل عودة المتنبى من فارس سنة ٣٥٤ هـ .

ويغلو الدكتور طه حسين غلواً كبيرًا فى رواية قتل المتنبى ويضرب بنا فى التيه والضياع ، إذ يرى أن قتلة المتنبى من القرامطة وعلل ذلك بأسباب كثيرة ، وهو لا يرى ولا يجد من النصوص ما يمكنه من ترجيح لهذا السبب أو ذاك ، غير أن المتنبى راح ضحية لجشع الأعراب فيما كان يسوق من مال ومتاع ، وإنما أدى بموته ، إلى القرامطة من جهة ، وإلى العرب من جهة ثانية ، ثم هذه الخيانة التي اقترفها فى الكوفة وسجلها نفسه فى شيراز ، وعاود نفسه أن يمعن فيها ويباهى بها ، ويملأ بها الأرض إذا انتهى إلى بغداد « أما الذين قتلوه كانوا من القرامطة ، فشىء لا أستبعده ، فقد كان الأعراب منتشرين فى بادية العراق لذلك الوقت ، متأثرين بدعوة القرامطة أشد التأثر ، يظهرون ذلك أن أمكنتهم الفرصة فيغيرون على المدن والسواد ، ويخفون إذا ظهر بطش السلطان وما أدرى، إذا كان ضبة الكلابى داعية من دعاة القرامطة فى الكوفة ، فما الذى يمنع خاله الأسدى أن يكون متأثرًا بهذه الدعوة أيضًا » [2] .

ولا أظن أن هناك مصدرًا تاريخيًا واحدًا يذكر لنا أو يثبت أن ضبة وفاتكا الأسدى كانا منضمين إلى حركة القرامطة فى القرن الرابع ، الذى نعرفه أنه لا يوجد مثل هذا المصدر ، وإنما هذا من تخمينات الدكتور طه حول قرمطة المتنبى لكى يثبت أنه كان قرمطى الهوى ، شيعى المذهب ، ثم إن الروايات السابقة

---

(١) محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث / ٣٢ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣٧٤، ٣٧٥.

تحمل لنا إشارات واضحة أن المتنبى قتل لعدة أسباب وليس من بينها هذا السبب ، والذى نراه والأقرب إلى الصواب ، أن المتنبى إذا لم يكن ضحية لسبب من الأسباب السابقة كلها ، فهو على الأقل ضحية لأحد هذه الأسباب ، ولكننا لا نغلو فى التشديد على أن المتنبى كان بالصورة التى تصورها الروايات السابقة . ومن الواضح جداً أن المتنبى لم يعرف المداراة فى حياته كلها سواء كان فى الشام، أو فى مصر ، أو فى العراق ، أو فى فارس ، وكل حياته جد وصراحة ، وهو رجل عربى جرئ صريح اللسان ، فلا نعجب إذا لم يكن من أرباب السياسة، لأنه أعطى صورة واضحة لحياة يعمها الجد والصراحة ، والحياة السياسية لا تعرف إلا الحيل والمداراة ، فلا نستغرب أن يكون موت المتنبى على يد صعلوك مثل فاتك الأسدى وأصحابه لهجاء المتنبى ابن أخته ضبة وقد كان هجاؤه مقذعًا فعلاً ، وهتكًا للأعراض ، وتشنيعًا لضبة وأسرته ، ومعروف أن العرب أمة كبرياء وعزة وشرف ،وأن ضبة هذا قد تعرض للإهانة والهجاء من المتنبى فلا مناص من أن السبب الحقيقى وراء قتله هو هذا السبب . . . ولا غيره وهو ما رآه الدكتور عبد الوهاب عزام ، ورأيه فى ذلك تؤيده الروايات القديمة فى المصادر الأدبية كما سيأتى .

ودراسة عبد الوهاب عزام كانت من أقوى الدراسات عن المتنبى فهو جمع شعر الشاعر ودرس شروحه ومخطوطاته ، ورأى أن المكان الذى حدده لمقتل المتنبى هو كما رآه ومر به فى العراق ، والتقى بكثير من قرى هذا البلد التى قتل فيها المتنبى يقول : « وخلاصة هذه الكلمة أن جمع هذه الروايات ونقدها وتعرف مواقع البلاد التى ذكرت فى الروايات ، والطريق بين واسط ودار الخلافة - كل أولئك يبين لنا أن مقتل أبى الطيب كان عند الصافية شرقى نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسخًا من بغداد » (١) .

والروايات الكثيرة لهذه الوقعة ، نراها واضحة فى آخر شرح ابن جنى «وقتل يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة ، وقت منصرفه من شيراز ، بنيزع بين الكيل والرصافة والصافية ، وابنه

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام /١٨٨ .

وغلام له يعرف بمفلح ، قتلهم فاتك ابن أبى جهل الأسدى فراس بن بداد ، وقيل إنه قال له : « يا قاذف المحصنات يا سباب قبحًا لهذه اللحية » [(١)].

وفى شرح المعرى : « وخرج من عند عضد الدولة حتى إذا قارب بغداد وخرج من دير العاقول خرج عليه فرسان ورجال من أسد وشيبان . فقتل بين الصافية ودير العاقول - وذلك يوم الأثنين لست ليال بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة ، وقتل معه عبده وقتل ابنه بعد » [(٢)].

وفى النسخة البغدادية ، من ديوان المتنبى . قال على بن حمزة البصرى : « وهذه القصيدة » يعنى الكافية التى ودع بها عضد الدولة « آخر شعر قاله أبو الطيب . وكتبتها والتى قبلها منه بواسط يوم السبت لثلاث عشرة بقية من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة [(٣)]. وسار منها فقتل بنيزع . قتله بنو أسد وابنه وغلمانه ، وأخذوا ماله يوم الأربعاء لليلتين بقيتا منه . والذى تولى قتله منهم فاتك بن أبى جهل بن فراس بن بداد . ومن قوله له : قبحا لهذه اللحية يا سباب وذلك أن فاتكا هذا ذو قرابة لضبة بن يزيد العينى الذى هجاه المتنبى بقوله :

ما أنصف القوم ضبة

.. إلخ وهى من سخيف شعره. وكانت سبب قتله وذهب دمه . وفى النسخة التى طبعت عليها الديوان ، تعد القصيدة الكافية التى مدح بها عضد الدولة وودعه : هذا آخر ما قاله أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى . ورحل من شيراز بعد ذلك فى شعبان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة ، يريد الكوفة . فاعترضه فوارس بين دير العاقول والصافية . وكان التمس منه خفارة لبعض الرجالة ليسلكوا به الطريق ويحموا عنه فلم يفعل . وقال : معى سيفى ورمحى . أخفر! إن الذين خرجوا عليه من بنى كلاب مع ضبة بن محمد العينى لما هجاه به:

ما أنصف القوم ضبة

---

(١) كلام ابن جنى منقول عن : عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام/ ١٨٩ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٨٩ .

(٣) انظر فى ذلك . ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر المتنبى / ٢/ ٣٠٤ .

وكان الفرسان نحو خمسين فارسًا . فقتل منهم جماعة وجرح جماعة فيهم عدة. وقدرت الحرب من ضحوة إلى الأولى . ثم كَلَّ أبو الطيب وولده ومملوكه . فلما تطاول الأمر استرسل وظفروا به . فقتلوه وولده والمملوك وأخذ جميع ما كان معه . ودفنوه فى الموضع وكان له قيمة كثيرة ولم يكن طلبهم ما معه سوى نفسه.

والذى قتله منهم فاتك بن فراس بن بداد . وكان ذا قرابة لضبة .

ويقال أنه لما قارب منه فاتك كان معه عبد يقال له سراج فقال له : يا سراج أخرج إلى الدرع . فأخرجها ولبسها وتهيأ للقتال ثم قال :

أفرغ الدرع يا سراج وأبصر ... ما ترى اليوم ها هنا من قتال

فلئن رحت فى المكر صريعًا ... فانع للعالمين كل الرجال [1]

ثم قال فاتك : قبحًا لهذه اللحية يا سباب . فقال فاتك ألست الذى تقول :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والطعن والضرب والقرطاس والقلم

فقال : أنا عند ذاك يا ابن اللخناء والعفلاء . ثم قاتل وبطح نفسًا أو نفسين . فخانته قوائم فرسه فغاصت إحداها فى ثقبة كانت فى الأرض . فتمكن منه الفرسان وأحاطوا به وقتلوه واقتسموا ماله ورحله . أخذوا ابنه المحسد وأرادوا أن يستبقوه . فقال أحدهم : لا تفعلوا واقتلوه . فقتلوه . وحكى الشريف ناصر قال:

عبرت على بدنه . وكان مفروقًا بينه وبين رأسه ، ورأيت الذنانير تدخل فى فيه وتخرج من حلقه . أعاذنا الله من كل سوء ومكروه بمنه وطوله » [2].

وفى الواضح فى مشكلات شعر المتنبى أن فاتكا كان معه سبعون فارسا. وأنهم قتلوا كل من كان مع أبى الطيب وأن فاتكا حمل عليه وطعنه فى يساره ونكسه فرسه ، وأن ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب دفاتر أبيه . فقنح خلفه الفرس أحدهم وحز رأسه [3] .

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تحقيق وتقديم د. عبد الوهاب عزام / ٤٥٥.

(٢) نقلا عن عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٢٦.

ويبقى بعد ذلك أن نوضح اليوم الذى قتل فيه المتنبى وقد اتفقت جميع المصادر الأدبية والمراجع الحديثة أنه قتل فى شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة [1] .

وحددت بعض المصادر والمراجع اليوم الذى قتل فيه المتنبى ، وقد نقل عبد الوهاب عزام [2] نصوصًا ، تحمل روايات عن ابن جنى وعلى بن حمزة البصرى والمعرى . فرواية ابن جنى ترى أنه قتل فى يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٣٥٤ هـ ، ورواية المعرى ترى أنه قتل فى يوم الاثنين لأربع وعشرين من رمضان ، ورواية ترى أنه قتل ليوم ٢٢ من نفس الشهر [3] ، وروايتان تذكران أنه قتل فى ٢٥ ، و ٢٧ [4] .

ورواية على بن حمزة البصرى ترى أنه قتل فى اليوم الثامن والعشرين من رمضان [5] . وإذا أخذنا بقول على بن حمزة البصرى أنه كتب القصيدتين الأخيرتين عن الشاعر . يوم السبت السابع عشر من رمضان فيوم الاثنين يوافق ١٩ ، و ٢٦ ، فرواية شرح المعرى أن الاثنين يوافق ٢٤ خطأ . والأربعاء المذكور فى رواية على بن حمزة وابن جنى يوافق ٢١ ، ٢٨ ، فقول ابن جنى يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان خطأ أيضًا .

---

(١) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٥ ، وابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبى فى كتاب المتنبى لمحمود شاكر /٢/ ٣٠٤. وابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٢٣ . وعبد الرحمن العباسى / معاهد التنصيص على شواهد التلخيص / المجلد الأول مصر ط ١٢٧٤/ ١٣، ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٧٠ . وبروكلمان / تاريخ الأدب العربى /٢/ ٨٢، ٨٣. وبلاشير / أبو الطيب المتنبى /٤٤٧ . وعبد الوهاب عزام/ ذكرى أبى الطيب بعدألف عام /١٨٩ وص ١٩٤ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى/٦٦ . وشوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى /٣٠٨ . وعصر الدول والإمارات / ٣٥٠ . والعوضى الوكيل/ شرح ديوان المتنبى / القاهرة ط دار الشعب ١٩٧٥م/٩ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٣ .

(٣) المقريزى / المقفى / ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٣٥٣.

(٤) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٣ .

(٥) ابن العديم / بغية الطلب / ترجمة المتنبي ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر/٢/ ٣٠٤/ وابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء /٢٢٣ . والمقريزى / المقفى / ترجمة المتنبى =

وتبقى رواية على بن حمزة البصرى ومن تابعه من المتأخرين ، والتى نرى أن حمزة كتب القصيدتين الأخيرتين عن الشاعر يوم السبت ١٧ وقال : إن مقتله كان يوم الأربعاء ٢٨ وهى أصح الروايات فيما أرى .

« ويؤيدها أن المسافة بين واسط ودير العاقول ، وهى خمسة وعشرون فرسخًا لا تقطع فى يومين فلا تصح رواية (١٩) ويبعد أن تقطع فى ثلاثة فتبعد رواية (٢١) .

فالظاهر بعد كل هذا ، أن الرجل قتل يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة . كما يقول راويته على بن حمزة البصرى »[(١)] .

* * *

= ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر/ ٢/ ٣٥٣. وعبد الرحمن العباسى / معاهد التنصيص / المجلد الأول / ١٣. والبديعى / الصبح المنبى/ ١٧٠ .وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٤ . وعبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى/ ٦٦ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٤٤٧ .

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٩٤ .

الفصل الثانى
قضَايا العقيْــدة

أ- عقيدة المتنبى

ب- تشيعــه

ج- قرمطيتــه

د- نبــوته

أ- عقيدة المتنبى :

لم يستطع المؤرخون لحياة المتنى أن يجدوا نصوصا لروايات تاريخية تثبت سلامة عقيدته أو فسادها ، ومن الروايات التى يتشبث بها النقاد ما روى عن على ابن حمزة أنه قال : « بلوت من أبى الطيب ثلاث خـلال محمودة ، وذلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاثة خـلال مذمومة وذلك أنه مـا صام ولا صلى ولا قرأ القرآن » [(١)] .

ونحن إذ نقرأ هذا القول يـجب أن ندرسه دراسة عميـقة توضح وجه الحق فيه وذلك أنه ليس من الصدق أن يتحـدث عن رجل بقول ينفى خلالا لرجل ما، ويثبت له خلالا طيـبة ، وهل استطاع على بن حمزة أن يلازم المـتنبى فلم يفارقه طول حياته ، فلم ير له خـصلة طيبة فيدلى بشهادته وتـكون مقبولة فى الأذهان . أما أمر الصوم فى حـديث على بن حمزة فهو أهو من أمـر الصلاة وقراءة القرآن، فهو يستطيع أن يدعى مرة أخـرى أنه رأى أبا الطيب كل سنة فى شهر رمضان فى حلب ومصر والعراق وشيراز وسائر البلاد الإسلامية التى وطأتها قدماه ، وأنه رآه يشرب ويأكل نهـاراً ، لم يستطع أن يدعى هذا كله وحينئـذ يتم له ما يريد من أنه بلى من أبى الطيب بخصـلة ذميمة ، وهى أنه مـا صام . أما أمر الصـلاة وقراءة القرآن فنحن نسـأله : أكان قد لزم أبا الطيب فى مغـداه ومراحه ومتيـقظه ومنامه حتى يسـتطيع أن يشهد أنه مـا صلى ؟ وشيء آخر مهم ذلك أنـه بلى منه خصلة محمودة وهى أنه مـا كذب ، فهل سأله عن صلاته وقراءة القرآن فـحدثه وصدقه الحديث أنه ما صلى ولاقرأ القرآن [(٢)] .

وقد ذكر أبو العلاء المعـرى فى شأن صلاته وحدثت أن أبا الطيب أيام كان اقطاعه بصف رؤى يصلى بموضع بمعرة النعمان يقال له : كنيسة الأعراب ، وأنه صلى العصر ركعتين ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر وأن القصر له جائز»[(٣)]

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٥ .

(٢) محمد محـيى الدين عبد الحميد / أبو الطيب المتـنبى / الرسالة السنة الرابعة – العدد ٧/١٦٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥هـ، ٢٤ أغسطس ١٩٣٦ .

(٣) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ٦٧ .

فهل يمكن أن يكون خبر على بن حمزة بعد ذلك موثوقًا ؟ أما قراءة القرآن التى زعم على بن حمزة أن أبا الطيب لم يفعلها ، ومن هنا هل يعقل أن رجلاً نشأ على حفظ اللغة واستظهار غريبها ، ويتنقل فى البوادى ليلفظها من أفواه الأعراب، يجد القرآن بين يديه ، وهو كتاب لغة وأسلوب وفكر فوق أنه كتاب هداية ونور وخلق وآداب ، ثم لا يقرأ ليتأسى به ويتقبل أساليبه ، ويتخذ من إطراد منطقه وأحكام الحجة فيه منهجًا لنفسه ؟ ونحن نقول لعلى بن حمزة أن أبا الطيب قرأ القرآن وفهمه فهمًا جيدًا ، ونذكر له مما يشير إلى ذلك [1] ، قوله من قصيدة يمدح بها كافورًا :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِى مَسَامِعِهِ ... قَمِيصُ يُوسُفُ فِى أَجْفَانِ يَعْقُوبِ [2]

وقوله من قصيدة يمدح فيها محمد بن زريق الطرسوسى :

لَو كَانَ ذُو القَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ ... لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صِرْنَ شُمُوسَا

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ ... فِى يَومِ مَعْرَكَةٍ لأَعْيَا عِيسَى

أَوْ كَانَ لُجُّ البَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ ... مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى [3]

وأظن أن هذا القول مدسوس على على بن حمزة البصرى من أعداء أبى الطيب الذين أخذوا يلفقون الكذب عليه ، ويجعلون منه ضعيف العقيدة ، منحرفًا عن جادة الطريق ، والأهم من ذلك أنهم اختاروا على بن حمزة لأنه عاصر الرجل وعاش معه فترة من حياته ، فإذا جعلوا هذا القول على لسان على ابن حمزة صديق الشاعر وراوى ديوانه كان أصدق فى القلوب ، وأقرب إلى الأذهان ، ولا أجد إلاَّ أن أقول مرة أخرى إن هذا القول مكذوب ، وقد وضعه أعداء أبى الطيب وهم الكثرة فى ذلك العصر .

---

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد / أبو الطيب المتنبى / الرسالة السنة الرابعة العدد ١٦٤ سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م / ١٣٧٦ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول/ ٢٩٥ .

(٣) المرجع السابق / المجلد الأول / الجزء الأول ٣٠٧ .

وقد ذهب بعض النقاد إلى أكثر من ذلك فحملوا عليه حملة شعواء ، فكثير من الشعراء والنقاد كانوا يودون أن تكون لهم المنزلة العليا عند الملوك والأمراء كما كان لأبى الطيب ، فلم يصلوا إلى شىء من ذلك . فأخذوا يدسون عليه ويكيدون له بكل السبل ويشيعون من المقابح ما لم يكن يعلم من أمره شيئًا ، ولم يكتفوا بأن يعملوا على إبعاده عن الملوك الذين كان التقرب إليهم منتهى آمالهم ، بل حاولوا التفريق بينه وبين حمزة الناس ، فجاؤه من ناحية الدين ثقة منهم أن للدين فى نظر جمهرة الناس وعامتهم المنزلة الأولى ، فإذا أتى الرجل من جهته فقط سقط وإن بقى له كل شىء (١) .

وهذا ما حدا بأحد النقاد أن يقول فى شأنه : « وهو فى الجملة خبيث الاعتقاد وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضله كما ضل » (٢) .

وقد نسى هذا وأمثاله أن دين الإسلام شديد الصرامة فى حكم هذه المسألة، وأنه لا يحل لمن يعتنقه أن يرمى أخاه بأمثال هذه التهم لإرضاء حفيظة نفسه حتى يكون بين يديه دليل لا يقبل التأويل والشك . ولسنا حين نشكك فى أخبار هؤلاء الناس أو ننكر استنتاجهم ندعى أن المتنبى كان رجلاً ورعًا تقيًا ، يقوم الليل ويصوم النهار ، ويطيل قراءة القرآن ، ولكنا نفعل ذلك لنقرر أن حياة المتنبى قد أحاطها أعداؤه بكثير من الغموض وأحاطوها مع هذا الغموض بكثير من المفتريات والأكاذيب كان من شأنها أن تربك حياته سلسلة من المتناقضات (٣) .

واتخذ بعض النقاد المعاصرين من شعره دليلاً على ضعف عقيدته وتهاونه بالدين (٤) . كانت العاطفة الدينية ضعيفة فى جميع أدوار حياته . ففى بريق شبابه واكتمال قوته قال :

---

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد / أبو الطيب المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٤/ ١٣٧٥، ١٣٧٦ .

(٢) عبد الله عبد الرحمن الأصفهانى / الواضح فى شعر المتنبى / ٧ .

(٣) محمد محيى الدين عبد الحميد / أبو الطيب المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة / العدد ١٦٤/ ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ .

(٤) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٤٠ .

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي ... أَيُّ عَظِيمٍ أَتَّقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّـ ... ـهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي ... كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي (١)

وفى هذه الأبيات يمتزج الطموح المتطرف وفرط الثقة بالنفس باحتقار الخليقة بأسرها . وفى مدحه بدر بن عمار يقول :

تَتَقَاصَرُ الأَفْهَامُ عَنْ إدْرَاكِهِ ... مِثْلَ الَّذِى الأَفْلاكُ فِيهِ والدُّنَا (٢)

وهو هنا يرتفع بممدوحه إلى مرتبة الألوهية ، ولو كان لها مكانة من نفسه ما هبط بها هذا الهبوط . ويقول أيضًا :

لَو كَانَ علْمُكَ بالإلَهُ مُقَسَّمَا ... فِى النَّاسِ مَا بَعَثَ الإِلَهُ رَسُولاً
لَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمُ مَا أَنْزَلَ الـ ... ـفُرقَانَ والتَّوراَة والإنْجِيْلاَ (٣)

وربما حدا المتنبى إلى هذه المبالغة مدحه فى شعره حيث غالى فيه عندما قل أدبه مع الله ثم رسوله وكتبه حين زعم أن لممدوحيه علوا يرفعهم إلى ذلك المستوى ، والمدح متى جاوز المواقع فهو محظور فى كل الأديان (٤) .

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الأول / ٨١ .
(٢) المرجع السابق / المجلد الثانى / ٣٣٤ .
(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم الدكتور عبد الوهاب عزام / ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٤) الثعالبى / يتيمة الدهر / ١/ ١٦٨ ، ١٦٩ . وأبو الطيب المتنبى وأخباره / القاهرة ط١٣٤٣هـ، ١٩٢٥م . والصبح المنبى / ٣٨١ ، ٣٨٢ . وانظر فى ذلك على أدهم / هل كان المتنبى متدينًا ؟ ضعف العاطفة الدينية عند أبى الطيب / الهلال عدد خاص بالمتنبى / المجلد الثالث والأربعون أول نوفمبر ١٩٣٤م / أول أغسطس ١٩٣٥م / ١٢٠٥، ١٢٠٦ . وعلى هامش الأدب والنقد / ط دار الفكر العربى ٦٤، ٦٥، ٦٦ . وعبد الله كنون الحسنى / المتنبى فى ديوانه بمناسبة ذكراه الألفية / الرسالة . السنة الثالثة - العدد ١٢٩/ ٢٧ رمضان ١٣٥٤هـ، ديسمبر ١٩٣٥م / ٢٠٥١ . وسعيد الأفغانى / دين المتنبى / الرسالة / السنة الرابعة / العدد ١٦٢ فى يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ أغسطس ١٩٣٦م/ ١٢٩٥ . وحسام محيى الدين الألوسى / أضواء جديدة على نبوة المتنبى / مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد ١٠ نيسان ١٩٦٧م /٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

ولكن هذه المبالغة لا يمكن أن نأخذها عليـه من الناحية الأدبية ولا نستدل بها على فساد عقيدته ، لأن الشاعر لا يقصد بشعره الانتقاص من العقيدة أبدًا[1] .

أما فيـما يتصل بالكبائر فلم يـكن ممن يعتنقونهـا ، وإذا كان لابد أن نذكر ذلك ، فـهو لم يشـرب الخـمر إلاَّ فى القـليل النادر ، فليس هو من المـدمنين الماجنين ، ولذلك لا تجـد فى شعره شيئًـا من المجون إلاَّ أن يهجو فـيقذع فى هجائه . وما لأبى الطيب والخمر ، وهى إنما يشربها الغواة وذوو البطالة ، ومن لا مطمع لهم فى الحياة يسـعون إلى تحقيقه ، أمـا الرجل الذى يفكر فى المجد ويأمل أن يصل إلى ذروته ، فليس ممن يفكرون فى الخمـر . وحدثوا أن صديقًا لأبى الطيب كنيته أبو ضبيس سأله يومًا أن يشرب معه فأجابه بقوله :

أَلَـذُّ مِنَ الـمُـــدَامِ الـخَنْدَرِيسِ وَأَحْلَـى مِنْ مُـعَـــاطَاةِ الكُـئُـــوسِ
مَـعَـــاطَاةُ الصَّـفَـائِحِ وَالعَـوَالِى وَإِقْـحَـامِى خَـمِـيـسًـا فِى خَـمِـيسِ
فَـمَــوتِى فِـى الوَغى أَرَبِـى لأَنِّى رَأَيتُ الـعَــيْشَ فِـى أَرَبِ النُّـفُــوسِ
وَلَو سُـقِّــيـتَـهَــا بِيَــدِى نَدِيمٍ أُسَـــرُّ بِـهِ لَكَانَ أَبَـا ضُـبَــيْسِ [2]

وهو ينادم إخوانه إذا شربوا الخـمر فيشرب كأسا من المـاء فقد قال له بعض بنى كلاب . اشرب هذه الكأس سرورًا بك فأجابه:

إِذَا مَـا شَـرِبْتَ الخَـمْرَ صِـرفًـا مُـهَنَّأً شَــرِبْنَا الذى مِـنْ مِـثْـلِهِ شَـرِبَ الْكَرْمُ
أَلاَ حَــبَّــذَا قَـــوْمٌ نَدَامَــاهُمُ الـقَنَا يُسَـقُّـونَهَـا رِيًّـا وَسَـاقِـيـهُمُ العَـزْمُ [3]

---

(١) سلمـان هادى الطعمـة / سيرة المـتنبى / المورد الـمجلد السـادس - العدد الثالـث / خريف ١٩٧٧م ، ١٣٩٧هـ عدد خاص بأبى الطيب المتنبى / بغداد ط دار الحرية للطباعة / ١٦٠ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / الجزء الثانى / ١٩١، ١٩٢ .
(٣) المصدر السابق / ٤/ ٤٦ .

ومد إنسان له يده بكأس الخمر وحلف بالطلاق ليشربها فقال :

وأخ لَنَا بَعَثَ الطَّلَاقَ أَلِيَّةً ... لأُعَلِّلَنَّ بِهَذِهِ الخُرْطُومِ
فَجَعَلْتُ رَدِّي عِرْسَهُ كَفَّارَةً ... عَنْ شُرْبِهَا وَشَرِبْتُ غَيرَ أَثِيمِ [(1)]

وهذه إحدى المرات التى شرب فيها الخمر ، ولكنها تطرفات الشعراء ، ولعلها مع ذلك تدل على أن امتناعه عن الشرب فى غير هذه المرة مكافحة للإثم [(2)] .

وفى مقابل ذلك لا ننسى خصال المتنبى المتعددة من الرجولة والبطولة ، وخاصة فى ميدان الدفاع عن العرب والمسلمين فى عصره ، ونرى أنه من الضلال البين أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت فى شعره عرضًا ، إلاَّ إذَا صاحبتها قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها ، وليس من الصواب فى شيء اعتبار - وحاله ما بينا مصدرا من مصادر التاريخ . وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبى فيهما [(3)] .

وليس فى شعر المتنبى وحياته ما يدل على إلحاد أو زندقة يمكن الباحث من اتخاذ قرائن وحجج حول عقيدته الدينية ، وكل ما فى الأمر أن المتنبى يكثر من المبالغات الكثيرة مما حدا بالنقاد أن يتخذوا من شعره وثيقة تاريخية تثبت وهن هذه العقيدة وضعفها فى نظرهم ، وبهذا نرى أن النقاد القدامى لم يدخلوا عقيدة الشاعر وأخلاقه ضمن المؤلفات النقدية ، حيث يرون أن الديانة شيء والشعر شيء آخر وفى ذلك يقول القاضى الجرجانى « فلو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببًا لتأخر الشاعر ، لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره ، إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن كعب بن زهير وابن

---

(١) المصدر السابق / الجزء الرابع/ ٤٦، ٤٧ .

(٢) محمد محيى الدين عبد الحميد / أبو الطيب المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٥/ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥هـ، ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٦م/ ١٤٢٨ وطه حسين / مع المتنبى / ٩١، ٩٢ .

(٣) سعيد الأفغانى / دين المتنبي / الرسالة السنة الرابعة - العدد ١٦٢/ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ - ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦م / ١٢٩٤ .

الزبعرى وأضرابهما ممن تناول رسـول الله ﷺ وعاب من أصحاب بكما خرسا وبكاء [١] مفحمين ، ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر »[٢] .

ولقد شارك أبو الطيب المتنبى سيف الدولة فى حروبه وجهاده الدينى فقاتل بجسـمه وتعرض للـخطر ، وناضل بلسانه . وفى شعـره من مواطن الغـيرة على الدين وأهله من تسلط الروم مـا يحمل المنصف علـى عدها فى حسنـاته ، وكان يرى هذه الحروب كمـا يراها غيره من أهل زمانه وكمـا هى فى الواقع - دينية لا قومية ، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف الدولة مع خصومة من الأمراء. فكانت قصـائد أبى الطيب التى يصف فيـها هذه الحروب تطفـح بالحميـة الدينية والنزعـة الإسلامـيـة ، فهـو يثنى على سـيف الدولة الذى هزم الدمـستق وأنقـذ المسلمين من إكراه لهم على الردة [٣]، فيقول :

فَـخَـرُّوا لِـخَـالِقِـهِـمْ سُـجَّـدًا ... وَلَو لَمْ تُغِثْ سَجَـدُوا لِلصُّلُبُ [٤]

ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال:

أَرَى المُسْلِمِيْنَ مَعَ المُشْرِكِيْنَ إمَّا ... لِـعَـجْـز وَإِمَّـا رَهَـبْ

وَأَنْـتَ مَـعَ اللَّـهِ فِـى جَـانِـبِ ... قَلِيـلُ الرُّقَـادِ كَـثِـيـرُ الـتَّـعَـبْ [٥]

ومن تلقيبه بسيف الدولة بسيف الربِّ وسيف الدين فى أقواله :

أَيَـا سَـيْفَ رَبِّـكَ لاَخَلْـقِـهِ ... وَيَـاذَا الـمَـكَـارِمِ لاَ ذَا الـشُّـطُـبْ [٦]

---

(١) البكاء : جمع بكئ وهو من قل كلامه خلقه .

(٢) القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى / الوساطة بين المتنبى وخصومه / تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهـيم ، وعلى محمـد البجاوى - مـصر ط عيـسى البابى الحلبى وشـركاه ط٤، ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٦م / ٦٤ . والثعالبى / يتيمة الدهر في محـاسن أهل العصر / تحقيق محمد مـحيى الديـن عبـد الحـميـد ، بيـروت ط دار الفكر ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م / ١/ ١٦٨. ويوسف البديعى / الصبح المنبى / ٣٨١ .

(٣) سعيد الأفغانى / دين المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٢ ، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م / ٢٩٦ . ومحـمد عبـد المنعم خفاجي - ومـحمد مـصطفى الماحى / شـعراء مصـر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ٢٠/٣٥٨ط ١٩٨٠/ ١٤٥، ١٤٦ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٠٣.

(٥) المصدر السابق / ١/ ١٠٤ .

(٦) المصدر السابق / ١/ ١٠٠ .

يَاســــيـف دولةِ ديـن اللـه دمْ أبدًا   وعش برغم الأعـادى عـيشـة رَغـدَا

يا سـيـف دولة ذى الـجـلالة ومن له   خـيــر البــرية والعـبــاد سـمـى [1]

وهو القائل أيضًا :

تَغَـرَّبَ لاَمُـسْتَعْـظِمًـا غَيْـرَ نَفْسِـهِ   وَلاَ قَـابِلاً إلاَّ لِخَـالِـقِـهِ حُكْمَــا [2]

وتراه يقول أيضًا :

أَىْ كَـبْتَ كُلِّ حَـاسِــدٍ مُنَافِقٍ   أَنْـتَ لَنَـا وَكُـلِ لِلْخَــالِقِ [3]

أما سيرته العمليـة فقد ذكروا له أخلاقًا يحمد عليهـا وهى عفة المذهب والصدق وتراه يقول ما يدل على عفته [4] .

إنِّى عَلَى شَغَـفِـى بِمَـا فِى خُـمْـرِهَا   لأَعِفُّ عَـمَّــا فِى سَـرَاَ وِيلاَتِـهَا [5]

ب- تشـيعه :

يؤكد بعض الباحثـين أن عصر المتنبى كان عصـر اضطراب سياسى وعقلى ففـيه كان انقسـام الدولة الإسلاميـة إلى ممالك وإمـارات متعددة ، وقـد شغلت الميول والأهواء عقـول المسلمين ، فكثرت المذاهب والآراء الفلسفية والـسياسية والاجتماعية . وظهرت حرية الرأى ومسائل الإلحاد ، وألبس ذلك كله لباسًا دينيًا وتأثر الشعراء بهذه التيارات لكثرة تنقلهم فى الأمصار الإسلامية [6] .

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تقديم وتحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٤١٢ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /٤/ ١٠٧ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / ٩٨ .

(٤) سعيد الأفـغانى / دين المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العـدد ١٦٢ فى يوم الاثنين جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ ، ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦م / ١٢٩٧ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /١/ ٢٢٦ .

(٦) أحمد ضيـف / أبو الطيب المتنبى نظرات سريعة فى حـياته / صحيفة دار العلوم - الجزء الأول / ١٩٣٤م ، ١٩٣٥م القاهرة /٢١ . وانظر فى ذلك : على أدهم / هل كان المـتنبى متدينًا . ضعيف العـاطفة الدينية عند أبى الطيب / مجـلة الهلال عدد خاص بالمتنبى - الـمجلد الثالث والأربعون ، أول نوفمبر ١٩٣٤م ، أول أغسطس ١٩٣٥م/ ١٢٠٨ . وعلى هامش الأدب والنقد / ط دار الفكر العـربى /٦٨ ، وسـعـيد الأفـغـانى / دين المـتنبى - السنة الرابعـة / العـدد ١٦١/ ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ ، ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٦ م / ١٢٥٣، ١٢٥٤ .

وقد بدأت دعاوى الشيعة عمومًا ومنهم القرامطة والإسماعيلية فى يوم الغدير - غدير خم - الذى يزعمون أن النبى ﷺ ، عهد فيه إلى على عند عودته من حجة الوداع سنة ١٠هـ ، وذهب غلاتهم إلى أن النبوة سلبت من النبى ﷺ منذ ذلك الوقت وأصبحت لعلى رضي الله عنه . والشيعة كلهم على اختلاف فرقهم - يقولون: إنَّ الإمامة تورث ولا تكتسب وأنها قد تسلسلت فى عقب على، كلما مات أمام نص على من يخلفه بوحى من عند الله لا محل فيه لاجتهاد البشر .

ورأينا أن فساد دعواهم يبدأ من ابن سبأ اليهودى الأصل ، الذى يعتبر اليد المحركة من وراء الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان رضي الله عنه ، والذى يعتبر كذلك اليد المحركة لفتنة على ومعاوية حين اندس هو وشيعته فى صفوف على فقد زعم أن روح الله حلت فى على ، وأقحم على التشيع عناصر غريبة على الدين الإسلامى، حين زعم أنه حى لم يمت وأنه يعود فى الزمان ليملأ الأرض عدلاً حكما ملئت جوراً ثم كان أن ظهرت الدعوة الإسماعيلية الباطنية على يد يهودى آخر هو عبد الله بن ميمون القداح أخطر تطور خرج بالدعوة من النور إلى الظلام، ودخل بها فى سراديب الخفاء [1] .

وتبدأ دعوى الإسماعيلية ، استحقاق الإمامة بوفاة الإمام جعفر الصادق الباقر بن على ابن زيد العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب سنة ١٤٧ هـ . فقد انقسم الشيعة من بعده إلى فرقتين :

١) **الإمامية** . . . الذين سلسلوا الإمامة من بعده إلى ابنه موسى الكاظم وفى أبنائه من بعده ، إلى الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى الذى دخل السرداب بزعمهم فى مدينة «سامرا» «شمال بغداد» . سنة ٢٦٠ هـ . ويظل فيه إلى أن يعود فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

٢) **والإسماعيلية** : الذين قالوا بإمامة إسماعيل الذى توفى فى حياة والده. وفى زعمهم أن الإمامة تنتقل إلى ابنه محمد بن إسماعيل لاإلى أخيه موسى.

---

(١) محمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية / المجلد الثامن عشر ١٩٦٤م/ ٣ .

وفيهم من يزعم أن إسماعيل لم يمت فى حياة والده ، ولكن أباه أذاع هذا الخبر تمويها على الخليفة . ومن الثابت تاريخيًا أن محمدا ابن إسماعيل الصادق ترك المدينة إلى بلاد الديلم « جنوب بحر قزوين »[(١)] .

والواقع أن التاريخ لم يعرف شيئا اسمه « فرقة الإسماعيلية » حتى أواخر القرن الثالث الهجرى عندما ظهرت حركة القرامطة فى الشام والبحرين . وكان ظهور القرامطة إيذانا بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة ، بعد انقطاع أخبار ولد إسماعيل بن جعفر قرنًا كاملاً . . .

يزعم الإسماعيلية أن أئمتهم كانوا متسترين خوفا من بطش العباسيين ، وهذه هى الفترة المعروفة عند مؤرخهم بدور الستر » . وهو يبدأ بوفاة جعفر الصادق سنة ١٤٧ هـ ، وينتهى بظهور عبيد الله المهدى بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يستطع الإسماعيليون أن يقدموا لنا صورة صحيحة متفقًا عليها بينهم عن أئمتهم فى هذه الفترة . فالخلاف بينهم كثير حول عدد أسمائهم[(٢)] .

ويبدو أن عقائد الباطنية مزيج عجيب من الآراء والمذاهب الفلسفية القديمة، لذلك كان من أصح ما وصفت به أهداف هذه الدعوة هو ما قاله : رينهارت دوزى فى برنامج عبد الله ابن ميمون حين وصفه بأنه يهدف إلى الجمع بين أحرار المفكرين الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاستبعاد الشعوب ، وبين الغلاة من جميع الطوائف . وأن يجعل من المؤمنين السذج آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يتخذ من هذا الجهاز الضخم وسيلة لرفعه أو لرفع أولاده فى الوقت المناسب إلى الملك . لذلك لم يبحث عبد الله بن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين صفوف الشيعة الخلص ولكن بين الثنويين وطلاب الفلسفة اليونانية[(٣)] .

---

(١) محمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية / المجلد الثامن عشر / ١٩٦٤م / ص٤ .

(٢) المرجع السابق / ٤ ، ٥ .

(٣) محمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب . جامعة الإسكندرية / كلية الآداب / المجلد الثامن عشر ١٩٦٤م / ١٢ .

وقد أشار بعض النقاد القدامى إلى المذاهب والعقائد فى شعره ، ومما يدل على ذلك قوله :

هوِّنْ علَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ ... فَإنَّمَا يَقَظَاتُ العَيْنِ كَالحُلُمِ [1]

مذهب السوفسطانية [2] ، وقوله :

تَمَتَّعْ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادٍ ... وَلاَ تَأمَلْ كَرًى تَحْتَ الرِّجَامِ

فَإنَّ لِثَالِثَ الحَالَيْنِ مَعْنًى ... سِوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ وَالمَنَامِ [3]

مذهب التناسخ [4] . الذى لا يقع فيه كما يقول من يؤمنون به بموت ولا نوم ، وكما كان يعرف من مذاهب هندية دهرية كان يعرف المجوسية كقوله فى هجاء ابن كيغلغ :

يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الفَوَارِسِ فِى الوَغَى ... لأَخُوكَ ثَمَّ أَرَقُّ مِنكِ وَأَرْحَمُ

يَرْنُو إلَيْكَ مَعَ العَفَافِ وَعِنْدَهُ ... أَنَّ المَجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ [5]

يقول العكبرى : إنَّ المجوس يحلون تزوج الأخوات ، فأخوها من حسنها يرى أن المجوس أصابوا فى حكمهم [6] ، وقوله :

نَحْنُ بَنُو المَوْتَى فَمَا بَالُنَا ... نَعَافُ مَا لاَبُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

فَهَذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ ... وَهَذِهِ الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ [7]

---

(1) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٦٢ .

(2) السوفسطائية : هم الذين ينكرون حقائق الأشياء ويقدحون فى طرق التوصل إلى العلم بها لشكهم فى الحيثيات والبديهات ، وهو لفظ يونانى معرب . « انظر شرح السيد الجرجانى على المواقف ص ١١٧ ط دار الطباعة بالآستانة .

(3) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٤٩ .

(4) التناسخ مذهب القائلين بأن الأرواح بعد فناء أجسامها تحل فى أجسام أخرى وهو مذهب هندى قديم . انظر رسالة الغفران ص١٥٢ ، ١٥٣ ط هندية مصرية .

(5) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٢٢ .

(6) المصدر السابق / ٤/ ١٢٢ .

(7) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢١١ ، ٢١٢ .

مذهب الفضائية [١] وقوله فى أبى الفضل ابن العميد :

فإن يكن المهدى من بان هديه ... فهذا ، وإلا فالهدى ذا فما المهدى ؟ [٢]

مذهب السبعية [٣] وقوله :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ ... إلاَّ عَلَى شَجَبٍ وَالخُلْفُ فِى الشَّجَبِ

فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً ... وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فِى العَطَبِ [٤]

فهذا من يقول بالنفس الناطقة [٥]. وينشعب بعضه إلى قول الحشيشية [٦].

ونراه يذكر مذهب مانى المجوسى فى شعره يقول :

وَكَمْ لِظَلاَمِ اللَّيلِ عِندِى مِنْ يَدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ [٧]

يقول العكبرى : « كم نعمة للظلمة عندى ، تبين أن هولاء المانوية الذين نسبوا إلى الظلمة الشر كاذبون » [٨] . ويقول العقاد : وكان يزعم الزاعمون أن هؤلاء الإسماعيلية يدينون بالمانوية ، أى بالأصلين النور والظلمة ، وهى النحلة القديمة المشهورة التى ذكرها المتنبى هنا ، ولعله لقى كثيراً من أتباعها منم المجوس فى الكوفة لقربها من البلاد الفارسية [٩] .

---

(١) هم القائلون بوجود الفضاء المسمى عند الحكماء بالخلاء وهو كون الجسمين لا يتماسان ولا بينهما ما يماسهما فالمتكلمون قائلون بإمكان وجوده والحكماء ينفونه .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٦٧ .

(٣) السبعية بفتح السين المهملة وسكون الموحدة طائفة من الشيعة جعلوا عدد الأئمة سبعة وأن السابع هو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى فى حياة أبيه فى حدود١٤٥هـ. ويدعون أن المهدى المنتظر من عقبه .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٩٥ ، ٩٦ .

(٥) النفس الناطقة عند الحكماء جوهر مجرد من المادة ولكنها مقارنة للمادة فى أفعالها .

(٦) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكل شعر المتنبى / ٧ ، ٨ . وعبد القادر بن عمر البغدادى / خزانة الأدب / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط دار العصور بمصر / ٢/ ١٣٨. والحشيشية طائفة من الشيعة الإسماعيلية كانوا فى حصون جبلية من بلاد الشام نسبوا إلى شرب الحشيش والخمر .

(٧) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٧٨ .

(٨) المصدر السابق / ١/ ١٧٨ .

(٩) عباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / القاهرة ط المطبعة التجارية الكبرى ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م/ ١٢٠ .وانظر : أبو الطيب المتنبى / تراث الإنسانية / المجلد الأول ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر / ٩ ، ١٠ .

وليس من السهولة بمكان أن يكون الإنسان فيلسوفا ويؤمن بكل تلك المذاهب التى نسبها الأصفهانى إلى المتنبى إيمانًا كليًا لما فى بعضها من مناقضة لبعضها الآخر ، فمعقول جدًا أن يؤمن فيلسوف بفلسفة الشيعة والتناسخ فى وقت واحد لما بينهما من رباط وثيق ولكن ليس من المعقول أن يؤمن فيلسوف بفلسفة الشيعة ذات الطابع الدينى وبالسفسطائية والفضائية البعيدة كل البعد عن الأديان فى وقت واحد لما بينهما من تنافر وتباعد ، والمسألة لا تعدو أن يكون المتنبى قد ألم بكثير من هذه المذاهب لاتصاله ببعضها كالشيعة والقرمطية ولإلمامه ببعضها الآخر عن طريق قراءته واطلاعه كالسفسطائية والمانوية والفضائية وذكره لارسطاطاليس وبقراط وجالينوس وغير ذلك فظهر فى شعره الذى توفر فى إنشائه على الإتيان بكل جديد وغريب حتى يظهر التباين واضحًا بينه وبين معاصريه أو سابقيه (١) .

وفيما قاله بعض النقاد القدامى نرى تعسفًا واضحًا ، حيث جعل من شعر المتنبى ما يدل على مذاهب التناسخ كما فى قوله :

نَحْنُ بَنُو المَوتَى فَمَا بَالُنَا ... نَعَافُ مَا لاَبُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

فَهَذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ ... وَهَذِه الأجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ (٢)

وهو يشير بهذا إلى أن الموت حق لا مفر منه، وأننا مع ذلك نبخل بأرواحنا التى لا نملك فيها شيئًا ، ثم يشير بعد ذلك إلى أن الإنسان مركب من جوهر لطيف - الروح - وجوهر كثيف وهو البدن ، وقد أشار العكبرى إلى أن هذا من قول الحكيم « اللطائف سماوية ، والكثايف أرضية ، وكل عنصر عائد إلى عنصره » (٣) وليس فى قول أبى الطيب ما يشير إلى أن هذه الأرواح التى يعود إلى أصلها تحل فى غير صاحبها أو تتقمص جسدًا آخر . وبمثل هذا تحدث ابن سينا وغيره ولم يرموا بمثل ما رمى به المتنبى . وعن قوله :

فَقِيلَ تَخْلَصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً ... وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فِى العَطَبِ (٤)

---

(١) مصطفى الشكعة / فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين / ٤٣٣ ، ٤٣٤ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /١/ ٢١١، ٢١٢ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /١/ ٢١٢ .
(٤) المصدر السابق /١/ ٩٥، ٩٦.

يقول النعمان القاضى : لم يقصد الشاعر إلى أن الناس متفقون على أن الفناء نهاية كل شيء ، ولكنهم مختلفون فى حقيقته بين من يقولون بأن الروح لا تفنى بفناء الجسد وهم المؤمنون بالبعث والحساب ، ومن يقولون بفنائها كالجسد وهم الدهريون والقائلون بقدم العالم ، فالشاعر هنا لم يزج بنفسه ولم يعرف عن حقيقة موقفه من هذين الاعتقادين وإن كان يعرف حقيقة هذين الاعتقادين وموقف أصحابهما ولا شك فى أن هناك فرقًا واسعًا بين العلم بالشيء والاعتقاد فيه [(١)].

ولو تأملنا دراسة المستشرقين الحديثة عن شعر المتنبى لوجدنا أنهم يشيرون إلى الملل والعقائد فى شعره ، ويرون أنه اعتنق مذهب الإسماعيلية الشيعة [(٢)].

وعلى رأسهم المستشرق لوى ماسينيون الذى يرى أن المتنبى ولد فى محلته كندة وكانت شيعية ووالده كان تعلقه مشهورا بالأئمة . وهو يمنى ولكنه كان شيعيا حتى جدته كانت شيعية أيضًا ونحن لا نراه يدعى بأنه علوى ، وإنما هو يمانى شيعى تكون فى جو قرمطى بالبادية بصورة خاصة [(٣)]. ويتخذ أيضًا من زيارة المتنبى للبلاد الإسلامية مواطن للشيعة فى حلب حيث أن الحمدانيين كانوا من الشيعة ، ويرى أنه قابل فى مصر رجلاً شيعيًا أو قرمطيًا سرًا هو الوزير ابن الفرات وفى العراق الدولة البويهية والوزير المهلبى ، وفى فارس لقى بعض الشيعيين فى السنتين الأخيرتين ٣٥٣ هـ ، ٣٥٤ هـ - إذ مر بإحدى مدن الشيعة فى فارس [(٤)].

---

(١) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب دراسة نصية / ٨٢ .

(٢) لوى ماسينيون / المتنبى أمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل، المورد المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧/ ٦٢ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة - د. إبراهيم الكيلانى / ٤٥ . وأبو الطيب المتنبى / مجلة الحديث / السنة التاسعة - العدد السابع - تموز . يوليو سنة ١٩٣٥م/ ٤٦٧. وغابربيلى الإيطالى / المتنبى والإسماعيلية / ضمن المنتقى من دراسات المستشرقين - الجزء الأول - دراسات مختلفة / جمعها ونقلها إلى العربية وعلق عليها د. صلاح الدين المنجد - القاهرة ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥م / ٦٤ .

(٣) لوى ماسينيون / المتنبى أمام العصر الإسماعيلى للإسلام / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث / ٦١ ، ٦٢ .

(٤) المرجع السابق / ٦٤ ، ٦٥ .

ويتضح فى كلام لوى ماسينيون الخطأ ، إذ لا داعى لاتهام المتنبى بالتشيع فى كل بلد إسلامى ، فالحمدانيون كانوا من المعادين للشيعة ، كما مر سابقًا ، أما الوزير ابن الفرات بمصر ، فهو رجل يحمل العداوة لأبى الطيب ، إذ طلب منه أن يمدحه فأبى ومن هنا ظهرت العداوة والحقد بين الرجلين ، مما ينفى القول بتشيع ابن الفرات وخصمه المتنبى ، أما الدولة البويهية ووزيرها المهلبى الذى يدعى لوى ماسينيون أنه كان شيعيًا ، فنراه قد جانب الصواب ، إذ إن المتنبى كان بعيدا عن وطنه لفترة من الزمن ، كما أن العلاقة بينه وبين هذه الدولة لم تكن على ما يرام حيث أن المتنبى هجاهم فى شعره وجعل منهم قوة تسلطت على الحكم فى بلاد العرب . ثم إنَّ المتنبى عندما هاجر إلى العراق فى أواخر حياته - لم يمدح الوزير المهلبى الذى كان يتمنى أن يمدحه المتنبى ، ومن هنا أخذ الوزير المهلبى يكن له الحقد والضغينة فما كان منه إلاَّ أن اتخذ من شعراء العراق سلاحًا يهاجمون المتنبى بشعرهم الذى كان ممتلئًا بالهجاء اللاذع له . ولهذا انعدمت علاقته بالدولة البويهية والوزير المهلبى ، وكان ذلك سببًا فى نفى فكرة التشيع التي يقول بها لوى ماسينيون . أما فى فارس ، فالمتنبى لم يقم مدة طويلة ، إذ لا نعلم أنه قابل رجلا شيعيًا فى فارس ثم إنَّ لوى ماسينيون لم يوضح ما هى المدينة التى أقام بها حين كان بفارس والأهم من ذلك أن كتب التاريخ والشعر لم تورد له شعرًا شيعيًا فى فارس لا من بعيد ولا من قريب .

ويدلل لوى ماسينيون على فكرة التشيع التى قال بها أن المتنبى تمثل بذلك فى شعره وهو بذلك يعتبر وثيقة تاريخية إذ أنه يصور مذاهب الشيعة الإسماعيليين والقرامطة - فى شعره ، وتنم بعض أبياته هنا وهناك عن قرمطى قديم يفتقر إلى الاحتشام لبعض القيم (١) .

الإسلام :

إنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هوَ كَائِنٌ   فَبرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الإسْلامِ (٢)

---

(١) لوى ماسينيون/ المتنبى أمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل/ المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى / ٦٣ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١١ .

حـــــواء :

لَوْ لَمْ تكُنْ مِنْ ذَا الـوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هُوْ   عَـقِـمَـتْ بِمَـولِدِ نَسْلِهَــا حَــوَّاءُ[1]

عيـــسى :

أَوْ كَـانَ صَادَفَ رَأسَ عَـازَرَ سَـيْفُـهُ   فِي يَومِ مَـعْـركَـةٍ لأَعْيـا عِـيـسَىَ[2]

وهذه الأبيات تفـضح مريدًا قديمًا ، فـالمسلم العادى يجـهل اسم عازر ، ولكن القرامطة حفظوه ليجعلوه يلعب دوراً [3] « انظر كتاب التعليم الدرزى ٨٧».

وتراه يستخدم كلمة الثقلين = القرآن والعترة ، وليس الجنة والناس ، ولعل هناك ثلاثة أو أربعة مصطلحات أخرى ، ولم يوجـه المفسرون تطلعاتهم إلى هذه الجهة ، حيث يوجد ما هو جديد يعـثر عليه . وهكذا ، فإنَّ المتنبى حين يصرح أنه لا ينبغى وضع الشمس « مؤنثة » تحت الهلال « المذكر » [4]، فإنه ينوى فى الحقيقة ، حـسم المعركة القديمة بين شيعة الكوفة حـول أولوية الميم « محمد » «الشمس» أو «العـين» على «القمر» فـى علم التنجيم الشمس «مـحمدا» والقـمر «عليا» ، والزهراء «فاطمة» ، والفرقدان «الحسن والحـسين» وذلك باتجاه ميميات القرامطة [5] .

وقد انغـمر المـتنبى فى مـدن ظل الشيـعة لهم القـدح المعلى فـيهـا حتى الحروب الصليبية ، كاللاذقية وأنطاكية وحلب وطبرية . وحين خرج من السجن، معاهدًا نفسه على أن لا يثور مطلقا ، كان طبـعيًا أن يوطن علاقاته بهؤلاء الشيعة

---

(١) المصدر السابق / ١/ ٣١ .

(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم د. عبد الوهاب عزام / ٧٩ .

(٣) لوى ماسينيون / المتنبى أمام العصر الإسـماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل/ المورد ، المجلد السادس – العدد الثالث – عدد خاص أبو الطيب المتنبى / ٦٣ .

(٤) قال المتنبى :

عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / ١٤٩ .

(٥) لوى ماسينيون / المتنبى إمام العصر الإسـماعيلى للإسلام / المورد ، المجلد السادس ، العدد الثـالث / ٦٣ . وانظر فى ذلك شوقى ضـيف / الفن ومـذاهبه فى الشـعر العـربى / ٣١٢ ، ٣١٣.

المحافظين الذى كانت تنسجم أمانيهم المشروعة المشبعة بالأفلاطونية مع التعويضات الدسمة وخدمة السلالة السنية للعباسيين ، وفضلاً عن ذلك كان هؤلاء الأدباء والأمراء على جانب عظيم من الثقافة مشغوفين بالعلم الهيلينى ، وبصورة خاصة كانوا عشاق المنطق ، «استقبل الفارابى لديهم خير استقبال» ، وعلى هذا فإنَّ ما يؤكد لنا بصورة حسنة على أن ضرورة الحياة - وليس سلوك سبيل التشيع العميق بالآراء - كانت علة إقامة المتنبى فى هذه الأوساط الأدبية منذ سنة ٣٢٨ هـ « فى مدينة طبرية » على الأخص بعد عام ٣٣٧ هـ فى أنطاكية وحلب ، وتابعتها معرة النعمان ذلك لأن أفقه الفكرى لم يتسع بصورة محسوسة ، وأنه لم يتكيف قط . وفى الصراع الدائر بين النحو التقليدى والمناطقة على الطريقة الإغريقية ، ظل نحونا من مدرسة الكوفة ، صحيح أنه حاول ذكر بقراط وجالينوس :

عَلَّمَ بُقْراطَ فَصَادَ الأَكْحَلِ فَحَالُ مَا لِلَقَفْزِ للتّجدُّلِ [(١)]

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأنِ فِي جَهْلِهِ مَوتَةَ جَالِينُوسَ فِي طِبِّهِ [(٢)]

ووضع فى مستهل إحدى قصائده بيتًا أرثماطيقيا عجيبًا للغاية :

أُحَادٌ أمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ [(٣)]

١ + ٦ = ٧ .

ولكن هذه المحاولات تثبت بوضوح أن القضية ليست سوى اتجاه ضعيف [(٤)].

ويرى طه حسين أنه يفسر البيت الذى يليه ويجعل منه رمزًا لبنات نعش [(٥)].

كَأنَّ بَنَاتِ نَعْشٍ فِي دُجَاهَا خَرَائِدُ سَافِرَاتٌ فِي حِدَادِ [(٦)]

---

١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم د. عبد الوهاب عزام/ ١٢٩ .

٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢١٣/١ .

٣) طه حسين / مع المتنبى / ٨٥ .

٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول - الجزء الثانى / ٧٦ .

٥) القاضى الجرجانى / الوساطة بين المتنبى وخصومه / ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

٦) مارون عبود / الرؤوس / بيروت سنة ١٩٦٧م / ١٩٢ .

وطه حسين إذ يأخذ برأى لوى ماسينيون لا نفهم شيئًا أبدًا ، وهل فى هذا التفسير مالا نفهمه ولا نعقله أبدًا وقد فسره بعض القدماء [١] بأنه تفسير لأيام الأسبوع لا أكثر ولا أقل وليس فى هذا ما يجعلنا نأخذ بهذا الرأى [٢] .

ويتابع النقاد المحدثون المستشرقين حول تشيع المتنبى ، ويعتقدون أن المتنبى اعتنق المذهب الشيعى وهو بالكوفة ، إذ درس فى مدرسة من مدارس العلويين فوجهته إلى الوجهة التى تريدها ، وكان يجول بأطراف الشام وخاصة أنه كان يكرر الزيارة إلى سلْمية ، وسلمية فى ذلك الوقت كانت عاصمة النشاط الفكرى فى الشرق الإسلامى ومركز توزيع الأفكار الإسماعيلية وفيها قال المتنبى :

فَأَقْبَلَهَا المُروجَ مُسَوَّمَاتٍ   ضَوامِرَ لا هزالٌ ولاَ شِيَارُ

تُثِيرُ عَلَى سَلَمْيةَ مُسْبَطِرًا   تَنَاكَرُ تحتَه لولاَ الشِّعَارُ

ولقد استطاع المتنبى أن يجد له فى سلمية مدرسة فكرية استخدم منها تعاليمه المذهبية ويرى بعض الباحثين أنه كان من دعاة الإسماعيلية المتجولين فى البادية ، وكان يزور سلمية لتقديم السرية عن نشاط الدعوة وانتشارها فى تلك النواحى . ومن جهة أخرى كان المتنبى يتردد على « بدر آل عمار » فى اللاذقية ويمدحه ، وبدر هذا كان من « آل عمار » الإسماعيليين ومهما يكن فلا نستطيع أن نجزم بأن المتنبى ظل حتى وفاته مخلصًا عاملاً فى الحقل الإسماعيلى لأن الشعراء قلما يظهرون عقائدهم وخاصة فى عصر مضطرب كعصر المتنبى حيث كان يجول ويصول على مسارح السياسة أمراء لا ينظرون بعين الرضا إلى كل من ينتسب إلى القرامطة الإسماعيليين [٣] .

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣٦ . وأحمد أمين / المهدى والمهدوية (اقرأ ١٠٣ ط دار المعارف بمصر ١٩٥١م/ ٢٩ .وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٤٣ ، ٢٤٤ . وشوقى ضيف / الفن ومذاهبه في الشعر العربى / ٣١٢ . ودرويش الجندى / الشعر في ظل سيف الدولة / ٢٨١ ، ٢٨٢ . ومصطفى غالب / أعلام الإسماعيلية / منشورات اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤م/ ٩٣ ، ٩٤ . ومحمد عبد المنعم خفاجى / الحياة الأدبية فى العصر العباسى / ٢٤٠ . ومحمد عبد المنعم الخفاجى ومحمد مصطفى الماحى / شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية - ٢٠ ، ٣٥٨ ط ١٩٨٠/ ١٤٥ .

(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم . د. عبد الوهاب عزام / ٣١٩ .

(٣) مصطفى غالب / أعلام الإسماعيلية / ٩٣ ، ١٩٤ وانظر فى ذلك : لوى ماسينيون/ المتنبى إمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد - المجلد السادس / العدد الثالث / ٦٢ .

والقضية الجديرة بالبحث والدراسة والتى تحتاج إلى مناقشة واعية ، تتخذ العدل وجها ، والرأى منهجًا ، هى قضية علويته ، ثم مالها من صلة بتشيعه وهى من الصعوبة بمكان لتضارب الآراء حول ذلك . فبعضهم يثبت علوية المتنبى ويراه متأثرا بعقائدهم كما يقول الأصفهانى فى ذلك [١] ، وبعضهم يرى أن دخوله هذه المدارس لا تميزه عن غيره من الناس ، وأنها لا صلة لها بعلوية المتنبى وإنما كان دخوله مدارس العلويين يدل على الاتجاه الدينى الذى وجه إليه الصبى، ويدل على أن الذين كان يكلفون هذا الصبى ويقومون على تربيته كانوا من الشيعة العلويين [٢].

وكلا الرأيين يتخذ من وجود المتنبى بالكوفة دليلاً على علويته [٣]، ودليلاً آخر على تشيعه كما يرون أن المتنبى مدح فى صباه رجلاً علويًا مما يدل على علويته أو تشيعه للعلويين إذ نراه يمدح محمد بن عبيد الله العلوى بقصيدة مطلعها :

أَهْلاً بِدَارِ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا ... أَبْعَدُ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا [٤]

كما نراه يمدح رجلاً علويًا آخر هو أبو القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوى بقصيدة مطلعها :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ ... وَرُدُّوا رُقَادِى فَهْوَ لَحْظَ الحَبَائِبِ [٥]

أما مسألة علوية المتنبى التى قال بها الأستاذ محمود شاكر ، فقد سبق أن درسناها بصورة واضحة فى فصل سابق ، والمهم هنا كيف نوفق بين دعوى العلوية ، والتشيع فى شعر المتنبى ونوجز فنقول : إن تشيع المتنبى عند المستشرقين ومن تابعهم من نقاد العرب المحدثين لا يدخل فى علوية المتنبى وهم يشككون فى

(١) عبد الله الأصفهانى / الوضاح فى مشكلات شعر المتنبى / ٦ . وانظر فى ذلك : محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٤١، ٤٢ .

(٢) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٤٥ ، وطه حسين / مع المتنبى / ٣٥ .

(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٢٦ . وعباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / ١١٩ ، ١٢٠ وطه حسين / مع المتنبى / ٣٥ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٩٤ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٩٤ .

نسبه حينا ، ويذكرون أنه ينتسب إلى جعفى اليمنية أحيانا أخرى . ولكن يرون فيه متشيعا ويحتجون بشعره على ذلك . ونحن إذ ندرس آراء المستشرقين ومن تابعهم ، نلحظ أن المتنبى كان عربى النسب وأنه لا ينتسب إلى العلويين كما قال بذلك أحد الباحثين المحدثين . والمتنبى وإن عاشر العلويين أو درس بمدارسهم ومدحهم فى شعره لا يجوز أن يكون علويًا شيعيًا لمجرد أنه تربى معهم ودرس فى مدارسهم أو مدحهم فى شعره ، وليس هناك وثيقة تاريخية تثبت هذه الدعوى التى قال بها بعض الباحثين . أما كونه ذكر مدح آل البيت فى شعره أو ذكر نحلة أو عقيدة من عقائدهم كما قال بعض القدماء ، فليس ذلك دليلاً على تشيعه فحين رأوا أنه مدح آل البيت وسموه بالتشيع [1] لأنه قال :

نَصَرْتَ عَلِيًّا يَا ابْنَهُ بِبَوَاتِرٍ   مِنَ الفِعْلِ لاَ فَلٌّ لَهَا فِي المَضَارِبِ
وَأَبْهَرُ آيَاتِ التِّهَامِيِّ أَنَّهُ   أَبُوكَ وإِحدى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ
هُوَ ابنُ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنُ وَصِيِّهِ   وَشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ التَّجَارِبِ [2]

فهو يمدح العلويين بانتسابهم إلى الرسول ﷺ ، وجعل ذلك « إحدى » مناقبهم الكثيرة على رواية « إحدى » [3] أما على رواية « أجدى » فهم من معجزات النبى ﷺ وآية لتصديقه وتحقيق لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ [4] ردًا على المشركين الذين قالوا : محمد مبتور لا عقب له ، ويروى البيت رواية ثالثة لابن فورجه « آية » يعنى أن أباك على بن أبى طالب كان آية من آيات الرسول ﷺ [5] .

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٤٣ .
(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم د. عبد الوهاب عزام / ١٩٠ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٥٤ ، ١٥٨ .
(٤) سورة الكوثر آية (٣) .
(٥) ابن فورجة / شرح مشكلات ديوان أبى الطيب المتنبى / تحقيق محسن غياض رمستلة من مجلة المورد / المجلد الثانى / ط الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٣ / ١٦٣ . وانظر فى ذلك : الفتح على أبى الفتح / تحقيق عبد الكريم الدجيلى / العراق / وزارة الإعلام ١٩٧٤م/ ٢٨ سلسلة كتب التراث / ٢٧٩ .

وأشار إليه طاهر العلوى بمسك فى حضرة ابن طغج فقال :

الطِّيْبُ مِمَّا غَنَيْتُ عَنْهُ   كَفَى بِقُرب الأمِير طِيْبَا
يَبْنِى بِهِ رَبُّنَا المَعَالِى   كَمَا بِكُمْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَا [(١)]

غير أنا نجد من شعر المتنبى ما يخالف عقيدة الشيعة فى الأبيات السابقة إذ يقول :

إذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَّسِيْبِ كَأَصْلِه   فَمَاذَا الذَّى يُغْنِى كِرَام المَنَاصِب؟
وَمَا قَرَّبَتْ أَشْبَاهَ قَوم أباعِدَ   وَلاَ بَعَّدَتْ أَشْبَاهَ قَومٍ أَقَارِبِ [(٢)]

فهو يقول : إنَّ النسب وحده لا يرفع إنسانًا إذا لم يرفعه فعله وهذا لا يساير عقائد الشيعة فى ذلك العصر [(٣)] .

وهنا نرى أن المتنبى حتى مع مدحه لآل البيت والهاشميين فى شعره فليس معنى ذلك أن المتنبى ينتمى إلى العلويين أو أنه متشيع لهم ، ولكنه كأى شاعر سنى يتغنى بحب آل البيت ، وليس المقصود من ذلك المدح للعلويين أنه كان متشيعًا أو أنه كان علويًا ، وإنما يعطينا مدى تكريم المتنبى لآل النبى ﷺ .

★ ★ ★

جـ- قرمطيته :

يتحدث الباحثون عن القرامطة فى القرن الرابع الهجرى ، ويرى بعضهم أنها شيعة من الباطنية أو الشيعة الإسماعيلية ، الذين برزوا على مسرح التاريخ الإسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، والذين كانوا يتظاهرون بالدعوة لآل البيت ، وأنصاف المحرومين من المترفين والمظلومين من الظالمين ، ويبطنون الإلحاد وهدم الإسلام ، بل هدم العقائد الدينية كلها ، باستدراج الداخلين فى دعوتهم فى مراتب ودرجات سرية يسلخونهم فيها من عقائدهم ، حسب ما يرونه

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق / ١/ ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

من استعداد التابع لهم ، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد والكفر بالأديان والتحرر من التكاليف وإباحة المحرمات [١].

وكان أول من قال بقرمطية المتنبى المستشرقون الذين يرون فى شعره ، ما يمثل هذه الفرقة وعقائدها [٢] ، وتابعهم فى ذلك كثير من الباحثين العرب الذين اتخذوا من أقوالهم أدلة قاطعة على قرمطية المتنبى [٣].

وقد كانت الكوفة فى سنة ٣١٥هـ ، ٩٢٧م ، فى حالة اضطراب عنيفة لهجوم القرامطة عليها ، فرحل المتنبى وأسرته من فزعهم ، وهجر كثير منهم الكوفة إلى غير رجعة ، وبذلك هجر المتنبى مسقط رأسه إلى بغداد . وكان

---

(١) محمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة . مصر - مجلة كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية ، المجلد الثامن عشر ١٩٦٤م / ١ .

(٢) لوى ماسينيون / المتنبى إمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد المجلد السادس . العدد الثالث - عدد خاص . أبو الطيب المتنبى / بغداد ١٩٧٧م ، ١٣٩٧/ ٦٣ . وبروكلمان / تاريخ الأدب العربى نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار . ط دار المعارف بمصر ١٩٧٤/ ٢/ ٨١، ٨٢. وبلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى/ ترجمة د. إبراهيم الكيلاني / ١٩٧٥م/ ١٢٦ ، ١٢٧ ، وأبو الطيب المتنبى / مجلة الحديث - السنة التاسعة - العدد السابع حلب تموز يوليو / ١٩٣٥م / ٤٦٨ ، ٤٦٩ . وحياة أبى الطيب - المتنبى وشعره / ترجمة د. أكرم فاضل - المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - ١٩٧٧م / ١٣٩٧هـ/ ٤٤ . واميلو غرسيه غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبى . سير ودراسات . تعريب - د. الطاهر أحمد مكى ط ثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م/ ٢٢ . وكردفرومبين/ المتنبى وأسباب مجده - الأهمية التاريخية لأشعاره / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - ١٩٧٧م / ١٣٩٧ بغداد / ٧٣ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٦ . والمتنبى . مغامرة شاعر جريئة / عرض وتقديم / عبد العاطى جلال / الثقافة - السنة الثانية - العدد الرابع عشر نوفمبر ١٩٧٤م / ٤٠ - ٤١ . وأحمد أمين / المهدى والمهدوية اقرأ ١٠٣ ط دار المعارف بمصر ١٩٥١م / ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ . ونديم عدى / تاريخ الأدب العربى ط ثانية ١٩٥٤/ الجزء الأول / ٢٧٦ ، ٢٧٧ . وشوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ٣١٢ ، ٣١٣ . ومصطفى الشكعة / من فنون الأدب العربى مصر ط الأنجلو المصرية ١٩٥٧ / ٩٦ . وعارف تامر / القرامطة ونشأتهم - تاريخهم - حروبهم / بيروت منشورات مكتبة دار الحياة/ ٣٧ ، ٣٨ . وعزيز عارف / الاتجاه الباطنى فى شعر المتنبى / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث عدد خاص أبو الطيب المتنبى - بغداد ط دار الحرية للطباعة / ١٩٧٧م ، ١٣٩٧هـ/ ٩٨ . وايليا الحاوى / فى النقد والأدب - العصر العباسى وقصائد محللة ط دار الكتاب اللبنانى بيروت ط أولى ١٩٨٠م / ٢٠٧ .

خروجه منهـا إلى أواخر سنة ٣١٦ هـ ، و ٩٢٨م ، وكان عمر الـمتنبى حينذاك أربعة عشر عامًا [١].

ومن العسير فهم الأسبـاب التى حدت بالمتنبى الصبى أن يرتحل إلى البادية . فهل ارتحل لمجرد التبدى والاستفادة للسانه ولجسمه وفنه الشعرى من المكوث بين هؤلاء العرب البادين الذين كان العلماء يختلفون إليهم ويقيمون بين أظهرهم، ويأخذون عنهم اللغة ، ويرون عنهم الشعـر والأيام والأساطير ؟ أو هل انتقل إلى البادية لشىء آخر غير هذا يتصل بالحياة الاجتمـاعية والسياسية التى كانت محيطة به؟ وبعبارة أوضح هل ارتحل إليها التماسا لهذه الـبيئة القرمطية التى كانت متصلة أشد الاتصـال بحياة الشـعب فى الكوفة فى ذلك الوقت تبـعث الرعب فى قلوب فريق منه ، وتبعث الحب فى قلوب فريق آخر [٢] .

ويبدو أن رحلته « إلى بـادية السماوة » كانت بغيـة الاستقرار فيـها ، وكان يسكنها على وجه الحصر قبيلة من جنوبى الجزيرة العربية بنو كلب الذين امتزجوا بعناصر يمنيـة . وقد نزل أبو الطيب وأسرته فى بنى الصـابى وهم بطن من جشم من همـذان الذين ادعى أجـداد أبى الطيب لأمه ، الانتـســاب إليهم ، وإذا كـان لمكث أبى الطيب فى البـادية من نتـائج فهـو على الصـعيـد الدينى ، فقـد رأينا القرمطية اجتذبت فى بدء ظهورها أنصاراً لها من أوساط البدو المتحمسين ، ولعل تلك الدعوة تـناولت القبائل كـافة ، ولم تكن قـبيلة بنى الصابـى أو سواها التى استـضافـت أبا الطيب المتنبى بمنـجى من تلك العدوى ، ومن الجـائز أن يكون الشاعـر الشاب صادف بعض المهـتدين إلى هذه العقيـدة الجديدة ، أو أن بعض الدعاة ، حاول تلقينها ولدا مهيئا بحكم تشبعه لتقبل تعاليم القرمطية .

يقول بلاشير أحب أن أذكر هنا أن أمور الشيعة والقرامطة لم تكن تجرى فى وضوح ويسر ، وإنَّما كان قـوامها التحفظ والتكتم ، والجماعات الـسرية المبالغة فى حفظ السر وإخـفائه . وما دمت افترضت منذ حـين أن أبو الطيب إنما ذهب

---

(١) بلاشير / أبو الطيب الـمتنبى دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمـة د. إبراهيم الكيلانى / ٥٨ ، ٥٩ . وطه حسين / مع المتنبى / ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٤٢ ، ٤٣ .

إلى البادية ليتعلم على بعض دعاة القرامطة ، فالأمضى فى الفرض على طبيعته ، والأرجح كما قدمت أن المتنبى عاد من البادية مع بعض دعاة القرامطة واشتغل فى الكوفة ينشر الدعوة القرمطية ، وأن المتنبى سافر من الكوفة بعد جلاء القرامطة فقصد إلى بغداد مركز قوى من مراكز الدعوة القرمطية وذهب المتنبى إليه فأدى إليه شيئًا ، وتلقى منه شيئًا ، وترك بغداد قاصداً إلى الجزيرة والشام ، وعلى هذا فالمتنبى لم يرحل إلى الشام طالبًا للرزق فحسب وإنَّما ذهب إلى الشام داعية من دعاة القرامطة ، وفى هذا القسم الشمالى من سوريا الذى لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطى كما أدرك غيره من أقسام الشام (١) .

ويتضح فيما سبق أن الدكتور طه حسين تأثر فى دراسته عن المتنبى بالمستشرقين بلاشير ولوى ماسينيون فى دراستهما السالفة الذكر .

وتراه يقطع بأن المتنبى تعلم أصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معًا قبل إيراد الحجة أو شبهها على هذه الدعوى الذى قطع به ، وليس ذلك فحسب ، بل إنَّه تعمد أن يذكر البادية دون أن يعين البادية التى رحل إليها المتنبى ؛ لأنه إذا صح أن الرحلة كانت إلى بادية « السماوة » وهذا صحيح ولاشك . فمن التهجم أن نقول : إنَّه تعلم أصول القرامطة هناك ، فلم تكن بادية الشام موطنا من مواطن الدعوة القرمطية ، بل كانت من أعداء القرامطة ، وكثرت عليها غاراتهم ، واشتدت فيها حروبهم ، وأما موطن الدعوة القرمطية ، فكان فى جنوبى الكوفة إلى البحرين من أواخر القرن الثالث إلى أن أخفقت وذهبت ريحها. فشأن هذه البادية التي رحل إليها وكثرت عليها غارات القرامطة، شأن الكوفة التى رحل منها وكانت عليها غارة القرامطة إذ كان وجوده فى الكوفة لا ينتج القول : بأنه كان قرمطيا ، كما ذهب طه حسين إليه فيما بعد ، فكذلك رحلته فى بادية الشام لا تأتى بشىء يقصد هذا القول (٢) .

---

(١) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ . وحياة أبى الطيب المتنبى وشعره / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى بغداد ١٩٧٧ م / ١٣٩٧هـ/ ٤٤ . وطه حسين / مع المتنبى / ٤٥ ، ٤٦، ٤٧.

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ٢/ ١٣٦ ، ١٣٧ .

ويؤكد بعض الباحثين أن المتنبى إنما اتخذ المذهب القرمطى عقيدة بسبب تقربه إلى أبى الفضل الكوفى الذى مدحه بقصيدة شعرية ، ويلوح لنا أن هذا الرجل قد أثر تأثيراً كبيراً فى تطور عقيدة المتنبى وفلسفته ؛ ذلك لأنه كان فيما يظهر من الذين اعتنقوا مذهب القرامطة وسار فى ركابهم ، وفى شعر أبى الطيب ما يؤكد ذلك إذ إن فيه نزعة إلى التشاؤم على الدهر والناس (١) .

وهذه القصيدة تصور تأثر المتنبى بالمذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة، والواضح من هذه القصيدة أن المتنبى لم يرد أن يمتحن أبا الفضل ، ولا أن يستكشف مذهبه ، وإنَّما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل ، وأن يمدحه بما كان هذا الرجل يجب أن يمدح به ، وسواء أكان المتنبى مؤمنا بهذه الآراء التى أثبتها فى قصيدته أم لم يكن فحسبى أنه أثبت هذه الآراء وجهر بها وتقرب بها إلى رجل والتمس العطاء (٢) . يقول المتنبى :

يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُصَفَّى جَوْهَرًا ... مِنْ ذَاتِ ذِي المَلَكُوتِ أَسْمَا مَنْ سَمَا
نُورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةً ... فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا
وَيَهُمُّ فِيكَ إِذَا نَطَقْتَ فَصَاحَةً ... مِنْ كُلِّ عِضْوٍ مِنْكَ أَنْ يَتَكَلَّمَا
أَنَا مُبْصِرٌ وَأَظُنُّ أَنِّيَ نَائِمٌ ... مَنْ كَانَ يَحْلَمُ بِالإِلَهِ فَأَحْلَمَا
كَبُرَ العِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ ... صَارَ اليَقِينُ مِنَ العِيَانِ تَوَهُّمَا (٣)

فنحن هنا بإزاء رأى صريح فى الحلول ، فالمتنبى يرى أن صاحبه قد صفى جوهره من ذات ذى الملكوت ، أى أن روحه قبس من ذات الله ، وهو يرى أن هذا القبس لاهوتى قد استقر فى صاحبه ، فكاد يظهره على الغيب ، وهو يكبر ما يرى فهو يقظان يرى الله ، وهو يظن أنه نائم ، ثم ينكر أن يكون نائمًا ؛ لأن الله لا يرى فى الأحلام . وهو يكبر هذا العيان ، ويرى أنه أعظم وأجل من أن

(١) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، وطه حسين / مع المتنبى / ٤٤ ، ٤٥ . وشوقى ضيف / الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ١٩٧٦ / ٣٠٤ .
(٢) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣، ٥٤ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٣٠ ، ٣١، ٣٢ .

يثبت له أمثاله ، فيرتاب فيما يرى ويكاد يتهم نفسه بالخيال والوهم . وهذا كلام وحده صريح فى انحراف المتنبى عن الجادة الدينية واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى الإلحاد أقرب منها إلى شىء آخر . ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فى الديوان زعم للرواة أو زعم الرواة له أنه إنما امتحن بهذه الأبيات أبا الفضل وأراد أن يعرف مذهبه كلام يقصد به الاعتذار ، وإلى التقية أكبر من أى شىء آخر (١) .

وهذه القصيدة هى الدليل الذى يستشهد به كل من قال بقرمطية المتنبى ، إذ إن القرامطة أخذوا بالحلول والتناسخ المتسربين إلى المسلمين من الهند وفارس، وشاركوا بعض فرق الشيعة فى فكرة الإمام المنتظر ، وأصبح من ديدن كل داعية إلى بدعة أو خرج على سلطان ، أن ينتسب إلى على ﵁ ، أو أن يدعو إلى الرضى على آل محمد ﷺ وإن تعذرت عليه النسبة مباشرة (٢) . وذهبوا إلى أكثر من ذلك إذ إنهم يعتقدون أن روح الله وأرواح أنبيائه تحل فى أئمتهم وصلحائهم ، وحكى عنهم المعرى فى رسالة الغفران نقلا عن بعض محدثيه أن لهم بالإحساء « بيتا يزعمون أن إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرسًا بسرج ولجام ويقولون للمهج الطغام . هذا الفرس لركاب المهدى يركبه متى ظهر ، وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل وتوصل إلى المملكة وتضليل . ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر لما حضرته المنية جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس الموت : « إنى قد عزمت على النقلة وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدا ولابد لى أن أبعث غير هؤلاء » (٣) .

وزعم باحث أن الشاعر فى هذه القصيدة من غلاة الباطنيين الذين يؤمنون بالحلول . نرى أنها طائفة مؤولة باطنية حلولية ، جعلوا للشرع ظاهرًا وباطنًا ، وبنوا مذهبهم على تأويل الأحكام والآيات (٤) .

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٤٤، ٤٥ .

(٢) سعيد الأفغانى / دين المتنبى / الرسالة – السنة الرابعة – العدد ١٦١، فى يوم الاثنين ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ – ٣ أغسطس سنة ١٩٣٦/ ١٢٥٤ .

(٣) عباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / ١١٩ ، ١٢٠ .

(٤) سعيد الأفغانى / دين المتنبى / الرسالة – السنة الرابعة – العدد ١٦١ ، سنة ١٣٥٥ هـ ، ١٩٣٦م / ١٢٥٤ .

ويتخذ المدافعون عن أبى الطيب أدلة أخرى ، فيقولون أن فى هذه القصيدة أثرا واضحا لدراسة المتنبى للفلسفة اليونانية فى عصره . كما نرى دليلاً واضحًا فى قول الأصفهانى أن أبا الفضل كان بالكوفة لا بالبادية ، وأنه كان من المتفلسفة لا من القرامطة ولو أنه كان من القرامطة لذكروا ذلك ولبالغوا فيه لعظم عداوتهم للمتنبى ، فإنَّ المتفلسفة أن يكنوا ضلالا ، فإنَّ الجرح فى وصفهم بالإلحاد والكفر كثير ، وأما القرامطة فأهل العلم جميعًا ، حتى الفاطميون وقد كان لهم أتباع يرمونهم بالكفر والزندقة والإلحاد فى غير تحرج [١] .

وربما كانت هذه عقيدة ممدوحه أبى الفضل فذكرها تقربًا إليه وهو على كل حال يدل على عدم اهتمام المتنبى بالتمسك بروح الدين [٢] . والمهم أن فى هذه القصيدة وصفا على طريقة المتصوفة وما يؤمنون به من الحلول . ومن هذا اتخذ بعض الباحثين أن يوازن بين هذا الوصف وقرمطية المتنبى ، وكأنما جلبته عنده قرمطيته ، والقرمطية لا علاقة لها بالتصوف إذ هما عالمان مختلفان : عالم الصوفية الحلولية وعالم القرمطية الإسماعيلية المتطرفة [٣] .

ويرى بلاشير أن العقيدة القرمطية كانت مسيطرة على المتنبى ،وكان عليه أن يعمل بمقتضاها ، ومن الجائز فيما يتعلق بنظرته إلى الإمامة ، أن يكون التقى مع القرامطة الذين تخدم نظرياتهم مطامحه ، ولعله كان يعتقد كأرباب تلك الفرقة، أن الإمامة ليست موقوفة فقط على أسرة على بن أبى طالب بحكم الوراثة الجسدية ، بل هى ولاية إلهية يجوز أن ينعم بها على الناس كافة . وقد بدأ هذا المفهوم غريبا إذ عبر عنه بكلام محجوب أمام أناس اعتادوا لقاء الدعاة العلويين المشربين بالوراثة الإمامية مما سهل على الخيال الشعبى إضفاء معنى على معرفة المتنبى معرفة واسعة بفوائد التعاليم القرمطية [٤] .

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / ٢، ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) سلمان هادى الطعمة / من أعلام الفكر العربى / مصر ١٩٨٠م / ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ٧٧ . ذهب فى الفن ومذاهبه فى الشعر العربى بقرمطية المتنبي ولكنه فى فصول من الشعر ونقده ، وعصر الدول والإمارات نفى عنه القرمطية تمامًا وأفضى إلى ذلك بأدلة قاطعة سوف تأتى فى ثنايا البحث .

(٤) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ١٢٦ ، ١٢٧ .

والواقع أن القيم التى مجدها المتنبى فى شعـره تتعارض مع مبادئ الباطنية والقـرامطة بل هى تناقض المـبدأ الأسـاسى الأول فى النظرية الشـيـعيـة ، وهو «الولاية» والمقصود به عندهم كما أوضحنا هو ولاية الإمام . فيجب على الشيعى المتطرف أن يعرف إمام عصره ، وأن يؤمن بإمامته بكل ما هو معروف عندهم من صفات الإمامة وفى مقدمتها العصمة وأن يخلص له وينقاد لأوامره .

والولاية عندهم ركن من أركان الدين ، بل هى الركن الأساسى الذى تبطل ببطلانه بقية الأركان . والباطنية ومنهم القرامطة يغلون فى ذلك غلوا يخرجهم عن الإسلام إلى الشـرك ، فالإمام عندهم له صـفات الرسول ، بل له الصـفات التى يجعلهـا المسلمـون من أسمـاء الله الحسنى - جل وعلا - والإمـام لا يبلغ هذه الرتبة بالاجتـهاد فى تطهير نفسـه وتزكيتها . ولكنه يرثهـا بنص من الإمام السابق الذى يعـتمد فـى ذلك على الوحى . فالنظرية البـاطنيـة - والشيعـية علـى وجه الخصوص . تعتمد على الوراثة ولا مكان فيهـا للكسب فسبيل الشيعى إلى المثل الأعلى هو التغنى بآل البيت الذين هم سنده وذخره وعدته ، والتعلق بهم والتفانى فى الانقياد للإسلام [١] .

أما دراسة الدكـتور طه حسين لشعـر المتنبى ، فهى دراسة متـأثرة بما قاله المستـشرقون حول هذ الشعر ، ونراه يتـفق معهم فى كثير من الأحـيان حتى فى النصوص المطروحة لاستنتاج ماسموه « بقرمطية المتنبى من شعره » .

ويرى فى شعره بعض الخواص ، فالخاصة الأولـى تتصل بنفسية الشاعر ، أما الثـانية فـتتـصل بطرق الشاعـر حين اضطرابه فى بلاد الشـام . فأما الـطريقة الأولى، وهى الطريقة النفسيـة ، إنْ صح هذا التعبير ، فإنِّى استنبطهـا من طبيعة الحياة العـقلية والشعورية التى كان المـتنبى يحياها قبل أن تلم به الحـادثة . فهو قرمطى الهوى فـى الكوفة لا يحتاط ولا يتحـفظ . وهو شيعى فى بغداد مـتحرج يصطنع الحذر . وأكبر الظن أنَّه إنَّما سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إليها هناك . فلابد إنْ صح هذا الفرض من أن يمتاز شـعـر أبى الطيب فى هذا الطور من حياته بشيئين : أحدهما آراء قرمطية تظهر فى هذا الشعر من حين إلى حين . لأنها هى

(١) محمد محمد حسين / المـتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية - المجلد الثامن عشر ١٩٦٤م / ١٦ .

آراء الشاعر ، وهى قوام تفكيره وحياته ونشاطه الخفى ، فلا يستطيع المتنبى أن يمحوها من آثاره الأدبية محوا، وهو إذ يقيم فى شمال سوريا دهراً طويلاً يرتحل بين قبائل البادية والمتحضرين فى المدن يمدح سراة الناس والرؤساء ، كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضًا . وهو فى عمله هذا يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى [(١)] .

وهناك بيتان مؤرخان فى سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م يبدو أن الشاعر من خلالهما مفتون بجرأة زعماء القرامطة ، مهيئ للمشاركة فى ثورتهم :

بِكُلِّ مُنْصَلِت مَا زَالَ مُنْتَظِرى حَتَّى أَدلْتُ لَهُ منْ دَوْلَةِ الخَدَمِ
شَيخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ نَافِلَةً وَيسْتَحِلّ دَمَ الحُجَّاجِ فِى الحَرَمِ [(٢)]

وفى هذين البيتين يرى بلاشير أنه يتحدث عن قرامطة البحرين ، فينوه بما جرى من مذبحة الحجاج ، التى ملأت العالم الإسلامى رعبا وفزعا ، واستعماله «اسم الشيخ لزعيمهم وكلمة النافلة التى تحل محل كل فريضة ، وفى الآخر تراه يمتدح شجاعتهم وقوتهم فى ذلك الوقت [(٣)] .

وعلى رأيه يشع فى شعره المذهب القرمطى بعد عودته من البادية يقول :

إلى أَىِّ حِيْنٍ أَنْتَ فِى زِىِّ مُحْرِمِ ؟ وَحَتَّى مَتَى فِى شَقْوَةٍ وَإِلَى كَم ؟
وَإِنْ لاَتَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا تَمُتْ وَتُقَاسِى الذُّلَّ غَيرَ مكُرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقًا بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى المْوتَ فِى الهَيْجَاجَى النَّحْلِ فِى الفَمِ [(٤)]

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٤٢٠ .

(٣) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ولوى ماسينيون / المتنبى إمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أثرم فاضل / المورد - المجلد السادس ، العدد الثالث عدد خاص أبو الطيب المتنبى بغداد ١٣٩٧ ، ١٩٧٧م / ٦٣ . وطه حسين / مع المتنبى / ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٣٣ ، ٣٤ .

ويتابعه الدكتور طه حسين ، فيقول :

فانظر إلى هذا التحرق الذى يظهره هذا الصبى إلى التغيير والخروج عما هو فيه من الأمن والدعة والطمأنينة إلى حال أخرى فيها اضطراب وخوف ومخاطرة. وهو يكره لنفسه زى المحرم ، أى زى الرجل الوادع الذى يحرم ما حرم الله ، ويمتنع عن قتل الصيد ، وعما يمتنع عنه المحرمون بالحج ، وهو يريد أن يكون محلا ، وأن يعمل ما لا يعمله الوادعون ، لأن حياة الإحرام والدعة لم جن عليه إلا الشقاء ، فهو يريد إن يلتمس السعادة والعزة فى حياة الفتك والبأس ، وهو مطمئن ، إلى أنه أن لم يتعرض للفتك والبأس ولم يصطل نار الحرب اتقاء للموت ، كريمًا تحت السيوف أخذه الموت مهينًا ذليلاً فى ظل الإحرام والدعة .

وانظر إلى هذا البيت الأخير :

فثب واثقا بالله وثبة ماجد ... يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

فهو لا يريد بهذا الوثوب إلاَّ الخروج على السلطان ، وشق عصى الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف . ومن هنا يتضح فى هذه الأبيات تأثره بالبيئة العملية للقرامطة [(١)].

وهذا ما قرره الدكتور بلاشير من قبل الدكتور طه حسين ، إذ يرى أن فى شعره هذا تأثرًا واضحًا بمذهب القرامطة ، وقد كانت قصائده معروفة فى ذلك الوقت بالتمرد بل تدعو إليه . يقول :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بالآمالِ مِنْ أربى ... وَلاَ القَنَاعَةُ بالإقْلالِ مِنْ شِيَمِى
وَمَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِى ... حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا هممى
أَرَى أُناسًا وَمَحْصُولِى عَلَى غَنَمٍ ... وَذِكْرُ جُودٍ وَمَحْصُولِى عَلَى الكَلِمِ
وَرُبَّ مَالٍ فَقِيرا مِنْ مَرُوَّتِه ... لَمْ يُثْرَ مِنْهَا كَمَا أُثْرى مِنَ العَدَمِ
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاَتَ مُصْطَبَرٍ ... فَالآنَ أُقْحَمُ حَتَّى لاَتَ مُقْتَحَمِ [(٢)]

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبو الطيب المتنبى / ٤/ ٣٩ ، ٤٠ . وبلاشير / أبو الطيب المتنبى / ١٢٩ ، ١٣٠ .

ويعتقد المستشرقون وطه حسين أن ظاهرة الثورة والتمرد فى شعر المتنبى إنما تصدر منه عن آراء قرمطية ، فهو قد نشأ فى بيئة شيعية ساخطة تنتظر الفرج، واتصل ببيئة قرمطية هادمة للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع ، وهو قد تأثر بهاتين البيتين فكان فى حياته الظاهرة شيعيا علويًا ما أقام فى العراق . وكان قوله للشعر وتأثره بما يتأثر به الشعراء ، رب نَمَّ على دخيلة نفسه فأظهر قرمطيته العقلية فى مدحه لأبى الفضل الكوفى وأظهر قرمطيته فيما سبق من الأبيات . وقد كان المتنبى فى حياته الخارجية يجارى الناس ويداريهم ، وفى حياته الداخلية يبغض الناس أشد البغض ويمقتهم أشد المقت ، ويضمر لهم ضغينة لا حد لها ، وعداء لا هوادة فيه (١) .

وكان المستشرقون وطه حسين يرون أن المتنبى ، كان تابعًا للقرامطة ، باحثًا عن أخبارهم وآرائهم ، وكان أحب ما يجذبه إليهم هو كلفهم بسفك الدماء وشغفهم بالغارات والحروب ، كما كان يظهر بما هيئته قرمطيته إلى دور الرجل المتعالى المعتز بكبريائه ، وكان يرى أن عليه وعلى فرقته أنْ يغيروا النظام الاجتماعى ، كل هذا خلق منه قرمطيا من أشد القرامطة تعصبا وفاعلية . ولم يحدث أن تغنى شاعر قبله بالمدايح والتعطش إلى الدم بلهجة أكثر وحشية ولا إنسانية مثل ما فعل المتنبى (٢) .

والمتنبى يخلع « اسما لفكره » على هذا الموقف المرير المكافح إنَّها «الفتوة» :

وَلَكِنَّ الفَتَى العَرِبِىَّ فِيْهَا ... غَرِيبُ الوَجْهِ والْيَدِ واللِّسَانِ (٣)

---

(١) طه حسين/ مع المتنبى / ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) كرو فرود مبين / المتنبى وأسباب مجده . الأهمية التاريخية لأشعاره ، ترجمة د. أكرم فاضل / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص . أبو الطيب المتنبى / بغداد ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م/ ٧٣ ، وطه حسين / مع المتنبى / ٣٦ . والمتنبى . مغامرة جريئة / عرض وتقديم / عبد العاطى جلال / الثقافة -السنة الثانية العدد الرابع عشر ١٩٧٤ / ٤٠ ، ٤١ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٥١ .

وهنا أيضًا نجد أنفسنا حيال كلمة ذات مذاق شيعى متطرف . ففى القرن الثانى ، الفتى هو المتآمر الشيعى ، الذى نذر نفسه للقتل ، فهو يتخذ موقفا ذا أناقة استفزازية ، والفتوة لدى المتنبى هى شرف الرجل الذى يرى أنه فكرة ، بكل أهوائه هو الشيء الوحيد المعتبر ، وخطر الموت تجاهه لا قيمة له ، وكذلك القرامطة ، الذين قال عنهم مؤرخ الهرقلة المعاصر أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى فى كتابه « التنبيه والرد على أهل البدع والأهواء» وهم من الحرب لا يدبرون حتى يقتلوا ، ويقولون : إنَّ حياة بعد القتل أو الموت أفضل ، لأنا نخلص أرواحنا من قذر الأبدان وشهواتنا ونلحق بالنور [١].

ويلوح لوى ماسينيون إلى « فن المتنبى الشعرى من وجهة النظر الثقافية. إنَّ الوضوح الغريب الذى تتمتع به لديه الصورة يلوح لى كذلك أنه من فاعلية أسلافه القرامطة ، فهو شاعر البلاط المزعوم يرفض أن يتغنى بالخمر ولا يصف الجمال الحسى للأجسام . ولا يدع لنفسه مجال الاختيار ، لتوبلة موائد المتهتكين، بسلوك مدح الزهد الذى يعوزه الإخلاص مع التغزل بالمذكر المزعومة أفلاطونيته . صحيح إنَّه تبرئة لذمته يلجأ إلى تنويع مبالغاته فى المدح، ولكن ما يمنحه قبل كل شيء لسامعيه إنَّما هو مشهد تفكيره الخاص : التفكير الخالص فى حالة الهياج الوحشى ضد الوضع البشرى ، بل حتى ضد ثقل المادة البسيط ، ضد ما سماه إخوان الصفا « الحكام الخمسة » الذى يضم : السماء التى جعلت الليل والنهار خلقة ، والفصول ، الطبيعية التى تحملنا مشقة الحر والبرد والشوق والحسرة ، الشرع الذى يخضع لحكم الطقوس أو يؤدى إلى العقوبات الجزائية ، الدولة ذات المرافق والتسخير المهنية ، ضرورة الطعام والشرب واللباس والسكن والعمل بالآلات » [٢] .

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه [٣]

إذَا غَامَرْتَ فِى شَرَف مَرُوْمِ فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُوْنَ النُّجُومِ [٤]

---

(١) لوى ماسينيون / المتنبى إمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد / المجلد السادس العدد الثالث - بغداد ١٩٧٧م / ١٣٩٧هـ/ ٦٥ .

(٢) لوى ماسينيون / المتنبى إمام العصر الإسماعيلى للإسلام / ترجمة د. أكرم فاضل / ٦٥ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢١١ .

(٤) المصدر السابق / ٤/ ١١٩ .

فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى — وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الحَرْبَا [1]

ذُو العَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِه — وَأَخُو الجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوةِ يَنْعَمُ [2]

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ — وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَدَمِ [3]

بِمَ التَّعَلُّلُ؟ لاَ أَهْلٌ، وَلاَ وَطَنُ — وَلاَ نَدِيمُ، وَلاَ كَأسُ، وَلاَ سَكَنُ [4]

أَجِدُ الحُزْنَ فِيكَ حِفْظًا وَعَقْلاَ — وَأَرَاهُ فِي الخَلْقِ ذُعْرًا وَجَهْلاَ [5]

وتتسع المبالغة عنده ويظن ماسينيون أنها جاءته من عقائد الشيعة فى أئمتهم وما كانوا يخلعونه عليهم من صفات إلهية ، وقد تحول بها إلى فخره وحديثه عن غيره ومديحه ، وكأنه يظن ممدوحيه أنصاف آلهة [6] .

ويعود الدكتور طه حسين إلى الحديث عن آخر حياة المتنبى وقد كان بالكوفة فتعود دعوة القرامطة إلى الوجود ، ويكثر فيها اللفظ والحديث ، وينشأ عنها لفظ كثير وإذا البائسون وفقراء المدينة من أهلها ، يسرعون إلى الدعوة ويستجيبون للدعاة ، وإذا أوساط الناس وأغنياء المدينة ينكرون الدعاة ويقاومون الدعاة، وأبو الطيب من الأغنياء طبعًا ، ولكنه قرمطى النشأة ، قرمطى الشباب، وهو الآن كاره للسلطان فى العراق ، كما كان كارها له فى صباه وشبابه فإلى أى جانب يميل ؟ أيميل إلى السلطة فيحفظ ماله ، ولعله مصلح أمره ، مع هؤلاء الساخطين عليه فى بغداد ؟ أم يميل إلى القرامطة فيرضى شهوته إلى الحرب والتمرد ؟ مال المتنبى إلى السلطان فى العراق وجحد القرامطة كما جحدها من

---

(١) المصدر السابق / ١/ ٦٥ .

(٢) المصدر السابق / ٤/ ١٢٤ .

(٣) المصدر السابق / ٤/ ١٥٥ .

(٤) المصدر السابق/ ٤/ ٢٣٣.

(٥) أبو الطيب المتنبى / ديوانه .

(٦) لوى ماسينيون / المتنبى إمام العصر الإسماعيلى للإسلام / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث / بغداد ١٩٧٧م / ١٣٩٧ / ٦٥ . ودرويش الجندى / الشعر فى ظل سيف الدولة / ٢٨١ ، ٢٨٢ .

قبل ، وإذا أغنياء الكوفة وأوساط الناس فيها يقاومون دعوة القرامطة ، وإذا هو يبدأ هذه المقاومة بلسانه ، فيهجو داعية بدويًا من دعاتِهم ، ضبة بن يزيد الكلابى، بقصيدته البائية المشهورة التى أولها :

مَـــا أَنْصَفَ الـقَــــوْمُ ضَـبَّـــهْ وَأُمَّـــــهُ الـطُّرْطُبَّـــــهْ [1]

ولم يلبث أن تجددت دعوة القرامطة ، وبدت قوية ، وإذا هم يغيرون على الكوفة . وهنا تتم خيانة المتنبى للقرامطة ، فهو لا يكتفى بما قدم من المقاومة باللسان، ولكنه ينهض ومعه غلمانه ، فيقاوم بالسيف والرمح ، وينجح فى هذه المقاومة ، ويشق لنفسه ولغلمانه طريقًا حتى يتصل بحاكم المدينة . وتعود الغارة مرة ثانية على المدينة ، فيعود المتنبى وغلمانه إلى الاشتراك فى رد المغيرين ، وتوفق المدينة لدحر المغيرين عنها ، ولكن الخبر قد وصل إلى بغداد . وإذا الدولة ترسل جيشًا بقيادة دلير بن لشكروز . فلا يكاد هذا القائد يصل إلى الكوفة حتى يعرف الذين أبلوا فى رد القرامطة ، فيخلع عليهم ومنهم المتنبى . فإذا وصلت إليه الخلعة أنشأ قصيدة فى مدح القائد ، والمتنبى بهذا العمل قد خان القرامطة فى كل شىء [2] .

ومن الحق أن نرد على طه حسين فى كل ما قاله عن قرمطية المتنبى ، إذ إن ما قاله من اتصال المتنبى بالبيئة القرمطية ، لا يثبت أمام الدرس والتمحيص، إذ فيما قاله فروض لا أكثر ولا أقل ، وهى لا تحمل حقائق ثابتة أو وثائق تاريخية بقرمطية المتنبى ، ولم يجعل من هذه الفروض أو الترجيحات دليلاً كاملاً على قرمطية المتنبى ، كما أنها تدل على مجرد الظن والافتراض الذى لا تؤيده النصوص ولا تسنده الأدلة [3] . ثم إنَّ مدح المتنبى لقرمطى أو علوى لا يعنى أنه تقرمط واتخذ مبدأ القرامطة طريقًا ومنهجًا إلى الحياة . والدكتور طه حسين يبنى رأيه فى قرمطية المتنبى على شعور خاص ، يقول : « ومهما يكن من شىء ،

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٠٤ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٣) عباس محمود العقاد / مع المتنبى للدكتور طه حسن / الهلال - الجزء الخامس السنة الخامسة والأربعون أول مارس ١٩٣٧ م ، ١٨ ذو الحجة ١٣٥٥هـ/ ٥٣٩ ، ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٧٥ .

وسواء واتتنا النصوص التى بقيت لنا أم لم تواتنا ، فإنى أجد فى نفسى شعورًا قويًا جدًا بأن المتنبى قد نشأة نشأة شيعية غالية ، ولم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة » -[1] ، وهذا خطر فى المنهج . فالشعور الخاص يجب ألاّ يطغى «فى المنهج التاريخى» [2] .

أما الشعر الذى استدل به المستشرقون ومن شايعهم من الباحثين العرب ، فهو لا يثبت شيئًا من هذا الذى ادعوه فلم يكن المتنبى قرمطيًا ، وإنما كان يدعو إلى التخلص من دولة الخدم والعبيد التى تحكمهم آنذاك من ترك وأعاجم ، وتراه يمضى فيصور فى البيتين السابقين أنصاره من هؤلاء الشجعان بأنهم لا يبالون العواقب فى سبيل ما يريدون من استنقاذ الرعية . وظن بعض الباحثين أن فى هذين البيتين ما يشير إلى قرمطيته ، إذ كان أبو طاهر القرمطى أغار فى سنة ٣١٧هـ على مكة المكرمة واستباح دم الحجاج ، كما قلنا فى الحرم الشريف ، مرتكبًا بذلك أشنع الحماقات ، وكان أبو الطيب فى نظر هؤلاء الباحثين يعلن أنه سيستعين فى ثورته بأمثال أبى طاهر القرمطى وهو بعد فى التقدير والفهم ، إذ إن أبا الطيب لا يريد أن يعلن للناس فى بلاد الشام أنه كان يسيغ هذا العمل الشنيع، إنّما كل ما هناك يريد أن يصور شجاعة بعض أتباعه وأنصاره الذين يأمل أن يجد عندهم نصرته فى القضاء على حكم أعداء العرب من الذل الذى استشرى فساد حكمهم ، حتى ولو كلفهم ذلك آثامًا جسامًا تشيب لها الفتيان كآثام القرامطة فى مكة [3] .

ويؤكد الدكتور عبد العزيز الدسوقى أن المتنبى كان يخطط فى فترة من حياته إلى هذه الثورة التى تقضى على كل هذه التيارات المذهبية المنحرفة التى تغير شرع الله ، وتستحل دم الحجاج فى الحرم الشريف .

ولعل هذه الرؤية الفنية تكشف لنا طبيعة حياة أبى الطيب المتنبى فى هذه الفترة من حياته . وتصحح كثيرًا مما أنهم به. من أنه تأثر بالقرامطة أو بالبيئة

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٤٥ .

(٢) سيد قطب / النقد الأدبى . أصوله ومناهجه / ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٨٠ ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٨٩ .

الشيعية وادعى النبوة ، وفى شعـر المتنبى ما يؤكد ثورته على الخوارج والقرامطة وكل هذه الطوائف وفى هذين البيتين إشارة إلى الثورة التى كان يخطط لها يقول :

مِـيْـعَـادُ كُل رَقِـيقِ الشَّـفْـرتَيْنِ غَـدًا ... وَمَنْ عَـصَى مِن مُلُوكِ العُـرْبِ وَالعَـجَمِ

فَـإنْ أَجَـابُوا فَـمَا قـصدى بِهـا لَهُمُ ... وَإنْ توَلُّوا فَـمَـا أَرْضَى لـهَـا بِهِم [١]

وفى هذين البيتين تلحـظ ما يحتدم فى نفس الشاعر من انفعـال متأجج ملتهب ، انصهرت فيـه كل صورها وألفاظها وتعبيراتهـا . وخرجت من داخل التجربة إلى خارجها فتساءلت هل هذا نتيـجة لما كان يغلى فى نفس المتنبى من طموح عارم متأجج وقـادتنى هذه التساؤلات إلى الاستئناس بالتـاريخ وظروف الشاعر فى هذه المرحلة من مـراحل حياته . فعـرفت فعلاً أن الحياة الـسياسية فى القـرن الثالث الهجرى والقرن الرابع كانت مسرحًـا للفتن والاضطرابات والثورات واقتسام الخدم والعبيد فى الدولة الإسلامية [٢] .

أما الأبيات التى أولها :

إلى أى حين أنت فى زى محرم

نرى أنها مما قاله فى صباه بغيـر توقيت لأوان قولها ، ثم إنَّ القصيدة التى قبلهـا فى الديوان مما نص على أنهـا مما قاله وهو «فـى المكتب» بالكوفة ثم إنَّ بعض النسـخ المـخطوطة من الديوان تقـول فـى رأس هذه الأبيـات وقـال وهو «بالمكتب» فمن أين أتى الدكتور طه حسين بهذا البيان عن وقت مقالها بعد عودته من البادية ؟ وما الذى رجح عنده أن تكون مما قاله بعد أن تعلم أصول القرامطة، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية ؟ [٣] ولا نرى فى هذه الأبيات دليلاً قاطعًا على قرمطية المتنبى ، ليكن من دعـاة الخروج على الملوك والسلاطين ، أفكل خارج على الملوك وعلى الدولة هو قرمطـى بالضرورة ؟ لقد كان من الأصـول المقررة عند العلويين الخـروج على الخلفاء ، أفكان العلويون أيضًـا قرامطة ؟ أو كل من

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٤٤ .

(٢) عبـد العزيز الدسوقى / فى عـالم المتنبى - رؤية فنية / الثـقافة - السنة الرابعـة ، العدد ٤٨، سبتمبر ١٩٧٧ م / ٥٤ .

(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / ٢/ ١٤٩ - ١٥٠ .

تكلم بمثل هذه الروح الثائرة ، فهي دليل على أنه قرمطى؟ إن هذه الأوهام التى يتخيلها الدكتور ليست تصلح للكلام فى تاريخ الشعر ولا بيان معانيه ومراميه وأغراضه [1].

أما ما ذكره المستشرقون من أن فى شعر المتنبى نزعة إلى الحرب تؤدى به إلى القرمطية - التى سموها النزعة إلى سفك الدم . فليس ذلك صحيحًا إذ إن ميل أبى الطيب إلى الحرب كان نزعة عربية حرة فى عصر عانى فيه العرب الانقسام والتناحر ومكان الترك والفرس ، فكأن أبو الطيب رسالة حربية تدعو العرب إلى تحرير أنفسهم من ربقة العجم وتجديد حياتهم بردهم إلى مثلهم العليا السابقة . ولا نستغرب هذه الرسالة من شاعر عربى حر كالمتنبى ، وأن تاريخ نضاله ورحلاته ومحتوى ديوانه يدلان أوضح دلالة على هذه الخطة التى ما حاد عنها حتى مات وليس ما يسوغ فى تفسير النزعة العربية الواضحة عند أبى الطيب قرمطية مرادها التقتيل والسفك كما يرى لوى ماسينيون وطه حسين [2] . ويتساءل الدكتور المحاسنى بقوله « فهل تكون دعوة من نافح عن بلاده فى ذلك الحين وقد تحكم بها الأجنبى إذ حمل السلاح ودعا إلى التحرر والكفاح نزعة قرمطية ، لأنها تهدد بسفك الدم ؟ وإذا قام فى عصرنا داعية ثائر لتخليص بلاد العرب من سلطان الأجنبى والمستعمر والصهيونية الغاصبة فأخذ بالشعر يبعث الحمية والنخوة في العرب يكون قرمطيًا ؟ إنَّ الوضع لم يختلف فى عصر المتنبى عما فى عصرنا ، ولئن كان من حظ القرن الرابع أن وجد فيه شاعر كالمتنبى ينهض بتلك الرسالة فمن لنا فى عصرنا بشاعر ؟ . وشعراؤنا بين معتزل أو متغزل ، أولاه بمطامع الدنيا أو ماض مع النزعة الجديدة الخاسرة فى تهديم الشعر القديم القويم » [3] .

وليس فيما التمسوه من تلك الآثار فى المعانى والألفاظ ما يثبت قرمطية المتنبى ، فقد رأينا كيف أنه لم يثبت لنا قرمطيته أو إسماعيليته ، فكل ما يلاحظ

---

(١) المرجع السابق / ٢/ ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) زكى المحاسنى / المتنبى / ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) المرجع السابق / ٦٢ ، ٦٣ .

على أسلوبه من القوة ، وعلى تراكيبه من الجدة ، وعلى معانيه من العنف والتطرف ، ليس إلاً صدى لروحه المتمردة ،وأخلاقه المندفعة التى لا تموج إلى افتراض قرمطيته وإسماعيليته [(١)] .

أما المبالغة فى شعر المتنبى ، والتى اتخذها المستشرقون وغيرهم دليلاً آخر على قرمطية المتنبى فهذا ما لا نراه صحيحًا إذ إن المبالغة ظاهرة عامة فى الشعر العباسى منذ أبى نواس ومعاصريه على نحو ما هو معروف [(٢)] .

ومما ينفى القرمطية عن المتنبى بوجه عام ارتباطه الوثيق بالحمدانيين أعداء القرامطة الألداء ، ولعل هذا دليل على أنه ما كان قرمطيًا فى يوم من الأيام وهو الذى يمدح سيف الدولة بأن أباه أفنى القرامطة [(٣)] :

القَائمُ المَلكُ الهَادى الذَّى شَهدَتْ قِيَامَهُ وُهَداهُ العُرْبُ وَالعَجَمُ
ابن المُعَفَّرُ فِى نَجْدٍ فَوَارِسَهَا بِسَيْفِه ، ولَهُ كُوفَانُ وَالحَرَمُ [(٤)]

كما أنه مدح سيف الدولة بقصيدة أخرى لما تغلب على القرامطة وصور المعركة واستهزأ بقائد القرامطة وصور شجاعة سيف الدولة فى القصيدة التى مطلعها [(٥)] :

إلاَمَ طَمَاعِيَةُ العَاذِلِ وَلاَ رأىَ فِى الحُبِّ لِلعَاقِلِ [(٦)]

(١) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٣٩٠ . وانظر فى ذلك انعام الجندى/ دراسات فى الأدب العربى / ٢٢٩ ، ٢٣٠ . وسامي منير / ملامح وحدة القصيدة فى الشعر العربى بين القديم والحديث - مصر - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية ١٩٧٩/ ٢٥١ . ورشيدة مهران / طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية - مصر ط الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية ١٩٧٩ / ٢٢٩ .

(٢) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده/ ٧٧ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٧٤ .

(٣) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٩١ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٤٢ ، ٢٤٣ . ومصطفى الشكعة / سيف الدولة الحمدانى - أو مملكة السيف ودولة الأقلام ط دار القلم ١٩٥٩م/ ١٤٨، ١٤٩ . وطبعة ١٣٩٧هـ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٦ .

(٥) أحمد أحمد بدوى / شاعر بنى حمدان / مصر ط الأنجلو المصرية ١٩٤٩م / ١٩٥٠م ، ١٣٩، ١٤٠ .

(٦) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ١٥٢ .

وفى ذلك يقول المتنبى ، مشيرا إلى جيش القرامطة :

وَجَـيْشَ إمَـامٍ عَلَى نَاقَـةٍ ... صَحِيحِ الإمَـامَـةِ فِى البَاطِلِ [(١)]

ويتهكم بزعيم القرامطة، وكأنه يزعم لأتباعه أن الوحى ينزل عليه ويوهمهم ويخدعهم بما خدعهم به الزعيم القرمطى السابق « الملقب بالشيخ » حين كان يزعم أنه إذا أشار بيده إلى الجهة التى فيها فحاربوه انهزموا وكأنما كان أتباعه ينخدعون بكلامه فيقدمونه وهو راكب فوق جمله وعليه ثياب فضفاضة ذات أكمام واسعة ، كأنهم جماعة الفحل الهائم أمام الكاسل [(٢)] :

فَأَقْبَلْنَ يَنْحَزْنَ قُدَّامَهُ ... نَوافِرَ كَالنَّحْلِ وَالعَاسِلِ

وَإنِّى لأَعْجَبُ مِنْ آمِلٍ ... قِتَالاً بِكُمٍّ عَلَى بَازِلِ

أَقَالَ لَهُ اللَّهُ لاَتَلْقَهُمْ ... بِمَاضٍ عَلَى فَرَسٍ حَائِلِ

إذَا مَا ضَرَبْتَ بِهِ هَامَةً ... بَرَاهَا وَغَنَّاكَ فِى الكَاهِلِ [(٣)]

ويشيد المتنبى فى قصيدة أخرى بجهاد سيف الدولة وجهاد أبيه فى مناصرة الخلافة العباسية وشد أزرها ضد القرامطة الذين كانوا يعملون على تقويضها [(٤)] يقول :

فأَنْتَ حُسَامُ المُلك، واللَّهُ ضَارِبُ ... وأنْتَ لِواءُ الدِّينِ ، والله عَاقِدُ

وَأَنْتَ أَبُو الهَيْجَا ابنُ حَمْدَانَ يا ابْنَهُ ... تَشَابَهَ مَولُودٌ كَرِيمٌ ووَالِدُ

أُولَئِكَ أَنْيَابُ الخِلافَةِ كُلِّهَا ... وَسَائِرُ أَمْلاَكِ البِلاَدِ الزَّوَائِدُ [(٥)]

ولو عرف معاصروه قرمطيته أو ميله للقرامطة ، لما سكتوا عنه، وقد رأيناهم يتخذون من ادعائه النبوة بابا يطرقونه ويهجونه به، فلو علموا من قرمطيته شيئًا لحدثنا الرواة مثل ما حدثونا عن نبوته [(٦)] .

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ١٥٧ .

(٢) أحمد أحمد بدوى / شاعر بنى حمدان / ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ١٥٧ ، ١٦٠ .

(٤) محمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة / مصر - مجلة كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية / المجلد الثامن عشر ١٩٦٤م / ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٥) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم د. عبد الوهاب عزام / ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٦) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٨٥ ، ٨٦ .

أما ما ذكره الدكتور طه حسين حول خيانة المتنبى للقرامطة بتخليه عنهم يوم أن دافع عن مدينة الكوفة ، بعد أن هاجمها القرامطة ، فليس هذا دليلا على تخلى المتنبى عن المذهب القرمطى ، إذ لو كان المتنبى قرمطيًا لسكت عن هجوم القرامطة هذا ، ولكن الذى حدث هو العكس إذ دافع المتنبى وغلمانه عن الكوفة بجسمه وشعره ذلك أنه قال قصيدة طويلة يشكر بها دلير بن لشكروز قائد الخلافة العباسية ، على ما أسداه عليه من خلعة . ومن هنا يكون دفاع المتنبى عن الكوفة وأهلها واجبًا تحتمه الحياة الكريمة وفى هذا دليل كاف على أنه لم يكن قرمطيًا فى يوم من الأيام [(١)].

ويظهر أن الشكوى التى يفيض بها ديوان المتنبى أليق بعدو القرامطة منها بالداعية القرمطى ، فالداعية القرمطى لا يشكو ولا يتعجل النتائج ؛ لأن الدعوة كانت تسير على ترتيب مرسوم بطريق خفى لا تجهر فيه بالشكوى من قلة النصير ولا تعلن فيه العداء للناس؛ ولأن دعاة الباطنية - ومنهم القرامطة - كانوا ينشأون تنشئة خاصة، تكسبهم خبرة بطبائع المجتمعات والناس ، وقدرة على الدخول إلى قلوبهم من أقرب السبل وأحبها إليهم . وكان الكتمان أبرز صفاتهم . وإنما الأليق بهذه الثورة أن تكون تعبيرًا عن ضيقه بفساد الحكام والمجتمع ، الذى مهد الطريق لدعوة القرامطة ومكن لها، وبعدم استجابة الناس له حين ينبههم إلى خطر القرامطة والفاطميين فتقعد بهم البلادة والخوف والغباء عن الاستجابة لدعوته ، وحين يجد كثيرًا منهم واقعًا تحت سيطرتهم من غفلة أو رهبة . وحين يقصد الأمراء وأصحاب النفوذ والسلطان فيجدهم فى شغل عن الجهاد وتكاليفه بالترف والشهوات .

ولو كان المتنبى داعية قرمطيًا كما ذهب إليه بعض الباحثين لعاش كما يعيش كل دعاة القرامطة متخفيًا ولا يعرف الناس حقيقة ميوله . ولما واجه هذا الكيد المنظم فى كل بلد حل به وفى كل طريق سلكه ، وهو كيد لا يصدر إلاَّ عن جماعة واسعة الانتشار دقيقة التنظيم . وأعداء القرامطة ليس لهم رابطة

---

(١) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٣ وعصر الدول والإمارات / ٣٥١ . ومحمد مهدى البصير / فى الأدب العباسى ط ثانية ١٩٧٠ / ٣٣٩ .

منظمة، وقد واجه المتنبى دعاية محكمة فى التشنيع بسيرته وبشعره على السواء[1].

ثم إنَّ القيم التى مجدها المتنبى وملأ بها شعره فى صفات العفة المترفعة عن الشهوات ، والمروءة والفتوة والإباء ، وتحمل تكاليف الجهاد . وهى كما نرى صفات لا يقيم لها القرمطى وزنا . فالداعى الباطنى يحصر كلامه فى التغنى بالإمام وفى جمع القلوب عليه . وهو يرى أن هذه القيم الخلقية لا تغنى عن صاحبها شيئًا إذ لم يتول الإمام ، فإذا تولى الإمام فالانحراف عنها ليس بذى خطر. بل شريعة الباطنيين والقرامطة ، تبيح لأتباعها المحرمات وتسقط عنهم التكاليف [2] . يقول المتنبى فى إحدى قصائده التى تنم عن عفة وشهامة ، ومطلعها :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِى الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا [3]

وفى قصيدة أخرى مدح بها دلير بن لشكروز يقول أيضًا :

مُحِبٌّ كَنَى بِالبِيْضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ ... وَبِالحُسْنِ فِى أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ
وَبِالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القَنَا غَيْرَ أَنَّنِى ... جَنَاهَا أَحِبَّائِى وَأَطْرَافُهَا رُسْلِى
عَدِمْتُ فُؤَادًا لَم تَبِتْ فِيهِ فَضْلَةٌ ... لِغَيْرِ الثَّنَايَا الغُرِّ وَالحَدَقِ النُّجْلِ
ذَرِينِى أَنَلْ مَا لاَ يُنَالُ مِنَ العُلاَ ... فَصَعْبُ العُلاَ فِى الصَّعْبِ ، وَالسَّهْلُ فِى السَّهْلِ
تُرِيدِينَ لُقْيَانَ المَعَالِى رَخِيصَةً ... وَلاَبُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ [4]

★ ★ ★

(١) محمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة / مصر مجلة كلية الآداب ، فى جامعة الإسكندرية / المجلد الثامن عشر ١٩٦٤ م / ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) المرجع السابق / ١٧ ، ١٨ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٢٥ .
(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم د. عبد الوهاب عزام / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

د- نبوتـــه :

اختلـف المؤرخون مـن القدامى والمـحدثين حـول نبوة المـتنبى ، وقد كـثرت الروايات حول هذه النبوة ، وقد جاءت الرواية الأولى عن التنوخى الذى مر ذكره فى أول كلامنا عن نسب المـتنبى ، وجاءت رواية أخرى عن أبى عبـد الـله معاذ ابن إسمـاعيل اللاذقى الذى قـال: إنَّه لقى المتنبى باللاذقـية ، وبايعـه بالنبوة ، وأخذ بيعته لأهله أيضًا .

روى التنوخى « على بـن المحسن » عن أبيـه المـحـسن التنوخى ، عن القاضى أبى الحـسن بن أم شيبان الهاشـمى الكوفى قال: « وقد كان المـتنبى لما خرج إلى كلب وأقـام فيهم ادَّعى أنَّه علوى حسنى ، ثم ادَّعى بعـد ذلك النبوة ، ثم عـاد يدعى أنه علوى ، إلى أن أشهـد عليـه بالشام بالكذب فى الدعـوتين ، وحـبس دهرًا طويلاً ، وأشـرف على القـتل ثم استـتيب وأشـهد عليـه بالتـوبة وأطلق»(١) .

وحـدث التنـوخى أيضًا عن أبـيه المحسـن قـال : حدثنى أبـو على بـن أبى حامد قال : « سمعت خلقًا بحلب يحكون - وأبو الطيب المتنبى بها إذ ذاك - أنَّه تنبأ فى بادية السماوة ونواحيهـا إلى أنْ خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية فقاتله وأنفره ، وشرد من كـان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن حبسًا طويلاً ، فاعتل وكاد أن يتلف حتى سئل فى أمـره فاستتـابه ، وكتب عليه وثيـقة أشهد عليـه فيها ببطلان مـا ادعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله وأطلقه » (٢) .

وبعد هاتين الروايتين - التى يؤدى مغزاهمـا إلى أمر واحد هو نبوة المتنبى وسجنه وخروجه منه بعد توبته ، يجئ حديث معاذ اللاذقى ننقله على طوله :

---

(١) الخطيب البـغدادى / تاريـخ بغداد / المـجلد الرابع / ١٠٣ ، ١٠٤ . وابن العـديم / بغيـة الطلب - ضمن كتاب المـتنبى لمحمود محمد شـاكر / ٢/ ٢٥٦ . وابن الأنبارى / نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٢٠ . والمقريزى / المقفى ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر/ ٢/ ٣٤٣، ٣٤٤ ، وابن الجوزى / المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم / الجزء السابع / ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ابن الخطيب البغـدادى / تاريخ بغداد / المجلد الرابع / ١٠٣ ، ١٠٤ . وابن العديـم / بغية الطلب ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢/ ٢٥٩. والأنبارى/ نزهة الألباء فى طبقات الأدباء / ٢٢٠ . والمقريزى / المقفى - ضمن كتاب المتنبى لمحمود محمد شاكر / ٢/ ٣٤٥.

قال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقى : قدم أبو الطيب المتنبى اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلاث مئة ، وهو كما عذر وله وفرة إلى شحمتى أذنيه فأكرمته وعظمته لما رأيته من فصاحته وحسن سمعته . فلما تمكن الأنس بينى وبينه ، وخلوت معه فى المنزل اغتنامًا لمشاهدته ، واقتباسًا من أدبه ، قلت: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير ، فقال: ويحك أتدرى ما تقول ؟ أنا نبى مرسل ! فظننت أنه يهزل ، ثم تذكرت أنى لم أسمعْ منه كلمة هزل قط منذ عرفته ، فقلت له : ما تقول : فقال : أنا نبى مرسل . فقلت له : مرسل إلى من ؟ فقال: إلى هذه الأمة الضالة المضلة . قلت : تفعل ماذا ؟ فقال: أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جورًا . قلت بماذا ؟ قال : بإدرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصى وأبى . فقلت له: إنَّ هذا أمر عظيم أخاف (منه عليه) وعذلته على ذلك فقال بديهة :

أَبَا عَبْدِ الإلهِ مُعَاذُ إنِّى ... خَفِىٌّ عَنْكَ فِى الهَيْجَا مَقَامِى
ذَكَرْتَ جَسِيْمَ مَا طَلَبِى وَأَنَّا ... نُخَاطِرُ فِيْهِ بِالمُهَجِ الجِسَامِ
أَمِثْلِى تَأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ ... وَيَجْزَعُ مِنْ مُلاَقَاةِ الحِمَامِ
وَلَو بَرَزَ الزَّمَانُ إلىَّ شَخْصًا ... لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِى
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيَّتَهَا اللَّيَالِى ... وَلاَ سَارَتْ وَفِى يَدِهَا زِمَامِى
إذَا امْتَلأَتْ عُيُونُ الخَيْلِ مِنِّى ... فَوَيْلٌ فِى التَّيَقُّظِ وَالمَنَامِ [1]

فقلت : ذكرت أنك مرسل إلى هذه الأمة أفيوحى إليك ؟ قال : نعم . قلت ، فاتل علىّ شيئًا مما أوحى إليك ، فأتى بكلام ما مر بسمعى أحسن منه ، فقلت : وكم أوحى إليك من هذا ؟ فقال : مئة عبرة وأربع عشرة عبرة قلت : وكم العبرة؟ فأتى بمقدار أكبر الآى من كتاب الله تعالى . قلت : فى كم مدة أوحى إليك ؟ قال : جملة واحدة . قلت: أسمع فى هذه العبرات أن لك طاعة فى السماء ، فما هى ؟ قال : أحبس المدرار لقطع أرزاق العصاة والفجار ، قلت:

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٤٤ ، ٤٥ .

أتحبس في السماء مطرها ؟ قال : أي والذى فطرها ! أما هى معجزة ؟ قلت : بلى والله ! قال فإنَّ حبست المطر عن مكان تنظر إليه ولا تشك فيه ، هل تؤمن بى وتصدقنى على ما أوتيت من ربى ؟ قلت : أى والله قال سأفعل ، ولا تسألنى عن شيء بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئًا من هذا الأمر حتى يظهر ، وانتظر ما وعدته من غير أن تسأله . ثم قال لى بعد أيام أتحب أن تنظر المعجزة التى جرى ذكرها قلت: أى والله ، فقال لى ، إذا أرسلت إليك هذا العبد فاركب معه ، ولا تتأخر ، ولا تخرج معك أحدًا . قلت: نعم . فلما كان بعد أيام تغيمت السماء فى يوم من أيام الشتاء ، وإذا عبده قد أقبل ، فقال : يقول لك مولاى اركب للموعد ، فبادرت إلى الركوب معه ، وقلت أين ركب مولاك ؟ قال : إلى الصحراء ، واشتد وقع المطر ، فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى ، فإنَّه ينظرنا بأعلى تل لا يصيبه المطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : أقبل إلى السماء أول ما بدا السحاب الأسود ، وهو يتكلم بما لا أفهم ثم أخذ السوط ، فأدار به فى موضع ستنظر إليه ، وإذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ ، فأتيته فإذا هو على التل ، ولم يصبه من ذلك المطر شيء ، وقد خضت فى الماء إلى ركبة الفرس ، والمطر فى أشد ما يكون، ونظرت إلى نحو مذتى ذراع فى مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة ، فسلمت عليه، فرد علىّ السلام . فقلت : أبسط يديك أشهد أنك رسول الله فبسط يده فبايعته بيعة الإقرار بنبوته ثم قال :

أى محل ارتقى … أى عظيم اتقى ؟
وكل ما قد خلق الله … وما لم يخلق
محتقر فى همتى … كشعرة فى مفرق !

وأخذت بيعته لأهلى ، ثم صح بعد ذلك أن البيعة عمت كل مدينة فى الشام ، وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب وهى صدحة المطر ، يصرفه بها عن أى مكان أحب بعد أن يحوى بعصا ، وينفث فى الصدحة التى لهم : قال : أبو عبد الله وقد رأيت كثيرًا منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ، ولا يتعاظمونه حتى أن أحدهم يصدح عن غنمه وإبله . وعن القرية فلا يصيبها

شيء من المطر ، وهو ضرب من السحر . وسألت المتنبى بعد ذلك هل دخلت السكون ؟ قال : نعم . أما سمعت قولى من قصيدتى التى أولها :

مُلِثَّ القَطْرُ ! أَعْطَشَهَا رُبُوعَا وَإِلاَّ فَاسْقِهَا السَّمَ النَّقِيعَا
أُمُنْسِيَّ السَّكُونَ وَحَضْرَمَوتَا وَوَالِدَتِي وَكِنْدَةَ وَالسَّبِيعَا [(١)]

فقلت : من ثم استفاد ما جوزه على طغام أهل الشام . ولما اشتهر أمره ، وشاع ذكره ، وخرج بأرض سلْمية من عمل حمص فى بنى عدى قبض عليه ابن على الهاشمى فى قرية يقال لها كوتكين ، وأمر النجار أن يجعل فى رجليه وعنقه قربتين[(٢)] . من خشب الصفصاف وقال المتنبى :

زَعَمَ المُقِيمُ بِكُوتكِينَ بِأَنَّهُ مِنْ آلِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ
فَأَجَبْتُهُ مُذْ صِرتَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ صَارَتْ قُيُودُهُمْ مِنَ الصَّفْصَافِ [(٣)]

وبعد طرح هذه الروايات نرى أن نوجز الحديث فى معجزات المتنبى التى ادعاها . ويجب علينا أن ننقل ما قاله أبو العلاء المعرى فى ذلك .

«وحدثت عنه حديثا معناه أنه لما حصل فى بنى عدى ، وحاول أن يخرج فيهم قالوا له : وقد تبينوا دعواه : ها هنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل ، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الإبل ، فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة ، وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمحة وأنه ورد بها الحلة [(٤)] ، وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم » [(٥)] .

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه- تحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٩٩ ، ١٠١ .
(٢) قرمتين : المراد بالقرمة القطعة الغليظة من الخشب .
(٣) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤، ٥٥، ٥٩. وانظر فى ذلك : ابن العديم / بغية الطلب - ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر /٢/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤، ٢٦٥ . والمقريزى / المقفى ضمن كتاب المتنبى - لمحمود شاكر /٢/ ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
(٤) الحلة : موضع .
(٥) أبو العلاء المعرى / رسالة الغفران / تحقيق بنت الشاطئ / ٣٥٥ ، ٣٥٦. وابن العديم / بغية الطلب - ترجمة المتنبى ضمن كتاب المتنبى /٢/ ٢٦٥. والبديعى / الصبح المنبى / ٦٧ .

« وحدثت أيضًا أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وإن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام ، فجـرحته جرحًا مفرطا ، وأن أبا الطيب تفل عـليها من ريقه وشدها، غير منتظر لوقته ، وقال للمجروح ، لا تحلها فى يومك ، وعد له أيامًا وليالى ، وأن ذلك الكاتب قبل منه، فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : هى كمحيى الأموات » [1] .

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية أو فى غيرها من السواحل وأراد الانتقال من موضع إلـى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، وتبـعهما كلب ألح فى النبـاح ثم انصـرف ، فقـال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عـائد إنك ستجد الكلب قد مات . فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكره.

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئًا من المطاعم مسمومًا وألقاه وهو يخفى عن صاحبـه ما فعل » [2] أما قرآنه فقد أجمعـوا أنه لم يبق إلا ما نرويه لك . قال : أبو علي بن أبى حـامد الذى مر آنفـا ، وكان أبو الطيب المتنـبى « وقد تلا على البوادى كلامًا ذكـر أنه قرآنًا أنزل عليه ، وكانوا يحكون له سورًا كـثيرة ، نسخت منها سورة ضاعت وبقى أولها فى حفظى وهى :

« والنجم السيـــار ، والفلك الدوار ، والليل والنهـــار ، إنَّ الكافـر لفى أخطار، امض على سننك ، واقف أثر مـن كان قـبلك من المرسلين . فـإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه ، وضل عن سـبيله . قال وهى طويلة لم يبق فى حفظى منها غير هذا » [3].

وقبل أن ندخل فى دراسة هذه الروايات ، نرد على سؤال هو : لماذا سمى المتنبى ؟ إنْ كـان لم يتنبأ . هذا السـؤال فى رأيى هو الذى أوحى إلى كثـير من الناس قصة التنبوء أرادوا أن يفسروها تفسـيرًا سهلا . فالمتنبى فى اللغة من يدعى أنه نبى ، وكثيـرًا ما نرى الناس يخلقون قصـة لتفسير اسم مـدينة أو قبيلة . فلم

---

(١) أبو العلاء المعرى / رسالة الغفران / ٣٥٦ . يوسف البديعى / الصبح المنبى / ٦٧ .

(٢) أبو العلاء المعرى / رسالة الغفران / تحقيق بنت الشاطئ / ٣٥٦ .

(٣) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد / المجلـد الرابع / ١٠٤ وابن العديم/ بغية الطلب . ضمن كتـاب المتنبى لمـحمود مـحمد شـاكر /٢/ ٢٥٩. وابن الأنبارى ، طبـقات الأدباء / ٢٢١ . والبديعى / الصبح المنبى / ٥٥ .

تكن قصة المتنبى إلاَّ من هذا القبيل ، والرجل كثير الأعداء والحساد كما قال . ويسر لهم هذا الافتراء أن الرجل دعا الناس دعوة، وقال كلامًا فسجن وشاع أمره، فلما لقب المتنبى لادعائه النبوة فى بادية السماوة [(١)] كما يرون جعلوا هذا السجن من أجل التنبؤ وذاعت الرواية على مر الزمان [(٢)] .

ولابد من مناقشة الروايات السابقة حول نبوة المتنبى ، وعلينا دراسة رواية أبو الحسن العلوى وابن أم شيبان الهاشمى ، فهناك بعض الأدلة على وهن رواية التنوخى ، واستسقاطنا إياها ، ولا غنى لك عن العودة إلى تذكرة عند هذا الحديث عن نبوة المتنبى .

وأول ما نلحظه أن هذه الروايات التى يعتمد عليها المؤرخون ويستنتجون منها أن أبا الطيب قد ترك الإسلام وأعلن النبوة ومن أجل ذلك لقب بالمتنبى ، والذى نلاحظه علي تلك الروايات بشكل عام أن الذين يروونها أشخاص مجهولون ، وأن رواياتهم قد تناقلتها الأفواه فزادت فيها ونقصت [(٣)] .

فالحديث الأول ، وهو حديث ابن أم شيبان الهاشمى عجيب لا يفرغ العجب من اختصاره وتداخله . فهو رتب أمر ظهور المتنبى على درجات ثلاث : فالأولى : ادعاؤه العلوية ، والثانية : ادعاؤه النبوة ، والثالثة : ادعاؤه العلوية مرة أخرى، فأما أنه يدعى العلوية ، ثم يعود فيدعى النبوة فهو قول لا بأس به ، ولكن العجب أنه بعد هذا عقب على النبوة ، « بلفظ التعقيب » ثم قال « ثم عاد يدعى أنه علوى » ، فالذى يدعى النبوة ويبايع بها ، كما يقول اللاذقى الصديق ... لا يعقب على هذه الدعوى بالعلوية . فادعاء الرجل النبوة وانحطاطه منها إلى العلوية إكذاب لنفسه وإقراره منه بالمخرقة بالناس والعبث بهم ، ولا يكون ادعى النبوة ، ثم ينحط منها إلاَّ بعد قتال يرغم فيه على التسليم ، ولا شك أنه لو كان فعل بصاحبنا ذلك ، لحبس لوقته قبل أن يتمكن من القيام بالدعوة إلى نفسه

---

(١) ابن خلكان / وفيات الأعيان / المجلد الأول / ١٢٢ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) سلمان هادى الطعمة . سيرة المتنبى / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث عدد خاص بأبى الطيب المتنبى بغداد ط دار الحرية ١٩٧٧م ، ١٣٩٧هـ.١٥٧ . وانظر فى ذلك : من أعلام الفكر العربى / مصر ١٩٨٠/ ٥٣ .

مرة أخرى بين بنى كلب فيدعى العلوية ، ثم لو أنه كان مطلقًا ، ورجع عن النبوة إلى ادعائه العلوية ، لكان ذلك كافيًا فى تكذيبه وتحقيره عمن سلموا بما ادعى من علويته بدءًا ونبوته بعد ، فهذا وجه فى أبطال هذا النص [(١)] .

ومن هنا حدث نقاش طويل حول نبوة المتنبى ، فقد عرض الأستاذ سعيد الأفغانى لرواية الهاشمى وناقشها مع الأستاذ محمود شاكر ، فأخذ يناقشه فى علوية المتنبى ونبوته ، ومن هنا فالأفغانى يرى أن هذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعوتين معًا ، فتاب من تنبوئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين وليس من الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ إقحام لفظ النبوة، بين العلويتين فى حديث الهاشمى [(٢)] ، ورد الأستاذ شاكر على مناقشة الأفغانى هذه بقوله : إنَّ هذا النص السابق لا يمكن تأويله على الوجه الذى أراده الأستاذ : فإنَّ لها ألفاظًا ، وأن لألفاظها معانى ، وأن لمعانيها حدودًا . فإخراج المعنى عن حده إخراج للفظ عن معناه ، وإخراج اللفظ عن معناه إخراج له عن العربية . يقول الخبر : « ثم عاد يدعى أنه علوى » فيقول الأستاذ : « ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم « أولا تفهم ، فالأمر بعد هذا سواء ، أنه لما أطلق ترك الدعوتين معًا ، فتاب من تنبؤه وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين . ففى الخبر الذى قبل هذا أفحم الأستاذ العلوية ولا ذكر لها فيه، وجعل الوثيقة المذكورة فيه يراد بها دعوى العلوية ، وفى هذا الخبر الذى رواه لا ذكر للوثيقة فيه ، أقحم الوثيقة التى يراد بها الاستشهاد عليه فيها ببطلان انتسابه للعلوية التى ادعاها ، وذكرها الخبر مرتين ، فهذا أروع ما وقع لى من القدرة على الجمع بين الروايات » كما هو مستوفى كتب مصطلح الحديث .

وفى المرة الأولى نلحظ ذكر ابن أم « شيبان الهاشمى » دعويين « أشهد أبو الطيب على نفسه بالكذب فيهما ، فَإنَّ أراد بالدعويين دعوى العلوية ودعوى

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / ٢/ ٨٥ ، ٨٦ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب / ٥٥ .

(٢) سعيد الأفغانى / حول نبوة المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٧٠ فى يوم الاثنين ١٩ رجب - ١٣٥٥هـ / ٥ أكتوبر ١٩٣٦/ ١٦٢٠، ١٦٢١ .

النبوة معًا كـان كلامه كله خلطًا متداخلاً ، فإنَّه ليس يـكفى فيمن ادَّعى النبوة أن يشهـد على نفسـه بالكذب ، بل لابد معـه من الإستـتابة والرجـوع إلى الإسلام والإقرار به، فَـإنَّ لم يعط ذلك قتل فإن فعـله مع ذلك وتاب وأقر فما قـوله بعد ذلك « وحبس دهرًا طويلاً » سنتين « وأشرف على القتل ثم اسـتتيب واشهد عليه بالتوبة وأطلق «ولم أعيدت استتابته ، أيكون هذا كله لغوًا باطلاً من القول » .

فإن أراد « بالدعـويين » ادعاءه العلـوية فى المرة الأولى ، والمـرة الآخرة فالأمـر على خلاف المعقـول . أيقدم الوالى الإشهـاد بالكذب فى دعوى العلوية وهى لا تخرج من الإسلام ، ولا يكفر بها مدعـيها أو لا يقتل من أجلها إن أصر عليها ، ويدع ادعاء النبوة فلا يقتله أو يستـتيبه إلا بعد أن يحبسه دهرًا طويلاً حتي يشرف على القتل ، فحينئذ يستتيبه ويشهد عليه بالتوبة !! ولفساد هذ الخبر وجوه أخرى ولكنه على أى وجهة أدرته لا يسـوغ للأستاذ أن يقول : «وفى هذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحـين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية «إلاَّ أن يلغى معـاني الكلمات التى وردت فيـه، أو يحيلها عن وجـهتهـا، فتكون «ثم» و«عـاد» كلمات مـغسولة مـن المعانـى ، ثم يزيد على ذلك أن يزيد الكلام معانى ألفاظ لم تكن فيه كـقوله « وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » ولو أراد الأستاذ أن يتأول هذا الخبر على وجـه مقـارب لما خرج له إلاَّ أنْ يقـول فيه « إن أبا الطيب تخلى عن دعوى العلوية وحـين تركها بقى على ادعاء الـنبوة حتى استتيب وأطلق» وهذا محال (١) .

أما حديث أبى على بن حـامد الذى لم نعرفه، فهـو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذى قدمناه ، إذا اقتصر صاحبه على ذكر النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين إلاَّ من قبل غرابة ما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدعون النبوة، فيقول أبو على : إنَّ لؤلؤا أمير « حمص» « استتـابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه ببطلان ما ادعاه ورجوعه الإسلام » .

---

(١) محـمود شاكـر ، نبوة المتنبى أيضًـا / الرسالة السنة الرابعـة العدد ١٧١ فى يوم الاثنين ، ٢٦ رجب ١٣٥٥ هـ ، ٢٠ أكتـوبر سنة ١٩٣٦م / ١٦٦٥، ١٦٦ . ونبوة الـمتنبى أيضًـا / الرسالة السنة الرابعة ، العـدد ١٧٢ فى يوم الاثنين ، ٣ شعبان ، سنة ١٣٥٥هــ ١٩ أكتوبر ١٩٣٦م / ١٧٠٤ .

أما أن يستتيبه ويشهد عليه أنه تائب فهذا لا بأس به، وهو الحكم مع المتنبئين « وإمَّا أن يكتب وثيقة عليه ببطلان نبوته ، فهذا أمر لايعنى له ، لأن الوثيقة إنَّما تكتب فيما نخاف من قبله معاودة الدعوى ، فتكون إقرارًا مكتوبًا مشهودًا عليه بالبطلان من المدعى نفسه ، كدعوى الملكية فى العروض ، ودعوي العلوية مثلاً فى النسب فتكون الوثيقة حجة عليه إذ عاد ليحاج الناس فيما ادعاه، بعد الإقرار على نفسه بالكذب فى الدعوى الأولى . أما النبوة ، فالأمر غير ذلك، فإن الرجل إذا ادعى النبوة ثم استتيب وأشهد على نفسه بالكذب فيما ادعى، ثم رجع بعد ذلك يدعيها ، مرة أخرى ، ولم يكن ينظر حتى يحاج الناس فيما يدعى، ويقول لهم : إنَّكم لم تأخذوا علىّ وثيقة مكتوبة مشهودا علىّ فيها بالكذب ، وإنَّما يكون جزاؤه القتل من غير أنظار ولا استتابة .

فهذه الوثيقة التى ذكرها أبو على ، إذَا صح أمرها ، إنَّما تكون قد أخذت عليه فى دعوى العلوية لا دعوى النبوة . فأنت ترى أن نص ابن أم شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وإنَّ ذكر النبوة يكاد يكون مقحمًا فيه ، وترى أنَّ نص أبى على ابن أبى حامد يرجح دعوى العلوية لا دعوى النبوة ، فإذا قرنت هذا إلى ما تمادينا فى ذكره عن نسب المتنبى وما أتينا به من الحجة فى ترجيح نسبته إلى العلويين ، لم تبعد عن الحكم بأن هذه الروايات إنما يراد بها دعوى العلوية لا دعوى النبوة [(1)] .

ويرى الأفغانى أنه من الواجب أن يفهم الباحث أننى لم أقحم العلوية فى حديث على بن أبى حامد والذى قلناه لا بأس من إقحام لفظ النبوة بين العلويين فى حديث الهاشمى ، ومن هنا يرد الاحتمال بأن يجعل الأولى للعلوية والثانية من زيادات النسخ وإقحامهم . على أن الروايات فى غنى عن هذا الفرض أيضا «تأمل وتدبر» وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جدًا أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة ، فنظرية الإقحام قلت بها أيها الأستاذ الجليل لا نحن ، وكلمتنا بدئت بقولنا : « وإذا كان لابد من احتمال ، أما كلمتك فبدئت : « إنَّ المراد فى حديث أبى على العلوية » [(2)] .

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / ٢/ ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) سعيد الأفغانى / حول نبوة المتنبى أيضًا / الرسالة - السنة الرابعة العدد ١٧٤ فى يوم الاثنين ١٧ شعبان سنة ١٣٥٥هـ ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٦ م / ١٨٠٣، ١٨٠٤ .

ويذكر الأستاذ شاكر أن هذه الروايـة لم يرد فيها العلوية ، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلـوية فيه ، وهو لم يذكـرها فيه ، ولم يرد عـنه فى خبر غـيره ، ثم تعمـد إلى الكلام فتـؤول بعضـه على النبوة وبعـضه على العلوية فـتجعـل التوبة للأولى والوثيـقة للآخـرة [(١)] . غيـر أنَّ الواضح أن الأفغانى لم يتحـدث بدعوى العلوية فى هذه الرواية وإنَّما فى رواية الهاشمى [(٢)] .

أما ما تحدث به أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقى ، فعجب كله، ولو تدبرت هذا الكلام الذى ادعاه لوجـدته موضوعًا وضـعا لا يرويه راوٍ - وهو على هذا رجل لا يملك مـن العقـل مقـداراً يكـفى على الأقل ، فى الإنصـات له إذا حدث ، فكيف نظن أنه كان يصبر على الـرجل حين ادعى النبوة كل هذ الصبر ، فيـتمادى فى الحـوار معه ، ثم يصف كـلام فتى فى السابعـة عشرة أنه « مـا مر بسمعـه أحسن منه » فهذه إمـا أن تكون كلمة جاهل ، وإمَّا كلـمة وضاع يريد أن ينتقص من الرجل، فهو يهـيئ لانتقاصه بتعظيمه وامتـداحه ، ثم كيف يعقل أن رجلاً مسلمًا كـان فى زمن المتنبى ، ثم فى مدنية كاللاذقـية ، ويدل كلامه على بعض العلم ، يصدق دعوى حـبس المطر ويجعلها معجزة ، فـضلاً عن تصديقه النبوة بعـد موت محمد ﷺ ! وأعـجب من ذلك فى الوضع الواضح أنه يدعى هذا المسمى معـاذا أنه أقر بنبوة المتنبى ثم بايعه لما رأى مـعجزة حبس المطر ، وأنه أخذ البـيعة لأهله أيضًـا على الإيمان به، فـأى رجل مسلم غيـر جاهل ولا مفتون فى ذلك الزمن ، يتهور فى الكفر بغير بينة ولا معجزة ! ومن عجيب سهو هذا اللاذقى فى الوضع أنه قـال بعد ذلـك توا « يريد معـجزة حـبس المطر ، » وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب « . فلو أنه كان أتقن وضعه لزعم أنه مكث على بيعة المتنبى والإقـرار له بالرسالة، إلى أن رأى ، بعد زمان ، أو سمع واستـيقن ، أن الذى فعله المـتنبى وزعمـه معجـزة له ، أمر مشـهور عند بعض العرب يتـعاطونه إذا كربهم المطـر ، ثم يصف كماوصف أنه « صـدحة المطر ،

---

(١) محمود محمد شاكر / نبوة المتنبى أيضًا / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٧١ فى يوم الاثنين ٢٦ رجب ١٣٥٥هـ ١٢ أكتوبر ١٩٣٦م/ ١٦٦٤، ١٦٦٥ .

(٢) سعيد الأفغانى / نبوة المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٧٠ فى يوم الاثنين ١٩ رجب ١٣٥٥هـ ، ٥ أكتوبر ١٩٣٦ / ١٦٢٠ ، ١٦٢١ .

يصرفونه بها عن أى مكان يحبون ، بعد أن يحووا بعصا وينفثوا فى الصدحة التى لهم . . . إلخ » فكفر بنبوة أبى الطيب لذلك ، وتاب ورجع إلى الإسلام . ثم من ضعف وضع هذا اللاذقى أنه زعم أنه رأى كثيرا من السكون وحضرموت يعملون صدحة المطر ولا يتعاظمونها ، فسأل المتنبى : هل دخلت السكون ؟؟ قال : نعم . وما دام هذا اللاذقى كان قد عرف هذه الصدحة، فكيف آمن بنبوة صاحبه ، ولا دليل على نبوته غيرها ، وهى مشهورة فى اليمن معروفة معمول بها كما يقول .

وإذا آمن هذ اللاذقى بمعجزة المتنبى صدحة المطر ، أفتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الأكذوبة أو لهذه الضلالة التى لا تعقل ، ويقول اللاذقى لأبى الطيب يخوفه مما يقول به من النبوة : « إنَّ هذا أمر عظيم أخاف عليك منه» فيجيبه المتنبى بشعر لا ذكر للنبوة فيه، وإنَّما هو شعر رجل مقاتل يريد الحرب ، لا مقالة نبى يريد أن يؤمن الناس به ثم إن الذى قاله فى الشعر يدل على غير ذلك فإنه قال :

ذكرت جسيم مطلبى ، وأنا نخاطر فيه بالمهج الجسام

وليست النبوة مطلبًا يطلب ويخاطر فيه بالنفس والنفيس ، وإنَّما النبوة أمر من الله لمن أوحى إليه أن يصدع بما يؤمر به ، فيكون فعله هداية الناس باللين أو بالشدة كما يشاء الله فلا يكون ذلك مطلبًا للنبى يريد أن يناله بل يكون أمرًا يحب أن يطيعه ويعمل به [(1)] .

وأهم من ذلك أنهم سألوا المتنبى عن حقيقة هذا اللقب ، وهو بالشام ، وفى الشام أظهر نبوته واشتهر أمره، وأكبر من ذلك أنهم يزعمون أنهم كتبوا عليه وثيقة أشهدوا عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأنه تائب منه ولايعاود مثله فهلا كان الأولى بهم أن يظهروا على هذه الوثيقة ولم يمض عليها كثير دهر ، وقد أخذها وال من الولاة - فهى ولابد محفوظة فى ولايته . وكان أبو الطيب شجا فى حلق الأدباء والشعراء وكثير من أصحاب السلطان وهو فى

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٥٤ ، ٥٥ .

جوار سيف الدولة الحمداني . وقد أوقعوا بينه وأميره بكل ما ملكوا من أسباب للوقيعة - أفتظن أنهم كانوا يحجمون عن إظهار هذه الوثيقة وإحراجه بها، والعمل بها على تحقيره ، ثم على المنافرة بينه وسيف الدولة !! كانت كل هذه النقائض بالشام ، ومع ذلك لم يكن من أثرها إلاَّ هذه الروايات الضعيفة التى تحمل على الشك والريبة (١) .

أما معجزاته - فلا نتكلم فيها لأن بطلانها بين وفسادها واضح ، وكل هذه الدعاوي التى رويت كان يقصد بها تشويه سمعته ، وكيدا له ، وتأييدا لاتهامهم الرجل بدعوى النبوة . أما قرآنه ، فهو كما تلاحظ ليس بقرآن ، وإنَّما هو ضرب من الهذيان ، والعجب أن يبايع له اللاذقى ولا يحفظ من قرآنه شيئًا ثم يصفه فيقول : « ما مر بمسمعى أحسن منه !» ثم لأعجب أن تعم بيعته كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلاَّ هذه الحماقة الصغيرة التى رووها بزعم أبو على ابن أبى حامد أنها بقيت فى حفظه (٢) .

ونخلص من دراسة هذه الروايات إلى أن المؤرخين جعلوا من حياة المتنبى أسطورة فى القرن الرابع ، إذ جعلوا منه شيعيًا وقرمطيًا ، وعلويًا ومتنبئًا ، وهو إذ يجمع هذه المتناقضات لا يرون فيه إلاَّ أنه اعتنق هذه التيارات . لا لشىء إلاَّ لأنه كان شاذًا فى حياته العامة، ونحن إذ ننفى عن المتنبى كل هذه الروايات والادعاءات ، نصل إلى أمر جوهرى ، وهو أن المتنبى لم يعتنق شيئًا من هذا كله، وإنما كان يحب أن يتحدث عن الحرب وعن دولة العرب المفقودة آنذاك. فكان يتمنى أن يعيد مجد العرب فى طموحه السياسى وفتوة آماله الكبار ، وفى كل هذا لم يجد المؤرخون إلاَّ أن يأخذوا هذه الروايات على أنها حقائق ثابتة ووثائق تاريخية تثبت ما صدر فى حقه من هذه الادعاءات ، والحق أن كل هذا مدسوس على أبى الطيب من الحاقدين له، والمناوئين له من خصومه السياسيين فى عصره .

---

(١) محمود محمد شاكر / نبوة المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٧ فى يوم الاثنين ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٦م / ١٤٩٣ ، ١٤٩٤، ١٤٩٥. ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية/ ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ٩١ .

ويختلف النقاد فى تحديد الزمن الذى لقب فيه بالمتنبى ، ولكن الواضح أنه لقب بهذا اللقب بعد سنة ٣٢٥ هـ ، إذ إن الناشئ قال: « كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ هـ وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عنى ، وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم وهو بعد لم يعرف ولم يلقب بالمتنبى » فتلقيبه بالمتنبى كان سنة ٣٢٥ هـ ومن هنا ينتفى أن يكون قد حبس من أجل دعوى النبوة. وربما لقبه العلويون بهذا اللقب ، فأحدثوا قصة مخترعة عن نبوة زعموا أنه ادعاها ، وأعانهم على صوغها ما كان من أمر حبسه حين إظهار نسبته إلى الشجرة العلوية كما يرى الأستاذ شاكر (١) .

وقد لج الشعراء فى العراق بهجاء المتنبى بدعوى النبوة ، وكان الشاعر الذى توفرت أشعاره فى هجاء المتنبى ، هو شاعر المجون والسخف فى العصر العباسى . الحسين بن أحمد بن الحجاج « أبو عبد الله » المتوفى فى سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة ، وشعره يتسم بسلاسة الألفاظ وانتظامها فى سلك الملاحة، وإنْ كانت مفصحة عن السخافة ومختلطة بألفاظ المولدين والمحدثين (٢) .

ومن شعره الذى يهجو فيه أبا الطيب المتنبى قوله: (٣) وقد هجاه بادعائه النبوة :

إن كنت نَبِيًا فالقِردُ لاَ شَكَّ ربِّى (٤)

فلما بلغ أبا الطيب قال :

عارضنى كلب بنى درام فصنت منه الوجه والعِرْضَا
ولم أكلمه احتقاراً مَنْ ذَا يعض الكلب إنْ عضا (٥)

كما هجاه الشاعر أحمد بن إبراهيم الضبى ، نسبة إلى ضبة « قبيلة » المتوفى فى سنة تسع وتسعين وثلاث مئة إذ يقول (٦) :

---

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / السفر الأول ١١٥١ ، ١١٦ .
(٢) الثعالبى / المنتحل ، الإسكندرية ، ط التجارية سنة ١٣٢١هـ ، ١٩٠٣م / ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٣) ارجع ديوانه / مخطوط بدار الكتب المصرية أدب رقم ٧٣٣٢ . وانظر نفس المصدر / مخطوط ز ١٠٤٤٦ ورقة ٢٧٢ . حيث تلاحظ طرفا من هجائه فيه .
(٤) عبد الرحيم العباس/ معاهد التنصيص / ١/ ٢٩ .
(٥) ابن العديم / بغية الطلب / ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢ / ٢٧١ .
(٦) عبد الله الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٧ . وعبد العزيز الميمنى زيادات ديوان شعر المتنبى / القاهرة - ط السلفية ١٩٤٥م / ١٦ وفى الخزانة « تُحط بقربه » .

الزم مقال الشعر كى تحظى به — وعن النبوة لا أبالك فانتزحْ
تربح وما قد توجب سفكه — إنَّ الممتع بالحياة لمن ربحْ

فأجابه المتنبى :

أحرى إلىَّ فَإنَّ سمحت بمهجة — كرمت علىَّ فإنَّ مثلى ومن سمحْ

وهجاه غيره فقال :

أطللت يا أيها الشقى دمك — بالهذيان الذى ملأت فمكْ
أقسمت لو أقسم الأمير على — قتلك قبل العشاء ما ظلمكْ

فأجابه المتنبى :

همك فى أمرد تقلب فى — عين دواة من صلبه قلمكْ
وهمتى فى انتضاء ذى شُطُب — أَقُدُّ يومًا بحده أدمكْ
فاخس كليبا واقعد على ذنبٍ — وأُطل بما بين إليتيك فمكْ [1]

وهجاه أيضًا الحسن بن لنكك بالبصرة إذ يقول :

ما أوقح المتنبى — فيما حكى وادعاه
أبيح مَالاً عظيمًا — لما أباح قفاه
يا سائلى عن غناه — من ذاك كان عناه
إنْ كان ذاك نبيا — فالجاثليق إله [2]

وتراه يرد على خصومه ردًا عامًا ، حيث إنه لم يفكر فى شعراء العراق ، وقال : إن فرغت من إجابتهم بقولى لمن هم أرفع طبعة منهم من الشعراء :

أرى المتشاعرينَ غَرُوا بذَمِّى — وَمَنْ ذَا يحمد الدَّاءَ العُضَالاَ ؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيْضٍ — يَجِدْ مُراً بِهِ المَاءَ الزُّلاَلاَ [3]

---

(١) عبد الله عبد الرحمن الأصفهانى / الواضح فى مشكلات شعر المتنبى / ٧ .

(٢) الجاثليق – رئيس الأساقفة يكون تحت يد بطريق أنطاكية . ويجمع على جثالقة . وياقوت الحموى / معجم الأدباء / ٩/١٩ ، ١٠ : ويوسف البديعى / الصبح المنبى/ ١٤٥ .

(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم وتحقيق د. عبد الوهاب عزام / ١٣٥ .

وقولى :

أَفِى كُلِّ يوم تحت ضِبْنِى شُويعرٌ ضَعيفٌ يُقَاوِينِى ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ؟

لِسَانِى بِنُطْقِى صَامتٌ عَنْهُ عَادلٌ وقلبى بِصَمْتِى ضَاحكٌ مِنْهُ هَازِلُ

فَأتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لاَ تُجِيبَهُ وَأَغْيَظَ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لاَ يُشَاكِلُ ؟

وَمَا التِّه طِبِّى فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّنِى بَغِيْضٌ إلىَّ الجَاهُ الْمُتَعَاقِلُ (١)

وقولى :

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى مِنْ نَاقِصٍ فَهِىَ الشَّهَادَةُ لِى بِأَنِّى كَامِلُ (٢)

ولم يكن لدى المستشرقين من آراء جديدة فهى مضطربة فيما بينها ، متضاربة فى كثير من الأحيان . فحين يرى كارل بروكلمان وبلاشير أن المتنبى حاول أن يكون داعيًا دينيًا سياسيًا فى بادية السماوة متأثرًا ببعض النحل والملل فى العصر العباسى(٣) . يرى رينولد - أ - نكلسن « أنه داعى النبوة » (٤) .

أما كرتشفوفسكى فكان أول من رفض هذه الدعوى ، إذ إن ديوان المتنبى خلو من تلميحات جلية إلى ادعائه النبوة التى لم يصدقها أى من شراح الديوان والتى لم يعلن كتاب التراجم موقفهم منها قطعًا (٥) ، ويرى بعضهم أن المتنبى كان ثائرًا متمردًا ولقب على أثر ذلك بالمتنبى (٦) . ويجعل بعضهم من شعره تلك الحلقة الصلدة التي ستؤمن استمرار الامبراطورية الإسلامية والشعب العربى(٧) .

---

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم وتحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٣٠١ . وفى النسخ : وأتعب.

(٢) المصدر السابق / ١٦٠ . وفى بعض النسخ فاضل والثعالبى / اليتيمة / ١/ ١٢٠، ١٢١ .

(٣) كارل بروكلمان / تاريخ الأدب العربى / نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار /٢/ ٨١، ٨٢. وبلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) رينولد - أ - نكلسن / تاريخ الأدب العباسى . ترجمة وتحقيق د. صفاء خلوصى - بغداد ١٩٦٧م ، ١٣٨٧هـ .

(٥) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / ١١٧ ، ١١٨ .

(٦) أندريه مايكل / المتنبى شاعر عربى / ترجمة خليل الخورى / الأقلام - ملف خاص - مهرجان «أبو الطيب المتنبى» / السنة الثالثة عشرة - العدد الرابع - كانون الثانى ١٩٧٨م / ٦١ ، ٦٢ .

(٧) جان لسيرف / المغزى التاريخى للعروبة فى شعر المتنبى / ترجمة د. أكرم فاضل ، المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٩٧٧م ، ١٣٩٧هـ/ ٨٥.

وإذا ما انتقلنا إلى الدراسات العربية الحديثة عن نبوة المتنبى وجدناها تتخذ اتجاهات ثلاثة :

أولها : يتضح فيه التعصب الشديد والأقوال المتكررة حول هذه النبوة يقول بعضهم : « وأنا لا أتردد فى رفض ما يروى من أنه ادعى النبوة وإحداث المعجزات أو زعم إحداثها وضلل فريقًا من خاصة الناس وعامتهم ، فبايعوه واتبعوه ، كما لا أتردد فى رفض هذا السخف الذى ينبئنا بأنَّ المتنبى زعم أنَّ قرآنا أنزل عليه ، وبأنَّ بعض الناس ، قد حفظ هذا القرآن . فقد قيل مثل هذا عن أبى العلاء ، وروي بعض قرآنه الموهوم . وما ينبغى أن يجهل أن الرأى العام فى أوساط الشام وفى حمص خاصة كان خصمًا لأبى الطيب حين سجن ، وأن أبا الطيب بعد خروجه من السجن كان لا يكاد يستقر فى مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض وألوان الخصومات » (١) .

وزعم بعضهم أن الرواة مجمعون على أنه ادعى النبوة إذ يقول : « وكيفما كان فإنَّ الذين عاشوا فى زمن المتنبى وبعضه مجمعون على ادعائه النبوة وكان هو يجهد أن ينفى التهمة فى حياته خجلاً وحياءً . وليس بين الأمرين تناقض ولا داع إلى حيرة . وقد كان هذا اللقب على أبى الطيب من أشد ما كابد فى حياته ، فقد منعه كافور الولاية بسببه ، ولما عوتب قال : « يا قوم ، من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ ألاَ يدعى الملك مع كافور ؟ «فحسبكم » وكلما أراد عدو أو شاعر إيلام المتنبى هجاه ونبزه بهذا اللقب » (٢) .

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٩٩ . وانظر فى ذلك - السيد محمد توفيق البكرى / أخبار أبى الطيب المتنبى / المكتبة الأزهرية ٣٨٢ ، القاهرة ط الأميرية ببولاق / ١٣١١هـ ، وأحمد أمين/ فلسفة أبى الطيب . هل كان المتنبى فيلسوفًا ؟ الهلال - عدد خاص عن المتنبى / المجلد الثالث والأربعون - أول نوفمبر ١٩٣٤م أو أغسطس ١٩٣٥/ ١١٣٦ . ومصطفى صادق الرافعى/ تاريخ آداب العرب . بيروت ط دار الكتاب العربى ط ثانية ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤ م / ٢/ ١٨٣، ١٨٤ . ومصطفى الشكعة / فنون الشعر فى مجتمع الحمدانى/ ٥٢٧ . وعباس حسن / المتنبى وشوقى وإمارة الشعر - دراسة ونقد وموازنة - ط دار المعارف بمصر ط ثانية ١٩٧٣م / ٢٦.

(٢) سعيد الأفغانى / دين المتنبى / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ٦١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ أغسطس سنة ١٩٣٦/ ١٢٥٧ .

لعل أصحاب هذا الاتجاه لا يناقشون المسألة مناقشة علمية واضحة ، وإنَّما يأخذون القضية أمرًا مسلمًا به، ولا يدرسون أسباب هذه الدعوى ونتائجها، وماذا حدا المتنبى للإدعاء بها ؟ فى « ظروف » العصر العباسى الذى كان مليئًا بالنحل والملل والعقائد الشائعة آنذاك . وهم فى آرائهم هذه يأخذون بما قاله القدماء عن نبـوة المتنبى دون تحليل ودراسة لهـذه الظاهرة ، أو فهم للحـياة الاجـتمـاعيـة والسياسـية والدينية فى العصر العـباسى الذى كثرت فيـه الفتن والاضطرابات فى جميع الأقاليم الإسلامية .

وقد سبق أن فندنا دعـواهم التى لا تعتمد على الحق والـعدل ، ونفينا عن المتنبى هذه الدعوى ، وسوف يتضح الرأى حول هذه الدعوى فيما يلحق من هذا الفصل .

أما كلمة كافور فـهى كلمة مفتعلة موضوعة ، وإلاَّ تكن كـذلك فليس فيها أيضًا مـا يدل على شيء محقق كان قـد حدث من أبى الطيب ، وكافـور كان قد سمع هذه الدعـوى التى يزعمـونها عن نبوة أبى الطيب وسلم بـها ، ثم تكلم ، وليس تسليم كافور بها سندا يحقق تاريخهـا ، ويثبت وقوعها بعد الذى ذكرنا لك من ضعف الروايات [١] .

وثانيـها : رأى العقاد حول نبوة المتنبـى ، فهو رأي يتأرجح بتصديق هذه الدعوى وتكذيبها ، إذْ يقول : « غير أنى والحق يقال لا أستبعد دعوى النبوة على المتنبى ولا أجدها غـريبة عنه ، ولو أنها ثبتت عليه لمـا رأيت فى ذلك ما يدعو إلى شيء من دهشـة أو غرابة ، ويـجمل على شيء من حـيطة أو زيادة تنقـيب. والمتنبى فى هذه القضية من المتهمين الذى يكفى لتسجيل التهمة عليهم أن يسمع القاضى شـاهدًا أو شاهدين ثم يصرف بقـية الشهـود اكتفاء بـما سمع واختـصارًا للوقت فالتهمة لاصقة لافقة » [٢] .

---

(١) محمـود محمد شـاكر / نبوة المتنبى / الرسـالة السنة الرابعة العدد ١٦٧ ، جمـادى الآخرة سنة ١٣٥٥هـ ، سنة ١٩٣٦م/ ١٤٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) عباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / ١١٨ ، ١١٩ .

ويتراجع قليلاً عن رأيه وإن جعل المتنبى ممن يطلب عن طريق الدين . إلاّ أنه يرجح دعوى النبوة وإن علل عدم وجود هذه الدعوى وهو التعليل الذى يقرب إلى الصواب حقًا لو بقى عليه يقول : « فعلى هذا لا يكون غريبًا من رجل نشأ هذه النشأة فى ذلك العصر على هذا الخلق واطلع على ما اطلع عليه المتنبى وشاهد من حوادث الأيام ما شاهده أن يطمع فى المجد عن طريق الدين . ذلك ليس بغريب ، ولكن هل حصل ؟ وهل فعل الرجل ذلك الشيء الذى لا يستغرب منه فادعى النبوة وجهر بالدعوة ؟ أما هذا فلا سبيل إلى البت فيه برأى قاطع كما أسلفنا فى صدر المقال ، ولكننا بين قولين : أرجحهما أنه فعل وادعى والمرجوح منهما أن الرجل نبذ بهذا النبذ ، ولكن لا من النبوة كما روى المعرى فى رسالةالغفران فهذا غير معقول ، وإنما الأقرب إلى العقل أنه نبذ به لتشبهه بالأنبياء كما مر بك . وكثيرًا ما أطلق العرب الأنباذ والألقاب لأهون من هذه الأسباب . على أنى أرجح القول الأول ترجيحًا قويًا حتى أكاد أرفض الاحتمال الثانى لأول نظرة . فقد ثبت أن الرجل حبس . فإذا كان حبسه فى فتنة آثارها قد بقى الذين يجزمون ببراءته من دعوى النبوة أن يبينوا لنا كيف أطاعه بنو كلب وكيف استطاع أن يحركهم إلى الفتنة بغير الشعوذة والحيل الدينية ؟ أكان من زعمائهم أم كان من ذوى الكلمة المسموعة فى قبائل العرب جميعًا أم كان بنو كلب عميًا عن الفتنية حتى جاء المتنبى الطارق الغريب فهداهم إليها » (١) .

وثالثها : نراه يدرس قضية نبوة المتنبى دراسة مستفيضة ويتخذ من الموازنة والتحليل منهاجًا سليمًا ، فى عرض هذه القضية إذ إنه درس حياة المتنبى من جوانبها الاجتماعية والسياسية والدينية ، واتخذ من شعره وثيقة تاريخية فى نفى هذه التهمة التى ادعاها خصومه وأعداؤه (٢) .

---

(١) عباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) الشيخ أحمد الإسكندري / تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى / القاهرة ط السعادة سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٢م/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ . ومحمد الدرينى / أمراء الشعراء . أبو الطيب المتنبى / الأخبار – السنة التاسعة سبتمبر ١٩٢٨م العدد ٢٣٠٧ / ٣ . وأحمد ضيف / أبو الطيب المتنبى نظرات سريعة فى حياته / صحيفة دار العلوم / الجزء الأول / ١٩٣٤ م ، ١٣٥٣هـ/ ١٨ . وعلى النجدى ناصف / أبو الطيب المتنبى نظرات سريعة فى حياته / صحيفة دار العلوم / الجزء الأول / ١٩٣٤ م ، ١٣٥٣هـ / ١٨ . وعلى النجدى ناصف / أبو الطيب المتنبى . =

ونحن نعلم أن أبا الطيب كان واسع الآمال كثير الطمع فى حياته ، ومن هنا كان شـدة طموحه واعتـداده بشخصـه ورأيه سببًـا فى هذه الفرية التى ألحقـه بها حاسدوه ومناوئوه فى عصره .

ولا يمكن أن يكون القبـض على أبى الطيب لما ذكر من دعـوى النبوة ولا يمكن أن يكون قبـض عليه لهذا الهـراء الذى يزعمون ، إذ إن المـتنبى لم يلقب بهذا اللقب إلا بعـد سنة ٣٢٥ هـ ولم يكن لسبب النكبـة أو الحدث الذى تم فى سنة ٣٢١ هـ [١] .

والحق أن هذه التهمة غير صحيحـة ، وقد يكون سمى متنبئًا لفطنته ونبوغه فى شعره كما يقول ابن رشيق [٢] .

= هلى ادعى النبـوة حقًـا ؟ صحـيفـة دار العلوم – السنة الثـانية ربيع الأول ١٣٥٤هـ يونيـه سنة ١٩٣٥/ الجزء الأول / ٧٧ . وعبد الله كنون الحسنى / المتنبى فى ديوانه بمناسبة ذكراه الألفية / الرسالة – السنة الثالثة / العدد ١٢٩ رمضان سنة ١٣٥٤هـ ديسمبر ١٩٣٥م/ ٢٠٥١ . وعبد المتـعال الصعيـدى / الفصل في نبوة المـتنبي من شعره / الرسـالة – السنة الرابعة – شعـبان ١٣٥٥هـ نوفمبر ١٩٣٦م – العدد ١٧٥/١٨٤٩ . وعـبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٥٨ . ومحـمد محيى الدين عبـد الحميد / أبو الطيب المـتنبى / الرسالة . السنة الرابعة جمـادى الآخرة ١٣٥٥هـ سبتمبر سنـة ١٩٣٦ – العدد ١٦٤ / ١٤٦٨، ١٤٦٩ .وحياة أبى الطيب المـتنبى / مجلة الأزهر المـجلد الثانى الـجزء الأول محـرم سنة ١٣٥٧هـ/ ٥١ . وإبراهيم الأبيارى / المقتطف / رسالة الشاعر / فهرس الجزء الخامس من المجلد السابع عشر بعد الـمئة ، سنـة ١٩٤٩م/٨٨ . وشوقى ضيـف / فصول في الـشعر ونقـده / ٨٣ . وزكى المـحاسنى / المـتنبى / ٢٨ .وإبراهيم على أبو الخـشب / تاريخ الأدب العـربى فى العصـر العـباسى الثـانى / مـصر ط دار الفكـر العربى / ٢٧٨ . وجـمـال الدين الرمادى / مـذاهب وشخصيـات مشهورة ومغمورة / ط القاهـرة ط المؤسسة العربية العامـة للأنباء والنشر والتوزيع والطبع / ٣٨ . ومحمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة / مجلة كلية الآداب بالإسكندرية / المجلد الـثامن عشـر /١٩٦٤ / ٣٠ ، ٣١ . وأنعام الجندى / دراسـات فى الأدب العربى / ٢٣٠ . وطاهر الطناحي /سـاعات من حيـاتي . أبحاث ودراسات فى الأدب والـفن والنقد ط مصر ط الدار المصـرية للتأليف والترجمة /٧٧ . وجبر إبراهيـم جبرا/ ينابيع الرؤيا – دراسات نقدية – بيروت ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ١٩٧٩م / ٣١ ، ٣٢ . ومنجى الكعبى / مظاهر العظمة والطموح فى شعر المـتنبى – لبنان – مجلة الآداب السنة ٢٥ – العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ٢١ .

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ١١٢ .

(٢) ابن رشيق القيروانى / العمدة / ١/ ٧٥ .

وحكى أبو الفتح عثمان بن جنى عن المتنبى نفسه تعليلاً لهذا اللقب : إنما لقبت بالمتنبى لقولى [1] :

أَنَا تِـرْبُ النَّـدَى وَرَبُّ القَـــوافـى   وَسِـمـامُ العِـدَى وضـغَـيْظُ الحَسُـودِ
أَنَا فِـى أُمَّــةٍ تَـدَارَكَـهَــا اللَّـــ   ــهُ غَـرِيبٌ كَـصَـالِحٍ فِى ثَمُـودِ

ولقولى :

مَـا مُـقَـامِـى بِأَرْضِ نَخْـلَةَ إلاَّ   كَـمُـقَـامِ المَسِـيحِ بَيْن اليَـهُـودِ [2]

ويقول الدكتور شوقى ضيف : « وكان تشبيه المتنبى لنفسه فى هذه القصيدة بالمسيح والنبى صالح سببًا فى أن يتهمه بعض معاصريه بأنه ادَّعى النبوة حينئذ ، وهو اتهام أراد به بعض خصومه الغض منه والإزراء عليه ، اتهام باطل لفقوه كما لفقوا عليه أنه زعم إحداث بعض المعجزات وأنه أنزل عليه قرآنا رووا منه فقرا حاكوا فى صياغتها صياغة بعض آى الذكر الحكيم . وكأنهم استغلوا لقبه » المتنبى « ليصموه بهذا الاتهام الزائف ، وهو إنَّما لقب بالمتنبى كما قال ابن جني صديقه ومعاصره رمزًا لعبقريته الشعرية ، أو لعل الناس هم الذين لقبوه بهذا اللقب حين رأوه يشبه نفسه بصالح والمسيح » [3] .

وكان المتنبى نفسه يكره هذا اللقب أيضًا وذلك حين سأله ابن خالويه النحوى فى مجلس الحمدانى فقال : لولا أنه جاهل ، لما رضى أن يدعى المتنبى ؛ لأنه المتنبى معناه كاذب ،ومن رضى بهذا فهو جاهل فقال المتنبى إننى غير راض عن هذا « وإنما يدعونى به من يريد الغض منى ، ولست أقدر على الامتناع » [4] .

وقد قال الربعى : كان المتنبى يذم أهل الكوفة « لأنهم يضيقون على أنفسهم فى كل شيء حتى فى الأسماء فيتداعون بالألقاب ، ولما لقبت بالمتنبى ثقل ذلك علىّ زمانا ثم ألفته » [5] .

---

(١) الثعالبى / اليتيمة / ١ / ١١٣ .

(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تقديم وتحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٥١ ، ٥٢ .

(٣) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ٨٣ .

(٤) ابن العديم / بغية الطلب – ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢ / ٢٦٠.

(٥) ابن العديم / بغية الطلب – ضمن كتاب المتنبى لمحمود شاكر / ٢ / ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

وليس حبسه فى ذلك الوقت بسبب دعوى النبوة ، إذ ليس فيما كتبه من شعر يستعطف به الوالى الذى سجنه ذكر لادعاء النبوة أو شبهها بل ترى الشاعر يتنصل فيه مما رمى به من تهمة الخروج عليه بل نية الخروج عليه فحسب ، والأمر الثانى : أنه من المستبعد – وهو فى محل التهمة بدعوى النبوة – أن يشبه حاله من جديد بقوم صالح وثمود وذلك فى قوله [1] :

بنفسى وَلَو كُنْتُ أَشْقَى ثَمُودِ ... وَفِى وَجود كفَّيكَ مَا جُدْتَ لِى [2]

وكل ما فى الأمر أنه كان يكثر من المبالغة التى تجرى على ألسنة الشعراء وهى لم تخالط قلوبهم وأبو الطيب كثير المبالغة فى شعره ، ونحن نأخذها عليه من الوجهة الأدبية ولكننا لا نستدل بها على فساد عقيدته فمن ذلك قوله يمدح أبا شجاع عضد الدولة :

الناس كالعابدين آلهة ... وعبده كالموحد الله

ويقول المتنبى من قصيدة طويلة يستعطف بها الوالى بعد سجنه ويخاطب ابن طفج :

وَقِيلَ عدوت على العالمين ... بين ولادى وَبين القُعُودِ

فَمَالَكَ تَقْبَلَ زَورَ الكَلاَمِ ... وَقدرُ الشَّهَادَةِ قَدْرُ الشُّهودِ ؟

فَلاَ تَسْمَعَنَّ مِنَ الكاذبينَ ... وَلاَ تَعْبَأَنَّ بِمَحْكِ اليَهُودِ

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوى أَرَدْتُ ... وَدَعْوَى فَعَلْتُ بِشَأْوٍ بَعِيدِ [3]

ويتضح فى هذه الأبيات أن المتنبى كان صغير السن ، فكيف يدعى النبوة وهو إنَّما قام بعمل آخر هو الخروج على السلطان ، ولا ترى فى هذه الأبيات تلويحًا أو تصريحًا بدعوى النبوة إلاَّ ما كان من أمر سجنه فى صباه بسبب وشاية الناس به

---

(١) منجى الكعبى / مظاهر العظمة والطموح فى شعر المتنبى / الآداب السنة ٢٥ ، العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧ / ٢١ .

(٢) أبو الطيب المنبى / ديوانه / صححه ووازن نسخه وعلق عليه . د. عبد الوهاب عزام / ٧٦ .

(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / حققه د. عبد الوهاب عزام / ٧٦ . وفى رواية من الكاشحين .

إلى السلطان ، إذ كذبوا عليه وقالوا له انقاد إليه خلق من العرب ، وقد عزم على أخذ بلدك حتى أوحشوه فاعتقله وضيق عليه فقال يستعطفه بهذه القصيدة وينفى عن نفسه دعوى النبوة ويبين أن الأمر الذى قبض من أجله لم يكن دعوى النبوة ، وإنَّما كان الخروج على السلطان ، والبيت الأخير خير شاهد على ذلك، وأنت إذا قلبت الدعويين دعوى « أردت » ودعوى « فعلت » على معنى النبوة لم يتم لك المعنى على ذلك ، ويتم لك المعنى فى الخروج على السلطان ، إذ إن إرادة الخروج شىء ، والفعل الذى يسمى به الرجل خارجًا شىء آخر [1].

وعندما طال بقاؤه فى السجن لجأ إلى الحيلة فى الخروج من سجنه فكتب إلى ابن طفج يستعطفه أيضًا ويفند ما رمى به من إرادة الخروج على السلطان فكان مما كتب [2] :

بَيَدِى أَيُّهَا الأَمِيرُ الأَرِيبُ ... لاَ لِشَىءٍ إلاَّ لأنّى غَرِيبُ
وَلأُمٍ لَهَا، إذَا ذَكَرَتْنِى ... دَمُ قَلبٍ فِى دَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ
إنْ أكنْ قَبْلَ أن رأيتُكَ أَخْطَأْ ... تُ فَإنِّى عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
عَائِبٌ عَابَنِى لديْكَ، وَمِنْهُ ... خُلِقَتْ فِى ذَوِى العُيُوبِ العيُوبُ

فتراه يذكر الأمر فى أنه خرج على السلطان ، وتراه يشكو من الأعداء الذين وشوا به عند ابن طفج . ولو رجعت إلى قراءة قصيدته التى أولها :

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قتلت شَهِيدِ ... بِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ [3]

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / ٢٢ .
(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ١٠٩ وعبد الله كنون الحسنى / المتنبى فى ديوانه بمناسبة ذكراه الألفية / الرسالة - السنة الثالثة رمضان ١٣٥٤ هـ ديسمبر ١٩٣٥م / العدد / ١٢٩ / ٢٠٥١ ، ٢٠٥٢ . وإبراهيم على أبو الخشب / تاريخ الأدب العربى في العصر العباسى الثانى / ٢٧٧ .
(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تقديم وتحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٥٠ .

لوجدته يبدأها بالنسيب على طريقة الشعراء ، وترى فيها كثيًار من الوجد والصبابة والوله وفيها ذكر لأيام الصبا والفتوة وحنين إليها ،ووصف للحسان اللاتى تشيب بهن ولا شك أن هذا الأسلوب فى النسيب ووصف الخمر ، لا يتفق معن ذلك الأسلوب الذى ينسب إليه فى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن يحصل هذا وذاك من شخص واحد ، لاختلاف نزعتهما ، وتباين المشارب فيهما ، واتجاه كل منهما إلى غاية تخالف الأخرى ، فهو فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة رجل جد وصلاح ، مبعوث إلى هذه الأمة الضالة المضلة ، ويريد أن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، ويبلغ به الأمر إلى أن يقول وفى وصف الخمر :

كُلُّ شَىءٍ مِنَ الدِّمَاءِ حَرَامُ ... شُرْبُهُ مَا خَلاَ دَمَ العُنْقُودِ [(1)]

فأى نبى هذا الذى يحلل ويحرم الحلال ؟ وأى ضلال يحاربه وهو يدعو إلى هذا الضلال ؟ [(2)] وهنا يجب أن ننبه إلى أن النبوة لا تتفق مع صناعة الشعر ، لأن الشعر العربى إلى ذلك الوقت كان صناعة كلام وأوزان ، ووظيفة النبوة أسمى وأعلى من أن تقيد بقيود الشعر أو تعنى عنايته بزخارف اللفظ ، أو تعتمد على الخيال . وهذه قصيدة ثانية للمتنبى قالها فى ذلك الزمن الذى ينسب إليه فيه ادعاء النبوة :

ضيف ألم برأس غير محتشم ... والسيف أحسن فعلا منه باللمم [(3)]

فهو يفتتح هذه القصيدة بذم الشيب الذى ظهر فيه قبل أوانه، فحل فى رأسه ضيفًا ثقيلاً بلا حشمة، وبدا بياضه فى عينه أسود من الظلم ، وقد اجتمع على المتنبى بذلك أمران صارا له كالغذاء : حب مبكر فى صباه ، وشيب مبكر فى بلوغه الحلم ، والذى يتبرم بالشيب هذا التبرم لا يمكن أن تحدثه نفسه بادعاء النبوة وما يلزم لها من إظهار التقوى والصلاح ، والفرح بالشيب إذًا أقبل لأنه كما يقول الحكماء : زهرة الحنكة ، وثمرة الهدى ، ومقدمة العفة ، ولباس التقوى . وهو بعد هذا يتغزل على أسلوبه فى قصيدته الأولى :

(١) أبو الطيب المتنبى / ديوانه – صححه د. عبد الوهاب عزام / ٥١ .

(٢) عبد المتعال الصعيدى / الفصل فى نبوة المتنبى من شعره / الرسالة – السنة الرابعة – العدد ١٧٧ ، رمضان سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦ م / ١٩٢٥ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٣٤ .

تَنَفَّسَتْ عَنْ وَفَاءِ غَيْرِ مُنْصَدِعٍ   يَوْمَ الرَّحِيلِ وَشَعْبٍ غَيْرُ مُلْتَئِمِ [(١)]

وتراه يطلب دنيا لا أكثر ولا أقل ، وإذا به لا يرضى فى ذلك بالقليل ، وينفر من صفة القناعة التى حث عليها جميع الأنبياء قبله :

لَيسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى   وَلاَ القَنَاعَةِ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِى [(٢)]

فهو ثائر فى شعره على الدهر الذى يفتقر إلى أمثاله بالقضاء على دول الخدم والعبيد فى العصر العباسى [(٣)].

وليست طموحاته الدنيوية آمال دعاء النبوة حيث إن هذه الآمال لا ذكر لها فى أشعاره، ولا تشتم لها رائحة ، وإنَّما هو رجل طموح يسعى إلى اكتساب المجد، ويكد فى المال والغنى ، ويشكو من إخفاقه فى هذا الطلب مع كثرة سعيه فيه :

ضَاقَ صَدْرِى وَطَالَ فِى طَلَبِ الرِّزْ   قِ قِيَامِى وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِى

أَبَدًا أَقْطَعُ البِلاَدَ وَنَجْمِى   فِى نُحُوسٍ وِهِمَّتِى فِى سُعُودِ [(٤)]

وهو كثير الاستهتار حتى فى مقام الجد ، فإذا أمر بطلب العز لا يفوته أن ينوه فيقول : إنه خير من الذل لو كان فى جنات الخلود ، وأن يفضله ولو كان فى لظى على الذل :

فَاطْلُبِ العِزَّ فِى لَظًى وَذَرِ الذُّلَّ   وَلَوْ كَانَ فِى جِنَانِ الخُلُودِ [(٥)]

---

(١) المصدر السابق / ٤/ ٣٦ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبو الطيب المتنبى / ٤/ ٣٩ .

(٣) عبد المتعال الصعيدى / الفصل فى نبوة المتنبى من شعره / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٧٧ فى رمضان سنة ١٣٥٥ هـ ، ١٩٣٦ / ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ .

(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تصحيح د. عبد الوهاب عزام / ٥١ .

(٥) المصدر السابق / ٥٢ .

فهــذا كلام لا يصح أن يكون من إنســان يدعى النبوة ، ويدعو الــناس إلى الفعل الذى يوصلهم إلى نعيم الله فى الجنة ، ولا نــملك إلاَّ أن نقول : إنَّ دعوى هذه النبوة دعوى مكذوبة على أبى الطيب المتنبى ولا صحــة لها وإنَّما هى دعوة ملفقة من خصومه وأعدائه فى العصر العباسى [1].

★ ★ ★

---

(١) عبد المتعــال الصعيدى / الفصل فى نبوة المتنبى من شعــره / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٧٧ رمضان ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦م / ١٩٢٥ .

الفصل الثالث

القضَايا السيَاسيَّة

أ- علاقته السياسية فى الفترة المبكرة من حياته

ب- علاقته السياسية مع سيف الدولة الحمدانى

١- السياسة الداخلية لسيف الدولة الحمدانى

- الحرب ضد الإخشيديين
- حروب سيف الدولة مع القبائل
- حروب سيف الدولة ضد القرامطة

٢- السياسة الخارجية لسيف الدولة الحمدانى

- علاقاته مع الخلافة والإمارات فى العصر العباسى
- حروب سيف الدولة ضد الروم

جـ- علاقته السياسية عند كافور

١- السبب فى مغادرة سيف الدولة

٢- الشعر السياسى عند كافور

٣- حروب كافور الداخلية

د- علاقته السياسية عند البويهيين

١- أسباب خروج المتنبى من مصر

٢- شعره السياسى فى العراق

٣- شعره السياسى فى فارس

أ- علاقاته السياسية فى الفترة المبكرة من حياتـه:

لقد عاش المتنبى فى بداية حياته فـى الكوفة ، وكانت تلك الحياة مضطربة إذ إن القرامطة كانوا يـغيرون على هذه المدينة فارتحل إلى بـغداد ومنها إلى بلاد الشام ، وقد وصل إلى الشام فى سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، فأقام فيها برهة ثم عاد إلى العـراق مدة ثانية (١) . والسبب فى خروجه إلـى بلاد الشام أن الحياة فى العراق لم تكن تعجـبه إذ امتلأت نفسـيته بالسخط على المجـتمع الذى عاش فيه، بكل ما فيه من ظلم وفساد ، فقد سخط على الحياة اللاهية المترفة التى كان يعشـها أصحاب الجـاه والسلطان والتى يقابلها من الناحـية الأخرى حرمـان قوى وفقر شديد لأولئك الفقراء والمعدمـين ، كما سخط على استخزاء الناس ووصف تفاهتهم وهممهـم وانشغالهم بشهواتهم . واعتبر ذلك الفـساد وألوانه مسئولاً عن تسلل المذاهب الهدامة التى تختفى خلف شـعارات كاذبة تعمل من خلفها عناصر غريبة على العـرب وعلى المسلمين ، تريد أن تضـرب العرب والإسلام فى وقت واحد كانت نفس المتنبى تفـيض بهذا السخط وكانت هذه الآراء تدور فى ذهنه ، وتنضج الحقد الذى يملأ قلبه والسخط الذى يغلى فى أعماقه .

وكأن المتنبى لم يطق حـياة العار والذل ، ولم يستطع أن يواجه المـجتمع الكوفى الصغير ، الذى يتساءل عنه فى كثـير من الدهشة التى يخالطها الإشفاق ، والتى لا تخلو فى بعض الأحيان من الغمز واللمز ، وظن أنه يسير ، وأنه يستطيع أن يفعل شيئًـا يغير به هذا الوضع القائم . ولم لا يفعل وباب المـجد فى عصره مفتـوح أمام كل طموح وكل مغـامر من جنود الترك الذين كانوا يثـبون من منازل الخدم إلى مقاعد الحكم ، ومن مشـايخ القبائل وأصحاب الدعاوى والدعوات ، الذين كانوا يثبون فجأة وفى سهـولة ويسر إلى مراكز الإمارة ولا يلبثون أن يسطوا على الخلافة وأن يصبحوا ملوكًا فى إماراتهم المستقلة (٢) .

---

(١) أبو العلاء المعرى / رسالة الغفران / تحقيق بنت الشاطئ : ٣٥٨ ، ٣٥٩ . وانظر فى ذلك : عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٤٣ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٥ . ومـحمد محمد حسيـن / المتنبى والقرامطة / كلية الآداب - جامعة الإسكندرية / المجلد الثامن عشر ١٩٦٤ / ٤٠ ، ٤١ .

ويمضى المتنبى فى دعوته فى بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك ، ويحس فى أهل نخلة بالقرب من بعلبك تواكلاً وتخاذلاً ، وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدرة ويثيرهم بشعره العظيم . ويتضح أن المتنبى كان يخطط لثورة سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين [(١)] . وأنه لم يدخل السجن لقرمطيته أو تشيعه أو بسبب دعوى النبوة التى يزعمون ، إذ ليس فى شعره ما يؤكد أنه كان داعيًا للفوضى أو داعيًا للتمرد على الدين وقد تعسف النقاد له بعض الأبيات التى اتخذوا منها حجة لانحرافه عن الدين ، وعلى هذا فلم يكن دخوله السجن بسبب سخطه الدينى المزعوم بل دخله بسبب آرائه السياسية الداعية إلى إسقاط الولاة والحكام بالوراثة وإقامة حكم جديد ذى نزعة عربية [(٢)] .

ومن هنا نجد شعره مليئًا بالغيظ والحنق على الولاة فى عصره والمجتمع كذلك ، ويرى الدكتور طه حسين أن المتنبى كان وهو صبى محبًا للحرب وسفك الدماء ، وهى صفة ربما كسبها عن أصحابه القرامطة [(٣)] :

لاَ تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى ... مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ القِتَالِ

عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً ... يَعُلُّهَا مِنْ كُلِّ وَافِى السِّبَالِ [(٤)]

ويضيف الدكتور طه حسين أن المتنبى كان محبًا لهذا اللون الأحمر القانى، لون الثورة الدامية أو الغارقة فى الدم ، وهو بهذا العمل يتصل بالقرامطة الهادمة للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع [(٥)] ويتضح هذا فى مقطوعته التى يقول فيها :

إلى أى حين أنت فى زى محرم ... .

---

(١) زكى المحاسنى / المتنبى / ٢٨ . وشوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٤٤ ، ٣٤٥ . وأحمد أمين / المهدى والمهدوية / ٥٠ . ويوسف نور عوض / الرؤية الحضارية والنقدية فى أدب طه حسين / ١٩٣ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) المرجع السابق ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٧٩ .

(٥) طه حسين / مع المتنبى / ٨٩ ، ٩٠ .

ويرى الدكتور عبد الوهاب عزام فى هذا الشعر ثورة عارمة وأنه يمكن أن يكون السبب الدافع له للخروج عن السلطان إذ إن فى هذا الشعر صورة لتلك الفترة التى عاشها فى الشام ، وهى الفترة التى يسميها بفترة الثورة المتمردة عند المتنبى . وهذا يتضح فى شعره الشامى ، إذ فيه دعوة للثورة ضد السلطان ، ودعوة لقيام دولة عربية بدلاً من هذه الدولة الشعوبية فى ذلك العصر. ويرى أننا لو رجعنا إلى القصيدة التى قالها لأبى عبد الله معاذ بن إسماعيل لوجدنا فيها روح الثورة والتمرد بارزاً ، ومن هنا انتفت عن المتنبى الدعوى المنحرفة عن الدين ، إذ إنه كان يهدف إلى الثورة على السلطان ونزعة الحرب تشيع فى شعره الشامى ، إذ تراه يدعو العرب للتخلص من حكم الأعاجم فيقول (١) :

لأَتْرُكَنَّ وَجُوهَ الخَيلِ سَاهِمَةً ... وَالحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
وَالطَّعْنُ يحرقها ، وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا ... حَتَّى كَأَنَّ بِهَا ضَرْبًا مِنَ اللَّمَمِ
قَدْ كلَّمتهَا العَوَالِي فَهِيَ كَالِحَةٌ ... كَأَنَّمَا الصَّابُ مَعْصُوبٌ عَلَى اللُّجُمِ (٢)

وهو يرى أن حقه فى المجد والمعالى لا يأتى إلا بالرماح والرجال يقول :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالقَنَا وَمَشَايِخٍ ... كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا التَثَمُوا مُرْدُ
ثِقَالٍ إِذَ لاَقُوا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا ... كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا
وَطَعْنٍ كَأَنَّ الطَّعْنَ لاَ طَعْنَ عِنْدَهُ ... وَضَرْبٍ كَأَنَّ النَّارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدُ
إِذَا شِئْتُ خَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ ... رِجَالٌ كَأَنَّ المَوتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ (٣)

وترى طلبه يصعب أضن يُسَمَّى للناس فى قصيدته التى يرثى بها جدته:

يَقُولُونَ لِي : مَا أَنْتَ ؟ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ

وَمَا تَبْتَغِي ؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى (٤)

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٤٢ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٤١ .

(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتحقيق عبد الوهاب عرام / ١٧٢ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١٠٧ .

ويلوم زمنه الذى لم يمكنه من مطالبه أو مطامعه السياسية بكل الأسلحة التى تعد للحرب :

أَذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا ... لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا
وَإِنْ عَمِرتُ جَعَلْتُ الحَرْبَ وَالِدَةً ... وَالسَّمْهَرِىَّ أَخًا وَالمَشْرَفِىَّ أَبَا
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى المَوتَ مُبْتَسِمَا ... حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِى قَتْلِهِ أَرَبَا
قُحٍّ يَكَادُ صَهِيلُ الخَيْلِ يَقْذِفُهُ ... مِنْ سَرْجِهِ مَرَحًا بِالعِزِّ أَوْ طَرَبَا
فَالمَوتُ أَعْذَرُ لِى وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِى ... وَالبَرُّ أَوسَعُ وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا (١)

وقد بلغ ولعه بهذا الكلام وقلة مبالاته بالناس أن توعد بقتل الممدوحين فى قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله الخصيبى :

مَدَحْتُ قَومًا وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِدًا مِنْ إِنَاثِ الخَيْلِ وَالحُصُنِ
تَحْتَ العَجَاجِ قَوَافِيهَا مُضَمَّرَةً ... إِذَا تُنُوشِدْنَ لَمْ يَدْخُلْنَ فِى أُذُنِ (٢)

بل يغلبه الوهم فيذكر أنه حارب وقاتل يقول من قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد ابن عمران :

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ... ثبت الجنان كأننى لم آتها
ومقانب بمقانب غادرتها ... أقوات وحش كن من أقواتها (٣)

والملاحظ أنَّ المتنبى لم يكن بعيدا عن السياسة التى كانت تثار فى الشام فى أثناء حياته هناك ، ويتضح هذا فى مدح الأمراء الذين اتصل بهم وهذه القصائد التى مدح بها الأمراء لم تكن شعر مدح فحسب ، وإنَّما كانت قصائد حربية ، إذ إنها تصور حالة كل فترة أقام فيها عند كل أمير . وهى بهذا توضح صورة كاملة للسياسة الداخلية والخارجية لكل بلدة مر بها وأقام فيها .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) المصدر السابق / ٤ / ٢١٣ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٣٥٠ .

حروب الإخشيديين:

اتصل المتنبى بكثير من ولاة الإخشيديين ومدحهم ونال جوائزهم ومن هؤلاء الولاة صالح الروذبارى الكاتب والى دمشق وسعيد الكلابى الإخشيدى ومساور الإخشيدى وعلى الأنطاكى الإخشيدى والحسن بن طفج الإخشيدى وغيرهم .

قد تحدث المتنبى عن حروبهم ووصفها ، ووصف معارك القتال فى قصيدته الزائية التى مدح بها الروذبارى والى دمشق من قبل الأخشيد فى سنة أربع وعشرين وثلاث مئة :

حَامِلُ الحَرْبِ والدِّيَاتِ عَنِ القَوْ ... مِ وثِقْلِ الديون والإعْوَازِ
كَيْفَ لاَ يَشْتَكِي وكَيفَ تَشَكَّوا ... وبِه لاَ بِمَنْ شَكَاهَا المَرازِي
أَيُّهَا الواسِعُ الفِنَاءِ ... مَبِيْتٌ لمَالِكَ المُجْتَازِ
بِكَ أَضْحَى شَبَا الأَسِنَّة عِنْدِي ... كَشَبَا أَسْوَقُ الجَرَادِ النَّوَازِي
تَرَكُوا الأَرْضَ بَعْدَ مَاذَلَّلُوهَا ... وَمَشَتْ تَحتَهُمْ بِلاَ مِهْمَازِ
وَأَطَاعَتْهُمُ الجُيُوشُ وَهِيبُوا ... فَكَلامُ الوَرَى لَهُمْ كَالنُّحَازِ (١)

وقد مدح أيضًا سعيدًا الكلابى المنبجى الإخشيدى فى حربه لبنى كلاب الذين جاءوا من نجد عام ٣٢٤ هـ وأغاروا على بعض البلاد الشامية فتصدى لهم هذا الأمير الإخشيدى وهو المضرى الوحيد الذى مدحه أبو الطيب بقصيدة مطلعها :

أَحْيَا وأَيْسَرَ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ ... وَالبَيْنَ جَارَ عَلَى ضَعْفِى وَمَا عَدَلاَ (٢)

وهو يصف هذه المعركة وكأنه حضرها مع جيش هذا الأمير الباسل الذى هزم بنى كلاب :

قَيلٌ بِمَنْبَجَ مَثْوَاهُ وَنَائِلُهُ ... فِى الأُفْقِ يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلاَ
يَلُوحُ بَدْرَ الدُّجَى فِى صَحْنِ غُرَّتِهِ ... وَيَحْمِلُ الموتُ فِى الهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلاَ

(١) عبد الرحمن البرقوقى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٨٢ .

تَرَابُهُ فِي كِلابٍ كُحلُ أَعْيُنِهَا		وَسَيْفُهُ فِي جَنَابٍ يَسْبِقُ العَذَلاَ
لِنُورِهِ فِي سَمَاءِ الفَخْرِ مخْتَرَقٌ		لَوْ صَاعَدَ الفِكْرُ فِيهِ الدَّهْرَ مَا نَزَلاَ
لَمَّا رَأَتْهُ وَخَيْلُ النَّصْرِ مُقْبِلَةً		وَالحَرْبُ غيرُ عوَانٍ أَسْلَمُوا الحلَلاَ
وَضَاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ		إذَا رأَى غيْرَ شَيءٍ ظَنَّهُ رَجُلاَ (١)

وقد مدح المتنبى مساور الإخشيدى فى هزيمة يزداذ بن رائق سنة ٣٢٤ هـ بقصيدة مطلعها :

جَلَلاً كَمَا بِى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ		أَغِذَاءُ ذَا الرَّشَأَ الأَغَنِّ الشِّيحُ (٢)

كما مدح هذا الأمير بقصيدة أخرى فى هزيمة يزداذ سنة ٣٢٨ هـ :

أَمُسَاوِرٌ أم قَرْنُ شَمْسٍ هَذَا		أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الأُسْتَاذَا ؟ (٣)

ولقد وصف المتنبى المعركة وصفًا بارعًا وصور ما جرى لابن يزداذ وأصحابه من هزيمة مرعبة في حربه مع مساور . والمتنبى تغريه مواقف الحرب والفروسة ولذا فهو يبرز فيها فارسًا مغوارًا لا يشق له غبار استمع إليه إذْ يقول :

غَادَرْتَ أَوْجُهَهُمْ بِحَيْثُ لَقِيتَهُمْ		أَقْفَاءَهُمْ وَكُبُودَهُم أَفْلاَذَا
فِي مَوقِفٍ وَقَفَ الحِمَامُ عَلَيْهِمُ		فِي ضنْكِه وَاسْتَحْوَذَ اسْتِحْوَاذَا
جَمَدَتْ نُفُوسُهُمُ فَلَمّا جِئْتَهَا		أَجْرَيْتَهَاوَسَقَيْتَهَا الفُوْلاَذَا
لَمَّا رأَوكَ رأَوا أَبَاكَ مُحَمَّدَاً		فِي جَوْشَنٍ وأَخَا أَبِيكَ مُعَاذَا
أَعْجَلْتَ أَلْسنَهمْ بِضَرْبِ رِقَابِهِمْ		عَنْ قَولِهِمْ لاَ فَارِسٌ إلاَّذَا
غِرٌّ طَلَعْتَ عَلَيْهِ طَلْعَةَ عَارِضٍ		مَطَرَ البَلاَيَا وَابِلاً وَرِذَا ذَا

---

(١) المصدر السابق / ٢ / ١/ ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٢٤٣
(٣) المصدر السابق / ٢ / ٨٢ .

سَدَّتْ عَلَيْه المَشْرَفِيَّةُ طُرْقَهُ ... فَانْصَاعَ لاَحَلَبًا وَلاَ بَغْدَاذَا
طَلَبَ الإمَارَةَ فِى الثُّغُور وَنَشْؤُهُ ... مَا بَيْنَ كَرْخَايَا إلَى كَلْوَاذَا
فَكَأَنَّهُ ظَنَّ الأَسِنَّةَ حُلْوَةً ... أَوْ ظَنَّهَا الْبَرْنِيَّ وَالأزَاذَا
لَمْ يَلْقَ قَبْلَكَ مَنْ إذَا اخْتَلَفَ القَنَا ... جَعَلَ الطعان مِنَ الطِّعَانِ مَلاذَا (١)

وقد مدح المتنبى على بن مكرم التميمى وهو يتولى حرب بن رائق سنة ٣٣٠ هـ، وقد وصف هذه المعركة وصفًا يصور ما فى نفس المتنبى من ثورة عارمة على ابن رائق الذى تعرض لحرب على التميمى ، ومن هنا فَإنَّ المتنبى لا يترك معركة من معارك الإخشيديين إلاَّ وصورها صوراً ممتازة وهى تدل على شجاعة الدولة الإخشيدية إذ صور المتنبى انتصاراتهم على أعدائهم ، ومن هنا كسبت أشعاره فى الإخشيديين سمة جيدة إذ إنها صورت سياستهم الداخلية والخارجية على حد سواء :

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَّاقٌ ضُرُوبَا ... فَأَعْذَرُهُمْ أَشَفُّهُمُ حَبِيْبَا
وَمَا سَكَنِى سِوَى قَتْلِ الأعَادِى ... فَهَلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِى القُلُوبَا
تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْهَا فِى حَدِيث ... تُرُدُّ به الصَّرَاصِرَ وَالنَّعِيبَا
وَقَدْ لَبِسَتْ دِمَاؤُهُمُ عَلَيْهِمْ ... حِدَادًا لَمْ تشُقَّ لَهَا جُيُوبَا
أَدمْنَا طَعْنَهُمْ وَالقَتْلَ حَتَّى ... خَلَطْنَا فِى عِظَامِهِم الكُعُوبَا
كَأَنَّ خُيُولَنَا كَانَتْ قَدِيمًا ... تُسَقَّى فِى قُحُوفِهِمُ الحَلِيْبَا
فَمَرَّتْ غَيْرَ نَافِرةٍ عَلَيْهِمْ ... تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ وَالتَّرِيْبَا
يُقَدِّمُهَا وَقَدْ خُضِبَتْ شَوَاهَا ... فَتًى تَرْمِى الحُرُوبُ به الحُرُوبَا
شَدِيدُ الخُنْزُوَانَةِ لاَ يُبَالِى ... أَصَابَ إذَا تَنَمَّرَ أَمْ أُصِيْبَا (٢)

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) المصدر السابق / ١ / ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

وقد مدح أيضًا على بن أحمد بن عامر الأنطاكى أمير انطاكية سنة ٣٣٠ هـ بقصيدة مطولة وكان فى هذه القصيدة ثائرًا على أي وجه أدرتها ، إذ إنه ما زال يتحدث عن أمانيه السابقة وكيف يحققها ، ويرى أن الأساس الأول فى الوصول إليها ، لا يكون إلاَّ بالرجال والسيوف والحروب ، وأن هذه الثورة التى ينوه بها فى شعره يجب أن تعتمد على التضحية والفداء فى الوصول إلى المجد السياسى الذى يقصد إليه وتراه يقاسم ممدوحه فى قصيدته :

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وَحِيدًا ، وَمَا قَولى كَذَا وَمَعِى الصَّبْرُ!
وأَشْجَعُ مِنِّى كُلَّ يوم سَلامَتِى وَمَا ثَبَتَتْ إلاَّ وَفِى نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بالآفات حَتَّى تركْتُهَا تَقُولُ : أَمَاتَ المَوتُ أمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ!
وأَقْدَمْتُ إقْدَامَ الأتِيِّ كَأَنَّ لى سوَى مُهْجَتِى أَوْ كَانَ لِى عِنْدَهَا وِتْرُ
دَعِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمُفْتَرِقٌ جَاران دَارُهُمَا العُمْرُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا المَجْدُ إلاَّ السَّيْفُ وَالفَتْكَةُ البِكْرُ
وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ المُلُوكِ وأَنْ تُرَى لَكَ الهَبَوَاتُ السُّودُ وَالعَسْكَرُ المَجْرُ
وَتَرْكُكَ فِى الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلَ سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ (١)

وقد مدح أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طفج ، وكان أبو محمد قد كثرت مراسلته إلى أبى الطيب من الرملة ، فسار إليه ، فلما دخل الرملة أكرمه أبو محمد فمدحه بقصيدة مطلعها :

أَنَا لائِمِى إنْ كُنْتَ وَقْتَ اللَّوَائِمِ عَلِمْتَ بِمَا بِى بَيْنَ المَعَالِمِ (٢)

وفى هذه القصيدة نراه يصور ما حدث بين ابن طفج وأعدائه ، وكيف أن جيشه كان متمرسا بالسلاح متقنا للطعان يصل الطعنة بالأخرى ، وهو يعمد إلى تصوير كرم قوم ابن طفج ، وأنهم يحسنون العفو عن كل من أذنب ، ويحتملون الغرامة لمن عليه غرامة ، فهم فى كل أحوالهم محسنون ويدل على ذلك قوله :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ١٤٨ / ١٤٩ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١١٠ .

أَرَى دُونَ مَــا بَيْنَ الفُــرَاتِ وَبرْقَــة ضِرَابًا يُـمَشِّي الخَيلَ فَوقَ الجَمَاجِمِ
وَطَعْنَ غَـطَارِيف كَــأنَّ أَكُــفَّــهُـمْ عَـرفْـنَ الرُّدَيْنِيَـات قَــبْلَ المَعَــاصِمِ
حَـمَتْـهُ عَلَى الأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَـانِب سُيُـوفُ بَنِي طُغْجٍ بن جُفِّ القَـمَـاقِمِ
هُمُ المحسنُونَ الكَرَّفِي حَوْمَةِ الوَغَى وَأَحْــسَــنُ مِنْهُ كَــرُّهُمْ فِي المَـكَارِمِ
وَهُمْ يُحْسِنُونَ العَـفْوَ عَنْ كُلِّ مُذْنِب وَيَحْـتَــمِلُونَ الغُــرْمَ عَنْ كُلِّ غَـارِمِ
حَـيِـيُّــونَ إلاَّ أَنَّهُــمْ فِي نِزَالِـهِمْ أَقَلُّ حَــيَــاءً مِنْ شِــفَــارِ الصَّـوَارِمِ
وَلَوْلاَ احْـتِقَـارُ الأُسْدِ شَبَّهـتها بِهِمْ وَلكِنَّهَــا مَـعْـدُودَةٌ فِي البَـهَــائِمِ (١)

وصف حروب أبى العشائر:

كان أبو العشائر أميـرًا على أنطاكية وأغار عليها بعض أعدائه فـحدثت معركة بين جيش أبو العشـائر وجيـش المغيرين عليهـا ،وكانـت النتـيجـة أن انتصـر أبو العشائر انتصارًا باهرًا ، وعندما علم المتنبى بنبأ هذا الانتصار وهو بدمشق قدم إليه مهنئًا له بهذا النصر وأنشده قصيدته التى مطلعها :

إِذَا غَــامَــرْتَ فِى شَــرَف مَــرُوم فَــلاَ تَقْنَـعْ بِمَــا دُونَ النُّجُــومِ (٢)

ويقول الـثعالبـى : حدث أبو عبـد الله بن خالـويه قال : لمـا كانت الشـام بيد الإخشـيد محمـد بن محمد بن طفج سـار إليها سيف الدولة فـافتتحـها ، وهزم عساكره عن صفين فقال:

يَا سَـيْفَ دَولَةَ ذِى الـجَـلاَلِ وَمَنْ لَهُ خَــيْــرُ الخَــلائف وَالأَنَام سَــمِىُّ
أَوَ مَـا تَرى صِـفِّـين كَـيْفَ أَتَيْـتَـهـا فَــانْجَابَ عَنْهَـا العَــسْكَرُ الغَـربِى
فَكَأَنَّـهُ جَــيْشُ بْنِ حَــرْبِ رُعْــتَــهُ حَــتَّى كَـــأَنَّكَ يَا عَلِيُّ عَــلِىُّ (٣)

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ .
(٢) المصدر السابق / ٤ / ١١٩ .
(٣) الثعالبى / يـتيـمة الدهـر / ١ / ٢٣ ، ٢٤ . وانظر فى ذلك : ديوان أبى الطيب المـتنبى / العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب / شرح وتحقيق الشيخ ناصف اليازجى / ٧ / ٦٣٠ . وأبو الطيب المـتنبى / ديوانه / شرح وتصحـيح عبد الـوهاب عزام / ٤١٢ . وفيـه أن البيت الأول بدل الخلائف = البرية وفى البيت الثالث ابن هند بدل ابن حرب .

ويعتقد الدكتور محمود حسن عبد ربه أن هذه الأبيات قيلت فى سنة ٣٣٣هـ لأنه استولى على حلب وحمص فى هذا العام بعد معركة دامية بينه وبين عساكر الإخشيد [١]. وقد مدح المتنبى أبا العشائر بقصيدة أخرى بعد انتصاره على قبائل قيس سنة ٣٣٦ هـ :

مَبِيتى مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِ ... حَشَاهُ لِى بِحَرٍّ حَشَاىَ حَاشِ [٢]

ويصف ما جرى فى هذه الموقعة من قتال مرير ذابت فيه رقاب الأعداء من ضرب السيوف العطاش للدماء ، وهؤلاء الأعداء جبناء لا يستطيعون الرد على ذلك يقول:

لَقُوهْ حَاسِراً فِى دِرْعِ ضَرْبٍ ... دَقِيقِ النَّسْجِ مُلْتَهِبِ الحَوَاشِى

كَأَنَّ عَلَى الجَمَاجِمِ مِنْهُ نَاراً ... وَأَيْدِى القَوْمِ أَجْنِحَةُ الفَرَاشِ

كَأَنَّ جَوارِىَ المُهَجَاتِ مَاءٌ ... يُعَاوِدُهَا المُهَنَّدُ مِنْ عُطَاشِ

فَوَلَّوْا بَيْنَ ذِى رُوحٍ مُفَاتٍ ... وَذِى رَمَقٍ وَذِى عَقْلٍ مُطَاشِ

وَمُنْعَفِرٍ لِنَصْلِ السَّيْفِ فِيْهِ ... تَوارِى الضَّبُّ خَافَ مِنِ احْتِرَاشِ

يُدَمِّى بَعْضُ أَيدِى الخَيْلِ بَعْضًا ... وَمَا بِعُجَايَةٍ أَثَرُ ارْتِهَاشِ [٣]

ب- علاقاته السياسية مع سيف الدولة الحمدانى :

ليس من شك أن للمتنبى فى سيف الدولة الحمدانى ديوانًا يمكن أن يستقل بنفسه: وهو إنْ جمع فى ديوان مستقل ربما يكون من أروع شعر المتنبى وأجمله وأحقه بالبقاء .

وقد مدح المتنبى عددًا كبيرًا من أوساط الناس وأشرافهم ، ثم اتصل بالحكام والأمراء ، ثم اتصل بعد ذلك بالممتازين من أمراء الدولة الإسلامية فى الغرب والشرق ووفق للإجادة وللروعة أحيانًا فى كثير مما قال فى هؤلاء الناس .

---

(١) محمود حسن عبد ربه / الحرب فى شعر المتنبى / ١ / ١٢٥ .

(٢) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ١ / ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٣) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ١ / ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧.

ولكن شعره فى سيف الدولة يمتاز بما لم يتميز به سائر شعره ، امتاز بالكثرة فالديوان يحفظ من قول أبى الطيب فى سيف الدولة نيفا وثمانين قصيدة ومقطوعة ، وهو مقدار ضخم لم يجتمع فيما أظن لشاعر من الشعراء القدامى فى ملك أو خليفة أو أمير ولم يجتمع لأبى الطيب نفسه فى أحد من ممدوحيه غير سيف الدولة . كما يمتاز شعره بعامل آخر غير الكثرة هو التنوع. فمع أن سيف الدولة هو الموضوع الذى يدور حوله شعر المتنبى فى أثناء هذه الأعوام التسعة ، فقد كان هذا الشعر مختلف الألوان والأنواع والفنون ، ولم يكن هذا الاختلاف ناشئًا عن رغبة المتنبى فى الافتنان والتنوع ، وإنَّما كان ناشئًا عن أنَّ حياة سيف الدولة نفسه كانت مختلفة الوجوه والأنحاء . فقد كان سيف الدولة أميرًا عربيًا ، شريف الأصل ، كريم النسب ، بعيد الهمة ، جواد اليد ، وهو من أجل هذا يتقاضى المتنبى مدحه كما يمدح أمراء العرب الذين يتصفون بهذه الصفات .

وكان سيف الدولة عربيًا مجاهدًا يناضل عن الإسلام ، ويحمى حدود المسلمين من قبل الروم ، وكانت له مع هؤلاء معارك حسن بلاؤه فيها منتصرا ومنهزما، فكان من هذه الناحية يتقاضى المتنبى مدحه كما يمدح المجاهدين والحامين للثغور والذائدين عن حوزة الدين ، وكان سيف الدولة ينافس غيره من الأمراء ، ينافس قومًا فى العراق ، وقومًا فى مصر ، فكان يتقاضى المتنبى أن يمدحه مدحًا يقدمه على منافسيه . وكانت رعية سيف الدولة بدوية قليلة الشعور بحب النظام ، شديدة النقص ، للسلطان القوى ، كثيرة الجنوح إلى الخروج والشغب والانتقاض، وكان سيف الدولة يردها إلى الطاعة ، ويأخذها بالقوة والإذعان ، فكان يتقاضى المتنبي أن يمدحه ، كما يمدح الأمير الذى يأخذ رعيته بالحزم والعزم ، ويحملها على الشدة ، وحينا على اللين [1] .

ومن الخطل أن نطيل القول أو أن نضيع الوقت فى البحث عن هذه المسألة التى أثارها النقاد ومؤرخو الأدب . أيهما خلد ذكر صاحبه : سيف الدولة أم المتنبى ؟ فلم يكن المتنبى مغمورا ومجهولا حين اتصل بسيف الدولة . ولم يكن سيف الدولة ضعيف الشأن خاملا حين عرف المتنبي ، وإنما كان كلا الرجلين قد

(١) طه حسين / مع المتنبى / ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ .

فرض نفسه على معاصريه ، ذلك بشعره ، وهذا بسيفه ، فكان لكل منهما أثر خالد فى مجد صاحبه ، وإنما أمر المتنبى مع سيف الدولة كما قال عمرو بن معدى كرب :

وَلَو أَنَّ قَومِى أَنْطَقَتْنِى رِمَاحُهُمْ ۝ نَطَقْتُ ، وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

غير أن رماح سيف الدولة لم تجر ، وإنما انطقت الشاعر فنطق برائع الشعر وأجوده ، وكسا أميره عنه حللاً لا تغنى [1] . وصورة سيف الدولة فى شعر المتنبى هى صورة المتنبى المناضل ، الفارس الذى يطاعن القدر ، ويتأهب لمجهوله ، ويزدرى واقع الناس ويطمح إلى نموذجه الأعلى .

وقد استطاع المتنبى أن يجيد فى مدح سيف الدولة ، إذْ إن ببلاطه كثيراً من الشعراء ، فلا وسيلة للتغلب عليهم إلا من طريق الشعر وهو كل بضاعته ، فاهتم أن يجيد ، وتحركت نفسه للقول بعاطفة صادقة وشعور طبعى للمحافظة على هذا الرغد من العيش والطريف من النعيم .

ولم يكن أبو الطيب شاعراً مكتسبًا بشعره وإنَّما مخلصًا بل مصلحًا يجاهد فى توجيه ذوي الشأن من الحكام والأمراء نحو أهداف عالية وخصال شريفة محمودة [2] .

ومن هنا كان مدحه لسيف الدولة مدحًا حقيقيًا إذ دفعه إلى ذلك دافعان : أحدهما : أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بحسن بلائه ومضائه ، لم يكن يملك نفسه أن يعجب أولئك الملوك الآخرين الذين ينعمون بالحياة واللين ، وضخامة الثروة وسعة الملك فى غير جهد ولا مشقة . والآخر : أن سيف الدولة نفسه كان يظهره على بعض ما يدبر له من الكيد فى مصر أو فى العراق ، وكان الأمر يفسد أو يقرب إلى الفساد بينه والفسطاط أو بغداد ، فيغرى شاعره بأن يمس هذه الناحية فى نواحى السياسة الإسلامية لينذر أو يعذر أو يغيظ [3] .

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٢٧٠ .

(٢) رشيد العبيدى / دراسات فى النقد الأدبى / الجزء الأول / بغداد ط المعارف ١٩٦٨م - ١٩٦٩م / ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وكان بنو حمدان من شيعة العلويين ، ومن المتحققين بخدمة الدعوة العلوية ، إلاَّ أنهم كانوا عربًا يدعون إلى العلوية العربية ، لما وجدوا من غلبة الأعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الأعاجم ، ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ، وكانوا لا يقرون هذه الدعوة ولا يسلمون لأصحابها بالنسبة الفاطمية الكريمة. رجعوا فانحازوا إلى الدولة العباسية ينصرونها وينصرون الخليفة « النائم » على كرسى الخلافة . هذا مع إكرامهم للعلويين ومحبتهم لهم . وقد أبدى بنو حمدان من الدهاء وسعة الحيلة ، وحسن التدبير والسياسة فى التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، ما لا قبل لأحد من أهل ذلك العصر فى الإتيان بمثله ، أو القيام على أقل منه . وقد أثبت بنو حمدان بسياستهم هذه أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والإسلام من الفتن الباغية التى فعلت أفاعيلها لعهدهم فى تضييع السلطان العربى ، وانتقال العزة والشوكة إلى الحكم العجمى الشعوبى الفاسد الطوية الباغى بكيدة الإيقاع بالعرب ودينهم ولسانهم .

وكان سيف الدولة خاصة من بنى حمدان أكثرهم دهاءً وأوسعهم حيلة ، وأشدهم حبًا للعرب والإسلام ، وأكثرهم سعيًا فى رد الحكم والسلطان إلى العرب ، وأعظمهم همة فى مساعى المجلد لنفسه ولقومه ، وأكرمهم خلقًا آسرًا،وكان أيضًا محبًا للأدب قائمًا على خدمته ، وكان شاعرًا بطبيعته ، خفيف الروح حلو اللسان بيانى الفكر ، وكان كارهًا للأعاجم ولسانهم الذى أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بويه (1) .

ومنذ اتصال المتنبى بسيف الدولة تبين أنَّ المتنبى ليس شاعرًا يمدح الأمراء والولاة . ولكنه كان زعيمًا سياسيًا يشتغل بالعمل العربى العام . وكانت وسيلته فى هذا شعره . لقد كان سيف الدولة ينظر إليه هذه النظرة ، باعتباره رجلاً سياسيًا كبيرًا فى دولته ، ولعل فى هذا ما يفسر لنا كثيرًا من الغرائب التى يقف عندها المؤرخون فى علاقة أبى الطيب بسيف الدولة .

---

(1) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ١٨٨ ، ١٨٩ .

ومن هنا كـان حب المتنبى لسـيف الدولة حبًا مـركبًـا عميـقًا ، إنه يحـبه لخصائصه الذاتية ويحبه لأنه يحبـه ، ويحبه لأنه أصبح حاجة من حاجات فكره ونفسه .. ويحـبه لأنه القناع الذى يحقق من خلاله أحلامه وطمـوحه . واختلط حبه لسيف الدولة بحبه لنفسه واعـتزازه بطموحه وملكاته ، فصار يحب لنفسه من خلال حـبه لسـيف الدولة ، وتوهج الحب المـركب المخـتلط المعـقد الدروب والمسالك ، وذلك عندما تغلب طموحه على حبه وفارق صاحبه ، لم يستطع أن يتخلص من هذا الحب فصار ملازمًا له حتى آخر أيام حياته [1] .

١) السياسة الداخلية لسيف الدولة الحمدانى :

- الحرب ضد الإخشيديين :

كانت حروب سيف الدولة ضـد الإخشيديين سجالاً فى مسـتهل حياته ، ذلك لأنه قد استولى على حلب وهى فى حوزتهم ، فكان أمرًا طبـيعيًا أن يتبادلا الحرب هنا وهناك فحدثت بينهم أكثر من موقعة أهمـها موقعة حلب والرستن ، ثم انتهى الأمر بالصلح بينهما والتنازل عن حلب وزواج سيف الدولة من أميرة إخشيدية .

وكان من المـمكن أن تقف الحرب بين الإخشيـديين وسيف الدولة عند هذا الحد لولا أطماع سيف الدولة التوسعية فى جنوب بلاد الشام ، وتقدمه جنوبًا حتى احتل دمشق واستقر فى حلب ، وقد أشار المتنبى إلى ذلك فى شعره . يقول:

أرى دون مـا بين الفـرات وبرقـة ... ضرابا يـمشى الخيل فوق الجـماجم
وطعن غـطاريف كـأن أكـفـهم ... عـرفـن الردينيـات قـبل المـعـاصم
حـمتـه على الأعداء من كل جـانب ... سيوف بنى طفج بن جف القماقم [2]

فالمـتنبى يشير هنا إلى مـا كان من محـاولة سيف الدولة أن يغيـر على جنوب الشام منتهزًا موت الإخشيد ، لينقض ما كان قد تم بينهما من الصلح ، وما كان من نهوض كـافور لرده عن مـلك الإخشـيـديين ، وإلزامه الحـدود التى تم عليـهـا الصلح مع الإخشيد[3] ومن ثم اتجه سيف الدولة شمالاً وشرقًا فى أرمينية والأراضى البيزنطية .

---

(١) عبد العزيز الدسـوقى / قضايا وملاحظات (١) فى عالم المتنبى رؤية فنية / مـصر - الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٨ يوليو ١٩٧٨م / ٦٦ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦.

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ١٥٢ ، ١٥٣ .

- **حرب سيف الدولة مع القبائل :**

أكثر المتنبى فى مدح سيف الدولة الحمدانى ، واستطاع أن يصور انتصاره داخليًا وخارجيًا فتراه يقول فيه عندما أوقع بعمرو بن حابس سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م.

ذِكْـرُ الصِّبَـا وَمَـرابِعُ الآرَامِ   جَلَبَتْ حِمامِى قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِى (١)

وهو فى هذه القصيدة يعرض بعمرو بن حابس وبنى ضبة الذى تغلب عليهم سيف الدولة وقد قال المتنبى هذه القصيدة فى شبابه وهى تهيج بشجاعة سيف الدولة وقدرته على الحرب (٢) .

وقد قال المتنبى فى سنة ٣٣٧ هـ قصيدة يصف فيها مسيرة سيف الدولة إلى الموصل لنصرة أخيه ناصر الدولة ومطلع هذه القصيدة هو :

أَعْلَى المَمَالِك مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ   وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالقُبَلِ (٣)

وفى القصيدة نلحظ أن المتنبى ذكر أن الخليفة هو الذى انتدبه لصيانة الخلافة فى تلك الفترة العصيبة ، وأشار بعد هذا إلى أنه لقبه بسيف الدولة :

عَلَى الفُرَاتِ أَعَاصِيرٌ وَفِى حَلَب   تَوَحُّشُ لِمُلْقَى النَّصْرِ مُقْتَبَلِ

تَتْلُوا أَسِنَّتَهُ الكُتُبَ التِّى نَفَذَتْ   وَيَجْعَلُ الخَيْلَ أَبْدَالاً مِنَ الرُّسُلِ

يَلْقَى المُلُوكَ فَلاَ يَلْقَى سِوَى جَزَرٍ   وَمَا أَعَدُّوا فَلاَ يَلْقَى سِوَى نَفَلِ

صَانَ الخَلِيفَةُ بِالأَبْطَالِ مُهْجَتَهُ   صِيَانَةَ الذَّكَرَ الهِنْدِىَّ بِالخَلَلِ (٤)

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة أحدث بنو كلب حدثا وارتحلوا فلحقهم سيف الدولة وردهم إلى الطاعة ، ثم شملهم بعفوه . قال المتنبى قصيدته البائية:

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٦.

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢١٥ . ومحمد حسين عبد ربه / الحرب في شعر المتنبى / ١ / ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتحقيق عبد الوهاب عزام / ٢٢٩ .

(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتحقيق عبد الوهاب عزام / ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

بغَـيْـرِكَ رَاعِـيًـا عَـبِـثَ الذِّئَابُ وغيـرك صَارِمًا ثَلَمَ الضِّرَابُ (١)

ثم يتصل المتنبى إلى الاستعطاف ، فيذكر الأمير بمكان هؤلاء الناس منه فى النسب ، ونفعهم له حين تشتد الخطوب . وهو لبق حقا يلح فى الاستعطاف ، حتى يظهر كلابًا أذلة - خاضعين لسلطان هذا الأمير العربى ، ثم يعود عليهم بالفخر فيظهرهم كرماء قاهرين لغيره من الولاة لو قصد إليه ، فهو يرضى حاجة كلاب إلى العفو ، كما يرضى حاجتها إلى العزة والرفعة ، وهو يرضى حاجة أميره إلى الحكم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه وشدته . وهو فى أثناء هذا كله لا يقصر فى التعريض الرقيق جدًا بالذين أوروا هذه الثورة وأضلوا هؤلاء الثائرين واقرأ هذه الأبيات :

تَرَفَّقْ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالجَانى عِتَابُ
وَإِنَّهُمُ عَبِيدُكَ حَيْثُ كَانُوا إِذَا تَدْعُو لِحَادِثَةٍ أَجَابُوا
وَعَيْنَ الْمُخْطِئِينَ هُمُ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبَتْ عَلَيْهِمْ وَهَجْرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمُ عِقَابُ (٢)

ثم اقرأ هذه الأبيات :

وَلَوْ غَيْرُ الأَمِيرِ غَزَا كِلاَبًا ثَنَاهُ عَنْ شُمُوسِهِم ضَبَابُ
وَلاَقَى دُونَ ثَأْيِهِمْ طِعَانًا يُلاَقِى عِنْدَهُ الذِّئْبَ الغُرَابُ
وَخَيْلاً تَغْتَذِى رِيحَ المَوَامِى وَيَكْفِيهَا مِنَ المَاءِ السَّرابُ (٣)

واقرأ هذا البيت وكيف يعرض بالكائدين ؟؟

وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ العَذَابُ (٤)

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق / ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٢١٢ .
(٤) المرجع السابق / ٢١٠ .

وأنت تذكر أنه قد كان لأبى الطيب عهد بالكلابيين فى صباه ، فقد نزل بهم ومدح سيدا من ساداتهم بمنبج حين جاء من العراق ، وشهد مجالس لهوهم أيضًا فليس من المستبعد أن يكون أبو الطيب وفى لهؤلاء الناس، وعرف إحسانهم إليه وبرهم به ، فجزاهم خيرًا بخير وإحسانًا بإحسان [1] .

وقد أعجب المتنبى بالأمير عندما ترك النساء مكرمات لأنهم عربيات كريمات يقول :

فَعُدْنَ كَمَا أُخِذْنَ مُكَرَّمَاتٍ   عَلَيْهِنَّ القَلائِدُ وَالمَلابُ
يُثِبْنَكَ بِالَّذِى أَوْلَيْتَ شُكْرًا   وَأَيْنَ مِنَ الَّذِى تُولِى الثَّوَابُ
وَلَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إِلَيْكَ شَيْئًا   وَلا فِى صَوْنِهِنَّ لَدَيْكَ عَابُ
وَلاَ فِى فَقْدِهِنَّ بَنِى كِلاَبٍ   إِذَا أَبْصَرْنَ غُرَّتَكَ اغْتِرَابُ [2]

وفى سنة أربع وأربعين وثلاث مئة فى أغلب الظن تجمعت قبائل من العرب بعضهم من قيس وبعضهم الآخر من بنى عقيل وقشير وعجلان وثارت على سيف الدولة ، فنهض لها سيف الدولة ، وتتبعها حتى لحقها عند تدمر فصنع بها صنيع بكلاب ، ولم يشهد أبو الطيب هذه الواقعة ولكنه قال فيها قصيدتين أولهما :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ   مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ [3]

وتلاحظ أن المتنبى فى هذه القصيدة يشير إلى سياسة سيف الدولة الداخلية والخارجية إذ إن هذه الحروب الداخلية أشغلته عن حرب الروم فيقول :

فَمَا حَرَمُوا بِالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحَةً   وَلَكِنْ كَفَاهَا البَرُّ قَطْعَ الشَّوَاهِقِ
وَلاَ شَغَلُوا صُمَّ القَنَا بِقُلُوبِهِمْ   عَنِ الرَّكْزِ لكِنْ عَنْ قُلُوبِ الدَّمَاسِقِ [4]

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ . وانظر فى ذلك : عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب / ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
(٣) المرجع السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٦٠ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٧٠ .

وقد استطاع المتنبى بعد ذلك أن يصور الخضوع والطاعة وتأثيرهما فى نفس سيف الدولة حين تقدمت بهما نمير مؤثر لهما على الخروج والثورة [1] :

لَوَفْدُ نُمَيْرٍ كَانَ أَرْشَدَ مِنْهُمُ ... وَقَدْ طَرَدُوا الأَظْعَانَ طَرْدَ الوَسَائِقِ
أَعَدُّ رِمَاحًا مِنْ خُضُوعٍ فَطَاعَنُوا ... بِهَا الجَيْشَ حَتَّى رَدَّ غَرْبَ الفَيَالِقِ
فَلَمْ أَرَ أَرْمَى مِنْهُ غَيْرَ مُخَاتِلٍ ... وَأَسْرَى إلى الأعْدَاءِ غَيْرَ مُسَارِقِ
تُصِيبُ المَجَانِيقُ العِظَامُ بِكَفِّهِ ... رَقَائِقَ قَدْ أَعْيَتْ قِسِيَّ البَنَادِقِ [2]

وكأن هذه القصيدة لم تشف نفس سيف الدولة ، فوصف القصة لشاعره ، وتقدم إليه أن يستأنف القول فيها ، فقال الرائية التى أولها:

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ ... وَقَطْرُكَ فِى نَدًى وَوَغًى بِحَارُ [3]

وأحب أن تقرأ هذين البيتين لترى الحاج المتنبى فى الأسف لتحول سيف الدولة مضطرا عن قتال أعدائه من الروم إلى قتال أوليائه من العرب:

وَكُنْتَ السَّيْفَ قَائِمُهُ إِلَيْهِمْ ... وَفِى الأَعْدَاءِ حَدُّكَ وَالغِرَارُ
فَأَمْسَتْ بِالْبُدَيَّةِ شَفْرَتَاهُ ... وأمسى خلف قائمه الحيار [5]

وعليك بقراءة هذين البيتين اللذين يرفق الشاعر فيهما أجمل الرفق حين يريد أن يهون على المنهزمين ما أدركهم من الهزيمة أمام سيف الدولة [5]:

بَنُو كَعْبٍ وَمَا أَثَّرْتَ فِيهِمْ ... يَدٌ لَمْ يُدْمِهَا إِلاَّ السُّوَارُ
بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ وَنَقْصٌ ... وَفِيهَا مِنْ جَلالَتِهِ افْتِخَارُ [6]

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٢ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٧٢ ، ٧٣ .
(٣) المرجع السابق / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٢٠٢ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ١٠٢ .
(٥) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٣ .
(٦) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ١١١ ، ١١٢ .

والمتنبى يطلب من سيف الدولة أن يرحم هؤلاء إذ أنهم عرب من جنسه أولا ، وهم من جنده ثانيا وبهم يصول ويجول وتخوض المعارك ، يقول المتنبى مسترحما :

لَهُمْ حَقٌّ بِشِرْكِكَ فِى نَزَارِ وَأَدْنَى الشِّرْكِ فِى أَصْلٍ جَوَارِ
لَعَلَّ بَنِيهِمُ لِبَنِيكَ جُنْدٌ فَأَوَّلُ قُرَّحِ الخَيْلِ المِهَارِ [1]

وأيسر ما يستخلص من هذه القصائد أن الحياة الداخلية فى عهد سيف الدولة لم يكن كلها هدوءًا ولا أمنا ، وإنما كانت تفسد وتضطرب من حين إلى حين آخر . وليس من شك فى أن أهل البادية قد أحدثوا أحداثا أخرى لم يصفها أبو الطيب، لأنها لم تكن ذات خطر ، ولأن سيف الدولة لم ينهض بنفسه لقمعها. ومعنى هذا كله أن ما كان سيف الدولة يلقاه من الجهد ويحتمله من المشقة ويظهره من حسن البلاء فى جهاد الروم ، لم يكن ليرد عنه كيد الذين كانوا يكيدون له من وراء ظهره فى الحاضرة والبادية جميعًا . والذين يدرسون تاريخ هذا العصر درسًا مفصلاً دقيقًا يعلمون أن أثرة الملوك والأمراء وتنافسهم فى السيادة والقوة ، وقد تجاوزوا ، فى ذلك الوقت كل حد معقول ، حتى تغلبا على الشعور الإسلامى الخالص، فضلاً عن اجتماع الرأى على مذهب بعينه من المذاهب الإسلامية . فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين الروم على خصمه سرًا أو جهرًا برغم أنه كخصمه مسلم، وأن الروم عدو له ولهذا الخصم[2] .

حرب سيف الدولة ضد القرامطة :

كان المتنبى مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحمدانيين أعداء القرامطة الألداء ، فهو يمدح أبا سيف الدولة بأنه أفنى القرامطة [3] :

القَائِمُ المَلِكُ الهَادِى الَّذِى شَهِدَتْ قِيَامَهُ وَهُدَاهُ العُرْبُ وَالعَجَمُ
ابْنُ المُعَفِّرِ فِى نَجْدٍ فَوَارِسَهَا بِسَيْفِهِ وَلَهُ كُوفَانُ وَالحَرَمُ [4]

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ١١٢ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٩١ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب المتنبى بعد ألف عام / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٤٢ .

وفى عهد سيف الدولة خرجت جماعة من القرامطة فى السماوة فأغاروا على حمص وأخذوا عامل سيف الدولة عليها ، وهو ابن عمه وائل تغلب بن داود بن حمدان وأبوا أن يردوه إلاَّ أن يأخذوا من أخيه فداء عظيمًا ، فأطعموا فى الفداء كسبا للوقت وينهض إليهم سيف الدولة فأوقع بهم ، واستنقذ منهم ابن عمه الأسير ، ولكنه استنقذه فلم يلبث أن مات وقد رثاه المتنبى ، وقال المتنبى فى هذه الواقعة قصيدته التى مطلعها (١) :

إلاَمَ طَمَاعِيَةُ العَاذِلِ ... وَلاَ رَأىَ فِى الحُبِّ لِلعَاقِلِ

والمتنبى كان شاعرا يشيد بجهاد سيف الدولة وجهاد أبيه فى مناصرة الخلافة العباسية وشد إزرها ضد القرامطة الذين كانوا يعملون على تقويضها يقول:

أَمَا للْخِلاَفَةِ منْ مُشْفِقٍ ... عَلَى سَيْفِ دَوْلَتِهَا الفَاصِلِ
يَقُدُّ عِدَاهَا بِلاَ ضَارِبٍ ... وَيَسْرِى إلَيْهِمْ بِلاَ حَامِلِ (٢)

ويقول فى قصيدة أخرى :

فَأَنْتَ حُسَامُ المُلْكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ ... وَأَنْتَ لِواءُ الدِّينَ وَاللَّهُ عَاقِدُ
وأَنْتَ أَبُو الهَيْجَا أبْنِ حَمْدَانَ يَا ابْنَهُ ... تَشَابَهُ مَولُودٌ كَرِيمٌ وَوَالِدُ
أُولَئِكَ أَنْيَابُ الخِلاَفَةَ كُلُّهَا ... وَسَائِرُ أَمْلاَكِ البِلاَدِ الزَّوَائِدُ (٣)

وفى ختام القصيدة السابقة يلمح إلى ما كان من سماحة سيف الدولة فى العفو عن المذنبين والخارجين عليه يقول :

تَفُكُّ العُنَاةَ وَتُغْنِى العُفَاةَ ... وَتَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِ الجَاهِلِ (٤)

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، وشوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٩١ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ١٦١ .
(٣) المرجع السابق / المجلد الأول / الجزء الأول / ٤٠٠ ، ٤٠٢ .
(٤) المرجع السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٦٢ .

٢) السياسة الخارجية لسيف الدولة الحمدانى :

- علاقته مع الخلافة والإمارات فى العصر العباسى :

صور المتنبى سياسية سيف الدولة الخارجية فى بعض قصائده وهى متناثرة فى الدراسات المصرية الحديثة . إذ أن المتنبى أنشد سيف الدولة قصيدته الدالية فى ميدان حلب ، عند عرض الجيش ، وهى على فرسيهما ، مهنئا له بعيد الأضحى وقد هاجم فيها الخليفة تصريحًا لا تلميحا ، وأرسل إليه نذيرا لا لبس فيه ، وذلك حيث يقول :

فَيَا عَجَبا مِنْ دائلٍ أَنْتَ سَيْفُهُ ... أَمَا يَتَوقَّى شَفْرَتَىْ مَا تَقَلَّدَا
وَمَنْ يَجعَلِ الضِّرْغَامَ بَازا لِصَيْده ... تَصَيَّدَهُ الضِّرْغَامَ فِيْمَا تَصَيَّدَا
رَأَيْتُكَ مَحْضَ الحِلْمِ فِى مَحض قُدْرَة ... ولَو شِئْتَ كَانَ الحِلْمُ منْكَ المُهَنَّدَا
وَمَا قَتلَ الأَحرار كَالعَفْوُ عَنْهُمُ ... وَمَنْ لَكَ بِالحُرِّ الذِّى يَحْفَظُ اليَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيم تَمَرَّدَا
وَوَضْعُ النَّدَى فِى مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلاَ ... مُضِرٌ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِى مَوضِعِ النَّدَى
وَلَكِنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأْيًا وَحِكْمَةً ... كَمَا فقْتَهُمْ حَالاً وَنَفْسًا وَمَحْتِدَا
يَدِقُّ عَلَى الأَفْكَارِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ ... فَيُتْرَكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخَذُ مَا بَدَا (١)

فهو كما تلاحظ صريح لا يعرض ولا يورى ، وإنّما يسخر من الخليفة الذى يتقلد سيفا يوشك أن يقتله ، ويرسل للصيد جارحًا يوشك أن يصيده ، وهو بعد ذلك يغرى سيف الدولة بهؤلاء الذين عفا عنهم وأبطرهم العفو ، وأمهلهم فغرهم الإمهال ؟ ، ومنحهم الحلم فظنوه عجزا، وآثرهم بالكرامة فقتلوه باللؤم والجحود. وهو يعجب من أناة سيف الدولة وحلمه ، ويحذره مع ذلك عاقبة ذلك الحكم والأناة ، ويثق برأيه آخر الأمر فى كلام يملؤه الوعيد (٢) .

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٥١ ، ٢٥٢ .

ولما نهض سيف الدولة لقتال الروم ، وأتم بناء مرعش ، مدحه أبو الطيب، بقصيدته البائية المشهور ، غير أنه ختم هذه البائية بأبيات لا يعرض فيها بمنافسيه من ولاة الإسلام ، وإنَّما يصرح بذمهم تصريحًا ، ويشمتهم في غير تحفظ ، ويخص المصريين بشيء من هذا الذم ، وذلك حيث يقول :

كَفَى عَجَبًا أَنْ يَعْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ بَنَى مَرْعَشًا تَبًّا لآرَائِهِمْ تَبًّا
وَمَا الفَرْقُ مَا بَيْنَ الأَنَامِ وَبَيْنَهُ إِذَا حَذِرَ المَحْذُورَ وَأَسْتَصْعَبَ الصَّعْبَا
لأَمْرٍ أَعَدَّتْهُ الخِلافَةَ لِلعِدَا وَسَمَّتْهُ دُونَ العَالِمِ الصَّارِمَ العَضْبَا
وَلَمْ تَفْتَرِقْ عَنْهُ الأَسِنَّةُ رَحْمَةً وَلَمْ يَتْرُكِ الشَّامَ الأَعَادِي لَهُ حُبًا
وَلَكِنْ نَفَاهَا عَنْهُ غَيْرَ كَرِيمَةِ كَرِيمُ الثَّنَا مَا سُبَّ قَطُّ وَلاَ سَبَّا
وَجَيْشٌ يُثَنِّي كُلِّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ خَرِيقُ رِيَاحٍ وَاجَهَتْ غُصُنًا رَطْبًا
كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مَغَارَهُ فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجْبًا
فَمَنْ كَانَ يُرْضِي اللُّؤْمَ وَالكُفْرَ مُلْكُهُ فَهَذَا الَّذِي يُرْضِي المَكَارِمَ وَالرَّبَّا (١)

فهو يسب الذين أكبروا من سيف الدولة بناءه مرعش ، وهو وأيضًا مصانع للخلافة لا يعرض لصاحبها بأذى ، غير أنه يصارح المصريين بالعداء ، فيعلن أنهم لم يتركوا ما تركوا من بلاد الشام لسيف الدولة لا كرامة ولا حبا ، وإنَّما نفاهم عنها نفيا، ثم يختم قصيدته ببيت ما أرى أنه قصد به إلاَّ معز الدولة ، فرماه بأنه يقيم حكمه على الكفر واللؤم حين يقيم سيف الدولة ملكه على ابتغاء مرضاة الله (٢).

وفي سنة ٣٤٢هـ عرض لمنافس سيف الدولة في قصيدة طويلة منها هذان البيتان اللذان كان لهما أبعد الأثر في حياة المتنبي من الناحية الأدبية والسياسية جميعًا ، وهما قوله:

---

(١) عبد الرحمن البرقوقي / شرح ديوان المتنبي / المجلد الأول / الجزء الأول / ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) طه حسين / مع المتنبي / ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

فَـدَتْكَ مُلُوكٌ لَمْ تُـسَمَّ مَـوَاضِـيًـا ... فَـإِنَّكَ مَـاضِي الشَّـفْـرَتَينِ صَـقِـيلُ

إِذَا كَـانَ بَعْضُ النَّاسِ سَـيْـفًـا لِدَوْلَةٍ ... فَفِي الـنَّاسِ بُوقَـاتٌ لَهَــا وَطُبُـولُ [1]

ومعز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين ، ما أشك فى ذلك ، فهو قد لقب يضاف إلى الدولة ، ولكنه ليس ماضيًا ولا عضبا ، وإنما هو لفظ ضخم لا يغنى شيئًا . والبيت الثانى صريح فى ذلك ، فقد جعل المتنبى أمير حلب سيفًا للدولة يحميها ويذود عنها ، على حين أن منافسه فى بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول » [2] .

وكان أثر هذا البيت عميقًا جدًا فى الشرق الإسلامى كله ، وفى بغداد خاصة ، فقد ذكر هذا البيت حين وصل أبو الطيب إلى بغداد فى آخر حياته، وعيب عليه فيها وفى غيرها من بلاد الشرق الإسلامى . وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد عابه الصاحب بن عباد .

والغريب أن النقاد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة فى إنكار هذا البيت فعابوه ، مع أنى لا أعرف هجاء أقذع ولا أوجع ، ولا سهمًا أنفذ من هذا البيت الذى هو عندى من روائع المتنبى [3] .

وكان للمتنبى عمق سياسى ، إذ نراه يعرض للأمر حين فساد الحال بين ناصر الدولة ومعز الدولة ببغداد . فقد صور ما كان من اضطراب الأمر فى الموصل، وما أدى إليه ذلك من وحشة فى حلب ومن فساد العلاقة بينها وبغداد، ثم ينتقل من هذا التصوير إلى التهديد والوعيد بما يكاد وما يراد فى عاصمة الخلافة :

يَنَـالُ أَبْعَـدَ مِنْهَـا وَهْيَ نَـاظِرَةٌ ... فَـمَـا تُـقَـابِلُـهُ إِلاَّ عَلَـى وَجَلِ

قَـدْ عَرَّضَ السَّيْفَ دُونَ النَّازِلاَتِ بِهِ ... وَظَاهَـرَ الْحَـزْمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغِـيَلِ

وَوَكَّلَ الظَّنَّ بِالأَسْـرَارِ فَـانْكَشَـفَتْ ... لَهُ ضَـمَـائِرُ أَهْلِ السَّـهْلِ وَالْجَـبَلِ [4]

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٢٩ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٣) المرجع السابق / ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ١٦٥ ، ١٦٦ .

وكأن إذاعة الأخبار بأن سيف الدولة يريد أن يزحف لنصرة أخيه لا تكفى فى إنذار بغداد ورفع الضغط عن الموصل ، فيظهر سيف الدولة أنه آخذ فى الزحف، ويطلب إلى المتنبى أن يتقدم إليه وأن يصحبه إليها ، سرا فى أكبر الظن أن يقول فى ذلك شعرًا فيقول أبو الطيب قصيدة أخرى تأتى فيها هذه الأبيات :

وَلَهُ وإنْ وَهَبَ المُلُوكَ مَوَاهِبٌ ... دَرُّ المُلُوكِ لِدَرِّهَا أَغْبَارُ
لِلَّهِ قَلْبُكَ مَا يَخَافُ مِنَ الرَّدَى ، ... وَيَخَافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيْكَ العَارُ
وَتَحِيدُ عَنْ طَبْعِ الخَلائِقِ كُلِّهِ ... وَيَحِيدُ عَنْكَ الجَحْفَلُ الجَرَّارُ
يَا مَنْ يُعِزُّ عَلَى الأعِزَّةِ جَارُهُ ... وَيَذِلُّ مِنْ سَطَوَاتِهِ الجَبَّارُ (١)

وكأن وعيد سيف الدولة هذا قد انتهى إلى غايته ، فصلح الأمر بين الموصل وبغداد (٢) . وكان المتنبى لا يحفل بولى الأمر فى العراق سنة ٣٥٣ هـ ، إذ أنه أرسل إلى سيف الدولة قصيدة لآمية طويلة وفى آخرها ذكر أبياتًا يصور حال الولاة فى بغداد وما وصلت إليه من التدنى والضعف ، وصور حالة سيف الدولة بأنها قوية - فى قتال مستمر يحب المنايا دون خوف وجبن ، وهذا ما قاله المتنبى معرضًا ومصرحًا غير حافل بمكانه من العراق وقربه من أولى الأمر فى بغداد :

لَيْسَ إلاَّكَ يَا عَلِيُّ هُمَامُ ... سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ
كَيْفَ لاَ يَأْمَنُ العِرَاقُ وَمِصْرٌ ... وَسَرَايَاكَ دُونَهَا وَالخُيُولُ
لَوْ تَحَرَّفْتَ عَنْ طَرِيقِ الأَعَادِى ... رَبَطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمْ وَالنَّخِيلُ
وَدَرَى مَنْ أَعَزَّهُ الدَّفْعُ عَنْهُ ... فِيهِمَا أَنَّهُ الحَقِيرُ الذَّلِيلُ
أَنْتَ طُولَ الحَيَاةِ لِلرُّومِ غَازٍ ... فَمَتَى الوَعْدُ أَنْ يَكُونَ القُفُولُ
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ... فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٩١ ، ١٩٢ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

قَـعَـدَ النَّاسُ كُلُّهُـمْ عَنْ مَـساعِـيْـ ـكَ وَقَـامَتْ بِهَـا القَنَا وَالنُّصُـولُ
مَـا الَّذِى عِـنْـدَهُ تُدَارُ الـمَنَايَا كَالَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّـمُـولُ[1]

يقول طه حسين « وهذا البيت الأخير سهم صائب ، قد أرسل مباشرة إلى صدر صاحب الأمر فى بغداد »[2].

- **حروب سيف الدولة ضد الروم:**

لم يكن أبو الطيب المتنبى مجرد شاعر مداح كل مهمته مدح الأمراء والملوك طلبًا لنوالهم . . . وإنما كان رجلاً يشتغل بالحياة العامة، من خلال شعره . وكان يعتبر نفسه شريكًا لسيف الدولة فى معاركه الحربية ، وكان يسعد بكل انتصار ، ويحس أنه أسهم فيه ، ويحزن لكل هزيمة ويشعر أنه يتحمل تبعتها. ومن هنا كان وصفه للمعارك بكل هذا القدر من الاحتدام والتوهج الحار من أجل هذا اعتقد أن تجربة حروب سيف الدولة . كانت تعتبر بالنسبة لأبى الطيب تجربة ذاتية على نحو ما[3].

والمتتبع للديوان يرى أن شعر المتنبى فى وصف حروب سيف الدولة وشعره فى الحزن أرقى من شعره فى المديح وشعر السرور . وسبب ذلك - على ما يبدو - أن نوع الشعر الذى يشتد اتصاله بنفس المتنبى ، يجود ويغزر ، وكان أبو الطيب فارسًا تعجبه البطولة والفروسية ، فإذا قال فى ذلك يستخرجه من أعماق بقلبه - وكانت نفسه حزينة لأنه لم ينل المجد الذى يصبو إليه ، فيحزن حزنًا عميقًا على الميت ، وهو فى حقيقة الأمر يحزن على ليلاه ، أما السرور وأما المديح فى غير الفروسية فصياغة لا تلمس إلاَّ السطح الظاهرى من قلبه[4].

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٧٦ ، ٢٧٧، ٢٧٨ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٥٣ .

(٣) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات فى عالم المتنبى / مصر الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٠ نوفمبر / ٥٣ .

(٤) أحمد أمين / المتنبى وسيف الدولة / الثقافة - السنة الرابعة - العدد ١٧١ فى يوم الثلاثاء ٢١ ربيع أول ١٣٦١هـ ، إبريل ١٩٤٢م / ١٠ . وانظر فى ذلك : فيض الخاطر / ٤/ ٨٣ ، ٨٤.

ومن هنا - كما يقول الدكتور طه حسين - إن المتنبى أنشأ فنًا جديدًا من فنون الشعر ، وأريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين والروم . ولا شك فى أن وصف الجهاد بين المسلمين والروم كان قديمًا . وقد امتاز جماعة من الشعراء فى هذا الوصف . ويكفى أن نذكر ما قاله أبو تمام ، وما قاله البحترى. ولكن البحترى وأبا تمام وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبى لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ له . ولم يقفوا عليه أكثر جهدهم كما فعل المتنبى ، ثم هم لم يشتركوا فى الجهاد كما اشترك فيه أبو الطيب المتنبى ، ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبى ، ولم يشقوا كما شقى المتنبى ، بما كانت هذه المواقع تعقب من انتصار أو اندحار . فهم كانوا يقولون الشعر فى وصف الجهاد متأثرين بفنهم وحده، أو قل بفنهم وأملهم . وكان أبو الطيب يقول متأثرًا بما كان يرى قبل كل شىء ، ثم بالفن والأمل بعد ذلك .

وعلى هذا نفهم السبب فيما نحسه من تأثر خاص حين نقرأ وصف أبى الطيب لهذا الجهاد بين المسلمين والروم ، تأثر لا نجده حين نقرأ ما كان يقولوه أبو تمام للمعتصم أو البحترى للمتوكل . فأنت تجد عند هذا وذاك فنًا وجمالاً ، ولكنك تجد فنًا وجمالاً يكادان يخلوان من الحرارة والنشاط .

وإذا قرأنا وصف المتنبى لهذا الجهاد وجدنا فيه نارًا تضطرم ، تمس قلوبنا حتى يشيع فيه ، وإذا بقلوبنا تضطرم أيضًا حماسة ونشاطًا [1] .

« ومصدر هذا أن المتنبى فى هذا الوصف لم يكن يصدر عن مدح سيف الدولة والرغبة فى إرضائه وإثارة إعجابه بنفسه وإعجاب الناس به ، كما كان يفعل أبو تمام والبحترى وإنما هو يصدر عن هذا ويصدر معه عما كان يثور فى نفسه من العواطف . وما كان يدور فى رأسه من الخواطر حين كان يشهد الموقعة ويتبع العدو منتصرا أو يولى أمامه منهزمًا .

وكان يصدر مع هذا وذاك عن انفعالات المسلمين التى كانت تثور حوله فى أثناء الاستعداد للحرب وفى أثناء الاشتراك فى المعركة ، وبعد الانتصار أو الفرار.

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ١٧٣ ، ١٧٤ .

ثم كان المتنبى يصدر بعد هذا كله عن هذا الانفعال الآخر الذى كان يشهده حين كان يثور فى نفس العدو منهزمًا ومنتصرًا ، فقد كان المتنبى يمدح سيف الدولة من غير شك بهذا الشعر ، ولكنه لم يكن يصور سيف الدولة وحده، وإنَّما كان يصور معه نفسه . ويصور جماعة المسلمين المجاهدين . ويصور جماعة الروم أيضًا » (١).

ومن هنا نجد فى وصف المتنبى لحروب سيف الدولة عند الثغور فتوة عربية اجتماعية ، إنَّ صح هذا الوصف . وترى هذه الفتورة العربية الاجتماعية تشيع فى وصف المتنبى حية قوية مضطرمة شديدة الاضطراب ، كأن الكهرباء لا تكاد تتصل بهذا الشعر حتى ينتقل إليك ما صور فيه المتنبى من حياة هؤلاء المجاهدين ، وما كان يملؤها من نشاط فيه الابتهاج والأمل . وفيه الابتئاس والاكتئاب ، وفيه الثقة بالنفس والإيمان بالحق والارتفاع عن صغائر الأمور دائمًا (٢).

لقد نظر المتنبى فرأى دولة ضخمة كالدولة الإسلامية لاهية ساهية ، مشغولة بما يفسد حياتها من العبث واللهو ومن الاضطراب والخصومة ، ورأى حاكمًا عربيًا قد بث مع من حوله من هؤلاء العرب الذين أزيحوا عن ملكهم وردوا عن سلطانهم ، لهذه الإمبراطورية الضخمة ، فحمى الحدود وذاد عن حوزة الإسلام ، واقتحم عليها ملكها حتى أبعد فى الغارة أحيانًا - وإذا رأى المتنبى هذا كله ، وامتلأت نفسه إعجابًا وتيها فتغناه غناء وأبقاه ، أيمكن أن يوصف بأنه مسرف متكثر يتجاوز الحق ويفسد التاريخ ؟! كلا ! إنه لا يتجاوز الحق ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين (٣).

ولقد اشترك المتنبى فى حروب سيف الدولة ووصفها فى كثير من قصائده، وتلك الحروب وما يتعلق بها هى نتيجة لتطور تاريخى يرجع إلى الأحداث التى وقعت منذ فجر الإسلام ، ولذلك يجب أن ندرس نحن المستشرقين جميع

---

(١) المرجع السابق / ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) المرجع السابق / ١٧٣ ، ١٧٤ . وانظر فى ذلك : مصطفى الشكعة / سيف الدولة الحمداني أو مملكة السيف ودولة الأقلام / ٢٠٧ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ١٧٦ ، ١٧٧ .

الوثائق التى أدت إلى تلك الحروب ، قبل أن نفحص ما قال المتنبى فيها . إنّ شئنا فهم تأثير المتنبى فى العالم العربى حتى يومنا هذا [(١)] .

وقد كان المتنبى من أعظم الشعراء المتغنين بالحرب البيزنطية دون منازع، وقد أهله لذلك كبرياؤه الفطرى ، وحبه المفرط للمجد ، لأن يغدو الشاعر الذى يصطفيه لأمجاده أمير ماجد ، أمير شغله الشاغل الحرب ، وقد ملأ أسماع العالم الإسلامى والعالم البيزنطى بقرقعات سيوفه وصخب غاراته البطولية ودويها فى تسعة أعوام من ٣٣٧ هـ ، ٩٤٨م حتى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦م التى تناظر فترة أمجد الغزوات الحمدانية ، وقد كان المتنبى الصديق الذى لا يفارق سيف الدولة فى غاراته المتعددة ، وأن المعارك التى خاضها سيف الدولة فى ساحة الوغى ، والتي دارت رحاها فى آسيا الصغرى وسوريا- وبلاد ما بين النهرين وبسالة سيف الدولة وجرأته ونجاحه ، أوحت إلى المتنبى بكثير من قصائده التى هى من أفضل قصائده ، وأحظاها بالإعجاب [(٢)] .

إنّ القصائد التى كرسها المتنبى لكل واحد من معارك سيف الدولة هذه تسمح لنا أن نتابع على الخريطة سير الجيوش . ونرى أحيانًا أن مواقع الجبهة العربية البيزنطية التى أشار إليها المتنبى فى أشعاره ، لم يذكرها أى جغرافى أو أى مؤرخ قبله ، بل وبعده والفضل يعود إلى أبى الطيب فى تعيين هذه المواضع، ولو على سبيل التقريب أحيانا ، وهكذا نتعرف على درب القلة ودرب الموازر ، فى جنوب منطقة ملطية ، أو حصن الران على الضفة اليسرى للفرات ، بين عرقنين وسمياط وسمنين على البحيرة التى تدعى اليوم كولاجيك CodjiK فى جنوب غربى خربوط .

ويذكر ياقوت فى « معجم البلدان » الجغرافى المتنبى كل لحظة وأحيانًا لا يذكره إلاه . فهو إذن مصدر استعلامات عن طوغرافية المناطق التى اخترقها سيف الدولة الحمدانى ، الذى ينبغى إدخاله فى الحساب رغم ضآلة وقته .

---

(١) د. بيتر باخمان / الشاعر أبو الطيب المتنبى كما يراه المستشرقون الألمان ترجمة كلية دار العلوم / ط جامعة القاهرة / ١٩٦٨ / ٥ .

(٢) ماريوس كنار / المتنبى والحروب البيزنطية العربية . الأهمية التاريخية لأشعاره / ترجمة د. أكرم فاضل / بغداد - المورد المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى - بغداد ١٩٧٧م / ١٣٩٧هـ/ ٧٤ .

ولأشعاره كذلك أهمية تاريخية لا تنكر إذ إنها وثائق تاريخية معاصرة تشاهد عيان معظم معارك سيف الدولة ، وألف غـالبًا مقطوعة فى الموضع نفسه ، وفى اللحظة التى حـدثت فى بحرهـا هذه الواقعـة أو تلك أو على الأقل بعد الحـدث بقليل عودته مثلاً من إحـدى المعارك . فأشعاره مصدر تزداد أهمـية بعدم وجود مصـدر آخر معاصـر فى نفس الموضـوع ، لهذه الفترة وهذه الـمنطقة فى تاريخ القرن العـاشر . إذَنْ فأشـعاره هذه نافعـة أكثر من مـرة واحدة ، لتعـزيز الوقائع المروية فى الحـكايات التاريخيـة التالية عليـه وتحديدها ، وهى فـضلاً عن ذلك تستلهم المتنبى وشراحه .

إنَّ أشعار المتنبى تجهزنا كذلك بتفصيلات لا يعرفها المؤرخون المحترفون أو أنهم أهملوها ، وتسمح لنا هذه الأشعار ببعث الـحياة مجددا فى الحوادث مع تحديدات أكـثر حيـوية وأشمل وأعمق ، إنَّهـا تحمل إليهـا حقبة ثمينة مفعـمة بالملامح العجيبة اللطيفة ، التى بفضلـها نستطيع تشخيص مظهر مختلف كوارث الحرب العظمى للقرن العاشر وكذلك تبين سيـماتها . وليس من قبيل المبالغة أن نقول: إنَّ أشعـار المتنبى تعطينا الانطباع البصـرى والسمعى والحقـيقى للزحوف والمعارك والتعقيبات والمجازر ، أكثر مما تعطينا الحكايات التاريخية (١) .

وربما يقـال : إنَّ أبا الطيب المتـنبى أغرق وأسرف ، وعظـم من أمر هذه المعارك أكثر مـما ينبغى ، وأضاف إليها من الحظر أكثر مـما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة فى هذه المعارك ، ولم يعن إلاَّ بتصوير الانتصار فيها . ولكن يجب أن نتفق فلم يكن المتنبى محققًا ولا مـؤرخًا ، وإنما كان شاعرًا يشترك فى هذا الجهـاد ، يشقى بآلامه ويذوق لذته . فـالذين يطالبون هذا الشاعـر بالتاريخ وتصوير الحق كمـا وقع، يسرفون على أنفسـهم ، ويسرفون على الشعـر نفسه .

---

(١) ماريوس كنار / المـتنبى والحرب البيـزنطية . الأهميـة التاريخيـة لأشعاره / ترجمـة د. أكرم فـاضل/ المورد المـجلد السـادس - العدد الثـالث . عـدد خاص أبو الطيـب المتنبى بغـداد ١٩٧٧م، ١٣٩٧ هـ / ٧٥ . وانظر فى ذلك : كـود فرمـويين / المـتنبى وأسبـاب مجده . الأهميـة التاريخيـة لأشعاره / ترجـمة د. أكرم فـاضل / المورد - المجلد السـادس - العدد الثالث، بغداد ١٩٧٧ م ، ١٣٩٧هـ / ٧٠ . وزكى المحـاسنى / شعر الحرب فى أدب العرب فى العصـرين الأموى والعبـاسى إلى عهد سـيف الدولة / القاهرة ط دار المـعارف ١٩٧٠م / ٢٧٤ .

وأين كانت تقع حرب طروادة التى وصفت الإلياذة طوراً من أطوارها من هذه الحروب التى شهدها المتنبى ووصفها تسعة أعوام كاملة ! فهل من الحق أن نعيب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ، أم يحمد هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الأفراد والجماعات التى اشتركت فى هذه الحروب أبدع تصوير وأروعه ؟

وبعد فهل من الحق أن نقول : إنَّ المتنبى أسرف بعض الإسراف ، وتكثر حين كان يجب الاقتصاد ؟ فمن الواجب أن نلاحظ أن معظم البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت كانت منصرفة إلى نفسها ، مشغولة بأمورها الخاصة عن هذه الحدود الرومية ، وأن هذا القسم من الجزيرة وشمال الشام كان وحده الناهض بحماية هذه الحدود ! ينهض بذلك على قلته وضآلة مصادره العسكرية والمالية ونهض بذلك نهوضًا حسنًا يلقى فيه النصر ، ويلقى فيه الهزيمة فى بعض الأحايين . ولكن أمام أى قوة كان هذا القسم من شمال سوريا يثبت فى أثناء هذا الجهاد المتصل العنيف ؟ أمام الإمبراطورية البيزنطية الضخمة التى مهما يكن من أمرها ، فليس من الممكن أن نفكر فى الموازنة بينها وهذا الطرف الصغير اليسير من أطراف المسلمين [١] .

وقد كان المتنبى يشارك فى هذه المعارك بنفسه وقلبه وخياله ، ولو أنه تجرد فى حماسته من نفسه التى كانت همه الشاغل فى كل ما يقوله ويفعل لسد حاجة الشعر العربى إلى الملحمة [٢]، وفى شعره هذا ما يغنى عن أى ملحمة إذ إنه استطاع أن يصور هذه المعارك كما هى ، لأنه شارك وحارب فيها ، ومن هنا استبعد الخيال والحكايات عن شعره وهى التى جعلت الملاحم فى أغلبها تنحاز للخيال أو الحكايات .

وقد مدح المتنبى سيف الدولة بقصيدة عند منصرفه من الظفر بحصن برزويه وعودته إلى أنطاكية ، وقد جلس فى فازة بين الديباج عليها صورة لملك الروم وصورة وحش وحيوان يقول مطلع القصيدة :

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) درويش الجندى / الشعر فى ظل سيف الدولة / ٢١٨ .

وَفَـاؤ كَمَـا كَالرَبْـعِ أَشْجَـاهُ طَاسِمُـهْ بِأَنْ تُسْعِـدَاَ والدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ (١)

وفى هذه القصيدة تظهر القوة فى الأسلوب ، والفتك القوى بجيوش الروم:

وَمَلَّ الـقَنَا مِـمَّـا تَدُقُّ صُـدُورَهُ وَمَلَّ حَـدِيـدُ الهِنْد مِـمَّـا تُـلاطِمُـهْ

سحَـابٌ منَ العِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَـهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ (٢)

وهو يصف جيش سيف الدولة بالشجاعة والقوة ، لفتكه بجيوش الروم التى اعتادت على أن يوقع بها سيف الدولة الهزيمة تلو الهزيمة ، لأنها كثيرة العدوان على الحدود العربية الإسلامية ، وقد كثر القتلى فى معسكر الروم حتى أن العقبان قد رافقت الجيش حتى تشبع من قتلى الروم . وتراه يقول فى هذه القصيدة فى وصف شجاعة سيف الدولة :

وَكُنْتُ إِذَا يَمَّـمْتُ أَرْضًـا بَعِيْـدَةً سَـرَيْـتُ وكُنْتُ السِّـرَّ وَالـلَّيلُ كَـاتِـمُـهْ

لَقَـدْ سَلَّ سَـيْفَ الـدَّولة مُـعْلِمًـا فَلاَ المَـجْدُ مُخْفِـيه وَلاَ الضَّرْبُ ثَـالِمُهْ

عَلَى عَـاتِقِ الـمَلْكِ الأَغَـرِّ نِجَـادُهُ وَفِى يَدِ جَـبَّـارِ السَّـمَـاوات قَـائِمُـهْ

تُحَـارِبُهُ الأَعْـدَاء وَهْيَ عَـبِـيْـدُهُ وَتَدَّخِـرُ الأَمْـوالَ وَهْيَ غَنَـائِمُـهْ

ويَسْـتكبِـرُون الدَّهْرَ وَالـدَّهْرُ دُوْنَهُ وَيَسْتَـعْظِمُونَ المَـوتَ وَالمَوتُ خَـادِمُهْ

وَإِنَّ الَّذى سَـمَّى عَلِيّـا لَمُنْصِفٌ وَإِنَّ الَّذى سَـمَّـاهُ سَيْـفًـا لاَ ظَالِـمُـهْ

وَمَـا كُلُّ سَـيْفٍ يَقْطَعُ الهَـامَ حَـدُّهُ وَتَقْطَـعُ لَزْبَاتِ الزَّمَـانِ مَكَارِمُـهُ (٣)

فهو سيف قلده إياه خليفة المسلمين فى العراق ، ويتخذه سنداً ودرعًا عند الشدائد التى تتعرض لها الدولة الإسلامية فى خروج الأعداء فى الداخل والخارج، وقد أنصفه الذى سماه عليا ، لأنه مرتفع القدر عظيم الأمجاد والمعالى، وقد ظلمه الذى سماه سيفًا جماداً لا يعقل ، فهو أفضل من السيف ، لأن السيف ينبو عن الضربة وهو لا يحظى فى ضربه الأعداء .

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع٤٣ .

(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع/ ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع/ ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

ومن أشهر معارك سيف الدولة مع الروم معركة « خرشنة » وقد حدثت فى سنة ٣٣٩ هـ إذ إن سيف الدولة ذا الروم وأمعن فى بلادهم وغنم غنائم أثقلت جنوده، وفتك بالروم فتكًا ذريعًا ، ودك حصونهم ، وكان المتنبى يصحب سيف الدولة في هذه الغزوة وقد قال المتنبى فى هذه المعركة قصيدتين ، وهى القصيدة التى قالها فى سينوس سنة ٣٣٩ هـ واصفًا جيش سيف الدولة بالقوة والشجاعة ومطلع القصيدة الأولى :

لِهَذَا اليَوْمِ بَعْدَ غَدٍ أَرِيجُ وَنَارٌ فِى العَدُوِّ لَهَا أَجِيجُ (١)

ومطلع القصيدة الثانية :

غَيْرِى بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا (٢)

وفى هذه القصيدة نلحظ ما صور المتنبى من احتقاره البيزنطيين ، إذ يرى أنهم جبناء عاجزون حتى عندما يستفيدون من الكمائن المهيأة سلفًا ، عن صد المسلمين الأسود ، ولا يحرزون انتصارات إلاَّ على قوات منهكة من التعب ولا يظفرون إلاَّ بقائد خذله جنوده ، وحتى فى هذه الحالة يتكبدون خسائر أكثر مما يتكبدها خصومهم ، أما الذين يقعون فى أسرهم فهم جثث والروم ليسوا سوى ضباع تفترس الموتى . ومهما صنعوا فإنَّهم سيظلون فريسة للمسلمين حتى لو لاذوا بمعاقل الوعول ، لن يفلتوا من الضربات التى تنتظرهم وهم أنفسهم يستمطرون البركات من الأمير الذى ذبحهم (٣) .

قُلْ لِلدُّمُسْتُقِ إِنَّ المُسْلِمِينَ لَكُمْ خَانُوا الأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِى دِمَائِكُمُ كَأَنَّ قَتْلاَكُم إِيَّاهُمُ فَجِعُوا
ضَعْفَى تَعِفُّ الأَيَادِى عَنْ مِثَالِهِمِ مِنَ الأَعَادِى وَإِنْ هَمُّوا بِهِمْ نَزَعُوا
لاَ تَحْسَبُوا مَنْ أَسَرْتُمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ فَلَيْسَ يَأْكُلُ إِلاَّ المَيِّتَ الضَّبُعُ

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق / ٢/ ٢٢١ .
(٣) ماريوس كنار / المتنبى والحرب البيزنطية - الأهمية التاريخية لأشعاره / ترجمة د. أكرم فاضل/ المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - بغداد ١٩٧٧ م ، ١٣٩٧هـ / ٨٠ .

هَلاَّ عَلَى عَقَبِ الوَادِى وَقَدْ صَعِدَتْ — أُسْدٌ تَمُرُّ فُرَادَى لَيْسَ تَجْتَمِعُ

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلَّ سَلْهَبَةٍ — وَالضَّرْبُ يَأخُذُ مِنْكُمْ فَوقَ مَا يَدَعُ [1]

. . . .

وَمَا الفَرَارُ إِلَى الأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ — تَمْشِى النَّعَامُ بِهِ فِى مَعْقَلِ الوَعِلِ [2]

وَمَا الجِبَالُ لِنُصْرَانٍ بِحَامِيَةٍ — وَلَوْ تَنَصَّرَ فِيهَا الأَعْصَمُ الصَّدَعُ [3]

عَلَى وَجهِكَ المَيْمُونِ فِى كُلِّ غَارَةٍ — صَلاَةٌ تَوالَى مِنْهُمُ وَسَلاَمُ [4]

وكان المتنبى يستنهض المسلمين للانتقام من الروم فيقول :

أَأَطْرَحُ المَجْدَ عَنْ كِتْفِى وَأَطْلُبُهُ — وأَتْرُكُ الغَيْثَ فِى غِمْدِى وَأَنْتَجِعُ [5]

وانظر إليه كيف خلص إلى سيف الدولة بهذا البيت بجمع القوة والظرف معا فقال :

بِالجَيْشِ تَمْتَنِعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمُ — وَالجَيْشُ بِابْنِ أَبِى الهَيْجَاءِ يَمْتَنِعُ [6]

ثم انظر إليه كيف يصف غارة سيف الدولة حين انقض الروم كالصاعقة فلم يلبثوا له . وانظر كيف يلائم فى السرعة بين الوصف والموصوف ، فيصل إلى خرشنة كما وصل إليها الأمير فى غير مهل ، ولاأناة ، ثم يقيم عليها بعد ذلك كما أقام الأمير مكرمًا منتصراً مباهيًا بالعزة والانتصار :

قَادَ المَقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهَلٌ — عَلَى الشَّكِيمِ وَأَدْنَى سَيْرِهَا سَرِعُ

لاَ يَعْتَفِى بَلَدٌ مَسْرَاهُ عَنْ بَلَدٍ — كَالمَوتِ لَيْسَ لَهُ رِىٌّ وَلاَ شَبِعُ

حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةٍ — تَشْقَي بِهَا الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالبِيَعُ

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوان أبى الطيب المتنبى / تقديم وتحقيق .د. عبد الوهاب عزام / ٢٧٥ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٢٣٣ .

(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تقديم وتحقيق . عبد الوهاب عزام / ٣١١ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٢٢٢ .

(٦) المصدر السابق / ٢ / ٢٢٣ .

لِلسَّبْي مَا نَكَحُوا، وَالقَتْلِ مَا وَلَدُوا   وَالنَّهْبِ مَاجَمَعُوا ، وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا
مُخْلى لَهُ المَرجُ ، مَنْصُوبًا بِصَارِخَةٍ   لَهُ المَنَابِرُ ، مَشْهُودًا بِهَا الجُمَعُ
يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمِ   حَتَّى تَكَادُ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ (١)

ويمضى أبو الطيب فى وصف ما كان للمسلمين من قوة وبأس . وما كان يملأ قلوب الروم من جزع وفزع، وما أحدث المسلمون من قتل ، وما تركوا فى نفوسهم من حزن . يصف هذا كله مستلذا هذا الوصف ، مصطنعا فيه الإطالة والتنصل ، كأنه قد أشرف على البيزنطيين من أكمة مرتفعة عند خرشنة . فهو يلقى عليهم فى ذلك خطبة بشعة وقوامها النار والحديد والضرم والدماء (٢) .

وفى سنة ٣٤٠ هـ نهض سيف الدولة لـلقاء الروم ، وكانت نيته أن يغسل عن المسلمين وعن نفسه شر الهزيمة التى أصابتهم فى العام الماضى ، فتهيأ للزحف من المكان نفسه الذى عرض فيه الجيش سنة ٣٣٩ هـ ، لكن المسلمين علموا أن جيش العدو ضخم كثير العدد فهابوه . وتقدم سيف الدولة إلى أبى الطيب أن يثبت قلوبهم ويحرضهم على القتال فقال:

نَزُورُ دِيَارًا مَا نُحِبُّ لَهَا مَغْنَى   وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرُ سُكَّانِهَا الإِذْنَا (٣)

وقد أنشدها المتنبى أمام جماعة المسلمين ، فرد إلى قلوبهم الثقة وأثار الحمية ، ثم ندفع بهم سيف الدولة كأنه السيل ، فاكتسح العدو أمامه اكتساحا ، وأمعن فى الغزو . وكان يريد أن يصل إلى خرشنة ، ولكن الشتاء أقبل وسقط الثلج ، فلم يستطع سيف الدولة ، أن يتقدم فعاد بجيشه مظفرا هذه المرة (٤) .

ويعتقد المؤرخ أن فى قصائد المتنبى المكرسة لحرب البيزنطية ، التعبير عن شعور الإمارة الحمدانية فى حلب بالقوة ، ذلك الشعور الذى قد تثلم حده وقل عزمه فى الأمكنة الأخرى ، يقول المتنبى :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٢٢٤ ، ٢٢٥ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٣٣ . ومصطفى الشكعة / سيف الدولة الحمدانى ، أو مملكة السيف ودولة الأقلام / ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١٦٥ .
(٤) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

تَعُدُّ القُرَى والمس بنا الجيش لمسة | بنَارٍ إلَى مـا تشتـهى يدك اليُـمْنَى
فَـقَـدْ بَرَدَتْ فَـوْقَ الـلُّقَـانِ دمَـاؤُهُمْ | وَنَحْنُ أُنَـاسٌ نُتْـبِعُ البَـارِدَ السُّـخْنَا
وَإنْ كُنْتَ سَيْفَ الدَّولَةِ العَـضْبَ فِيهِمِ | فَدَعْنَا نكُنْ قَـبْلَ الضِّرَابِ القَنَا اللُّدْنَا (١)

ثم ألحق المتنبى قصيدته هذه بقصيدة أخرى مطلعها :

عَـوَاذِلُ ذَاتِ الـخَـالِ فِىَّ حَـوَاسِـدُ | وَإنَّ ضَـجِيْجَ الخَـوْدِ مِنِّى لَمَاجِـدُ (٢)

وفى هذه السنة كثر الأسرى من الروم عند سيف الدولة ، وكثر أسرى المسلمين عند الروم ، وأقبل رسول ملك الروم فى آخر هذه السنة يسفر فى الفداء، فاستقبله سيف الدولة فى حفل فخم يريد أن يلقى الرعب فى قلبه ، وجاء غلمان سيف الدولة بلبؤة مقتولة فألقوها فى طريق السفراء ، فلما رأى اللبؤة وأشبالها (٣) ارتجل هذه الأبيات الثلاثة :

لَقِـيْت العُـفَـاةَ بِآمَـالِـهَـا | وَزُرْتَ العُـدَاةَ بِـآجَـالِـهَـا
وَأَقْـبَلَـت الرُّومُ تَـمْـشِـى | إلَيْكَ بَـيْنَ اللُّيُـوثِ وَأَشْـبَـالِـهَـا
وَإذَا رَأَتِ الأُسْـدَ مُـسْـبِـيَّـةً | فَـأَيْنَ تَـفِـرُّ بِـأَطْفَـالِـهَـا (٤)

ثم قام بين يدى الأمير فأنشده قصيدته التى مطلعها:

لِعَـيْنَـيْكَ مَـا يَلْقَى الفُـؤَادُ وَمَـا لَقِى | وَلِلحُبِّ مَـا لَمْ يَبْـقَ مِنِّى وَمَـا بَقِى (٥)

وفى هذه القصيدة يقول :

وَخَلَّى الرِّمَـاحَ السَّـمْهَرِيَّةَ صَـاغِـرا | لأَدْرَبَ مِنْـهُ بِالـطِّعَـانِ وَأَحْـذَقِ
وَكَـاتَبَ مِنْ أَرْضٍ بَعِـيْـدٍ مَـرَامُـهَـا | قَـرِيْبٍ عَلَى خَـيْلٍ حَـوَالَيْكَ سُـبَّقِ

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٣٩٠ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتحقيق د. عبد الوهاب عزام / ٢٧٨ . وفى الديوان أن هذه نظمت فى ذى القعدة سنة ٣٤١ هـ .
(٥) أبو الطيب المتنبى / ديوانه تقديم وتصحيح د. عبد الوهاب عزام / ٢٧٨ .

وَقَـدْ سَارَ فِى مَسْـرَاكَ مِنْهَا رَسُولُهُ		فَـمَـا سَـارَ إلاَّ فَـوقَ هَـامٍ مُـفَلَّقِ
فَلَـمَّـا دَنَـا أَخْـفَـى عَلَيْـهِ مَكَـانَهُ		شُـعَـاعُ الحَـدِيدِ الـبَـارِق المُـتَـأَلِّقِ
فَأَقْـبَلَ يَمْشِى فِى البِـسَاطِ فَـمَا دَرَى		إِلَى البَـحْرِ يَمْـشِى أَمْ إِلَى البَـدْرِ يرْتَقِى؟
وَلَمْ يَثْنِكَ الأَعْـدَاءُ عَـنْ مُـهَـجَـاتِهِمْ		بِمْـثْلِ خُـضُـوعٍ فِى كَـلاَمٍ مُنَمَّقِ [١]

فـهو يقـول : إنَّ الملك خلـى الرماح ورجع صـاغـرا إلى سـيف الدولة لطلب الفداء، وقد مشى علـى هام الجنود الروم ، وقد مشى والطريق قد أخفتـها لمعان السيوف والرمـاح وقد مشى هذا الرسول بين سـماطين ، فتصور مـنك البحر فى السخاء والبدر فى العلا ، وليس يصرفك الأعداء قتلهم .

وفى أوائل سنة ٣٤١ هـ زحف سيف الدولة على مـرعش فأزال عنها الروم وأقام حصنها وعاد مظفراً فقال المتنبى فى ذلك بائيته التى أولها :

فـديـنـاك من ربعَ وإنْ زدتنـا كـربا		فإنَّك كنت الشرق لـلشمس والغربا [٢]

وفى عام ٣٤٢ هـ كانت مـعركة الثغور عندما بـلغ سيف الدولة أن العدو فى بلد المسلمين فخرج إلى بلاد دلوك وصنجة وعرفة وموزار ، وملطية وقباقب وهنزيط وسمنين ، وهو يعمل سيوفه يلقى الروم بالمعركة تلو المعركة حتى انهزموا وذاقوا مرارة الخيبة والفشل وكان يقود الجيـوش البيزنطية « قسطنطين » بما داس فوكاس القـائـد وهو رأس الجـيش الأعظـم زمن إمـبـراطور الروم قـسطنطين الـسـابع البورفيروجينى وثالث أولاد قسطنطين برداس فوكاس وكان لا يزال شابا ففر القائد وترك ابنه أسيرا فى أيدى الحمدانيين [٣] .

وقال قصيدته اللامية التى مطلعها :

لَيَـالِىَّ بَعْـدَ الظَّاعـنِينَ شُكُولُ		طِوَالٌ وَلَيْـلُ العَـاشِـقِـيْـنَ طَوِيلُ [٤]

---

(١) والبقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٥٦ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢١٧ .

ويقول المتنبى فى وصف المعركة وقد أسر ابن الدمستق :

فَـودَّعَ قَـتْـلاهُمْ وَشَـيَّعَ فُلَّهُمْ ... بِضَرْبٍ حُزُونِ البَيْضِ فِيهِ سُهُولُ
عَلَى قلْبِ قَسْطَنْطِينَ مِنْهُ تَعَجُّبٌ ... وَإِنْ كَانَ فِى سَاقَيْهِ منه كبول
لعلَّكَ يومًا يَا دُمُسْتُقُ عَائِدٌ ... فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يَئُولُ
نَجَوتَ بإِحدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً ... وَخَلَّفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ
أَتُسْلِمُ للخَطِّيَّةِ ابْنَكَ هَارِبًا ... ويَسْكُنُ فِى الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ
بوَجْهِكَ مَا أَنْسَاكَهُ مِنْ مُرِشَّةٍ ... نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ
أَغَرَّكُمُ طُولُ الجُيُوشِ وَعَرْضُهَا ... عَلِىٌّ شَرُوبٌ لِلجُيُوشِ أَكُولُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلَّيْثِ إِلاَّ فَرِيسَةً ... غَذَاهُ وَلَمْ يَنْفَعْكَ أَنَّكَ فِيلُ (١)

وفى سنة ٣٤٣هـ أقبل سفراء الروم ، وأدخلوا على سيف الدولة فى حفل فخم، فأنشد المتنبى رائيته التى يقول فيها :

ظُلْمٌ لِذَا اليَوْمِ وَصْفٌ قَبْلَ رُؤْيَتِهِ ... لاَ يَصْدُقُ الوَصْفُ حَتَّى يَصْدُقَ النَّظَرُ (٢)

وفيها يذكر عزة سيف الدولة وعفوه عن هؤلاء الروم يقول المتنبى :

اليَوْمَ يرْفَعُ مَلْكَ الرُّومِ نَاظِرُهُ ... لأَنَّ عَفْوَكَ عَنْهُ عِنْدَهُ ظَفَرُ
وَإِنْ أَجَبْتَ بِشَيْءٍ عَنْ رَسَائِلِهِ ... فَمَا يزَالُ عَلَى الأَمْلاَكِ يَفْتَخِرُ
قَدِ اسْتَرَاحَتْ إِلَى وَقْتٍ رِقَابُهُمُ ... مِنَ السُّيُوفِ وَبَاقِى القَوْمِ يَنْتَظِرُ
وَقَدْ تُبَدِّلُهَا بِالقَوْمِ غَيْرَهُمُ ... لِكَىْ تَجِمَّ رُؤُوسُ القَوْمِ وَالْقَصَرُ (٣)

وكأنه لم يعلم بما كان السفراء يحملون فى هذه السفارة فلما انتهى الحفل عرف أنهم كانوا يسعون فى هدنة فقال لاميته التى مطلعها :

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٢٠١ .
(٣) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٢٠١ ، ٢٠٢ .

دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرُّوْمِ هَذِي الرَّسَائِلُ ... يَرُدُّ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيُشَاغِلُ (١)

وما أحسن سخريته بهذا السفير الذى طلب الهدنة فوصفه بالجبن والاستكانة ووصف شجاعة سيف الدولة . كما سخر بهذه الرسائل التى أتت من ملك الروم.

هِيَ الزَّرَدُ الصَّافِى عَلَيْهِ وَلَفْظُهَا ... عَلَيْكَ ثَنَاءٌ سَابِغٌ وَفَضَائِلُ
وَأَنَّى اهْتَدَى هَذَا الرَّسُولُ بِأَرْضِهِ ... وَمَا سَكَنَتْ مَذْ سِرْتَ فِيْهَا القَسَاطِلُ
وَمِنْ أَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِى جِيَادَهُ ... وَلَمْ تَصْفُ مِن مَزْجِ الدِّمَاءِ المَنَاهِلُ
أَتَاكَ يَكَادُ الرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ الذُّعْرِ مِنْهُ المَفَاصِلُ
يَقَوِّمُ تَقْوِيْمُ السَّمَاطِيْنَ مَشْيَهُ ... إِلَيْكَ إِذَا مَا عَوَّجَتْهُ الأَفَاكِلُ
فَقَاسَمَكَ العَيْنَيْنِ مِنْهُ وَلَحْظُهُ ... سَمِيُّكَ وَالخِلُّ الَّذِى لاَ يُزَايِلُ
وَقَبَّلَ كَمَّا قَبَّلَ التُّرْبَ قَبْلَهُ ... وَكُلَّ كَمِيٍّ وَاقِفٌ مُتَضَائِلُ (٢)

ووصف المتنبى معركة الحدث الحمراء لكثرة ما أريق فيها من دماء البيزنطيين ، وكانت الروم قد خربوا مكانها المنيع سنة ٣٣٧ هـ فجاءها سيف الدولة لإعادة بنائها سنة ٣٤٣ هـ فباشر بيده خط أساسها فدهمه « برداس فوكاس » بعد يومين بجيش من البيزنطيين فيه خمسون ألفا من الرجالة والفرسان وفيهم الأرمن والبلغار والروس وكان معه ابنه « نيسفور فوكاس » فحارب الحمدانيون البيزنطيين من طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن مع سيف الدولة غير خمس مئة من حرسه الخاص فخفقت الحماسة فى صدور رجاله حين رأوه يشق الصفوف إلى الدمستق ، ويقول : «شلمبرجة» لقد انهزم الروم وخسروا ثلاثة آلاف قتيل وأسر سيف الدولة جمعًا من الأراكنة والبطارقة فظلوا فى أيدى العرب وقتل فى هذه الموقعة « ابن بنت برداس وصهره كودوس الأعور » وأسر قائد بلدى ليكاندوس وتزامندوس وسجن أما نيسيفور فوكاس وكان يومئذ أحد القواد فى جيش أبيه فلم ينج إلاَّ

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٣٢ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

باختفائه فى نفق حتى إذا سطا الليل فر تحت جنح الظلام ولحق بفلول جيشه المنقطع بالدرت المتجسم نحو القسطنطينية (١) .

وبعد هذا النصر العظيم للمسلمين قال المتنبى قصيدته التى مطلعها :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِى العَزَائِمُ وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ (٢)

وقد لخص المتنبى مغزى هذه الحروب بين سيف الدولة وملك الروم بأنها ليست حربًا دنيوية بين ملك وملك ، ولكنها فى أساسها حرب بين التوحيد والشرك (٣) .

وكان من نتيجة المعركة السالفة أن أكثر الأسرى من الروم البيزنطيين فى يد سيف الدولة من البطارقة والجنود والأشراف والقادة الكبار ، فجاء قلة من فرسان سيف الدولة من الثغور الإسلامية ومعهم رسول الروم يطلب الهدنة فأنشد المتنبى قصيدته التى مطلعها :

أراع كذا كل الأنام ، همام وسح له رسل الملوك غمام (٤)

وكان ذلك لثلاث عشرة مضين من محرم سنة ٣٤٤ هـ ، ويبدو أن سيف الدولة كان راغبًا الهدنة ، لأن ثورة الأعراب القيسية قد كانت فى هذا الوقت مشتعلة(٥) .

وفى هذه السنة نقض الروم الهدنة فيما يظهر ، وأغاروا على حصن الحديث يريدون أن يستردوه ، ولكن سيف الدولة نهض لهم ، فلما علموا بمقدمه عن الحصن عادوا إلى ديارهم . فقال المتنبى لاميته التى أولها :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هكذا هكذا ، وإلا فلا ، لا (٦)

وفى المحرم سنة ٣٤٥هـ علم سيف الدولة أن الروم قد هموا بالغارة على آمد فنهض إليهم ، فلما علموا بقدومه عادوا إلى ديارهم . ولكنه لحق بهم وأمعن فى

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٦ ، ٢٢٧ . ومحمد حسن عبد ربه/ الحرب في شعر المتنبى / ١ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٩٤ .

(٣) عز الدين إسماعيل / فى الشعر العباسى . الرؤية والفن / ط دار المعارف بمصر ١٩٨٠م / ١٦١ .

(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتصحيح عبد الوهاب عزام / ٣١٠ .

(٥) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٧ .

(٦) ط المرجع السابق / ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

قتالهم حتى هزمهم على تل البطريق ودمر قلاعًا وحصونًا وعاد . غير أنه وجد الدروب قد أخذت عليه ، فكانت بينه وبين الروم موقعة عظيمة كتب لسيف الدولة النصر فيها . وانهزم الروم وقد خلفوا وراءهم ألوفًا من القتلى وعددًا ضخمًا من الأسرى وعاد سيف الدولة ظافرًا إلى آمد [١] . فأنشد المتنبى قصيدته النونية التى مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... وهو أول وهى المحل الثانى [٢]

وتراه فى هذه القصيدة يجعل من سيف الدولة رفعة للعرب يقول :

رفعت بك العرب العماد وصيرت ... قمم الملوك مواقد النيران
أنساب فخرهم إليك وإنما ... أنساب أصلهم إلى عدنان [٣]

وفيها أن الله سبحانه وتعالى ناصر دين الإسلام على هؤلاء الكفرة يقول:

خضعت لمنصلك المناصل عنوة ... وأذل دينك سائر الأديان [٤]

وفى هذه السنة نفسها أعيد حديث الواقعة الماضية فى مجلس الأمير الحمدانى ، وما كان الروم قد قدروا من أخذ الطريق عليه والإيقاع به ثم ما كان من إخلاف ظنهم [٥] .

فأنشد المتنبى ميميته التى مطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك فى إقدامك القسم [٦]

جـ- علاقاته السياسية مع كافور :

١) السبب فى مغادرة سيف الدولة :

كان المتنبى عظيمًا ، ويحتفى به فى مجلس سيف الدولة ، وهذا مما يكبر هيبته ومما يزيد عدد حساده والمتتبعين لشعره ، فكلما احتفل به الأمراء والرؤساء

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المنبى / ٤ / ١٧٤ .
(٢ ، ٣ ، ٤) المصدر السابق / ٤/ ١٧٤ ، ٤/ ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٥) طه حسين / مع المتنبى / ٢٢٨ .
(٦) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١٥ .

لغط الناس بأمره وكلما لغط الناس بأمره احتفل له الأمراء والرؤساء . وجميع ذلك منته إلى نهاية واحدة هى نباهة الشأن وسيرورة الكلام ، إنَّ دسائس البلاط كثيرًا ما خلقت شيئًا من لا شيء وأورت نيران الضغائن والمشاحنات فى غير موجب للضغينة والشحناء ، وإذا تناولت هذه الدسائس خلافًا على فكرة فى الآداب أو الفنون فغير بعيد أن تجمع فيه كل ما تشعب من الخلافات على شئون الملك والسياسة ومقاصد الأحزاب والأفراد ، وإن تحول إليه كل ما يتفرع من جداول الميول والمشارب فى قرارات النفوس ، حتى لينسى الناس أنهم مختلفون على شيء آخر غير هذه الفكرة الفنية أو الأدبية ، أو يصبغوا كل ما اختلفوا عليه فى الموضوعات الأخرى بلون هذه الفكرة (١) .

ولقد عرضت المصادر الأدبية لدراسة خروج المتنبى من حلب وأسبابها فصاحب الصبح المنبى يذكر لنا بعض الروايات عن خروجه منها يقول : ما قاله ابن بابك ، إذ حضر المتنبى مجلس أبى أحمد بن نصر البازيار ، وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوى فتماريا فى أشجع السلمى وأبى نواس البصرى «فقال ابن خالويه : أشجع أشعر ، إذ قال فى هارون الرشيد:

وَعَلى عَدوكَ يا بنَ عمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانِ : ضَوءُ الصُّبْحِ والإظْلاَمُ
فَإذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وإذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَكَ الأَحْلاَمُ

قال المتنبى : لأبى نواس ما هو أحسن فى بنى برمك :

لَمْ يَظْلِمِ الدَّهْرُ إذْ تَوالَتْ فِيْهِمْ مُصِيبَاتُهُ دِراكَا
كَانُوا يُجِيزونَ مَنْ يُعادِى مِنهُ فَعَادَاهُمْ لِذَاكَا (٢)

وهنا تتضح لنا أن هذه المناقشة كانت أول شعلة بين الخصمين فى مجلس سيف الدولة ، والمهم أيضًا ما رواه عبد المحسن على بن كوجك : أن أبا حدثه قال: « كنت بحضرة سيف الدولة وأبى الطيب اللغوى ، وأبى الطيب المتنبى ، وأبى عبد الله بن خالويه النحوى ، وقد جرت مسألة فى اللغة تكلم فيها

(١) عباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / ١٣٦ .
(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / ٨٦ .

ابن خالويه مع أبى الطيب اللغوى والمتنبى ساكت ، فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب ، فتكلم فيما بما قوى حجة أبى الطيب اللغوى ، وضعف قول ابن خالويه .

فأخرج من كمه مفتاحًا حديدًا ليلكم به المتنبى ، فقال له أسكت ويحك ، فإنَّك أعجمى ، وأصلك خوزى ، فما لك وللعروبة ؟ فضرب وجه المتنبى بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبى من ذلك ، إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد أسباب فراقه سيف الدولة »(1) .

وهذه الرواية تبدو غريبة ، وهى كرواية رمى سيف الدولة للمتنبى بالدواة التى كانت بين يديه ، فهذه واقعة لا نعلم كيف نوفق بينها وبين ما يروونه من أن المتنبى قد أخذته العزة عندما انتصر على ابن خالويه فى مناقشته اللغوية ، وحدث فيها ما حدث من ضرب المتنبى ، فإذا صح أن المتنبى قد غضب لأن الأمير لم ينتصف له من ابن خالويه ، فكيف به لو صدق ما ورد فى الحكاية السابقة من ضرب الأمير نفسه له بالدواة ، وهل يعقل أن يستمر بعد ذلك فى الإنشاد ؟؟(2) .

أما الرواية الثانية فهى ما قال ابن الدهان فى المآخذ الكندية من المعانى الطائية : « إنَّه قال أبو فراس لسيف الدولة : إنَّ هذا المتمشدق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ، عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرًا يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام ، وعمل فيه ، وكان المتنبى غائبًا ، وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة ، وأنشد :

أَلاَ مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَومَ عَاتِبَا ... فَدَاهُ الوَرَى أَمْضى السُّيُوفِ مَضَارِبَا

وَمَالِى إذَا مَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَهُ ... تَنَائِفَ لاَ أَشْتَاقُهَا وَسَبَاسِبَا

وَقَدْ كَانَ يُدْنِى مَجْلِسى مِنْ سَمَائِه ... أُحَادِثُ فِيهَا بَدْرَهَا وَالكَوَاكِبَا

حَنَانَيْكَ مَسْئُولاً ، وَلَبَّيْكَ دَاعِيًا ... وَحَسْبِىَ مَوهُوبًا ، وَحَسْبُكَ وَاهِبَا

---

(1) يوسف البديعى / الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / ٨٦ ، ٨٧ .

(2) محمد مندور / النقد المنهجى عند العرب / ١٧٣ ، ١٧٤ .

أَهَذَا جَزَاءُ الصِّدقِ إنْ كُنْتُ صَادِقًا ... أَهَذَا جَـزَاءُ الكذْبِ إنْ كُنْتُ كَاذِبَا
وَإنْ كَانَ ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فَإنَّهُ ... مَحَا الذَّنْبَ كُلَّ المَحْوِ مَنْ جَاءَ تَائِبَا (١)

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته ، فخرج المتنبى من عنده متغيرا، وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا فى حق المتنبى » (٢) .

وانقطع المتنبى يعمل قصيدته التى أولها:

وَا حَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ (٣)

وأنشدها فى محفل من العرب وكان حاضراً حين إنشادها مجموعة من الأدباء والشعراء وفيهم أبو فراس الحمدانى الذى أخذ ينتقد قصيدة المتنبى وجعل أكثر أبياتها ممسوخة من الشعراء قبله (٤) .

وليس من المستبعد أن يكون أبو فراس حاضراً حين إنشاد هذه القصيدة ، ولكن من المستبعد أن يعترض عليها الاعتراضات التى تبين فيها مآخذها ويرد أكثر عيونها إلى أصول جاهلية وإسلامية ، وأكبر الظن أن خصمًا من خصوم المتنبى صنع هذه الاعتراضات فى وقت متأخر ونحلها أبو فراس ، كما أنه من المستبعد أن يتغير موقف سيف الدولة من الشاعر بهذه السرعة الغريبة فيضرب وجهه بدواة بين يديه ثم يقبل رأسه ويجلسه إلى جنبه ويجيزه بألف دينار ثم بألف دينار أخرى لارتجاله هذا البيت :

إنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرحٍ إذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ (٥)

على أنى لا أرتاب من ناحية أخرى فى أن هذه القصيدة أحدثت استياءً شديدًا فى مجلس سيف الدولة ولا أستبعد أن كاتبًا من كتابه يعرف « بالسامرى » خرج فى أثر الشاعر ليقتله - كما يزعم - تزلفًا إلى الأمير فكر عليه الشاعر

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٧٠ ، ٧١ .
(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ٨٧ ، ٨٨ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٨٠ .
(٤) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ٨٩ إلى ٩٢ .
(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٨٧ .

وهزمه. وهذا السامرى من أكثر المؤلبين على المتنبى فى مجلس سيف الدولة فاستحق هجاء المتنبى بسبب هذا الموقف إذ قال فيه :

أَسَامِرِىُّ ضُحْكَةَ كُلِّ راءِ ... فَطِنْتَ وَأَنْتَ أَغْبَى الأَغْبِيَاءِ
صَغُرْتَ عَنِ المَدِيحِ فَقُلْتَ أَهْجَى ... كَأَنَّكَ صَغُرْتَ عَنِ الهِجَاءِ
وَمَا فَكَّرْتُ قَبْلَكَ فِى مُحَالٍ ... وَلاَ جَرَّبْتُ سَيْفِى فِى هَبَاءِ [(١)]

وهنا نتساءل عن سر هذا الحقد بين المتنبى وأبى فراس ، فنقول : إن أبا فراس كان شاعراً فحلاً ممتازاً وحسبك بهذه الميزة سببًا ينفر المتنبى من مدحه. ولا تنسى أن المتنبى كان يتطلع إلى حمل لواء الزعامة الأدبية فى عصره ويرى أن ذلك أيسر ما يجدر به أن يفعله ، لأن نفسه الوثابة كانت تتوق إلى ما هو أسمى من زعامة الشعر وأعظم خطراً .

فكيف يشيد بذكر شاعر كأبى فراس يزاحمه فى زعامة الشعر ؟ الحق أن المتنبى وأبا فراس لم يكن من سبيل إلى التأليف بينهما ، فقد كان أبو فراس يرى فى المتنبى رجلاً من السوقة رفعه الشعر درجات فوق ما يستحق وأكسبه شهرة فى الأدب لم يكن ليصل إليها لولا قرابته ومكانته من سيف الدولة . فكأن ينطبق عليهما قول أبى الأصبع العدوانى :

« فخالنى دونه ، بل خلته دونى »

فأبو فراس الحمدانى يرى فيه ابن سقاء مزهوا بشعره شامخًا بأنفه إلى السماء متعاليًا فى غير جدارة بالعلاء ، بالغًا من سيف الدولة مكانة لم يبلغها سواه، والمتنبى يرى فيه شاعراً ينافسه ويغار منه ويحسده على مكانته ، ويدنى من خصومه فى مجلسه ، فبأى لسان يمدحه المتنبى ؟ وكيف يهش له أبو فراس أو يصفيه الود خالصًا [(٢)] .

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ١٦٩ ، ١٧٠ . وانظر فى ذلك : أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتصحيح عبد الوهاب عزام / ٢٧٢ .

(٢) كامل كيلانى / فى مجلس سيف الدولة - بين المتنبى وأبى فراس / مصر مجلة المقتطف - الجزء الرابع من المجلد الخامس والسبعين - جمادى الأولى ١٣٤٨هـ ، نوفمبر ١٩٢٩م / ٤٣٥ ، ٤٣٦ .وعبد العظيم بدوى / خصومات أدبية حول المتنبى / الكويت - مجلة الرائد - المجلد الأول - السنة الأولى - العدد العاشر رجب ١٣٧٢ هـ - مارس ١٩٥٣ م / ٧ .

وقد تجمع حول أبى فراس طائفة من الحاقدين على المتنبى وحاسديه كأبى العشائر زوج أخت أبى فراس ، الذى لم يغفر للمتنبى أغفاله إياه ، بعد أن كان سبب تعرفه بسيف الدولة ، وبعض رجال البلاط من أصدقاء أبى فراس كالقاضى ابن الحصين ، والأميرين أبى محمد وأبى حامد ابنى ورقاء [(١)] . وما كان أن نسى المتنبى أبا العشائر ، فلم يذكره ولم يشر إليه . وكان الرجل خليقًا أن يلقى من صنيعته بعض الشكر على ما قدم إليه من إحسان . فكان هذا كله ميسرًا لشيء من الحلف الذى تم بين أبى العشائر وأبى فراس وأصحابه على قتل المتنبى غيلة إذا لم يكن من اليسير قتله فى وضح النهار فى غير ذنب واضح يبيح دم رجل من المسلمين .

وكذلك تعرض أبو الطيب ذات ليلة فى ظاهر حلب لجماعة من الغلمان أرصدهم أبو العشائر ليقتلوه ، ولكنه أحسن الدفاع عن نفسه ثم نجا ، وكأنه لجأ إلى صديق له من ذوى المكانة فى حلب فأخفاه وأجاره ، وجعل يسعى له فى العفو عند الأمير . وجعل المتنبى نفسه ، وقد ثاب إليه رشده وسكت عنه الغضب - يعين مجيره على السعى له فى العفو ، فقال هذه الأبيات يعتب فيها على أبى العشائر ويصالحه [(٢)] .

وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِى إِلَى مَنْ أُحِبُّهُ ... وَلِلنَّبْلِ حَولِى مِنْ يَدَيهِ حَفِيفُ
فَهَيَّجَ مِنْ شَوقِى وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ ... حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الكَرِيمَ أَلُوفُ
وَكُلُّ وِدَادٍ لاَ يَدُومُ عَلَى الأَذَى ... دَوَامَ وِدَادِى لِلْحُسَينِ ضَعِيفُ
فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الَّذِى سَاءَ وَاحِدًا ... فَأَفْعَالُهُ اللائِى سَرَرْنَ أُلُوفُ
وَنَفْسِى لَهُ نفس الفداء لنفسه ... وَلَكِنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنِيفُ [(٣)]

وكان من حساد المتنبى أبو العباس النامى وقد « حكى صاحب المفاوضة قال : كان سيف الدولة يميل إلى أبى العباس النامى الشاعر ميلاً شديدًا إلى أن جاءه

(١) أحمد أحمد بدوى / شاعر بنى حمدان / ١٣٤ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٢٩٢ .

المتنبى ، فمال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلابة وعاتبه وقال : أيها الأمير ، لم تفضل على ابن عبدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه فلج وألح ، وطالبه بالجواب فقال : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يُعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَخِرٍ   وَقَدْ أَغَذَّ إلَيهِ غَيْرَ مُحْتَفِلِ (١)

فنهض من بين يديه مغضبا ، واعتقد ألا يمدحه أبدًا » (٢).

وقد تحدث المتنبى عن الحسد فى بلاط سيف الدولة ، فإلى ذلك الشعر فهو خير دليل على ذلك وأصدق جواب ، وقد زاد من هذا الحسد تيه المتنبى وتعاليه وتفاخره ، وقد نال الحظوة العليا عند سيف الدولة حتى أثارت الغيظ والحسد فى نفوس زملائه من الشعراء ، وحاشية الأمير ، وقد أكثر المتنبى من ذكر هذه المنزلة الكبيرة التى نالها عند سيف الدولة ، كما أكثر من ذكر حساده والاستنجاد بالأمير فى رد كيدهم عنه لأنه هو الذى جلب عليه حقد هؤلاء الحساد وفى ذلك يقول :

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ   فَأَنْتَ الَّذى صَيَّرْتَهُمْ لِى حُسَّدَاً (٣)

بَلَغْتَ بِسَيفِ الدَّوْلَةِ النُّورِ رُتْبَةً   أَثَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

إذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ   أَرَاهُ غُبَارِى ثُمَّ قَالَ لَه الحَقِ

وَمَا كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ   وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ البَحْرَ يَغْرَقِ (٤)

والظاهر أن أبا الطيب كان يحس من نفسه بعلو مكانته عند أميره وكان يشفق بعض الإشفاق على حساده ويلتمس لهم العذر فى حقدهم عليه فى قوله (٥) :

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ١٦٧ .

(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ٨٠ ، ٨١ . صاحب المفاوضة أبو الحسن محمد بن على بن نصر المالكى عاش في نهاية القرن الرابع وأول الخامس الهجرى وصف كتاب المفاوضة للملك العزيز جلال الدولة فى كشف الظنون ، جـ٢ ، ١٧٥٨ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٣ .

(٤) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٥٧ ، ٥٨ .

(٥) محمد كمال حلمى / أبو الطيب المتنبى حياته وخلقه وأسلوبه / ١٣٣٩ هـ ، ١٩٢١م / ٤٨ ، ٤٩ . وعلى أدهم / على هامش الأدب والنقد / ٨٧ ، ٨٨ . وأحمد ضيف / أبو الطيب نظرات سريعة فى حياته / صحيفة دار العلوم - القاهرة - الجزء الأول / ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ م / ١٩ .

وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يَشِحُّوا عَلَى نَظَرِى إلَيْهِ وأَنْ يَذُوبُوا
فَإِنِّى قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ عَلَيهِ تَحْسُدُ الحَدَقَ القُلُوبُ (١)

وعلل مرة حسد حاسديه بأنه ناشئ من أنه هو نفسه عقوبة لهم فقال :

إِنِّى وإِنْ لُمْتُ حَاسِدىَّ فَمَا أُنْكِرُ أَنِّى عُقُوبَةٌ لَهُمُ
وَكَيفَ لاَ يُحْسَدُ امْرؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ
يَهَابُهُ أَبْسَأُ الرِّجَالِ بِهِ وَتَتَّقِى حَدَّ سَيْفِهِ البُهَمُ (٢)

ولحسن الحظ أن فى البشرية عاطفة أخرى قوية تعادل عاطفة الحسد وتوازنها وتستدفع شرها وتنقذ الناس من مخالبها ، وهى عاطفة الإعجاب ، ولو كان الإنسان مطبوعًا على الحسد وحده لهلك الكثيرون ولفسدت الحياة فسادًا لا علاج له ولا صلاح معه ، ويسد الطريق فى وجه النوابغ الأفذاذ الأبطال المبرزين، فهم كانوا يثيرون الحسد ويستهدفون لكيد الحساد فإنَّهم كذلك يظفرون بالإعجاب الذى يمهد السبيل ويسمح لمواهبهم بالازدهار والتفتح . وقد كان لإعجاب سيف الدولة بالمتنبى وتقديره له يحميه فى مواطن كثيرة من حسد الحاسدين ويرد عنه كيد الكائدين، وعاطفة الإعجاب تلعب فى الحياة دورًا لا يقل أهمية وتأثيرًا عن عاطفة الحسد (٣).

ومما زاد فى غيظ حساده أنه يلقى شعره لسيف الدولة وهو جالس وهو منذ أن وصل إلى سيف الدولة وهو يذكر الحسد ويذم الناس (٤) :

فَأَبْلِغْ حَاسِدَىَّ عَلَيْكَ أَنِّى كَبَا بَرْقٌ يُحَاوِلُ بِى لِحَاقَا
وَهَلْ تُغْنِى الرَّسَائِلُ فِى عَدُوٍّ إذَا مَا لَمْ يَكُنَّ ظُبىً رِقَاقَا

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٢٠٤ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٨٠ .
(٣) على أدهم / على هامش الأدب والنقد / ٩٠ ، ٩١ .
(٤) أحمد أمين / المتنبى وسيف الدولة / الثقافة / السنة الرابعة العدد ١٧١ ، فى يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الأول - ٧ إبريل ١٩٤٢ / ١١ .

إذَا مَـا النَّـاسُ جَـرَّبهُمْ لَبِـيبٌ ... فَـإنِّي قَـدْ أَكَلْتُـهُمُ وذَاقَـا
فَلَمْ أرَ وُدَّهُمْ إلاَّ خِـداعًـا ... ولَمْ أرَ دِينَهُمْ إلاَّ نِفَـاقَـا [1]

وقد زاد فى صعوبة التفاهم بين المتنبى وسيف الدولة ، أن سيف الدولة من جنس المتنبى سريع الغضب ، سريع الرضا ، منتقم إلى آخر حدود الانتقام، وسمح إلى آخر حدود السماحة ، ينفعل أحيانًا لقصيدة واحدة للمتنبى انفعالات متعاكسة ، فيعجبه البيت فى مدحه فيطرب له أشد الطرب ، ويفخر المتنبى عليه بنفسه فيهيج أشد الهياج . وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودهما الصفاء التام ولا الجفاء التام ، فإذا ساد الصفاء فسرعان ما يعتكر ، فى لحظة ، ويرضى عن قتله فى لحظة ، ونرى المتنبى له عينان ، عين فى المال ، وعين فى المجد ، يأخذ المال فيرضى وينظر إلَى المجد فيثور ، والمجد فى نظره أن يسود هو ، ولا يكون مسودًا لأحد ، ولو كان سيف الدولة [2].

وقد ظهر المتنبى فى شعره فى البلاط الحمدانى استخفافه بالشعراء واستعلاؤه عليهم مما أوغر صدورهم عليه . يقول :

أَنَا السَّابِقُ الهَادى إلَى مَا أَقُولُهُ ... إذِ القَولُ قَبْلَ القَائلِينَ مَقُولُ
وَمَا لِكَلاَمِ النَّاسِ فِيمَا يُرِيبُنِى ... أُصُولٌ ولاَ لِقَائليْهِ أُصُولُ
أُعَادَى عَلَى مَا يُوجِبُ الْحُبَّ لِلفَتَى ... وَأهْدأُ وَالأَفْكَارُ فِىَّ تَجُولُ
سِوَى وجع الحُسَّادِ دَاوِ فَإنَّهُ ... إذَا حَلَّ فِى قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلاَ تَطْمَعَنَّ مِنْ حَاسِدٍ فِى مَوَدَّةٍ ... وَإنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ [3]

ويقول فى قصيدة أخرى :

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٤٧ .

(٢) أحمد أمين / المتنبى وسيف الدولة / الثقافة / السنة الرابعة - العدد ١٧١ فى يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الأول / إبريل ١٩٤٢م / ١٠ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٣٠ .

لاَ تَطْلُبَنَّ كَـرِيمًـا بَعْـدَ رُؤْيَتِـهِ   إنَّ الكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا
وَلاَ تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ   قَدْ أُفْسِدَ القَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ[(١)]

« فكأن هذا البيت الأخير كان مؤذنًا بانقطاع الصلة بين الشاعر وأميره »[(٢)].

وقد أراد بعض النقاد المحدثين أن يجعلوا سبب مغادرة المتنبى لسيف الدولة وهو حبه لأخته خولة ، فحين اكتشف ذلك علم المتنبى بالخطر المحدق به فعمل على مغادرة حلب[(٣)]، وحصلت الجفوة بين الشاعر والأمير ، ويدلل هذا الفريق على صحة رأيه بدراسة مرثية المتنبى لأخت سيف الدولة وهم لا يملكون الأسباب الحقيقية وراء مغادرته حلب ، وليس هناك وثائق تاريخية تثبت هذه المحبة بين الشاعر وخولة وليست هناك رسائل كانت متبادلة تدل على شيء من هذا الحب ، وهم إذ يدلون برأيهم هذا يأخذون من النصوص الشعرية وثيقة تاريخية تثبت هذه الصلة مع أن هذا الشعر لا يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد. ويتخذون أدلة من مرثاته على النحو التالى ، يقول المتنبى فى رثاء خولة[(٤)] :

طَوَى الجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِى خَبَرٌ   فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِى إِلَى الكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدعْ لِى صِدْقُهُ أَمَلاً   شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِى

الرأى عندهم أن هذين البيتين هما أول ما قال أبو الطيب من القصيدة حين بلغه خبر موت خولة وهو بالكوفة ، ففزع قلبه ، واضطرب أمره ، وانتشرت عليه

---

(١) المصدر السابق / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ١٤٢ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٦٨ . وانظر فى ذلك عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، وص ٢٥٢ ، ٢٥٣ . ورئيف خورى / دراسات فى الأدب العربى . الرقة والكآبة فى شعر المتنبى / بيروت - المكشوف - السنة السادسة العدد ٢٥٠ فى ٢٠ آيار ١٩٤ / ٢ . ومصطفى صادق الرافعى / وحى القلم / الجزء الثالث / ط دار الاتحاد العربى / ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ . وانظر فى ذلك المقتطف / المقتطف والمتنبى / الرسالة - العدد ١٣٢ فى ١٨ شوال ١٣٥٤ هـ / ١٣ يناير سنة ١٩٣٦م / ٨٠ .
(٤) وماردن عبود / الرؤوس / ٢٢٧ ، ٢٢٨ . وصدقى إسماعيل / المؤلفات الكاملة الجزء الأول ١٩٧٧ / ٣٠٣ . وزكى المحاسنى / المتنبى / ٣١ ، وص ٣٨ . ومحمود محمد شاكر / المتنبى / ١ / ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، وص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

عواطفه ، ففى البيتين أثر فزع قلبه المضطرب ، وعليه رسم من لوعته وحرقته . وقد غلب أبو الطيب بيانه فى هذين البيتين فصرح فيهما بكل ما يضمر لخولة من الحب .

ومثل ذلك فى الدلالة على ما أصاب قلب أبى الطيب من الفجيعة التى تخصه بموت خولة قوله :

أَرَى العِرَاقَ طَوِيْلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ فكيف لَيْلُ فَتَى الفُتْيَانِ فى حَلَبِ
يَظُنُّ أنَّ فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ وَأَنَّ دَمْعَ جُفُونِى غَيْرَ مُنْسَكِبِ (١)

فليس يطول الليل على الشاعر من أجل أخت الأمير ، وإنَّما يطول عليه من أجل حبيبته التى أخذها الموت . ثم زاد أبو الطيب فى الدلالة بقوله : إنَّ سيف الدولة يظن أن فؤاده غير ملتهب ، وأن دمعه غير منسكب ، وما لسيف الدولة ولهذا ؟ أيحب سيف الدولة أن يلتهب قلبه وينسكب دمعه من أجل أخته ، أو يسوءه إذا لم يكن ذلك كذلك .

وربما أن سيف الدولة علم ما كان بين المتنبى وخولة من الحب وأنه كان قد وعد المتنبى بزواجها وكان ذلك سراً ، ولكن سيف الدولة لم يف بوعده فلما علم بذلك أبو فراس الحمدانى ، أضمر العداوة له . . . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح المتنبى لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة ، على كثرة الإشارات فيها إلى أمره وأمر خولة والحب بينهما . ومن الشواهد غير ما ذكرته مما يدل على الحب بينهما دلالة واضحة لا تخفى على مثل سيف الدولة قوله :

ومن مضت غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلاَئِقُهَا وَإِنْ مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ (٢)

فقد ذكر أبو الطيب أخلاق خولة ، ثم ذكر ما كانت عليه من علو الهمة والنفس منذ طفولتها ثم ذكر ابتسامتها ، وهذه كافية فى الدلالة على معرفته خولة معرفة صحيحة ، عن خبرة ولقاء وأيضًا يقول :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٨٩ .

وَلاَ ذَكَـرْتُ جَـمِـيلاً مِنْ صَنَائِعِـهَا إلاَّ بَكَـيْتُ وَلاَ وُدٌّ بِـلاَ سَـــبَبِ [1]

وهذا دليل على ما كـان تسبغ خولة من صنائعـها ، وفضائـلها مما يسـتجلب له البكاء حين يذكرها ، ومـا نظن أن صنائع خولة عنده كانت معشـار صنائع الأمير الحـمدانـى ، ولكن حب أبو الطيب هو الذى جـعل صنائعـهـا من نفسـه بهـذه المكانـة. ثم تدبر قـــوله « ولا ود بلا ســبب » وفى رواية أخـــرى «بلا ود ولا ســـبب»[2] كأن هذه الرواية الثانية يراد بها نفى أمـر بعينه ، وكان الوشاة يكثرون القول فيه عند الأمير مع علمه بالأمر الذى بينهما ، من أن صنائع أخته التى كانت تتخـذها عند أبى الطيب لم يكن من أجل هذا الود ، وَإِنَّما كـان من كرم نفســها وطيب عنصرها. ويكون المراد بهذه الرواية غيـر سيف الدولة ممن كان يتزيد فى القول ويـتكذب عليه بمـا هو فيـه براء ، ولينفى التهم بذلك عن هذه الـتى كان يمنحها قلبه ويحبها ، وإذَا شئت الزيادة فاقرأ قوله [3] :

فَلَيْتَ طَـالِعَـةَ الشَّـمْـسَيْنِ غَـائِبَـةٌ وَلَيتَ غَـائِبَـةَ الشَّـمْـسَيْـنِ لَمْ تَغِبِ
وَلَيْتَ عَـيْنَ الـتَّى آبَ النَّهَـارُ بِهَـا فِــدَاءُ عَـيْنِ الَّتِى زَالَتْ وَلَـمْ تؤُبِ

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة . واقرأ قوله:

وَهَلْ سَـمِـعت سَلامًـا لِى أَلَمَّ بِهَـا فَـقَـدْ أَطَلْتَ وَمَـا سَلَّمْتُ مِـنْ كَـثَبِ
وَكَـــيْفَ يَبْلُـغُ مَـوْتَـانَا الَّتِى دُفِـنَتْ وَقَـدْ يُقَـصِّرُ عَنْ أَحْـيَـائِنَا الغَـيَبِ [4]

ثم انظر إلى هذا الالتفات إلى المــاضى الذى جعلناه من المذهب فى الكشف عن أسرار أبى الطيب ، إذ ذكـر ما كان منه حين رثى أخت سيـف الدولة الصغرى - من ذكر خولة هذه ، وذلك إذ يقول :

قاسمتك المنون شخصين جــورا

(١) المصدر السابق / ١ / ٩٢ .
(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٣) المرجع السابق / ١ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٩٢ .

فعاد قول فى هذه القصيدة :

قَدْ كَانَ قَاسَمكَ الشَّخْصَيْنَ دَهْرَهُمَا ... وَعَـاشَ دُرُّهُمَـا المُـفْـدِى بِالذَّهَبِ

وَعَـادَ فِى طَلَبِ المَـتْـرُوكِ تَارِكُـهُ ... إِنَّا لَـنَغْــفُلُ وَالأَيَّـامُ فِى الطَّـلَبِ [١]

وتدبر الصلة بين هذا وذاك والحسرة المتغيرة فى قوله « إنَّا لنغفل » وما كان أقصر وقتًا كان بينهما [٢] .

وقد رد بعض الدارسين المـحدثين هذه التهمة التى زج فـيها أبو الطيب ، وارتأوا أن هذه القصيدة لا تدل على صلة قريبة أو بعيـدة ، أو على شبه صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبى وهذه الفقيدة . وكل ما يمكن أن يفهم منها أن الشاعر يتحدث بأن هذه الفقيدة برته وأحسنت إليه عن بعد ، كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب [٣] .

ورأوا أن هذه الأميرة خولة كـانت من المعجبين بشعر الـمتنبى وأنها كانت تخصه ببعض المنـح والعطايا لما أسداه لبنى قومها من مدائـح سارت بها الليالى وخلوتهم على مدى الأزمان [٤] .

وردوا أن تكون الإجادة والإبداع فى شعـره مرجعهمـا إلى ما يسمى بالحب الذى ترعرع فى قلبه نحو خولة أخت الأمير ، وأن حـبه كان السبب الحقيقى فى مواتاة طبعه وصـدق مشاعره ، فإنَّ هذا لا يصح لما نعرفـه عن تأبى طباع الشاعر على الانقياد للصبوة أو الانغماس فى الـصبابة ، وربما كان سبب هذا الاتجاه هو ما لوحظ من جنوح المتنبى إلى الحديث بلغـة الغزل فى مواقف المديح وهو أمر لا يفسر حـبه وإنَّما يفسر تمسكه بتـقاليد العرب الفتـية من ناحية وصداقتـه وحبه للأمير من ناحية أخرى ، ونزعة لا شعـورية يفسرها حرمان الشاعر من الحنان فى طفولته وصباه، كما يمكن أن يكون رمزًا لكل ما افتقده من جمال فى حياته وحلم بتحقيقه فى يوم من الأيام [٥] .

---

(١) المصدر السابق / ١/ ٩٣ .

(٢) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٢١١ ، ٢١٢ .

(٤) مصطفى الشكعة / فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين / ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٥) محمد مندور / فى المـيزان الجديد - القـاهرة - ط دار نهضـة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ / ١٣ . نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٣٦ ، ١٣٧ .

ونحن إذْ ندرس هذه القصيدة لا نرى فيها ما يؤيد ما قاله الأستاذ محمود شاكر ومن تابعه - إذْ إن أمر هذه القصيدة كان أمرًا مشهودًا ، إذْ إنها انتشرت فى العالم الإسلامى بسرعة فائقة لما فيها من الرثاء الحار والتعبير الصادق المعبر عن كل نفوس ، فلو كان المتنبى على علاقة حب بخولة أخت الأمير الحمدانى لقرأنا له شعرًا فى مصر والعراق وفارس وفيه ذكر لهذا الحب ، فالواضح أن المتنبى كان رجل جد واجتهاد ولم يطرأ على باله سوى الغزل بالمجد والمعالى ، وحب التسلط والثورة على العجم فى عصره ، وكيف تكون قصيدة حب وقد أرسلها أبو الطيب إلى سيف الدولة فى حلب فهل من المعقول أن يكون المتنبى على حب بخولة ثم يرسل هذه القصيدة فى رثائها ، ولم يسبق له أن قال قصيدة فى هذه الأميرة ، مما يدل على أن هذه التهمة غير صحيحة ، وكيف يرضى سيف الدولة أن يتحدث العالم الإسلامى بحب المتنبى لأخته خولة ؟ وهل يرضى أمير مثل سيف الدولة لشاعر أيًا كان هذا الشاعر للغزل بأخته ؟؟ إنَّ هذا أمر مستبعد جدًا ، والذى يجول بصدرنا أمر عكس ما قاله الأستاذ ، ربما يكون أمر الحب بين المتنبى وخولة من اختلاف أبى العشائر وابن عمه أبى فراس فأذاعا لسيف الدولة أنَّ هذا الشاعر على صلة حب بأخته ، فما كان من الأمير إلاّ أن نبذ المتنبى حتى يخرج من بلاطه ، والأهم من هذا لو صح هذا الغرض الَّذِى قلناه عند سيف الدولة لقبض على المتنبى وقتله فى الحال .

إذن ليس لدينا إلا أمر واحد وهو أن المتنبى كان رجلاً ذَا طموح كبير ، يحب المجد ويفنى فيه ، وأنه فكر أن يستأذن سيف الدولة أن يكون واليًا لبعض ثغوره لكى يسد هذا النقص الذى كان دائمًا يراوده ، فلم يرض سيف الدولة أن يلبى طلب المتنبى وحدثت الجفوة بينهما ، فلم ير المتنبى إلاَّ أن يرتحل عن البلاط الحمدانى الذى لقى فيه دسائس كثيرة ووشايات كبيرة كانت هى السبب الأساسى فى رحيله عنه ، ومما يرجح أن هذا هو السبب الأساسى ما قاله المتنبى من شعر فى هذه الآونة إذْ إنه أحس انصراف الأمير عنه وتقريبه لبعض حساده ، فأراد أن يجزى إعراضًا بإعراض ، وتباطأ فى مدح الأمير . ثم أنكر الأمير منه هذا الإبطاء فلم ينشط للمدح ونشط غيره للكيد . ثم أظهر الأمير غضبه فأعرض عن المتنبى ذات يوم بمحضر من الجمهور . وعاد أبو الطيب كئيبًا خجلاً قد أسقط فى يده ، وأراد أن يستدرك أمره فأرسل إلى الأمير هذه الأبيات :

أَرَى ذَلكَ القُرْبَ صَارَ ازْوِرَارَا ... وَصَارَ طَوِيلُ السَّلاَمِ اخْتِصَارَا
تَرَكْتَنِى اليَوْمَ فِى خَجْلَةٍ ... أَمُوتُ مِرَارًا ، وَأَحْيَا مِرَارَا
أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِيًا ... وَأَزْجُرُ فِى الخَيْلِ مُهْرِى سِرَارَا
وَأَعْلَمُ أَنِّى إذَا مَا اعْتَذَرْتُ ... إلَيْكَ أَرَادَ اعْتِذَارِى اعْتِذَارَا
وَلَكِنْ حَمَى الشِّعْرَ إلاَّ القَلِيلَ ... هَمٌّ حَمَى النَّوْمَ إلاَّ غِرَارَا
كَفَرْتُ مَكَارِمَكَ البَاهِرَا ... تِ إنْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّى اخْتِيَارَا
وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ ... وَمَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِى القَلْبِ نَارَا
فَلاَ تُلْزِمَنِّى ذُنُوبَ الزَّمَانِ ... إلَىَّ أَسَاءَ وَإيَّاىَ ضَارَا
وَعِنْدِى لَكَ الشُّرَّدُ السَّائِرَا ... تُ لاَ يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ إذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِى ... وَثَبْنَ الجِبَالَ ، وَخُضْنَ البِحَارَا (١)

فالمتنبى هنا كما يقول الدكتور طه حسين يسجل إعراض سيف الدولة عنه وغضبه عليه ثم يعترف بالذنب ، ثم يعتذر منه ، مؤكدًا أنه لم يتعمده ، وإنّما اضطرته إليه هموم حالت بينه والنوم . ولم يثر هو هذه الهموم ، ولم يدعها إلى نفسه ، وإنما صبها عليه الزمان . وهذه الهموم من غير شك لم يثرها فى نفس المتنبى إلاَّ خصومه الذين وشوا به عند الأمير فأنسدوا عليه قلبه ، وأفسدوا عليه القصر ولعلهم أفسدوا عليه البيئة كلها فى حلب (٢) .

وبدا واضحًا أن الحساد قد استطاعوا بالنكاية والوشاية والدسائس أن ينكلوا بأبى الطيب فى مجلس سيف الدولة فلما قابله المتنبى بدا متجهمًا - وحاول أبو الطيب عبثًا أن يرضيه فلم يفلح ،ولذا اتضح أن سيف الدولة قد تأثر بكل ما قاله هؤلاء الحساد وقبل دسائسهم ، وقد علم المتنبى سر هذا الإعراض فأعد عدته ونظم ميميته الرائعة فأودعها كل ما أوتى من قوة ومقدرة فى الدفاع عن نفسه، ولم يدع وسيلة من الوسائل التى يهاجم بها حساده وخصومه ، وينال منهم إلاَّ

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٩٤ ، ١٩٥ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٦١ ، ٢٦٢ .

سلكها جريئًا قادرًا ، ودافع عن نفسه دفاع اليائس المستميت ، ولم يتورع عن مهاجمة الأمير أبى فراس الذى طالما أظهر له التهيب وزعم أنه لم يجرؤ على مدحه «جلالا» لا إغفالا ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فهاجم سيف الدولة نفسه ولم يتهيبه وقرعه أشد تقريع ألا ترى إليه يعاتبه فيقول له فى قصيدته التى مطلعها:

وَا حَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بِجِسْمِى وَحَالِى عِنْدَهُ سَقَمُ

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ ... وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالكَرَمُ

مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ عَنْ شَرَفِى ... أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ (١)

ثم يتهدده بالرحيل فيقول :

أَرَى النَّوَى تَقْتَضِينِى كُلَّ مَرْحَلَة ... لاَ تَسْتَقِلُّ بِهَا الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْراً عَنْ مَيَامِنِنَا ... لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَنْ لاَ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

شَرُّ البِلاَدِ مَكَانٌ لاَ صَدِيقَ بِهِ ... وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الإِنْسَانُ مَا يَصِمُ (٢)

أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً ... أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ (٣)

بِأَىِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ ... تَجُوزُ عِنْدَكَ لاَ عُرْبٌ وَلاَ عَجَمُ (٤)

ويفخر على جميع الحاضرين (٥) فيقول :

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٨٣ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٩٠ .
(٥) كامل كيلانى / (٢) فى مجلس سيف الدولة بين المتنبى وأبى فراس / المتقطف / الجزء الخامس من المجلد الخامس والسبعين / جمادى الاخرة ١٣٤٨هـ - ديسمبر ١٩٢٩م / ٥٦٥، ٥٦٦ ، ٦٥٧. وانظر فى ذلك / عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٩٤ ، ٩٥ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١١٦. وشوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

سَيَعْلَمِ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ... بِأَنَّنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

وبعد هذا لم يكأمام أبى الطيب إلاَّ مغادرة سيف الدولة ، وتختلف الآراء حول خروجه من حلب ، فكيف خرج منها ؟ ، وإلى أين اتجه ؟ ، يبدو أن المتنبى أزمع الرحيل من حلب فاتجه إلى دمشق لأنها هى المهرب الوحيد له من بلدان المنطقة كلها ، فليس هناك بلد يأوى إليه أولى منها ، فقد كانت حمص تابعة لسيف الدولة ، وبانتقاله إلى دمشق يخرج من ملك سيف الدولة إلى ملك الإخشيديين بعيدًا عن متناول يده لو أراد أن يتعقبه وهو لا ريب فاعل وإلاَّ ما لجأ إلى الحيلة والمكر فى استئذانه فى الرحيل إلى اقطاعه في معرة النعمان . وبلجوء أبى الطيب إلى دمشق يكون قد حدد وجهته إلى حيث يمتد سلطان الإخشيديين فلم يكن متاحا له أن يتجه إلى بغداد حيث أعداؤه من الأعاجم يلعبون بالخليفة المطيع كما شاءوا ، وحيث الوزير المهلبى يجمع حوله من الكتاب والشعراء عصبة يرسلهم على أعدائه هجاء وسبا فلا يتركون عرضا سليما، ولا أديما صحيحًا ، ولم يكن ليذهب إلى فارس وهى معقل أعدائه من الأعاجم(1) .

وإذا لم يكن ما بينه وبين سلطان مصر غير عامر ، إلاَّ أنه كان أحسن مما بينه وبين حكام العراق التى ولد بها ونشأ فيها ، والتى لم يفكر فى الرجوع إليها، فغرب إلى مصر بينما شرق غيره إلى العراق ، كما جاء فى إحدى كافورياته بعد ذلك :

وَمَا شِئْتُ إلاَّ أَنْ أَدُلَّ عَواذلِي ... عَلَى أَنَّ رَأْيِي فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأعلَمُ قَومًا خَالَفُونِي فَشَرَّقُوا ... وَغَرَّبْتُ أَنِّي قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا (2)

فقد آثر الفسطاط على العراق لأنه قد أسرف فى إظهار عداوته للعراق وحكامه ، ورماهم بالخور والجبن والتهالك على الشهوات والملاذ كما مر بنا من شعره فى العراق والشام ، وبخاصة بعد ارتباطه بسيف الدولة فى حلب ، إذْ هاجم معز الدولة ولم ينج الخليفة من هجائه إلاَّ أن الأمور لم تصل بينه

---

(1) طه حسين / مع المتنبى / ٢٧٤ ، ٢٧٥ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٣٩ . وشوقى ضيف / عصر الدول والإمارات / ٣٤٨ .

(2) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٣٢٥ ، ٣٢٦.

والإخشيديين الذين دخلوا فى صراع مع سيف الدولة إلى هذا الحد الذى يبلغ الهجاء أو التعريض ، ولكنه توقف عند الافتخار بما ألجأهم إليه أميره من ترك الشام الذى لم يتركه برغبتهم كما أوضح فى بعض شعره وهو لم يتجاوز فى ذلك الحقيقة التى تقررها كتب التاريخ فى بعض فصول هذا الصراع بين حلب والفسطاط ، ولذلك كان أبو الطيب يرى إصلاح الأمور بينه والإخشيديين أمراً سهلاً لا يستحيل عليه كما هو الشأن مع أولى الأمر فى العراق ، وبخاصة فإنَّ له عند الإخشيديين أصدقاء يمكن لهم أن يفتحوا الطريق أمامه إلى ذلك ، من مثل أبى الحسن بن طفج الذى كان واليًا على الرملة آنذاك ، وكان الشاعر قد ألم به ومدحه منذ سنوات إبَّان تجواله فى بلاد الشام (١) .

وزاد بعض الباحثين أسبابًا أخرى لرحيله إلى الفسطاط ، أولها حرص كافور الإخشيدى على الظفر بالمتنبى وتزيين حاشيته به ، فليس من شك أنه سمع به ، وراعته مدائحه فى الأمير الحمدانى ، وحسده عليه ، وتمنى لو يتاح له شاعر كالمتنبى فى سيرورة شعره ، وبعد صيته ، يسجل له المحامد ويرفع قدره فى أعين المصريين والمسلمين ، وربما كان كافور أحوج السلاطين لهذا المجد الأدبى يعزز به المجد السياسى الذى اكتسبه بحسن تدبيره وشجاعته ، وقيامه على ملك الإخشيديين يصرفه فى توفيق ونجاح .

وثانيهما : ما كان بين الإخشيديين والحمدانيين من تنافس سياسى وحروب انتهت بامتداد سلطان كافور على جزء كبير من بلاد الشام ، وقد كان هذا التنافس حفز كافوراً إلى استدعاء الشاعر ، وربما حفز الشاعر نفسه إلى قصد كافور وكان موقفه من هاتين الدولتين يشبه موقف النابغة الذبيانى .

وثالثهما : طمع المتنبى فى مصر على أن يكون لنفسه عصبية . وأن يحقق أمانيه التى طالما رددها فى شعره حول الإمارة وما شابه ذلك (٢) .

٢) شعر المتنبى السياسى عند كافور:

كانت مدينة الفسطاط حين قدم إليها المتنبى أحد المراكز الهامة فى العالم الإسلامي ، نظرًا لرخاء مصر وقوة نفوذه السياسى من ناحية ، ومدارسها المتعددة

(١) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسات نصية / ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٢) أحمد الشايب / أبحاث ومقالات - ط الاعتماد بمصر / ٥٢ ، ٥٣ .

فى العلوم الإسلامية والفلسفية والتاريخية من ناحية أخرى ، وسر الناس لاستقباله ومعاملته معاملة تليق به بوصفه شـاعراً عظيمًا ، شاعراً عرف الناس عنه أنه يتفنن فى إطراء ولى نعمته فى المناسبات ، ويتقاضى مكافآت سخية وعطايا وهبات .

واقتنع المـتنبى بأن طموحه لن يذهب سدى . لكـن شعره الذى استـساغه تمامًا جـماعة العلماء والمـتأدبين ، لم يكن ليرقى إلى المسـتوى الذى نظمه فى الأمير الحمدانى ، ويقول الدكتور طه حسين كان كافور يريد شاعراً نابهًا لأنه كان يود أن يغيظ منافسـه سيف الدولة بذلك الشاعر الذى ملأ الدنيـا ذات يوم بمدحه والإشادة بأفضاله . لكن المـتنبى لم يبلغ فى مدائحه المستوى الـذى بلغه حينما كان يمتدح سيف الدولة . غير أنه رضى بذلك إلى حد مـا . لقد خانته حماسته التى نالت منه أسفه على مغـادرة قصر حلب ، وأوحشته حاشيـة حاميه القديم ، ولم يستطع الشاعر أن يخفى مشاعره . وغالبًـا ما كانت تلميحاته بأمير حلب إلى حد التصريحات الرسمية باسم القصائد التى كان ينظمها فى الإشادة بكافور [1] .

وهنا نتسـاءل لماذا اتجه المتـنبي إلى كافور ؟ ولم قدم مـصر ؟ والحق أن كافورا قـد أوعده أن يوليه صيـداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصـعيد [2] ، ويبدو أن حاشـية كافور أطمعت الشـاعر وأغرته فاتجـه إلى مصر ، ولم يعلم أن هذه الحاشـية قـد خدعتـه وغررت به ، إذ إنه كان يظن أنهـا تصدقـه القول ولا تكذبه، وأنهـا تريد به الخـيـر ولا تريد أن تنتـزعـه من يد مولاه الحـمـدانى ، فاستجاب لها ، بل أسرع فى ذلك وانتظر تصديق الرجاء ، وتحقيق الوعد ، فلم يجد إلاّ سرابًا لا يروى من ظمأ ولا يشفى من أوام .

ويتساءل الدكتور طه حسين أيهمـا المخطئ فى هذه القضية أهو كافور الذى سار سيرة السياسى الماكر ، فاجتهد لقومه ولنفسه، واحتاط لسلطانه ، وخذل عنه عدوه واصـطنع فى ذلك ما يصطنعـه الساسـة اللبقـون من وعود لا تفـرض على أصحـابها الوفاء ، وأقوال لا تلزم أصـحابها بالصـدق ؟ أم هو أبو الطيب المتنبى

---

(١) طه حسين / المتنبى مغامرة شاعر جريئة / تـرجمة وعرض عبد العاطى جلال / الثقافة - السنة الثانية / العدد الرابع عشر نوفمبر ١٩٧٤م / ٤٢ .
(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى ١١٢ ، ١١٣ .

الذى أكثـر من الاعتداد بنـفسه وغـلا فى حسن الظن بها وبالنـاس ، فلم يحفظ لنفسه ولم يتدبر أمره ، وإنَّما اندفع فى غير أناة ولاروية ؟ إنَّ الذين يدرسون شعر المتنبى ، وهذه الحكم البالغة والأمثال السائرة التى يرسلها إرسالاً ، يخدعون عن الشاعر ، فيظنون به الحكمة والفطنة والذكاء .

ولكن الذين يتدبرون حياته ويقرأوا مدحه وفخـره وهجاءه ، يعرفون طبيعته ويردونه إلى مكانه الحقيقى من خصال الشاعر الذكى اللبق فقد كان المتنبى مسرفًا في الغـرور وكان مكبـرًا لنفسـه كل الإكبـار ، ولكن الأهم من ذلك أنه يظن أن الناس يرون فيه ما كان يرى فى نفسه ، ويكبرونه كـما كان يكبر نفسه ، ويعتدون به كما كان يعتد بنفسه .

وإلاَّ فكيف نفـهم أن ينفق أبو الطيـب تسعـة أعـوام يمدح فـيـهـا الأميـر الحمدانى، ويعيب فـيها خصومه من أهل مصـر والعراق ، ثم يظن بعد ذلك أن المصريين يعدونه ، صادقين ، ويبـذلون له الامانى والآمال وهم يأخذون أنفسهم بالوفاء والاطمئنان إليه ؟ .

ومهمـا يكن من شىء فقد انخدع المـتنبى بكافور ، وأقبل مسـتسلما له ، متهالكًا عليـه واثقًا به ، يظن أنه سيجد عنده من الرفعة ونبـاهة الشأن ما يغيظ به سـيف الدولة الذى لم يعـرف قـدره ، ولم يرع حـقـه ولم يعص فـيـه الوشـاة والكائدين[1] .

وقد اتضح هنا مـراد المتنبى ، وهو أنه يلح فى طـلب الولاية ، وهذا أمر سيـاسى له خطورته فـهو لم يذكـر مثل ذلك عند سـيف الدولة أبدًا ، ولم يكن شعره فى صباه إلاَّ ثائرا يحرض على الثـورة ضد الأعاجم وغيرهم من الموالى ، وكأنى بأبى الطيب يريد أن يغيظ سـيف الدولة الحمدانى ، الذى خرج من بلاطه إلى الفسطاط ، ولم يكن من رد لكافور على طلب المتنبى إلاَّ أن يمنحه ، ويبلغه الرجاء إلى طلبه ، فلما رأى الـمتنبى أن كافورا غير جاد فى طلبـه أخذ ينبهه إلى مطلبه فى شعره ، لعل بارقة أمل تلوح من كافـور فيقتل هذا اليأس وتبعث الرجاء فى قلب المـتنبى الذى طالما تغنى، فـالمتنبى كـان ذا نزعة سـياسيـة تتطلع إلى

(١) طه حسين / مع المنبى / ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

الحكم والولايات وهذا دليل قاطع على أن ما قام به فى بادية السماوة هو عمل سياسى لا أكثر ولا أقل ، وفى شعره هذا نلمح الصدق فى الطلب والرجاء قبل فوات الأوان .

والحقيقة الواضحة أن المتنبى كان يقوم بدعوة سياسية ، كان يطلب الملك ويمنى نفسه به ، ويعد له عدته التى ظن أنها تصل به إليه ، من المران على الحرب، وجمع المال والاستكثار من الأعوان وتدبير المؤامرات ، ولم يكن يجسر على الجهر بذلك فى عواصم البلاد التى عاش فيها ، فكان يخرج من البوادى يتحين الفرصة ويستجمع للوثوب وتحقيق ما فى نفسه من أمانى ، وهذا سر من أسرار انتقاله من ملك إلى ملك ، وقد ساعده على هذا الحلم اللذيذ ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن وانقلابات ، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سعت به قدم ، وكان ربما قنع بأقل من الملك فرغب فى ولاية من الولايات يخلعها عليه كافور ، ولعل هذه القناعة لم تكن إلاَّ لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه إلى الملك كالذى كان يراه فى جماعة من ملوك عصره ، ولعل كافوراً فطن لدخيلة نفسه ففر من مصر تحت جنح الليل ! أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه ؟ (١) .

وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ ⠀⠀⠀ فَيَرْجِعَ مَلْكًا لِلعِرَاقَيْنِ وَالِيًا (٢)

حتى إذا تأخر جواب كافور ، وخشى أن يفوته المأمول ، أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية ، عاوده بقوله :

فَارْمِ بِى مَا أَرَدْتَ مِنِّى فَإِنِّى ⠀⠀⠀ أَسَدُ القَلْبِ آدَمِىُّ الرُّوَاءِ
وَفُؤَادِى مِنَ المُلُوكِ وَإِنْ كَا ⠀⠀⠀ نَ لِسَانِى يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ (٣)

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد / حياة أبى الطيب المتنبى / مجلة الأزهر -الجزء الأول - المجلد الثامن - محرم ١٣٥٦هـ / ٥٠ ، ٥١ . ومحمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - المجلد الثامن عشر ١٩٦٤م / ٢٩ ، ٣٠ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٦٢ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثانى / ٤٢٧ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٣٦ .

لم يزل يظهر لكافور تلهفه على إنجاز وعده ، بالتعريض مرة وبالتصريح مرة أخرى حتى أدركه اليأس انظر إلى قوله :

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الحُجْبَ بَيْنَنَا ... وَدُونَ الَّذِى أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
وَفِى النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِى بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ (١)

وإلى قوله من قصيدته النونية التى لم ينشدها أمام كافور ،وقد أشرف على اليأس :

هُوَ الوَفِيُّ وَلَكِنِّى ذَكَرْتُ لَهُ ... مَودَّةً فَهْوَ يَبْلُوهَا وَيَمْتَحِنُ (٢)

وفى قصيدة أخرى يبث آلامه ويشكو مطلبه فى كل أبياتها ، التى غلب عليها إحساسه بخيبة الآمال والحزن العميق ، ويريد الوفاء بما وعده به كافور ، ويستخلص حكمًا كثيرة متناثرة ناشرًا غمزاته بكل سبيل :

أَوَدُّ مِنَ الأَيَّامِ مَا لاَ تَوَدُّهُ ... وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْىَ جُنْدُهُ
يُبَاعِدْنَ حُبًّا يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ ... فَكَيْفَ بِحُبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ
أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيْبًا تُدِيمُهُ ... فَمَا طَلَبِى مِنْهَا حَبِيْبًا تَرُدُّهُ
وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّرًا ... تَكَلُّفُ شَىءٍ فِى طِبَاعِكَ ضِدُّهُ (٣)

فتراه يفتتح هذه القصيدة بشكوى الأيام ، وتخييبها رجاءه فى حبيبه الذى بعد عنه ، ويتعجب كيف أنه يشكو إليها الفراق ، وهو من جندها الذى ينفذ أمرها ، فشأن هذه الأيام أن تنأى بالحبيب المواصل فكيف يطمع منها فى تقرب المقاطع الصاد . وهذا افتتاح يفصح عما يشعر به من ندم على فراق الأمير الحمداني ، وإنْ بث فيه شكواه من الأيام والتحسر على الحبيب الذى نأت به، ويزداد شكواه قوة عندما يضرب المثل تلو المثل ويستخرج الحكمة تلو الحكمة من هذه التجربة فإذا نحن نسمع نشيد التمرد القديم الذى كان قد أراح نفسه منه فى حلب يتردد هنا وهناك .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق / ٤ / ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق / ٢ / ١٩ .

وَأَتْعَبُ خَلْقِ اللّهِ مَنْ زَادَ هَمُّـــهُ ... وَقَصَّرَ عَمَّـا تَشْتَـهِى النَّفْسُ وُجْـدُهُ

فَـلاَ يَنْحلِلْ فِـي المَـجْـدِ مَـالُكَ كُلُّهُ ... فَـينحل مَـجْـدٌ كَـانَ بِالمَـالِ عَـقْـدُهُ

وَدَبِّرْهُ تَدْبِيـرَ الَّذى المَـجْـدُ كَـفُّـهُ ... إذَا حَـارَبَ الأَعْـدَاءَ وَالْمَـالُ زَنْدُهُ

فَـلاَ مَـجْـدَ فِى الدُّنْيَـا لِمَنْ قَلَّ مَـالُهُ ... وَلاَ مَـالَ فِي الـدُّنْيَـا لِمَنْ قَلَّ مَـجْـدُهُ

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمِيسور عَيْشِه ... وَمَـرْكُـوبه رِجْـلاَهُ وَالثَّـوْبُ جِلْدُهُ

وَلَكِـنَّ قَلْبًـــا بَيْنَ جَنْبَىَّ مَـــالَهُ ... مَـدى يَنْتَـهِى بِي فِى مُـرَادٍ أُحِـدُّهُ

يَرَى جِـسْـمَـهُ يكسى شُـفُـوفًا تَرُبُّهُ ... فَـيَـخْـتَـارُ أن يكسى دُرُوعًـا تَـهُـدُّهُ

يُكَلِّفُنِى الـتَّـهْـجِـيرُ فِى كُلِّ مَـهْـمَـهٍ ... عَلِيْـقِى مَـرَاعِـيـهِ وَزَادِى رُبْدُهُ (١)

فهو يفخر ببعيد همته ، ويبـدو كما لو كان حريصًا أن يوقف كافور على ما يتمتع به من الحكمة وبعد الرأى وتدبيـر أمور المال والمجد ، وأن قلبه الذى هو قلب ملك لا حدود له لمراده لا نهاية لمطامحه ، إذ يأبى له الدعة والرغد ويجنح به دومًا إلى مقارعة الأحداث ومصـاولة الخطوب وتكلفه التهجير دون زاد . وقد صدق المتنبى كل الصدق فى تصوير نفسه النزاعة إلى النضال والسعى أبدًا وراء ما يطمح إليه من الآمال (٢) .

وقد ألمح المتنبى فى شعره إلى أنه يريد من الأسـتاذ أن يجربه ويستعين به فهو كالسيف الماضى الحد ، وإذا باشر عـملاً فسوف يصل إلى أقاصيه ، ويهون أمره ، وفى أثناء ذلك يكثـر من الإغراق فى الثناء ، حيث إنه يرى أن هناك فـرقًا شاسعًا بينه وغيره من الأفراد ، وتراه يشير إلى أن تحقيق مطلبه أمر بعيد المنال ، ولكنه لا ييأس لأنه تعود أن يظفر بممتنع الأمور ويستنجر وعده مهما يكن ، ومن كان صادقًا فوعده نظير فعله ، وهو يسأل كافور أن يمتحنه ، فهو لا يعرف الجواد

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المنبى / ٢/ ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) محمد محمد حسين / المـتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ؛ المجلد الثامن عشـر / ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ . نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . ودراسـة نصية / ١٥٩ ، ١٦٠ .

حتى يركض والسيف لا يطل إلاَّ إذَا امتحن . وكل هذا من أجل أن يصل إلى هدفه ويحقق مجدًا يفتخر به (١) :

وَلَيْتَكَ تَرْعَانِى وَحَيرانُ مُعْرِضٌ ... فَتَعْلَمَ أَنِّى من حُسَامكَ حَدُّهُ

وَأَنِّى إذَا بَاشَرْتُ أَمْرًا أُرِيدُهُ ... تَدَانَتْ أَقَاصِيه وَهَانَ أَشَدُّهُ

وَمَا زَالَ أَهْلُ الدَّهْرِ يَشْتَبِهُونَ لِى ... إلَيْكَ فَلَمَّا لُحتَ لِى لاَحَ فَرْدُهُ

فَإِنْ نِلْتُ مَا أَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ الطَّيرَ وِرْدُهُ

وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لأَنَّهُ ... نَظِيرُ فَعَالِ الصَادِق من القَوْلِ وَعْدُهُ

فَكُنْ فِى اصْطِنَاعِى مُحْسِنًا كَمُجَرِّبٍ ... يَبِنْ لَكَ تَقْرِيبُ الجَوَادِ وَشَدُّهُ

إذَا كُنْتَ فِى شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَابْلُهُ ... فَإِمَّا تُنَفِّيهِ وَإِمَّا تُعِدُّهُ

وَمَا الصَّارِمَ الهِنْدِىُّ إلاَ كَغَيْرِهِ ... إذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ

وَإِنَّكَ لَلْمَشْكُوْرُ فِى كُلِّ حَالَةٍ ... وَلَوْ لَم يَكُنْ إلاَّ البَشَاشَةَ رِفْدُهُ

وَكُلُّ نَوَالٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ ... فَلَحْظَةُ طَرْفٍ مِنْكَ عِنْدِى نِدُّهُ

وَإِنِّى لَفِى بَحْرٍ مِنَ الخَيْرِ أَصْلُهُ ... عَطَايَاكَ أَرْجُو مَدَّهَا وَهْىَ مَدُّهُ

وَمَا رَغْبَتِى فِى عَسْجَدٍ أَسْتَفِيْدُهُ ... وَلَكِنَّهَا فِى مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ (٢)

ولما لم يحصل المتنبى على شىء من مطالبه هذه عمد إلى تقريع كافور الذى لم يف بوعده فهو يلمزه فى قصيدته عندما أهدى إليه فرس أوهم، إذ يقول:

وَمَا كُلُّ هَاوٍ لِلْجَمِيلِ بِفَاعِلٍ ... وَلاَ كُلُّ فَعَّالٍ لَهُ بِمُتَمِّمِ (٣)

ومن الملاحظ على قول المتنبى :

فِدىً لأَبِى المِسْكِ الكِرَامُ فَإِنَّهَا ... سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِيْنَ بِأَدْهَمِ (٤)

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١١٤ ، ١١٥ . نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠.

(٣) المصدر السابق / ٤ / ١٣٧ .

(٤) المصدر السابق / ٤ / ١٣٧ .

أنه لم يزد عن أن جعله فى نهاية الأمر فرسًا أسود وقد كان الجو النفسى الذى استهل به المتنبى قصيدته ملئ بالحزن والكآبة ، ومن هنا اتشح مديحه لكافور بالحزن والسواد القاتم ، وقد كانت محبته للوفاء بوعده مقرونة بشماتة أعدائه فيه ورغبته الكاملة فى الانتصار عليهم يحسن ظن كافور الذى يغيظ حساده ويبدل تعاسته سعادة ، وشقاءه نعيمًا ، ويثبت له أنه كان محقًا فى تعليق رجائه عليه لأنه أهل له فلولا وجدوه بالفسطاط ما سار إليها مشوقًا مستهامًا ولا تحمل ما تحمل من مشقة السفر ومتاعبه ومطاردة أعدائه حتى ورد النيل بخيله واستذرت بالمقطم ويرجو من أبى المسك نصره على أعدائه :

أَبَا المِسْكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى العِدَا ... وآمُلُ عِزًّا يَخْضِبُ البِيْضَ بِالدَّمِ
وَيَومًا يَغِيظُ الحَاسِدِيْنَ وَحَالَةً ... أُقِيمُ الشَّقَا فِيهَا مَقَامَ التَّنَعُّمِ
وَلَمْ أَرْجُ إلاَّ أَهْلَ ذَاكَ وَمَنْ يُرِدْ ... مَوَاطِرَ مِنْ غَيْرِ السَّحَائِبِ يَظْلِمِ
فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِى مِصْرَ مَا سِرتُ نَحْوَهَا ... بِقَلْبِ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ المُتَيَّمِ
وَلاَ نَبَحَتْ خَيْلِى كِلاَبَ قَبَائِلٍ ... كَأَنَّ بِهَا فِى اللَّيْلِ حَمْلاَتِ دَيْلَمِ
وَلاَ أتَّبَعَتْ آثَارَنَا عَيْنُ قَائِفٍ ... فَلَمْ تَرَ إلاَّ حَافِرًا فَوقَ مَنْسِمِ
وَسَمْنَا بِهَا البَيْدَاءَ حَتَّى تَغَمَّرَتْ ... مِنَ النِّيلِ وَاَسْتَذْرَتْ بِظِلِّ المُقَطَّمِ
وَأَبْلَخَ يَعْصِى بِاخْتِصَاصِى مُشِيْرَهُ ... عَصَيْتُ بِقَصْدَيهِ مُشِيرِى وَلُوَّمِى (١)

وفى بيته الأخير يرمى مشير كافور الذى يشير عليه بإخلافه وتركه وعده ، وهو يقصد به كما هو معروف وزيره ابن الفرات الذى لم يمدحه المتنبى . ثم يهدد الشاعر كافور بالهجاء فى خفاء لا يعز اكتشافه عندما ينتهى إليه ، ولقد ترك الشاعر ملوك الأرض وآثره دونهم ، وبخيره بين أن يختار لهم أن يتحدثوا بمديح الشاعر وثنائه عليه لبره وإحسانه أو أن يخوضوا فى هجاء المتنبى له وذمه بالبخل لمنعه وحرمانه :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .

قَد اُخْتَرتُكَ الأَمْلاكُ فَاْخْتَرْ لَهُمْ بِنَا ... حَدِيثًا وَقَدْ حَكَّمْتُ رَأْيكَ فَاْحْكُمِ
فَأَحْسَنُ وَجْه فِى الوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ ... وَأَيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمُ كَفُّ مُنْعِمِ
وَأَشْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ أَشْرَفَ هِمَّةً ... وَأَكْبَرَ إِقْدَامًا عَلَى كُلِّ مُعْظَمِ
لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ (١)

فكافور مخير بين أن يحسن مكافأته ، ومن هنا يصدق الناس رأى الشاعر فى مدحه وقصده وإلاَّ شمتوا به وهجوا من خيب أمله فيه ، فإذا وفى كافور بوعده فوجهه يصبح أحسن الوجوه ويده أيمن الأيدى بالإنعام . وكذلك يلمح إلى أنه لا شرف له ينتسب إليه ، ولكنه فى مكنته أن يكسب شرفًا إذا أشرفت همته فهو خال إذن مما يمدح به الأمراء من حسب ونسب أو شرف تليد ، فإنه لم يستحدث لنفسه شرفًا بعلو همته ، لم يكن له ما يمدح به، وإلاَّ فما الفائدة من هذه الدنيا والتناحر عليها إذا بخل بما حازه صاحبها ولم يجعل المنفعة للأولياء والضر للأعداء (٢) .

وهو يلح فى طلبه دائمًا ، ويرجو عدم خيبة أمله ، ويرجو أن يصدق بوعده يقول وقد استبطأ بما وعده به :

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِى كَمْ حَيَاتِى قَسَمْتُهَا ... وَصَيَّرتُ ثُلْثَيْهَا أنْتِظَارَكَ فَاْعْلَمِ
وَلكِنَّ مَا يَمْضِى مِنَ العُمْرِ فَائِتٌ ... فَجُدْ لِى بِحَظْ البَادِرِ المُتَغَنِّمِ
رَضِيْتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِى مَحَبَّةً ... وَقُدتُّ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ المُسَلِّمِ
وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الوَسِيطُ فُؤَادَهُ ... فَكَلَّمَهُ عَنِّى وَلَمْ أَتَكَلَّمِ (٣)

ويقول الدكتور نعمان القاضى ، وفى هذا الشعر تهكم واضح ، فالمتنبى يقول : لو أنه يعلم بما سيعترض تحقيق وعده من مطل وخلف وكان على علم بمقدار ما بقى له من الحياة ، لجعل ثلثى هذا المقدار فى انتظار أن يفى كافور بوعده ، ولكن ما فات من العمر لا يرد وما تأخر منه لا يكفى فبادر بالكرم ، أما

---

(١) المصدر السابق / ٤ / ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢ / ٦٥٣ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١٤٢ .

إذا كنت يا كافور مستمتعًا بهذا التأخير راضيًا به فأنا أرضى بذلك محبة لك وحرصًا على ما يرضيك ثم يكله فى نهاية الأمر إلى نفسه وكأنما مل الإلحاح عليه زاعمًا أن من كان مثله كرمًا وسماحة فليس بحاجة إلى شخص يحثه ولا إلى كلام يستنجزه ففى قلبه ما يكفل ذلك . وهو وإن تركه لنفسه أمام الجمهور مودعًا لديه أمنيته منتظرا تحقيقها فإنه لم يتركه فيما بينه ونفسه فقد سجل في هذه الفترة قطعة هجاء ثابتة هجاه فيها ، وأودعها كل ضيق واشمئزاز بالأستاذ الذى لم يف بودعه ، راميًا نفسه بالحماقة إذ تحكم مثل هذا الأسود فى نفسه وفى ذلك سوء الغفلة والاختيار ، وتحكم الفساد فى النفس ما فيه ، وبدلاً من أن يكرمه ويفى له بوعده فإنه يسجن آماله ويحبس وعدوه ، وهو لا يستنكر ذلك من مثل هذا الأسود مثله مقصور على فرجه وبطنه ، ولا يتجاوزهما إلى طلب المجد والمعالى ، ومن دلائل هذا أنه لا ينجز ميعاده فى وقته ولا يعى ما وعد به فى أيامه ، وهو غير مفطور على فعل المكرمات وإنما يفعلها بمكر يجذبه إلى فعلها فيجر إلى الخير جرا لتعوده على الخسة واللؤم [1] .

أَنْوكَ مِنْ عَبْدٍ وَمِنْ عِرْسِهِ ... مَنْ حَكَّمَ الصَّبْرَ عَلَى نَفْسِهِ
وَإِنَّمَا يُظْهِرُ تَحْكِيمُهُ ... تَحَكُّمُ الإِفْسَادِ فِى حِسِّهِ
مَا مَنْ يَرَى أَنَّكَ فِى وَعْدِهِ ... كَمَنْ يَرَى أَنَّكَ فِى حَبْسِهِ
أَلعَبْدُ لاَ تَفْضُلُ أَخْلاَقُهُ ... عَنْ فَرْجِهِ المُنْتِنِ أَوْ ضِرْسِهِ
لاَ يُنْجِزُ المِيعَادَ فِى يَوْمِهِ ... وَلاَ يَعِى مَا قَالَ فِى أَمْسِهِ [2]

ومن الملاحظ أن المتنبى يعمد إلى تقريع كافور الذى لم يف بوعوده ، وفى هذه الصورة الجميلة توضح مان يشعر به من ضجر ومرارة ، إذ إنه صور تلذذه بما يسمع من غناء الشاعر وهو يشرب على هذ الغناء الذى بح صوته من كثرة الغناء ، وقد اشتد ظمأ المتنبى للشرب وكافور يحرمه أن ينال فضلة من الشرب، ويسأله أن

---

(١) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٣١١ ، ٣١٢ .

يسمح له بالشرب معه ولو ثمالة كأسه مكنيا بذلك عن نوال ولاية ضيعة يرى أنه أولى بتوليها من هذا الأسود ، ويستخف بعطائه من الذهب الذى لا يبحث عنه والذى وهبه كافور على قدر ما سمحت به كف الزمان . ثم يعود بعد ذلك فيصرح بطلبه تصريحًا لا يدع مجالاً للظن أو الشك بأنه إذا لم ينط به ضيعة أو ولاية فإنَّ ما يكسوه به من الود لا قيمة له لأنه يسلبه باشتغاله عن تحقيق مبتغاه [1] .

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً ... فَلاَ أَشْتَكِى فِيهَا وَلاَ أَتَعَتَّبُ
وَبِى مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّى أَقَلُّهُ ... وَلكِنَّ قَلْبِى يَا بْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ
وَأَخْلاَقُ كَافُورٍ إذَا شِئْتُ مَدْحَهُ ... وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلِى عَلَىَّ وَأَكْتُبُ
أَبَا المِسْكِ هَلْ فِى الكَأسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ ... فَإنِّى أُغَنِّى مُنْذُ حِينَ وَتَشْرَبُ
وَهَبْتُ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّى زَمَانِنَا ... وَنَفْسى عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ
إذَا لَمْ تَنُطْ بِى ضَيْعَةً أَوْ وِلاَيَةً ... فَجُودُكَ يَكْسُونِى وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ [2]

وعندما لم يفكر كافور بإعطائه ولاية كما طلب . إذا به يهجوه ولكنه لايهجوه لما منعه من ولاية أو ضيعة ، ولكن استحق هذا الهجاء بما وعد ومطل ثم أخلف ، فملأ نفس الشاعر الطموح أملا . ثم ذبذبه بين الرجاء والخيبة ، ثم أيأسه بعد انتظار طويل [3] .

ولقد ساور المتنبى الشك فى نوايا كافور نحوه ، وقد أحس كافور بما صار يشك فيه فى هذه الفترة ، وفى ديوانه بيتان يثبتان أن كافورا وضعه فى تلك الآونة تحت راقبة بعض أتباعه وأنه دس عليه من يستعلم عما فى نفسه ويقول له : طال قيامك عند هذا الرجل ، وقد فطن المتنبى إلى مام وراء هذه المناورة فقال على الفور :

---

(١) محمد محيى الدين عبد الحميد / حياة أبى الطيب المتنبى / مجلة الأزهر - الجزء الأول / المجلد الثامن محرم ١٣٥٦هـ / ٥٠ ، ٥١ ، عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١١٧ . ومحمد محمد حسين / المتنبى والقرامطة - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - المجلد الثامن عشر ١٩٦٤ م / ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٨١ ، ١٨٢ .

(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٤٩ .

يَقِلُّ لَهُ القِيَامُ عَلَى الرُّؤوسِ وَبَذْلُ المُكْرَمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ
إذَا خَانَتْهُ فِى يَوْمٍ ضَحُوكٍ فَكَيْفَ تَكُونُ فِى يَوْمٍ عَبُوسِ (١)

وكان غاية المتنبى أن يظفر بولاية أو إمارة ليرد بذلك على الشامتين به من أصحاب سيف الدولة فى حلب ، ويثبت لهم أنهم أخطأوا فى حقه ولم يقدروه حق قدره ، ولكن هذا التعجل واللهفة فى الاستنجاز جعلاً الأستاذ يتوجس منه فلا ينيله ما وعد به ولا يقطع رجاءه فيه ضمانًا لإبقائه فى يده والاستمرار فى مديحه وتفادى هجائه (٢) .

٣) حروب كافور الداخليـة :

لقد كانت مملكة كافور واسعة جدًا ويستنتج ذلك من قول المتنبى :

يُدبِّرُ المُلْكَ مِنْ مِصْرٍ إلَى عَدَنٍ إلَى العِراقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوَبِ (٣)

ولذا كان المتنبى يود أن يتولى ضيعة فى مدينة مدنه من أو قرية من قراه، ولكن كافورا لم يحقق له أحلامه هذه وتركه لليأس والقنوط . وقد كانت حياة كافور قبل أن يتصل به المتنبى وحين اتصل به حياة أمن وسلم ، وهدوء ودعة . فليست ثغوره مجاورة لثغور الروم فيقاتل ويدافع عن هذه الثغور مثل ما كان سيف الدولة يدافع ويرد هجوم الروم . وليست حدوده مجاورة لحدود العراق ، فيخاف مثل ما كان الأمير الحمدانى يخاف من الكيد والدس .

والحق أن الفاطميين كانوا يثيرون فى نفسه شيئًا من القلق والخوف ، ولكنه قلق يسير لا يبعث على الاضطراب والثورة ، والبلاد التى كان يحكمها الأستاذ بلاد متحضرة منظمة ، قد ألف أهلها النظام والحضارة المدنية منذ وقت بعيد . وقد تحطمت شوكة الذين ارتحلوا إليها واستقروا فيها من البدو منذ عهد بعيد ، فهى قليلة الحظ من الاضطراب والثورة ، وقد فرغت لنفسها وظفرت باستقلالها.

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٣١١ .
(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الأول / ٢٩٤ .

وقد تجاوز حكم هذه البلاد كما يقول طه حسين حدودها الطبيعية ، فهى متسلطة على فلسطين كلها ، وقسم لا بأس به من بلاد الشام ، وعلى أقطار واسعة وراء البحر الأحمر ، وحدودها آمنة من جهة الجنوب ، فهى تنعم بالدعة والأمن ، ومستقرة تفرغ لاستثمار أراضيها الخصبة ، وخاصة إذا ضبط فيها الأمر، وحسنت فيها الإدارة ، ولم يكثر الجور ولم يظهر بين أهلها الفساد .

ويبدو أن أمور الفسطاط كانت هادئة مطمئنة فى تلك الفترة ، وكان أولياء الأمر فيها مطمئنين هادئين ، يدبرون الملك أحسن تدبير وينعمون بثمراته فى غير قلق ولا خوف . فأين هذه الحياة الهادئة المستقرة من تلك الحياة المضطربة الخائفة ؟ وأين سكون كافور من خوف وقلق سيف الدولة ؟ ولهذا لم تكن حياة أبى الطيب لدى كافور مملوءة بالنشاط والحركة ، كما كانت فى شمال الشام .

وَإنَّما انشغل المتنبى بنفسه،وأكثر من التفكير فيها ، ورجع يستحضر ماضيه فيرى نعيمًا زال ، وأحلامًا ذهبت ، وآمالا خابت ، وحسرات موجعة لاذعة ، ثم حادول أن يفكر فى مستقبله فلا يكاد يرى شعاعًا من رجاء ، ولا بصيصًا من أمل.

ماض كله فشل وإخفاق وضيبة أمل حتى فى أحسن لحظاته ، ومستقبل قاتم ، وحاضر قلق لا يرضى به القلب ولا يطمئن إليه .

فلا غرابة أن تسوء حالة أبى الطيب ، ولا غرابة فى أن يسبغ اليأس والحزن على شعره رداء قاتمًا لا يكاد يظهر فيه الابتهاج والإشراق (١) .

وكادت الفرصة تسنح لأبى الطيب وتهيئه إلى العودة إلى الفن الذى أبدع فيه عند الأمير الحمدانى ، وهو وصف الحرب وتصوير الجهاد ، ولكنها لم تلبث أن أخلفت الظنون واضطرت أبا الطيب إلى الطمأنينة التى كان يكرهها ولا يحتملها إلاَّ فى عناء ومشقة .

ففى سنة سبع وأربعين وثلاث مئة كانت هناك وحشة بين كافور وأنوجور ابن الإخشيد، سعى فيها الحاسدون بين الملك ووليه، وجدوا فى سعيهم حتى أفسدوا بينهما حتى كادت الحرب تشب . ثم اصطنع الأستاذ الأناة والحلم ، كما اصطنع معها الحزم والعزم . وأحس الملك ضعفه عن الحرب وحاجته إلى وليه، فعاد الأمر بينهما إلى الصفاء . وذكر أبو الطيب هذه القصة مرتين :

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

المـرة الأولى : حين هنأ كافورا بعيد الفطر لهـذه السنة ببائيته المشهورة ، والمتنبى فى هذه القصيدة يوجز ولا يفصل ، ويكاد يؤثر التعريض عن التصريح، ولكنه مع ذلك عازم حازم فـانضم إلى كافور فى غيـر التواء ولا تردد ، معلنا أن الملك مدين لكافـور ببقائه وسلامتـه وقصور الأعداء فى الوصول إليـه ، وقصور الأحداث عن البلوغ به ، لأنه قام هذه الدولة قيام الأب الرحيم ، فرد عنها العدو الخـارجى بالحـرب ، ورد عنهـا الفـقر والبـؤس والاضطراب بحـسن التـدبيـر والسياسـة. فالذين يمكرون به أو يحسدونه أو يريدون صـرف السلطان عنه باغون طاغون منكرون للجميل جاحدون للنعمة ،. وذلك حيث يقول :

يُرِيدُ بِـكَ الحُـسَّـادُ مَـا الـلَّهُ دَافِعٌ وَسـمـرُ العَـوَالِى وَالحَـدِيـدُ المُـذَرَّبُ
وَدُونَ الَّذِى يَبْغُونَ مَـا لَوْ تَخَلَّصُـوا إِلَى الشَّـيْبِ مِنْهُ عِـشْتُ وَالطِّفْلُ أَشْـيَبُ
إِذَا طَلَبُـوا جَـدْوَاكَ أُعْطُوا وَحُكِّمُـوا وَإِنْ طَلَبُـوا الفَـضْلَ الَّذِى فِـيكَ خُيِّـبُـوا
وَلَوْ جَـازَ أَنْ يَحْوُوا عُـلاكَ وَهَبْتَهَـا وَلَكِنْ مِـنَ الأَشْـيَـاءِ مَـا لَيْـس يُوْهَـبُ
وَأَنْتَ الَّذِى رَبَّيْتَ ذَا المُلْك مُرْضَـعًا وَلَـيْـس لَـهُ أُمٌّ هُـنَــاكَ وَلاَ أَبُ
وَكُنْـتَ لَهُ لَيْثَ الـعَـرِيْنَ لِشِـبْـلِه وَمَــالَكَ إِلاَّ الـهُنْـدُوَانِىَّ مِــخْلَبُ
لَقِــيـتَ القَنَا عَـنْهُ بِنفْسٍ كَــرِيمَــةٍ إِلَى المَوْتِ فِى الهَيْـجَا مِنَ العَار تَهْرُبُ (١)

ثم يقول :

وَيُغْنِـيْكَ عَــمَّــا يَنْسبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْـكَ تَنَاهَـى المَكْـرُمَــات وَتُنْسَـبُ
وَأَىُّ قَـبِـيـلٍ يَسْـتَحِـقُّكَ قَـدْرُهُ مُـعَـدُّ بنُ عَـدْنَانٍ فَـدَاكَ وَيَعْـرُبُ (٢)

وظاهر ما في الأبيات من اندفاع المتنبى فى تأييد كافور وصدق لهجته فى النهوض بالذود عـنه (٣) . ولما تم الصلح واستقر الأمـر بين الملك ووليه ، قال المتنبى

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) المصدر السابق / ١ / ١٨٦ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣١٠ ، ٣١١ .

أيضًا داليته المشهورة يهنئ بها كافور . وهى من أصدق الشعر وأجمله فى تصوير ما يكون فى مصر بين حين وحين من الفرقة وانشقاق العصا ، ثم ما يلى ذلك من الوحدة واجتماع الرأى . ومن أبياتها ما يمكن انشاده والتمثل به فى العصر الحاضر ، وفى هذا الطور من أطوار تاريخ مصر الحديثة بصفة خاصة .

ويلاحظ أن أبا الطيب قد أشار إلى الملك فى هذه القصيدة ولكنه لم يسمعه، وقد أثنى عليه ولكنه اقتصد فى الثناء ، وخص كافورا بالذكر والمدح . وانظر إلى أول القصيدة :

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعَادى ... وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ
وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسٌ حَالَ تَدْبِيرُكَ ... مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ المُرَادِ
صَارَ مَا أَوْضَعَ المحبونَ فيه ... مِنْ عِتَابٍ زِيادَةً فِى الوِدَادِ
وَكَلَامُ الوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى الأَحْبَابِ ... سُلْطَانُهُ عَلَى الأَضْدَادِ
إنَّمَا تُنْجِحُ المَقَالَةُ فى المَرْ ... ءِ إذَا صَادَفَتْ هَوىً فِى الفُؤَادِ (١)

« فهذا الكلام سائغ اللفظ ، قريب المعنى ، ملائم لأهواء النفوس المجتمعة بعد افتراق وعواطف القلوب المؤتلفة بعد اختلاف . وهو قد صور الفرقة والألفة اللتين كانتا بين الكافورية والإخشيدية سنة سبع وأربعين وثلاث مئة . وهو فى الوقت نفسه خليق أن يتمثله المصريون فى عصرهم الحديث كلما أتيح لهم الائتلاف بعد الاختلاف ، والاتفاق بعد الافتراق . وقد عطف المتنبى على كافور بعد هذه الأبيات فوصف ثباته وحلمه وإعراضه عن الوشاة وامتناعه على دعاة السوء ، فى كلام ما أرى إلاَّ أنه يصلح للإنشاد فى هذا العصر الحديث ، ويصور بعض النابهين الذين نحبهم من المصريين» (٢) قال :

وَلَعَمْرِى لَقَدْ هُزِزْتُ بِمَا قِيلَ ... فَأُلْفِيتَ أَوْثَقَ الأَطْوَادِ
وأَشَارَتْ بِمَا أَبيتَ رِجَالٌ ... كُنْتَ أَهْدَى مِنْهَا إِلَى الإرْشَادِ (٣)

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٣١ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣١٢ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٣٢ .

ثم يقول :

نِلْتَ مَا لاَ يُنَالُ بِالبَيْضِ وَالسُّمْرِ ... وَيُشْوِى الصَّوَابَ بَعْدَ اجْتِهَادِ
وَقَنَا الخَطِّ فِى مَرَاكِزِهَا حَوْ ... لَكَ والمُرْهَفَاتُ فِى الأَغْمَادِ
مَا دَرُوا إِذْ رَأَوْا فُؤَادَكَ فِيهِمْ ... سَاكِنًا أَنَّ رَأْيَهُ فِى الطِّرَادِ [1]

ثم يقول :

فَبِهَذَا وَمِثْلِهِ سُدْتَ يَاكَا ... فُورُ واقْتَدْتَ كُلَّ صَعْبِ القِيَادِ
وَأَطَاعَ الَّذِى أَطَاعَكَ وَالطَّا ... عَةُ لَيْسَتْ خَلاَئِقَ الآسَادِ
إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالأَبُ القَا ... طِعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الأَوْلاَدِ
لاَعَدَا الشَّرُّ مَنْ بَغَى لَكُمَا الشَّرَّ ... وَخُصَّ الفَسَادُ أَهْلَ الفَسَادِ
أَنْتُمَا مَا اتَّفَقْتُمَا الجِسْمُ وَالرُّو ... حُ فَلاَ احْتَجْتُمَا إِلَى العُوَّادِ [2]

وانظر إلى هذه الأبيات الحلوة التى يملؤها الحنان ، والتى تصور أحسن تصوير وأبدعه وأروعه ما يكون من تواصل بعد تقاطع، ومن مودة بعد حفيظة وضغن ، والتى نحس معناها بعد حين وحين ،ونود لو نحسه فى كل حين :

مَنَعَ الوُدُّ وَالرِّعَايَةُ وَالسُّؤْ ... دُدُ أَنْ تَبْلُغَا إِلَى الأَحْقَادِ
وَحُقُوقٌ تُرَقِّقُ القَلْبَ لِلقَلْبِ وَلَـ ... ـوْ ضُمِّنَتْ قُلُوبَ الجَمَادِ
فَغَدَا المُلْكُ بَاهِرًا مَنْ رَآهُ ... شَاكِرًا مَا أَتَيْتُمَا مِنْ سَدَادِ
فِيهِ أَيْدِيكُمَا عَلَى الظَّفَرِ الحُلْـ ... ـوِ وَأَيْدِى قَوْمٍ عَلَى الأَكْبَادِ
هَذِهِ دَوْلَةُ المَكَارِمِ وَالرَّأْ ... فَةِ وَالمَجْدِ وَالنَّدَى وَالأَيَادِى
كَسَفَتْ سَاعَةً كَمَا تَكْسِفُ الشَّمْـ ... ـسُ ، وَعَادَتْ وَنُورُهَا فِى ازْدِيَادِ [3]

---

(١) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثاني / ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٣٢ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثاني / ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

« أرأيت أجمل من هذا الكلام، وأبرع من هذا التصوير ، وأنفذ من هذه المعانى إلَى ضمائر النفوس ودخائل القلوب ، فى ألفاظ حلوة لينة جزلة رصينة ، وهى مع ذلك ترضى الذوق ولا تؤذيه ، وتقهر السمع ولا تشق عليه ، أرأيت شعراً أصدق فى تصوير اتفاق المصريين ، حين يتفقون برغم الكائدين والحاسدين ، من هذا البيت الذى يجمع الصدق والدقة وجمال اللفظ وعذوبة المعنى ومضاء الرأى ونفاذ البصيرة ورضا النفس وتحدى العدو :

فِيهِ أَيْدِيكُمَا عَلَى الظَّفَرِ الحُلْـ ـو وأَيْدِى قَومٍ عَلَى الأَكْبَادِ[1]

ومن هنا فَإنَّ المتنبى حاول أن يعنى ببعض الشئون السياسية بمصر إبَّان إقامته فيها ولم يكن له أن ينفذ إلى ذلك ، كما كان يفعل فى حلب ،وكل ماله فى ذلك مما يسميه بعض الدارسين بشعره السياسى فيها إنَّما كانت مناسبات دعاة الأمير إلَى أن يقول فيها شعرا كما ذكر فى قصيدتيه السابقتين فى الصلح بين كافور وأنوجور ، وقصيدته فى مصرع شبيب التى خرجت رثاء أو ما يشبه الرثاء وهى لا تزيد عن كونها تنهئة كغيرها من التهنئات وَإنْ مال فيها إلى إسداء النصح وضرب المثل فاستحالت بذلك قصيدة حكمية . وقصيدته فى مدح فاتك الذى كان منافساً سابقًا لكافور ، وربما كان الشاعر يدبر معه أمراً وإن لم نجد ما يرجح هذا الظن بصورة قاطعة من الأخبار فهى بدورها من قصائد المدح ليس غير [2] .

ويبدو أن المتنبى لم يكن ممعنًا فِى السياسة الماكرة إذ إنه نسى الوزير ابن الفرات وقد أغفله فلم يمدحه وقد مدحه شعراء آخرون منهم الناشئ الذى مدح كافورا ، ولو توسل شاعرنا بالوزير لكان أقرب إلى أمله ، وأظنه كبر عليه أن يمدحه ، أو لم يجد من حفاوته ما يغريه بمدحه ، كما أبى أن يمدح الوزير المهلبى فى بغداد [3] .

ومن هنا حقد عليه الوزير ابن الفرات وجعل ينبه كافورا إلى هجاء المتنبى له فى أشعاره واستشهد بالقصيدة التى مطلعها :

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣١٣ .

(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب دراسة نصية / ٣٦٨ .

(٣) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٢٩ .

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلأَكْفَاء   وَلِمَنْ يَدَّنِى مِنَ البُعَدَاء [1]

وهكذا اتضح ما يلاقيه المتنبى من دسائس عند كافور ، فأخذ يشك فى أنه لا يستطيع أن يلبى طلبه .

وقد اعتق فاتك وأقبل إلى القاهرة يستشفى ، سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة، أو لعله احتال فى لقاء المتنبى ، واحتال المتنبى فى لقائه ، وأتيح لهما هذا اللقاء فى الصحراء كما يقول ابن خلكان .

ثم أهدى أبو شجاع فاتك فأحسن الإهداء ، وأعطاه فأجزل العطاء . واستأذن المتنبى كافورا فى أنْ يشكر لفاتك عطاءه وإهداءه ، فلم يجد كافور بدًا من الإذن ، مجاملة ومصانعة أيضًا . وقال المتنبى فى فاتك لاميته المشهورة :

لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تهديها ولاَ مَالُ   فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ [2]

وقال فى البيت الثانى من هذه القصيدة :

وَاجْزِ الأَمِيرَ الَّذِى نُعْمَاه فَاجِئَةٌ   بِغَيْرِ قَولٍ وَنُعْمَى النَّاسُ أَقْوالُ [3]

وهو كذلك لم يستطع أن يخفى تأذية بهذا السجن الذى يمسكه فى الفسطاط فقال:

وَإِنْ تَكُنْ مُحْكَمَاتُ الشَّكْلِ تَمْنَعُنِى   ظُهُورُ جَرْىٍ فَلِى فِيهِنَّ تَصْهَالُ [4]

ثم اتخذ بعد ذلك فى مدح فاتك سبيلاً سواء ، ليس فيها تعوج ولا التواء [5] .

وكان المتنبى يحب فاتكا حبًا كبيرًا ، وربما كان من أسباب القوة فيما بينهما من الود اجتماعهما على بغض كافور ، ومما لا شك فيه أن هذا الود كان من الأسباب التى حملت كافور على بغض المتنبى وكراهيته [6] ، وكان من الطبيعى أن يحنق كافور من سلوك المتنبى ، وَإِنْ كان قد سمح له بمدح أبى شجاع فاتك ، وكيف لا يغضب وقد التجأ الشاعر إلى خصمه ومدحه هذا المدح الرائع الخالص

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٢ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٣٩٤ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٣٩٥ .

(٤) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٣٩٦ .

(٥) طه حسين / مع المتنبى / ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٦) أحمد أحمد بدوى / من النقد والأدب - المجموعة الأولى / ٥٩ .

من الالتواء والفخر ، ثم يعده بالانتصار له حين يخلص من أسر هذا الأسود ؟ فكان ذلك فوق ما كان بينهما من جفاء سابق ، وضمائر ملتوية جداً جعلت هذه الصلة بين كافور والمتنبى تقف عند نهايتها المحتومة وهى القطيعة[1] .

وتذكر الروايات أيضًا أن الشاعر احتج فى هذه الفترة بالحيلة للخروج فكتب إلَى كافور يستأذنه فى المسير إلى الرملة لينتجز مالا بها وكأنه يريد أن يعرف رأى الأستاذ فى مسيره ولكن الأسود لم يخطئ كما أخطأ سيف الدولة من قبل فلم يأذن للشاعر وأجابه بقوله : لا والله أطال الله بقاءك لا نكلفنك المسير ولكن ننفذ رسولا يأتيك فلما قرأ الجواب قال أبو الطيب :

أَتَحْلفُ لاَ تُكَلِّفُنِى مَسِيرَا ... إلَى بَلَد أُحَاوِلُ فِيْه مَالاَ
وَأَنْتَ مُكَلِّفِى أَنْبَى مَكَانًا ... وَأَبْعَدَ شُقَّةً وَأَشَدَّ حَالاَ
إذَا سِرْنَا عَلَى الفُسْطَاطِ يَومًا ... فَلَقِّنِى الفَوَارِسَ وَالرِّجَالاَ
لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارقت منى ... وَأَنَّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِى مُحَالاَ[2]

ولقد ظهرت فى هذه الأبيات سخرية المتنبى بكافور إذْ منعه من السير حرصًا على راحته وتجنيبه السفر والمشقة التى يخشى منها ، ويتوعده بأنه إذا أراد أن يذهب لن يقدر على رده مهما بعث فى أثره من رجاله وفرسانه ، ويهدده بأنه سيعلم أى رجل يأبى الضيم وفى شوال سنة خمسين وثلاث مئة ، مات أبو شجاع فاتك الرومى الذى اتخذه المتنبى صديقًا مؤانسًا طول بقائه بمصر ، والذى نظن ظنا أنه تآمر معه على كافور ، وربما كان منع المتنبى من السفر خوفًا من عمل يدبرانه معًا وربما يدل على ذلك أن الشاعر لم يأخذ فكرة السفر مأخذا جديًا ولم يبادر إلى تنفيذها إلاَّ بعد أن مات فاتك ومات كل ما تبقى له من أمل فى مصر بموته ، فقد كان بإمكانه أن يرحل خلال المدة التى انصرمت بعد آخر مدة أنشد

---

(١) بلاشير / أبو الطيب المتنبى / حلب مجلة الحديث - السنة التاسعة - العدد السابع تموز يوليو ١٩٣٥م / ٤٧٤ ، ٤٧٥ . وانظر فى ذلك : أحمد الشايب أبحاث ومقالات / ٧٦ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

فيها كافورا بائيته الأخيرة ولكنه لم يرحل إلاَّ بعد أن مات فاتك ، ويبدو أنه شرع يدبر أمر هروبه بعد موته مباشرة (١) .

والجدير بالملاحظة حقا أنه فى مدحه لفاتك يخلو من السخرية ، كما أنه لم يشركه فيه ، «ولعل فى هذا ما يدل على استهانة نفسه الباطنة بكافور ونزوعه الشعورى إلى غمطه حقه وسلبه ما يمكن له سلبه من ثنائه الذى لا حيلة له فى إسباغه عليه وإن كان قد استخدم كل ما يملك من الحيل والوسائل لخلعه عنه إما بالإغارة على هذا الجزء وتحويله إلى نفسه ، أو بالتخابث فى صنعته ليحيله هجواً وسخرية ، أو بالغلو والمغالاة اللذين يفضحان كذبه ومداهنته ويدلان على أنه يريد الإحالة والإسقاط ونفى ما يصفه به من الصفات أو بأن يدلنا على الطريقة التي نقرأ بها هذا الشعر فيسقط عنه بهذه القراءة ما بدا لنا لأول وهلة فى صورة المديح وهو ليس كذلك ، وإذَا بقيت له أبيات قليلة فى كل قصيدة فثق أنها قد وضعت عمداً لإغاظة سيف الدولة فى نهاية الأمر دون أن يكون عنى بها حقًا مديح كافور » (٢) .

فهو، فى مديحه لفاتك راح يخرج إشاراته فى صور دقيقة بحيث تجرح كافورا الذى أذن له فى مديحه لفاتك مشيرا إلى ما كان من احتياله على الأستاذ ليأذن له فى مديحه بعد أن أهدى إليه ، ومعرضا بقصر همته عن اللحاق بنده أبى شجاع ولذا جاء شعره على قدر كل منهما (٣) .

لَطَفْتَ رَأْيَكَ فِى بِرِّى وَتَكْرِمَتِى ... إنَّ الكَرِيمَ عَلَى العَلْيَاءِ يَحْتَالُ
حَتَّى غَدَوْتَ وَلِلأَخْبَارِ تجْوَالُ ... وَلِلكَوَاكِبِ فِى كَفَّيْكَ آمَالُ
وَقَدْ أَطَالَ ثَنائِى طُولُ لاَبِسِهِ ... إنَّ الثَّنَاءَ عَلَى التِّنْبَالِ تِنْبَالُ
لَوْلاَ المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... أَلجُودُ يُفْقِرُ وَالإقْدَامُ قَتَّالُ (٤)

(١) عبد القادر البغدادى / خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب / تحقيق عبد السلام هارون ط الكاتب العربى تراثنا ١٩٦٨م / ٢ جـ / ٣٥٣ . وانظر فى ذلك / نعمان القاضى / كافوريات أبي الطيب . دراسة نصية / ٢٠٣ .

(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٣٣٢ .

(٣) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٣٢٧ .

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

وربما كانت مراثيه فى أبى شجاع فاتك من أكثر معارض شعره احتفالا بفناء الذات فقد وجد فيها دائمًا فرصة للتعبير عن معاناته الخاصة ومشاعره الحزينة فى أوقات القنوط واليأس نظرا لما كان لفاتك من منزلة خاصة فى قلبه ، إذ كان آخر آماله التي تعلق بها بعد أن خبا فى نفسه كل ما علقه من آمال على الأستاذ ، ولذلك يمكن أن نعد مرثياته مرثيات لآماله الضائعة فى مصر كالذى نراه فى عينيه من جزع ، نحس أنه صادر عن أعماق نفسه فى أسى صادق (١) .

الحُــزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّــجَــمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْـعُ بَيْنَهُــمَــا عَــصِىٌّ طَيِّعُ
يَتَنَازعَــانِ دُمُــوعِ عَيْنِ مُــسَهَّــدٍ هَـذَا يَـجِئُ بِـهَــا وَهَذَا يَـرْجِعُ
النُّوم بَعْــدَ أَبِـى شَـجَــاعٍ نَافِــرٌ وَالـلَّيْـلُ مَــعْـيِى وَالـكَواكِـبُ ظُلَّـعُ
إِنِّى لأَجْـبُـنُ مِنْ فِـرَاقِ أَحِـبَّــتِى وَتَحِسُّ نفْـسى بالـحِـمَـامِ فَأَشْـجُعُ
وَيَزِيْدُنِى غَـضَـبُ الأعَـادِى قَـسْوَةً وَيلِّمُّ بِى عَـتْبُ الصَّدِيقِ فَـأَجْزَعُ (٢)

ونرى ذلك واضحا فى قصيدته الميمية التى مطلعها:

حَتَّـامَ نَحنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِى الظُّلَمِ وَمَــا سُــرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَــدَمِ (٣)

حيث يتحدث عن ذاته فى غنائية منقطعة النظير .

وفى هذه القصيدة يفصح المتنبى عن كنه العلاقة التى كانت بينه وفاتك مما يدفع إلى الظن بأنهما كان يدبران معًا مؤامرة ضد كافور كما أشرنا إلى مثل هذا الظن ما ذكرته الروايات من أمر المفاوضات التى دارت بينهما (٤) .

ويسوغ هذا الظن أنها أبيات ملحقة بحديثه عن طلب المجد الذى أخطأ عندما طلبه عن طريق القلم والشعر ولم يطلبه عن طريق السيف والحرب فى حوار له مع أقلامه على هذا النحو :

---

(١) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٢ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٢٨٥ .

(٤) جمال الدين أبى المحاسن يوسف من تغرى الأتابكى / النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ط مصورة عن ط دار الكتب تراثنا / ٤ جـ / ٤ .

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِى قَوَائِلُ لِى ... المَجْدُ للسَّيفِ لَيْسَ المَجْدُ لِلقَلَمِ
أَكْتُبْ بِنَا أَبَدًا بَعْدَ الكِتَابِ بِهِ ... فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلأَسْيَافِ كَالخَدَمِ
أَسْمَعْتَنِى وَدَوَائِى مَا أَشَرْتُ بِهِ ... فَإِنْ غَفَلْتُ فَدَائِى قِلَّةُ الفَهَمِ
مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ ... أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ [1]

ثم تأتى الأبيات التى نلمح فيها شيئًا مما كانا يدبرانه .

تَوَهَّمَ القَوْمُ أَنَّ العَجْزَ قَرَّبَنَا ... وَفِى التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَى التُّهَمِ
وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصَافِ قَاطِعَةً ... بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَو كَانُوا ذَوِي رَحِمِ
فَلاَ زِيَارَةَ إِلاَّ أَنْ تَزُورَهُمُ ... أَيْدٍ نَشَأْ مَعَ المَصْقُولَةِ الخُذُمِ
مِنْ كُلِّ قَاضِيَةٍ بِالمَوْتِ شَفْرَتُهُ ... مَا بَيْنَ مُنْتَقِمٍ مِنْهُ وَمُنْتَقِمِ
صُنَّا قَوَائِمَهَا عَنْهُمْ فَمَا وَقَعَتْ ... مَوَاقِعَ اللُّؤْمِ فِى الأَيْدِى وَلاَ الكَزَمِ [2]

« ألا يمكننا أن نفهم من هذه الأبيات أنه يدفع عن صداقته فى أنها لم تكن بسبب الحاجة إلى المال وإنَّما كانت للمعاونة على ما كان يطلبه من الأمر العظيم وأنه يعتد بهذا التقرب كما يعتد بأنهما صانا سيوفهما عن أن تقع فى أيدى اللئام وأنهما تآمرا ولم يواجها أعداءهما ضنا بالسيوف أن تقع فى أيديهم اللئيمة ومهما كان الأمر فإنَّ الشاعر ظل يتذكر تجربته فى مصر بالأسى والمرارة وكان يغتنم كل فرصة أو مناسبة لينال فيها من كافور فيوجعه بهجائه المر » [3] .

أما ما كان من شبيب العقيلى ، فقد ولاه كافور على عمان والبلقان ، وقد عظم أمره وخرج على كافور وسار إلى دمشق بجيش كبير ودخل المدينة . ولكن شبيبا مات لأمر لا يعرف وجاء خبر موته إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٨هـ ، وطلب كافور من أبى الطيب أن يذكر ذلك فى شعره . فذكره ولكنه ذكر أنه لم يمت فى المعركة .

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٣) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٢١٨ .

وقد اتخذ بعض الدارسين من هذه القصيدة أن المتنبى لا يذم شيبا ، بل يحمده ويرثيه ويظهر عليه الأسف الشديد . وهو فى نفس الوقت يحمد حظ كافور ويهنئه بمواتاة الأيام والحوادث له وردها عدوه عنه في غير قتال ولا حرب. ولا أقف عند هذه القصيدة موقف المعجب المسائل ولا موقف المستريب المتشكك . ولا أظن أن كافورا قد شك فيها ، وما كان له أن يشك ، وهو فيما أرجح هو الذى أوحى المتنبى أن يقول هذه القصيدة ، وكلف أبا الطيب أن يذهب هذا المذهب ، ليخفى ما كان قد دبر من كيد ، أو ما زعم من الناس أنه دبر من يد . وهذا من سيرة الساسة المكرة فى كل مكان . وأول هذه القصيدة :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَو كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ القَمَرانِ
وَلِلهِ سِرٌّ فِى عُلاَكَ وَإِنَّمَا كَلاَمُ العِدَا ضَرْبٌ مِنَ الهَذَيَانِ [(١)]

والدارسون يسيئون الظن بهذا البيت ، ويرى بعضهم أنه إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح ، وكأن أبا الطيب قد جعل ارتفاع قدر كافور أثرا من آثار المصادفة، ونوعا مما تنكشف عنه الظروف ، والواقع أن البيت مدح خالص لا غبار عليه ولا لبس فيه ، لأن الشاعر لا يريد إلاّ أن يقول : إنَّ اللَّهَ كتب العلا لكافور ، وهيأ له قهر الحوادث ، وذلل له المصاعب والعقبات ، دون أن يكلفه أى جهد أو يحمله أى عناء ، لأنه أتاح له حظًا موفقًا سعيدًا ، فمن الحق على أعدائه أن يعلموا أن الله معه ، وأن الزمان مواتيه ، فلا يطمعوا فيه ولا يشكو فيما كتب له من فوز وتوفيق [(٢)] .

ولكن النقاد المعاصرين يرون أن هذه القصيدة لم تكن فى مدح كافور بل فى هجائه أو رثائه لشبيب بل تأبينًا ممزوجا بالحسرة والحزن على الفقيد لا هجاء له كما كان يتوقع كافور وتعد هذه القصيدة تمجيدًا لبطولة شبيب واستنكارًا للطريقة التى قتل بها غدرًا وكأنما وجد الفرصة لينال من كافور ويحفظه فأنشده قصيدته التى بدأها بداية خبيثة وعجيبة على هذا النحو :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٢٤٢ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣١٤ ، ٣١٥ .

عَـــدُوُّكَ مَـــذْمُــومٌ بِـكُلِّ لِسَـــانِ وَلَوْ كَـــانَ مِـنْ أَعْـدَائِكَ القَــمَـرانِ
وَلِلَّـهِ سِـــرٌّ فِى عُـــلاَكَ وَإِنَّمَـــا كَـلاَمُ العِـــدَا ضَـرْبٌ مِنَ الهَــذَيانِ
أَتَلْتَـمسُ الأَعْـدَاءُ بَعْــدَ الَّذِى رَأَتْ قِـيَـــامَ دَلِيلٍ أَوْ وُضُـــوحَ بَـيَـــانِ
رَأَتْ كُلَّ مَنْ يَنْوِى لَكَ الغَـدْرُ يُبْتَلَى بِغَـــدْرِ حَـــيَـــاةٍ أَوْ بِغَـــدْرِ زَمَـــانِ [١]

« فهو يتهم كل مـن عاداه بأنه مذموم بكل لسان حتى لو كـان القمران من أعدائه لصارا مذمـومين مع نفعهمـا وارتفاعهما ، وهو هجـاء ظاهره المديح إذ معناه أنه سافل وضيع والسـافل لا يضاهيه إلاَّ مثله . وَإِذَ كـان ما يعاديه مثله فهـو مذموم بكل لسان لسفالته كما أنه كـذلك ولو عاداه القمران ، أى هو مذموم فى الحالين سواء أكان عدوه مـثله أم خيرا منه ، ثم يسخر منه سخـرية مرة إذ يقول له إنَّ لله سرا فى ما أعطاك من العلو الذى لا تستحقـه لا يعرفه أحد من الناس وما يخوض الناس فيه من التماس تبريره ضرب من الخبط المعمى عليهم سره » [٢] .

ومـمـا يدل على تصديق هذا القول كمـا يقول نعمـان القاضى علينا أن نرجع إلى دراسة بعض هذه الأبيات من هذه القصيـدة لكى نتبين وجه الصواب فى ذلك . إذ إن أبا الطيب أخذ يتـهم كافورا بالغدر ويتـهكم به ، ثم لا يلبث أن يصف موت شبـيب بأنه بعيـد عن العار ، وأن هذا الموت لم يحـدث له إلاَّ بعد مـا أكده على مفارقة سيفه ، وأنه وَإِنْ مات فالموت غاية كل حى ولا عار فى ذلك عليه فقد كان نارا تحرق أعداءه ويثير غـبار المعارك فنال حياة طيبة يتشـهى عدوه مثلها من المنعة والعزة ، ثم مات موتا يشهى الموت إلى الجبناء فقد نفى عن نفسه الرماح رمحه ، ولكنه عجز عن أن يدفع المقدار غير مـدرك أن الموت فوق رأسه أَيْنَما اتجه ، فقد كان شبيب يقتل أنداده ويتغلب عليهم حتى قتلتـه فى غير ميدان القتال بالغدر فمات فجأة دون أن يستدل على موته وكيفيـته ولو كان تصدى له سلاحًا وجهًا لوجه لرده لأنه بطل لا يغلب ولكن الغدر جاء من غير طريق السلاح [٣] .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) نعمان القـاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصيـة / ١٨٢ . وانظر فى ذلك عبد الوهاب عزام / ذكـرى أبى الطيب بعد ألف عـام / ١١٩ ، ١٢٠ . وأحمـد أحمد بدوى / مـن النقد والأدب المجموعة الأولى / وجابر قميحة / منهج العقاد فى التراجم الأدبية / ٤٣٩ .

(٣) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٨٢ .

برغْمِ شَبِيْبٍ فَارقَ السَّيْفَ كَفُّهُ ... وَكَانَا عَلَى العلاَّت يَصْطَحبَان
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لسَيْفه : ... رَفيقُكَ قَيْسِىٌّ وَأَنْتَ يَمَانِى
فَإنْ يَكُ إنْسَانًا مَضَى لسَبيْله ... فَإنَّ المَنَايَا غَايَةُ الحَيَوان
وَمَا كَانَ إلاَّ النَّارُ فِى كُلِّ مَوْضعٍ ... يُثِيرُ غُبَارًا فى مكَان دُخَان
فَنَالَ حَيَاةً يَشْتَهِيهَا عَدُوُّهُ ... وَمَوتًا يُشَهِّى المَوْتَ كُلَّ جَبَان
نَفى وَقْعَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ بِرُمْحِه ... وَلَمْ يَخْشَ وَقْعَ النَّجْمِ وَالدَّبرَان
وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ المَوتَ فَوقَ شَوَاته ... مُعَارُ جَنَاحٍ ، مُحْسِنِ الطَّيَرَان
وَقَدْ قَتَلَ الأَقْرَانَ حَتَّى قَتَلْتَهُ ... بأضْعَفَ قَرْنٍ ، فِى أَذَلِّ مَكَان
أَتَتْهُ المَنَايَا فى طَرِيقٍ خَفِيَّةٍ ... عَلَى كُلِّ سَمْعٍ حَوْلَهُ وعَيَان
وَلَو سَلَكَتْ طُرْقُ السِّلاَحِ لرَدَّهَا ... بطُول يَمِينٍ وَاتِّسَاعِ جَنَانِ [(١)]

وتستمر سخرية المتنبى بكافور فى هذه القصيدة إذ يقول :

قَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ أنَّكَ أَوَّلُ ... وَلَيْس بقَاضٍ أَنْ يَرَى لَكَ ثَانى
فَمَا لَكَ تَخْتَارُ القِسِىَّ وَإنَّمَا ... عَن السَّعْد يَرْمِ دُوْنَكَ الثَّقَلاَن
وَمَا لكَ تُعْنَى بِالأسنَّة وَالقَنَا ... وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بغَيْرِ سنَان
وَلَمْ تَحْمِلِ السَّيفَ الطَّوِيْلَ نِجَادُهُ ... وَأَنْتَ غَنِى عَنْهُ بِالحَدَثَان [(٢)]

فالله قد قضى أن يكون كافور أولا ولا يلحقه أحد ولم يخبرنا المتنبى بمحال هذه الأولوية ولا حاجة له باستجادة القسى ولا العناية بالأسنة والقنا والسيوف ، وكأنما يلفت إلى الطريقة التى قتل بها شبيبا دون حاجة إلى أى من هذه الأسلحة التى لا قبل له باستخدامها فى مجال الشرف الذى لا يستطيع السير فيه ، ويهزأ به غاية الهزء ، إذ يجنح إلى الإحالة المستحيلة فيجعل المقادير جارية بحكم إذا أراد شيئا كان فلو كره دوران الفلك لحدث له ما أبطل حركته وعطله عن الدوران [(٣)].

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
(٢) المصدر السابق / ٤ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٣) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٨٣ .

أَرِدْ لِي جَمِيْلاً : جُدْتَ أَوْ لَمْ تَجُدْ بِهِ ... فَـإِنَّكَ مَـا أَحْـبَـبْتَ فِيَّ أَتَـانِي

لَوِ الفَلَـكُ الدَّوَّارُ أَبْغَـضْتَ سَعْـيَـهُ ... لَعَـوَّقَـهُ شَيءٌ عَـنِ الدَّوَرَانِ [1]

وفي مقطوعة أخرى نراه يذكر وفاة فاتك في سنة خمسين وثلاث مئة ويهجو فيها كافورا إذ يقول :

وَأَسْـوَدُ أَمَّـا القَلْبُ مِـنْهُ فَـضَـيِّقٌ ... نَحِـيْبُ وَأَمَّـا بَطْنُهُ فَـرَحِـيْبُ

يَمُـوتُ بِهِ غَـيْظًا عَلَى الدَّهْرِ أَهْلُهُ ... كَمَـا مَـاتَ غَـيْظًا فَـاتِكٌ وَشَـبِيْبُ

أَعَـدتُ عَلَى مَـخْـصَـاهِ ثُمَّ تَرَكْـتُـهُ ... يُتَـبِّعُ مِنِّي الشَّـمْسَ وَهْيَ تَغِـيْبُ

إِذَا مَا عَدِمْتَ الأَصْلَ وَالعَقْلَ وَالنَّدَى ... فَـمَـا لِحَـيَـاةٍ فِي جَنَابِـكَ طِيْبُ [2]

فهو يشير إلى أنَّ فاتكا وشبيبا قد ماتا من الغيظ إذ رأيا هذا الأسود الضيق القلب الأجوف البطين مليكا ، ثم يفخر بأهاجيه التي أعادت خصيه مرة أخرى ، فلم يدركه كما لايدرك من يتبع الشمس في غروبها شيئًا ، ولعلنا نجد عزمه في البيت الأخير على الرحيل من مصر حيث قرر أنه عدم في كنف كافور الأصل والعقل والندى [3] .

وفي قصائد المتنبي في فاتك وشبيب تظهر شجاعة كل من الرجلين،وأنهما كانا دائمًا يقلقان كافورا ويكونان جبهة داخلية تناقض حكمه ، وكأنَّ المتنبي وجد فيهما ضالته بعد أن غادر سيف الدولة ، فهما رجلان لهما من الأخلاق والعادات ما يهيئهما على إقامة ملك يضاهي ملك كافور وحاشيته ولو نجح هذان القائدان في مهمتهما فسوف ينجح هو في مهمته التي جاء إلى مصر من أجلها ، ونلاحظ نزوع المتنبي إلى الخروج على السلطان مما يدل على أن المتنبي لم يتنازل عن طلبه للمجد والمعالي منذ أن كان في بادية الشام إلى أن وصل مصر ، وهو في بقائه عند كافور لم يجد وعودا صادقة تشفي غليله وتصل به إلى المركز الذي يسعى إليه . فوجد ضالته في هذين القائدين لأنهما خرجا على كافور كما خرج هو بشعره عليه في آخر أيامه في مصر .

(١) أبو البقاء العكبري / ديوان أبي الطيب المتنبي / ٤ / ٢٤٧ .

(٢) أبو الطيب المتنبي / ديوانه تقديم وتصحيح عبد الوهاب عزام / ٣٩٥ .

(٣) نعمان القاضي / كافوريات أبي الطيب . دراسة نصية / ٢٠٤ .

ومن هنا كان المتنبى يحب الشجاعة والفتوة ولا يقول إلاَّ الحقيقة الواضحة، وفى قصيدته فى شبيب ما يوضح أنه قد سمع عن هذا القائد كل خير، وأنه فارس من فرسان العرب وسوف يتغلب على خصمه كافور ، وربما يرحل إليه فيجد عنده هدفه الذى يصبو إليه . ولكن القضاء كان ضده إذ مات دون أن يدخل المعركة ومات ميتة لا يعرف سببها ويقال : إنه مات مسمومًا ويقال أيضًا إن امرأة ألقت عليه حجرًا من عمارة فمات فى الحال . . . وكأن المتنبى حن على هذا القائد العربى الذى يرُى فيه مثله في الشجاعة والفروسية، ولكن يد المنون خطفته قبل أن يصل إلى الموقعة مما أدى إلي موت ثورته على كافور فى مهدها.

★ ★ ★

د- علاقته السياسية مع البويهيين :

١) أسباب خروج المتنبى من مصر :

قبل أن ندخل فى دراسة سياسة المتنبى مع البويهيين أرى أن نلمح إلى سبب خروج المتنبى من مصر . يقول أحمد أمين : إن الزمان أخطأ فوضعه فى غير موضعه ، أعطاه نفس ملك ولسان شاعر ، ووقفه يدُ أبواب الأمراء يمدحهم، وهو إذ يمدهم يرى منزلته حقا أو باطلاً فوق منزلتهم فكان شأنه شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسيتهم ومنصبهم ، نفس رئيس ومنصب مرؤوس، أو نفس نضال وحرب ومنصب ذلة وهوان . وهذان العنصران إذا اجتمعا سببا شقاء صحابهما ، لذلك كانت نفس أبى الطيب ثائرة دائمًا . ومن يدرى ؟ لعل ما منحنا من شعر جزل جميل كان نتيجة هذا العناء ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد إلى الراحة ، فكم كان البؤس والشقاء والاضطهاد والفقر والعذاب نعمة على الإنسانية بما أخرجت من فن جميل وشعور نبيل .

وبعد فمع هذا كله لم يجد أبو الطيب عوضا عن سيف الدولة فى علو شأنه وكرمه وعروبته وذوقه وفروسيته . من هنا حنق كافور على المتنبى إذ لا يفتأ أن يذكر الأمير الحمدانى فى كافورياته ، وهو فى بلاط كافور يطلب الملك فلم ينل

ملكا ولم يجد ممدوحا ينطقه بالمعانى كما أنطقه سيف الدولة ، وقد عرض به أول أمره بمصر ، ولكنه أدرك الحقيقة المرة فتاب وأناب وندم على ما كان ، وحن إلى سيف الدولة - وحن سيف الدولة إليه ، فيقول . . . وقد عزا فعل كافور به وغدره إلى غدره لسيف الدولة الحمداني وكأنما تنتقم الأيام منه وترد له غدره بأمير حلب لأنه كفر بنعمته وفارق خير الناس طرا وأكرمهم ليقصد شرهم طرا وأخسهم [١] .

لَعَمْرُكَ مَا دَهْرٌ بِهِ أَنْتَ طَيِّبٌ أَيَحْسبُنِى ذَا الدَّهْرِ أَحْسبُهُ دَهْرا
وأَكْفر يا كَافُورُ حِينَ تَلُوحُ لِى فَفَارَقْتُ مُذْ فَارَقْتُكَ الشِّرْكَ وَالكُفْرا
عَثَرْتُ بِسَيْرَى نَحْوَ مصر فَلا لَعا بِهَا ولَعًا بالسَّيرِ عنها ولاَ عَثْرَا
وَفارَقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قَاصدَ شَرَّهُمْ وَأَكْرَمَهُمْ طُرّا لألامِهِم طُرَّا
فَعَاقَبَنِى المَخْصىُّ بالغَدْرِ جَازِيًا لأنَّ رَحِيْلِى كَانَ عَنْ حَلَب غَدْرَا
وَمَا كُنتُ إلاَّ فائِلَ الرَّأْىْ لَمْ أُعَنْ بِحَزْمٍ وَلاَ اسْتَصْحَبْتُ فِى وِجْهَتِى حِجْرَا [٢]

ومن هذا المنطلق فإن سبب خروج المتنبى يكمن فى شعره الذى قاله فى مصر ، فهو فى البداية يعاتب سيف الدولة ويحن لمفارقته ، وربما كان هذا سببًا من أسباب غضب كافور عليه ، وكان فى بداية أمره يتجه نحو كافور ، وكان فى الطور الثانى مترددا بينه وبين سيف الدولة محاولا أن يضرب كلا بالآخر ، وربما كان المنتظر هنا أن ينظر إلى الخلف ويتجه إلى حلب ، وكيف وهى قد أعرضت عنه ؟ وهل كان يظن أن يعنى به آل حمدان وهم يرونه فى ساحة الأعداء ويسايرهم ويمدحهم مدحًا مهما تقل قيمته وغايته فقد كان المتنبى لا يستطيع العدول عنه إلى حلب أو غيرها [٣] .

---

(١) أحمد أمين / المتنبى وسيف الدولة / الثقافة - السنة الرابعة العدد ١٧١ يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الأول ١٣٦٧هـ ، ٧ إبريل ١٩٤٢م / ١٢ ، ١٣ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب دراسة نصية / ٢١٤ . ونعمان ماهر الكنعاني / المتنبى بين الحمداني والإخشيدى / الأقلام - السنة الثانية - الجزء الثانى فى جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ - تشرين أول / ١٩٦٥م / ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) يوسف البديعى / الصبح المنبى / ١٠٦ .

(٣) أحمد الشايب / أبحاث ومقالات / ٧٠ .

وتراه فى البداية يكثير من مدح كافور ويلمز صاحبه القديم يقول :

قَــوَاصِــدَ كَـافُــورٍ تَوَارِكَ غَـيْــرِه ... وَمَنْ قَـصَـدَ البَـحْـرَ اسْتَقَلَّ السَّـوَاقِـيَـا
فَـجَــاءَتْ بِنَا إِنْسَــانَ عَـيْنِ زَمَــانِه ... وَخَلَّتْ بَيَــاضًــا خَلْفَــهَـا وَمَــآقِـيَــا
تَجُـوزُ عَلَيْهَـا المُحْسِنِينَ إِلَى الَّذِى ... نَرَى عِـنْدَهُمْ إِحْــسَــانَهُ وَالأَيَـادِيَا [1]

وتكاد هذه الأبيات أن تمثل موازنة بين الرجلين فبينما جعل كافورا بحرا جعل سيف الدولة ساقية وبينما جعل كافور إنسان عين الزمان كناية عن سواده جعل سيف الدولة بياض العين وهو فضول لا حاجة إليه لأنه لا يغنى غناء سوادها ، وبينما جعل سيف الدولة محسنا من المحسنين جعل كافورا صاحب الأيادى على هؤلاء المحسنين [2] .

ويقول البغدادى فى ذلك - ويذكر الرواة أنَّ سيف الدولة لما بلغه هذ البيت قال له : الويل له جعلنى ساقية وجعل الأسود بحرا ، وأنه رسم التوقيع إلى ديوان البر باخراج الحال فيماوصل به الشاعر فخرجت صلاته خمسة وثلاثين ألف دينار فى أربع سنين [3] .

وقد رمي أبو الطيب لهذه الأبيات بانعدام المروءة ونقض العهد وعدم الوفاء ولكن الذين يرمونه بهذا لم يلتفتوا إلى مقصد الشاعر من وراء ذلك فعدوا مبالغته فى مديحه تهالكًا لأنهم أغضوا عن أحواله وما كان يشغل باله وبخاصة فى هذا اللقاء الأول بين الشاعر والأمير الجديد [4] .

وفى ربيع الآخر سنة ٣٤٧ هـ حدث أن أصيب لأبى الطيب فرس وحزن عليه حزنًا شديدًا ولما تبين الأستاذ ذلك أهداه فرسًا أدهم عوضًا عنها فوجد فيها

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٩٧ ، ٩٨ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) البغدادى / خزانة الأدب / ٢/٣٥٣.

(٤) على أدهم / المتنبى وأهيل عصره / الثقافة - العدد ٣٨٩ رجب ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م / ١٢ . نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٤٦ .

الشاعر فرصة مواتية ليلقى بقصيدته التى حاول فيها أن يستكنه حقيقة ما يحيط بمواقف الأستاذ منه وقد لاحظ القدماء أن هذه القصيدة خرجت موجهة يشتاق فيها صراحة لسيف الدولة [1].

وهذا أول ما قلب به أبو الطيب ظهر المجن لكافور دون أى تعريض به لأول مرة وقد بدأها على هذا النحو :

فِــرَاقٌ وَمنْ فَـارَقْتُ غَـيْـرَ مُـذَمَّمِ ... وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ

وَمَـا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ عِنْدِى بِمَنْزِلٍ ... إِذَا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وَأُكَرَّمِ

سَجِيَّةُ نَفْسٍ مَا تَزَالُ مُلِيحَةً ... مِنَ الضَّيْمِ مَرْمِيًّا بِهَا كُلُّ مَخْرَمِ

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ ... عَلَىَّ وَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ ضَيْغَمِ [2]

فالمتنبى نادم علي فراقهم أمل من الوجهة إليهم مبينًا أن المنازل لا تتفاضل عنده إلاَّ مما يحظى فيها من تكريم وتبجيل فطرت عليها نفسه التى يضن بها أن تهضم فيقذف بها فى كل درب وصوب ويصور ما تركه فى نفس الأمير الحمدانى ألم بمفارقته فيزعم أنَّ لابد أن يبكى عليه تحقيقًا لما كان قد أنذره به عندما تنبأ بندمه إنْ هو فارق حلب ويمضى فيصور كذلك ما يجده من المرارة ، فالذى به ليس ندمًا على فراق حبيبه ولو كان كذلك لما أضناه وأهمه ، ولكن فراق رجل حبيب إلى قلبه أساء إليه ولكنه لحبه إياه مغلول عن رد إساءته بإساءة مثلها فكان شأنه شأن رام يرميه متدرعًا بحب الشاعر إياه واثقًا من أن حبه له سيمحيه منه وإنما قصد المتنبى بذلك إلى تنبيه كافور لما كان يحوكه ضده بعض مناوئيه ممن تأبى على مدحهم كابن الفرات وغيره ضاربًا له المثل بما فعله الأمير الحمدانى من الظن والشك [3].

---

(١) البغدادى / خزانة الأدب / ٢/ ٣٥٣.

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٣٤.

(٣) كامل كيلانى / بين المتنبى والحاتمى / مصر مجلة المقتطف - الجزء الثاني من المجلد السادس والسبعين رمضان ١٣٤٨هـ ، ١٩٣٠م/ ١٨٩. وعبد الرزاق حميدة / الأدب العربى فى مصر إلى الفاطميين ط الأنجلو المصرية ١٩٥٧م - ١٣٧٧هـ/ ٢٥٨ . وأحمد الشايب / أبحاث ومقالات / ٦٢ ، ٦٣ . نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٦٤ ، ١٦٥ .

وقد أكثر المتنبى من حنينه إلى صاحبه القديم سيف الدولة ولا شك أن هذا الحنين فى كافوريات المتنبى يزعج كافوراً وربما حمله على عدم تلبية طلبه، وربما كان هذا من أسباب عدم الوفاق بين الرجلين . إذْ إن المتنبى صمت بعد داليته فى مدح كافور والصلح بينه وأنوجور ثمانية أشهر حتى وصله كافور بست مئة دينار ذهبًا لعلـه تلهيه عن رجائه وتطلق عقال لسانه بما امتنع عنه من المديح فنظم المتنبى قصيدة فى عيد الفطر سنة ٣٤٧ هـ وقد فات على إقامة الشاعر سنةوشهران لم يحقق فيها مراده وأمله وقد طفح به الكيل ولم يطق اصطبارا ونما حقده وترعرع إلاَّ أنه وإنْ كان لا يرى الأستاذ يحقق له مبتغاه ، فَإنَّه ما يزال يعلق أملا على إمكان إخراجه بالخديعة والاحتيال ويجذبه بأية وسيلة إلى تحقيق ما يتردد فى تحقيقه عن طريق توريطه وخديعته عن نفسه بمدحه وإغرائه، ولذلك نراه في مفتتح هذه القصيدة يبدى منتهى الألم على فراق سيف الدولة ويقر بخطئه فى قصده كافور ولكنه يختتمها بمدح كافور مدحًا فعاليًا لعلمه أنها ستبلغه وإنْ لم ينشده إيَّاهَا ، وقد استهلها استهلالاً رائعًا بالحنين إلى أميره فى حلب ومغالبته الشوق إليه :

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوقَ وَالشَّوقُ أَغْلَبُ ... وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَالوَصْلِ أَعْجَبُ

أَمَا تَغْلَطُ الأَيَّامِ فِيَّ بِأن أرى ... بَغِيضًا تُنَائِى أَوْ حَبِيبًا تُقَرِّبُ

وَلِلَّه سَيْرى مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً ... عَشِيَّةَ شَرْقِى الحَدَ إِلَى وَغُرَّبُ

عَشِيَّةَ أَحْفى النَّاسُ بِى مَنْ جَفَوتُهُ ... وَأَهْدَى الطَّرِيقَينِ الَّذِى أَتَجَنَّبُ (١)

فهو يغالب الحنين والحنين يغلبه ، ويعجب من أمر الدنيا التى فرقت بينهما ولكنه يستدرك بأن الذى يستحق العجب هو أن تسمح الأيام باستمرار الوداد والوصال ، ويتمنى أن تخالف الأيام طبعها ذات يوم فتقرب ما بينه ومن يحب وتباعد بينه ومن يبغض ، ثم يعجب من تسرعه فى الرحيل عنه إلى مصر حين غذ السير من حلب وجبل الحد إلى وغرب إلى الشرق منه ويستمر فى تعجبه مما صنعه بنفسه،

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١٧٦/١، ١٧٧، ١٧٨ .

إذ هجر أخص الناس به وتنكب أهدى الطريقين معرضًا بما جاء إليه وقلة تكريمه له نادمًا على ما كان من ضلالة بمراده ويرحل فى هذه المقدمة الرائعة التى استهل بها القصيدة على عادة الشعراء القدماء (١) .

ويعاوده الحنين إلى سيف الدولة فى قصيدته النونية فى سنة ٣٤٨ هـ ، ويصف حقيقة مشاعره منذ خلف حلب وما عانى من لواعج الفراق ، ثم يزعم أنه سلا وبرئ من حبه بعد ذلك وأنه قمين بأن يسلو من لا يقدر صداقته وكأنما يهدد كافورًا (٢) .

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِى وَحْشَةً لَكُمُ ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِى وَأُرْعَوى الوَسَنُ
وَإِنْ بُلِيتُ بِوُدٍّ مِثْلِ وُدِّكُمُ ... فَإِنَّنِى بِفِرَاقٍ مِثْلِهِ قَمِنُ (٣)

ونرى الشاعر يعود فيؤكد صدق محبته وإعجابه بصديقه القديم واستحقاقه وحده لمديحه ، بعد أن قطع الشك فى نفسه نجد كافور وشحه وتلعبه به ، ولذلك امتلأت فى هذه الفترة أهاجيه لكافور بالثناء على سيف الدولة . وكان يعمد للموازنة بين جود سيف الدولة الحقيقى وجود كافور المدعى (٤) .

أُقِيمُ عَلَى عَبْدٍ خَصِىٍّ مُنَافِقٍ ... لَئِيمٌ رَدِىءِ الفِعلِ لِلجُودِ مُدَّعِى
وَأَتْرُكُ سَيفَ الدَّوْلَةِ المَلكُ الرِّضَا ... كَرِيمَ المُحَيَّا أَرْوَعًا وَابْنُ أَرْوَعِ
فَتىً بَحْرُهُ عَذْبٌ وَمَقْصِدُهُ غِنىً ... وَمَرْتَعُ مَرعَى جُودٍ خَيرُ مُرْتَعِ
تَظَلَّ إِذَا مَا جِئْتَهُ الدَّهْرَ آمِنًا ... بِخَيْرِ مَكَانٍ بَلْ بِأَشْرَفِ مَوضِعِ (٥)

---

(١) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٧١ ، ١٧٢ . وانظر في ذلك عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١١٧ .

(٢) أحمد الشايب / أبحاث ومقالات / ٦٧ وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب / ٩٧، ٩٨/ ونعمان القاضى كافوريات أبى الطيب / ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /٤/ ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٤) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٥) يوسف البديعى / الصبح المنبي / ١٠٧ .

ويفصح فى قصيدة الحمي عما يلاقيه من كبت الأسر ومرارة القيد والبقاء فى ضيافة البخلاء :

مَلُومكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلاَمِ ... وَوَقْعُ فَعَالِه فَوقَ الكَلاَمِ
ذَرَانى وَالفَلاَةَ بِلاَ دَلِيلٍ ... وَوَجْهِى وَالهَجِيرَ بِلاَ لِثَامِ
فَإِنِّى أَسْتَرِيحُ بِذَا وَهَذَا ... وَأتْعَبُ بِالإنَاخَةِ والمَقَامِ
عُيُونُ رَوَاحِلِى إنْ حِرتُ عَيْنِى ... وَكُلُّ بُغَامٍ رَازِحَةٍ بُغَامِى
فَقَدْ أَرِدَ المِيَاهَ بِغَيْرِ هادٍ ... سِوَى عَدِّى لَهَا بَرْقَ الغَمَامِ
يُذِمُّ لِمُهْجَتِى رَبِّى وَسَيْفِى ... إذَا احْتَاجَ الوَحِيدُ إلَى الذِّمَامِ
ولاَ أمْسِى لأَهْلِ البُخْلِ ضَيْفًا ... وَلَيْسَ قِرى سِوَى مُخِّ النَّعَامِ [(١)]

وهذا تعريض صريح ببخل كافور ولؤم ضيافته ، ويمضى الشاعر فيصور فى مرارة بالغة ما آل إليه فى محبسه وما صار يجده حوله من سوء خلق الناس ونفاقهم[(٢)] .

وقد أكثر من تعرضه فى هذه القصيدة لمشاعر كافور ، واتهمه بالرياء والمداجاة وفى ذلك تعبير عن حالة الشك التى صار الشاعر يعانى منها لما بثه الأمير من حوله من العيون حتى بات لا يعرف أحدًا يأمن إليه : يقول :

فَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا ... جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بابتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيْه ... لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ
يُحِبُّ العَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِى ... وَحُبُّ الجَاهِلِينَ عَلَى الوَسَامِ [(٣)]

ويروى أن أبا الطيب ذكر أنه كان إذا دخل على كافور لنشده ضحك له وبش فى وجهه حتى سمع هذين البيتين فما ضحك بعدهما فى وجهه إلى أن تفرقا فعجب الشاعر من فطنته [(٤)] . ويقول أبو الطيب :

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤ .
(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٨٧ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١٤٤ .
(٤) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٨٨

يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبُ أَكَلْتَ شَيْئًا وَدَاؤُكَ فِى شَرَابِكَ وَالطَّعَامُ
وَمَا فِى طِبِّهِ أَنِّى جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الجَمَامِ
تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبِّرَ فِى السَّرَايَا وَيَدْخُلُ مِنْ قَتَامٍ فِى قَتَامِ
فَأُمْسِكَ لا يطال لَهُ فَيَرْعَى وَلاَ هُوَ فِى العَلِيقِ وَلاَ اللِّجَامِ [1]

وهى إشارة واضحة إلى إمساك كافور له وتضييقه عليه وبخله بما طمع إليه فلا هو مرخى الطول فيرعى حراً ولا هو على سفر طليقًا يمارس حياته كما يحب بعيداً عن الفسطاط ولكنها حالة عارضة ما يلبث أن يبلى منها ما دام صبره معافى وعزمه صحيحًا ، وقد أعجب أهل مصر ولا شك القصيدة الجيدة ، ورددوها واهتموا بما فيها من تعريض بكافور وذم لبخله وإمساكه الشاعر عن الرحيل ، ويبدو أن مديح الشاعر لفاتك وتأبينه لشبيب قد أضافا إلى غضب كافور غضبًا آخر فأعرض عن أبى الطيب ، لكنه حرص على ألاَّ يطلقه إذ لا يأمن من انطلاق لسانه خارج الفسطاط كما انطلق لديه فى الحمدانيين فأبقاه على هذا النحو الذى وصفه الشاعر فى هذه القصيدة [2] .

إنَّ فى هذا التعريض بكافور فى شعر المتنبى عاملاً من العوامل التي جعلت المتنبى يغادر الفسطاط ، إذ إن كافورا وأدباء مصر ، فهموا ما فى شعر المتنبى من تعريض بكافور ، ونبهوا كافوراً إلى كثرة حنين المتنبى لصاحبه القديم مما لا يصح من أمثال هذا فى مدحه .

وبعد هذا التعريض أخذ المتنبى يناقض نفسه فى مدح كافور وذلك عندما زعم في معرض مديح كافور ، أن المرء إذا يممه وترك أهله وراءه فلا يشعر بغربة حين قال :

إذَا تَرَكَ الإنْسَانُ أَهْلاً وَرَاءَهُ وَيمَّمَ كَافُوراً فَمَا يَتَغَرَّبُ

فإنَّه ما يلبث أَنْ يناقض قوله هذا بقوله :

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١٤٨/٤ .
(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / ١٩١، ١٩٢ .

يُضَاحِكُ فى ذَا العِيدِ كُلُّ حَبِيبَهُ حِذَائِى وَأَبْكِى مَنْ أُحِبُّ وَأَنْدُبُ
أَحِنُّ إِلَى أَهْلِى وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأَيْنَ مِنَ المُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ (1)

فيتحسر على بعده وغربته وبكائه وندب أحبابه فى هذا العيد حيث يضاحك كل حبيبه سواه ويحن حنينا ويتمنى معه أن تغرب به العنقاء إلى حيث يلقاهم وما يلبث أن يعود إلى تخابثه وعبثه كرة أخرى حين يختار كافور على أهله ، ويراه أحلى منهم وأعذب فى فؤاده ويفصح عن العلاقة التى تربطه به ، فإذا هى محض مصلحة ولا ود فيها ولا محبة ولا صداقة إذ يقول :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَبُو المِسْكِ أَوْ هُمُ فَإِنَّكَ أَحْلَى فِى فُؤَادِى وَأَعْذَبُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يُوْلِى الجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٌ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

ويمضى فى غمزه ولمزه إلى حد تصويره حسودا لمن ينعم عليهم بأمواله حسدا لا يصدر عن كريم النفس وقد عمى قصده فى صياغة بارعة لا تدرى معها من يحسد ومن الحاسد ومن المُحَسَّد :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فى نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ (2)

« فظاهر البيت أن المنعم عليه يكون أشد أهل الظلم ظلمًا إذا حسد صاحب نعمته التى يتقلب فيها . ولكن باطن البيت أن المنعم إذا بات حاسدًا لمن بات يتقلب فى نعمته يكون أشد أهل الظلم ظلمًا ، وهذا أليق بصحة المعنى إذ من المألوف أن يحسد المنعم عليه صاحب نعمته لما له من وفرة إلى قلته وفقره وحينئذ يكون ظالمًا ولكن إذا كان الحاسد هو صاحب النعمة على ماله من وفرة المحسود هو الذى يتقلب فى نعمته كان هذا أشد أهل الظلم ظلمًا ، وأشدهم دناءة وحقارة نفس. وهى صياغة موهمة وبخاصة أنه ذر للرماد في العيون شرع يتحدث عن بعض حاسديه الذين لاذوا بابن الإخشيد وتنكروا للأستاذ » (3) .

(1) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / 1/ 181، 183 .
(2) المصدر السابق / 1/ 183 ، 185 .
(3) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب / 174 .

ولم يقف عند حد التعريض بكافور وتناقضه فى مدحه ، فَإنَّه أخذ يهجوه من خلال مدحه ، وهذا عامل آخر يضاف إلى العوامل السابقة من أن كافورا ومجلسه بدأوا يعرفون ما يخبئ المتنبى فى شعره ، فأخذ الحقد من كافور ومن المتنبى مما جعلهما يفترقان فيما بعد . ومن هذا الشعر الذى بدا فيه استهتار المتنبى بكافور ومشاعره قوله :

وَيُغْنيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ ... إلَيكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وَتَنْسَبُ
وأَىُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ ... مَعَدُّ بنُ عَدْنَانٍ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ
ومَا طربى لَمَّا رأيْتُكَ بدْعَةً ... لَقَدْ كُنْتُ أَرجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ
وَتَعْذُلُنِى فِيْكَ القَوَافِى وَهِمَّتِى ... كَأَنِّى بِمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مُذْنِبُ
ولَكِنَّهُ طَالَ الطَّرِيقُ ولَمْ أَزَلْ ... أُفَتِّشُ عَنْ هَذَا الكَلَامِ وَيُنْهَبُ
فَشَرَّقَ حتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ ... وَغَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلغَرْبِ مَغْرِبُ
إذَا قُلْتُهُ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ وُصُولِهِ ... جِدَارٌ مُعَلًّى أَوْ خِبَاءٌ مُطَنَّبُ (١)

وبنفس الخبث والدهاء يمدحه ظاهراً بأنه غنى عما ينسب الناس بما تتناهى إليه من المكرمات وما ينتسب به إليها ، وهو هجو صريح وواضح ، لأنه أشبه بنفس النسب عنه ، ويمعن فى السخرية منه إذ يصوره لنفسه أعلى من كل قبيل حتى أنه ليس هناك من القبائل من يستحق أن يشرف بانتسابه إليها ، ويجعل معد بن عدنان ويعرب فداء له وقد ذكر أبو الطيب أن هذا القول لو قلب لكان هجاء (٢) .

ويعود إلى المعنى الذى طرقه من قبل عن بهجته وطربه عندما رآه فيصوره وكأنه فرد يأتى من الحركات ما يبعث الطرب فى النفوس حتى أن ابن جنى عندما قرأ هذا البيت على أبى الطيب قال له : ما زدت عن أن جعلت الرجل أبازنة وهى كنية القرد فضحك (٣) ويعمد بعد ذلك إلى إهانته بتجسيم الهمة والقوافى

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبي / ١/١٨٦ ، ١٨٧ .
(٢) المصدر السابق / ١/ ١٨٦ .
(٣) المصدر السابق / ١/ ١٨٧ .

شخوصًا تتيه على كافور تعدل الشاعر على انحداره إلى مدحه ، ولكنه يستتم البيت بما يغطى هذه الإهانة الجارحة كما لاحظ الواحدى الذى ذكر أن المصراع الأول هجاء صريح لولا الثانى [١] .

وقد بنى كافور دارًا بإزاء الجامع الأعلى على البركة وطلب من أبى الطيب أن يذكرها فقال يهنئه بها :

مُسْتَقِلٌ لَكَ الدِّيَارَ وَلَوكَا ... نَ نُجُومًا آجُرُّ هَذَا البِنَاءِ

إنَّمَا يَفْخَرُ الكَرِيمُ أَبُو المِسْكِ ... يَبْتَنِى مِنَ العَلْيَاءِ [٢]

أتظن أنه يستقل له الديار حقيقة ؟ إنى أحسبه يتهافت عليه فى سره حين يطلب منه أن يذكر دارًا وقد عوده سيف الدولة أن يسجل أفضالاً وإلاّ فما معنى قوله فى البيت الثانى :

إنَّمَا يَفْخَرُ الكَرِيمُ أَبُو المِسْكِ ... بِمَا يَبْتَنِى مِنَ العَلْيَاءِ

ألست ترى معى أنه يعرض له الفخر إنَّما يكون بما يكسب حمدًا أو يخلد مجدًا ؟ الفخر بالعلياء لا بالبناء . هذا هو رده على طلب كافور . ويقول معرضًا مرة أخرى بسواد كافور :

يَفْضَحُ الشَّمْسَ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمسُ بِشَمْسٍ مُنِيْرَةٍ سَوْدَاءِ [٣]

إنَّ الشمس لو كانت سوادًا لما سميت شمسًا ولكنه يريد أن يذكر لون كافور وسواده ليطامن من كبريائه وإنْ تظاهر بمدحه أليس فى ذكر اللون حط من نسبه؟؟ [٤] .

ولا يمكننا أن نعتمد على الصفات التى يخلعها المتنبى على ممدوحيه . إذْ أننا لا نستطيع أن نعتمد على تلك الصور التى رسمها لمعاصريه ، ولابد لنا من

---

(١) الواحدى / شرح ديوان المتنبى / ٢/ ٦٦٦ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) المصدر السابق / ١/ ٣٤ .

(٤) إبراهيم عبد القادر المازنى / حصاد الهشيم / ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ . ونعمات فؤاد / المتنبى وكافور / الرسالة السنة السادسة عشرة العدد ٧٨١ يونية ١٩٤٨/ ٧٠٧ ، ٧٠٨ .

الرجوع إلى مؤرخى عصره لتصحيح الصورة وتحرى الحقيقة . وصورة كافور الإخشيدى التى يقدمها لنا المؤرخون تختلف عن الصورة التى قدمها لنا المتنبى عند غضبه عليه ولفحه بشواظ هجائه . وإنِّى أرجح أن الصورة التى قدمها المؤرخون أقرب إلى الحق من الصورة التى رسمها لنا المتنبى . والمؤرخون بوجه عام أكثر تحريًا للحقائق من الشعراء ، لأنهم أهدأ منهم نفسًا وأقدر على كبح نوازعهم وأهوائهم [1] . وهذا ما حدا بأحد النقاد أن يقول حول شعر الهجاء عند المتنبى ، إذْ إن كثيراً من الباحثين من يظن أن المتنبى قصد بهذا الشعر وأشباهه إلى كلام ظاهر المدح ، ويمكن أن يلتوى به القارئ لأن أبا الطيب قد التوى به إلى الهجاء .

وما أظن إلاَّ هذا النحو من فهم شعر المتنبى فى كافور ، تكلف فى كثير من الأحيان يدفعنا إليه ما بعلمه من سوء رأى المتنبى فى ممدوحه ، ومن غضبه عليه وهجائه له . وليس المهم هو أن نفسر الشعر بما فسره المتنبى نفسه فى دروسه وأحاديثه بعد أن رحل من مصر ،ولا أن نفسر شعره بما فسره به الشعراء الذين سمعوا أبا الطيب وتأثروا بحديثه والذين سمعوا الأخبار أو صنفوها حول ردود المتنبى على كافور وإقامته . وإنَّما المهم حقًا أن نفترض أننا ظفرنا بهذا الشعر غفلاً من كل تفسير ، ولم نعلم من أمر قائله والمقول فيه شيئًا .

وهل يصح لدينا أن صاحبه قد التوى به عن وجهه الظاهر ، وأراد به مكرا وخداعا ؟؟ كلا ! إنَّما كنا نفهمه فى يسر وسهولة أن الشاعر لم يرد إلاَّ تصوير عصامية الأمير وتفوقه وما أتيح له من الذكاء والنبوغ ، وهو كذلك صادق كاذب فى هجائه ، صادق لأنه كان يهجو عن غضب وحنق وبغض ، وكاذب لأنه كان يقول غير الحق . ويذيع فى هذا الأمير من السيئات ما كان يكذبه فيما بينه ونفسه إذ خلا إليها . وما أكثر الأحوال التى يفرض فيها علينا البحث الصحيح أن يهتم الكتاب والشعراء فيما يتحدثون به عن أنفسهم قادحين أو مادحين [2] .

---

(١) على أدهم / المتنبى وأهيل عصره / مصر الثقافة / العدد ٣٨٩ رجب سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م/ ١٢ . وانظر في ذلك : سعيد الأفغاني / حول مقالة « الطموح عند المتنبى » دمشق مجلة المجمع العلمي العربى - المجلد الخامس عشر / الجزء ١، ٢ شوال ذو القعدة سنة ١٣٥٥هـ كانون الثانى / ١٩٣٧م/ ٧٨، ٧٩ .

(٢) طه حسين / مع المتنبي / ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤.

٢) شعره السياسى فى العراق :

ولم يكن بد للمتنبى ، حين أزمع الرحيل من مصر ، من أن يقصد إلى العراق . فسبيل الشام مأخوذ عليه ، فى جنوبها ملك الإخشيديين وسلطان كافور، وفى شمالها الحمدانيون الذى فارقهم قاليًا لهم ، والذين لا يستطيع أن يصل إليهم حتى لو عاد الصفو بينهم . إلاَّ أن يمر بطريق غير مأهولة فى بلاد كافور يشتد فيها الطلب وتضيق فيها المراقبة .

وقد كان من الجائز أن يسافر المتنبى نحو الغرب ، فيقصد إلى الفاطميين فى شمال أفريقيا . ولكن هذا لم يخطر له ببال لسبب واضح جدًا ، لأنه لو فعل ذلك لنفى نفسه عن الشام والعرق نفيًا مؤبدًا ، لأنه كان يجعل ملك كافور بينه ومأمنه في الشام والعراق . فلم يكن له بد من أن يعود إلى العراق ، ومن أن يسلك إليه طريقًا مجهولة لا يمكن أن يدركه فيها الطلب أو يبلغه فيها البحث إلاَّ بعد جهد ومشقة (١) .

وربما كان أبو فراس من الأسباب التى حالت بين المتنبى وعودته إلى حلب بعد مغادرته مصر ، فقد كان يخشى أن يموت سيف الدولة ويأخذ السلطة من بعده ابن عمه أبو فراس ، فلا يطيب له المقام فى حلب (٢) .

وقد وصل إلى الكوفة فى ربيع الأول من سنة ٣٥١ هـ ، ولم يكن فى حياته فى الكوفة ما يدفعه إلي قول الشعر ، فالناس يرونه فيلسوفًا مفكرًا حكيما . وكان خليقًا ، وقد خلا إلى نفسه وفرغ لتفكيره وحكمته وفلسفته ، أن يقول فى ذلك شعرًا ، ولكنك عرفت مما قرأت إلي الآن أنه كان شاعرًا لا يقول إلاَّ عن رغبة أو رهبة ، ولا سيما بعد أن انتهى عهد الشباب (٣) .

وفى العراق وعاصمتها بغداد نشأت دولة البويهيين فى بداية القرن الرابع الهجرى . وتعاون الأخوة الثلاثة على والحسن وأحمد بنوبوية على التسلط فى فارس والعراق واستولى أصغرهم أحمد على بغداد سنة ٣٣٤ هـ وكان بها الخليفة

---

(١) طه حسين / مع المنبى / ٣٣٨ ، ٣٣٩ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) أحمد أحمد بدوى / شاعر بني حمدان / ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٤٩ .

العباسى المستكفى بالله فمنحهم الولاية على ما بأيديهم ولقب عليا عماد الدولة، والحسن ركن الدولة ، وأحمد معز الدولة . وقد تنازع بنوهم على السلطان من بعد وتشعبت إماراتهم . وبقى ملكهم فى العراق إلى سنة ٤٤٧ هـ حتى استولى عليها السلاجقة . بقى معز الدولة فى بغداد حتى توفى سنة ٣٥٦ هـ ، وكان استيلاؤه على العراق إيذانًا بانتقال السلطان جملة من أيدى الخلفاء إلى أمراء البويهيين فبعد أسابيع من دخوله بغداد خلع الخليفة المستكفى بالله وسمل عينيه وولى مكانه الخليفة المطيع . وكان هذا الاستيلاء إيذانًا بالخراب فقد شغب الجند على معز الدولة طالبين أرزاقهم فأخذ الأموال من الناس غصبًا وأقطع قواده القرى جميعها ، فأهملوا الطرق والمشارب فخربت المزارع . وكانوا كلما نقص الدخل زاد ظلمهم ومصادرتهم أموال الناس [١] .

ومن هنا كانت بغداد فى ظلال حكم خائف يترقب ، أضاع الكثير مما كان فى يده من هيبة الحكم والسلطان . فالبلاد فى داخلها مضطربة متحيرة ، وليس فيها راحة البال وأمن المقام لكثر ما كانت تعانى من الخصومة والتنازع ، وكل صاحب بلد قلق على مصيره ويخشى حاشيته ولا يعلم وجه التصرف فى إمارته وملكه ، وعدد المسلمين متربص بهم فى بيزنطية على الحدود الشمالية ، يأخذ الحمدانيين على حين غرة عاما بعد عام .

وبين هذا وذاك كانت فارس متربصة بالعرب تستيقظ بملء جفونها لتطيح بالعروبة وآمالها بعد أن تملكت زمام الجيش واستولى منها رؤساء على المصالح فى الإرادة والقضاء [٢] .

وكأن المتنبى لم يطمئن إلى حياته في الكوفة ، ولم يرض لنفسه هذا الخمول الذى لم يخلق له . فما هى إلاَّ أشهر حتى ضاق بالكوفة ورحل عنها فى أواخر سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة إلى بغداد [٣] .

وقد كانت السياسة فى بغداد مبغضة لأبى الطيب ، وكان الأدباء الرسميون يصانعون السياسة . ولكن الأدب العراقى نفسه كان يضيق بهذا الشاعر الأجنبى

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) زكى المحاسنى/ المتنبي / ٥، ٦ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٤٧ .

الذى كسب مـجده وفنه بعيداً عن العـراق لأول مرة فى التاريخ الأدبى . فـقد كان الشعراء الأوائل يظهـرون وينبه ذكرهم فى العراق ، فـإذا ظهروا فى بلد آخر ، فلم يكونوا يكسبـون المجد ونباهة الشأن إلاً فى بغـداد ، فمروان ابن أبى حفـصة كان يعيش في اليمامة ، ولولا أنه وفد بشعره على خلفاء بغداد وعلماء البصرة لما عرفه الناس . وأبو تمام نشأ فى الشام وشب في مصر وقال الشعر فى الغرب ، ولكنه لم يعرف ويشتهر حتى وفد على العراق والبحـترى نشأ فى شمال الشام ، وقال الشعر فى منبج ومما حولها ، ولكنه لم يصبح شيئًا إلاً بعد أن وفد على بغداد .

وهذا أبو الطيب ولد فى العراق ونشأ فيه وبدأ فيه قول الشعر ، ولكنه غرب بشعره وأقام فى الغرب ، ونبغ هناك ، ثم عـاد إلى العراق كامل الفن باهر المجد ذائع الصيت فمن حق الأدب العراقى أن يضيق به ، ومن حق الأدباء العراقيين أن ينكروه ويعدوه دخيلاً عليهم ، وإذن فلم يكن التـحالف بين السياسة والأدب على أبى الطيب غريبًا فى العراق ، وإنما كان الغريب ألا يتحالفا عليه . ومع ذلك فقد وجد أبو الطيب عند شـباب العراق وعند جمـاعة من علمائهـا وأدبائها ، بل عند جماعـة من سراتها وأغنيـائها حبًا وإجـلالاً ، فتلقوه أحسن لقـاء وأنزلوه أحسن منزل، والتفوا حوله يسمعون منه ويكتـبون عنه ، ويقومون دونه ما وسعهم ذلك، ولكنهم كانوا قلة وكانوا مستضعفين [1].

ومن هنا آثر الشاعر العـافية إذن ، وتجنب السياسـة لأنه لم يكن يستطيع أن يدنو منها ، وتجنـب الساسة لأنه لم يكن يحـبهم ولم يكونوا يحبـونه . وقد يظن بلاشير هذا الرأى أن المتنبى أعرض عن مدح الرؤساء فى بغداد ابقاء على ما كان بينه وبين سيف الدولة مـن الود ، واحتفاظًا بما كان قـد دبر من الشخوص إلى حلب . وقد كانت العلاقة سيئة بين الحمدانيين والبويهيين [2]. فكان مدحه للبويهـيين يفسـد عليه خطته التي دبرها فـى نفسه وهو أنه كـان يحلم بالوفاء مع سيف الدولة [3].

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣٥٤ .

(٢) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٣٩٣، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٣) إميلوغرسيه غومث / مع شعراء الأندلس والمتنبى / ٢٥ ، ٢٦ .

ويعلق طه حسين على قول بلاشير هذا ، فيقول : ولكنى أستبعد هذا أيضًا كل الاستبعاد ، لأنى لا أقطع بأن المتنبى فكر حقا فى الرجوع إلى حلب ، وما أشك فى أنه لو وجد سبيلاً إلى الرؤساء فى بغداد لما تردد فى سلوكها ، ولكن هؤلاء الرؤساء احتملوا مقامه فى العراق ، ودخوله بغداد وإقامته فيها ، وهذا منهم كثير ، فما كان للمتنبى أن يطمع فى أكثر منه (١).

وإذا لم يكن بد من التماس إشارة إلى بغداد فى شعر المتنبى بعد خروجه منها ، فأنا التمس هذه الإشارة فى لاميته التى مدح بها سيف الدولة حين أهدى إليه ، والتى يحذر فيها الحمداني من الروم الذين يناصبونه الحرب من أمامه ، ومن أعدائه الذين خلف ظهره فى مصر والعراق ، وهذا ما سبق أن أشرت إليه .

فزيارة المتنبى لبغداد إذَنْ لا تكاد تعنينا ، لأنها لم توح إلى الشاعر شيئًا ، ولم تترك فى شعره أثرا ما ، فكأنها بالقياس إلى فنه لم تكن . ومع ذلك فالناس يكثرون فيها القول ، وينوعون فيها الأحاديث ، ولا يكادون يفقهونها على وجهه. والأمر مع ذلك أبسط من كل هذا ، فلم يقصد أبو الطيب كما رأيت إلى بغداد ليفيد بشعره مالا أو مجدًا عند الخليفة أو الأمير أو الوزير . وإنَّما قصد إليها ليعيش فيها عيشة الشعراء والعلماء والنابهين من الأغنياء (٢).

ومن هنا كانت الخصومة حول المتنبى فى بغداد أقوى منها فى أى مكان آخر ، وهذا أمر نستطيع فهمه . ففى حلب كان تأييد سيف الدولة له يحميه من هجمات منافسيه وفى مصر كانت أغلبية رجال الأدب معه ، وأما في العراق فقد كانت النفوس موغرة ضده الخليفة ومعز الدولة ووزيره المهلبى لأنه مدح خصمهم اللدود سيف الدولة وخلد ذكره فدونهم ، ورجال العلم والأدب لحسدهم له ولاحتقاره لأمرهم (٣).

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٢) طه حسين / مع المتنبي / ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٣) اليافعى / مرآة الجنان / ٤٣٨ . وانظر فى ذلك محمد مندور / النقد المنهجى عند العرب / ١٨٧ .

ولم يكن المتنبى مستعداً لمدح الولاة فى بغداد ، وهذا ما جر عليه العنت والشقاء فهو لم يمدح معز الدولة البويهى ، ولم يمدح وزيره المهلبى ، مما حدا بالأخير أن يؤلب شعراء العراق ونقادها ، لهجاء الشاعر ودراسة شعره [(١)] .

وكأن المتنبى يرى فى مديح الخليفة العباسى ومعز الدولة البويهى أن صنعه إذلالا لنفسه إذ طالما تعرض لهما ولأعوانهما من الأعاجم بالقدح الجارح، وطالما أنكر تسلطهم على الرعية واستطالتهم عليها بالقهر والظلم مع ما هم سادرون فيه من لهو ومجون ، وطالما استثار سيف الدولة ضدهم وتمنى لو نهشتهم الآساد العربية نهشاً [(٢)] .

وظل أبو الطيب المتنبى فى بغداد قرابة عام ، وأخيراً صرف عنها النظر نهائياً فى مطلع شعبان سنة ٣٥٢ هـ نهاية آب ٩٦٣م وعن مشاريع العودة إلى سوريا وشد الرحال إلى الكوفة [(٣)] ، وفى الكوفة عاد حنينه إلى سيف الدولة من جديد وكأنه يؤنب نفسه على فراقه من قبل بمثل قوله :

فَارَقْتكُمُ فَإذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ ... قَبْلَ الفِرَاقِ أذىً ، بَعْدَ الفِرَاقِ يَدُ

إذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِى وبَيْنَكُمْ ... أَعَانَ قَلْبِى عَلَى الوَجْدِ الَّذِى أَجِدُ [(٤)]

وقد أرسل سيف الدولة إلى المتنبى فى الكوفة بهدية وجواب بالدعوة إياه إلى حلب ، فأرسل له جوابا مدحه وعاتبه فيه بقصيدة فى ذى الحجة سنة ٣٥٣ هـ :

---

(١) محمد الحاتمى (أبو على) / مناظرته لأبى الطيب المتنبى فى بغداد ، ضمن كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي للعميدى ، تقديم وتحقيق وشرح ، إبراهيم الدسوقى البساطى / القاهرة ط دار المعارف . والرسالة الموضحة فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبى وساقط شعره ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت : ط دار صادر ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥م . والرسالة الحاتمية ، ضمن مجموعة التحفة البهية والظرفة الشهية » ، قسطنطينية سنة ١٣٠٢هـ ، ونشر فؤاد أفرام البستانى سنة ١٩٣١م .

(٢) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٢ .

(٣) بلاشير / حياة أبى الطيب المتنبى وشعره / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد / المجلد السادس. بغداد ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧م / ٤٧ .

(٤) أبو الطيب المتنبي / ديوانه / تقديم وتصحيح عبد الوهاب عزام / ٣٤٠ ، وفى شرح البرقوقى/ المجلد الثانى / الجزء الثاني / ١٦ « على الشوق » .

فَهِمْتُ الكِتَابَ أَبَرَّ الكُتُبْ ... فَسَمْعًا لأَمْرِ أَمِيرِ العَرَبْ (١)

وفى هذه القصيدة يعرض بكافور وغيره من الملوك الذين يشبهون الخشب وغير ذلك . وقد أوضح فيها السبب فى عدم الحضور إليه استمع إليه إذ يقول :

وَمَا عَاقَنِى غَيْرُ خَوفِ الوُشَاةِ ... وَإِنَّ الوِشَايَاتِ طُرْقُ الكَذِبْ
وَتَكْثِيرُ قَومٍ وتَقْلِيلُهُمْ ... وَتَقْرِيبُهُمْ بَيْنَنَا وَالخَبَبْ
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ ... وَيَنْصُرُنِى قَلْبُهُ وَالحَسَبْ
وَمَا قِسْتُ كُلَّ مُلُوكِ البِلَادَ ... فَدَعْ ذِكْرَ بَعْضٍ بِمَنْ فِى حَلَبْ
وَلَو كُنْتَ سَمَّيْتَهُمْ بِاسْمِهِ ... لَكَانَ الحَدِيدَ وَكَانُوا الخَشَبْ
فَلَيْتَ سُيُوفَكَ فِى حَاسِدٍ ... إِذَا مَا ظَهَرْتَ عَلَيْهِم كَئِبْ
وَلَيْتَ شَكَاتَكَ فِى جِسْمِهِ ... وَلَيْتَكَ تَجْزِى بِبُغْضٍ وَحُبْ
فَلَو كُنْتَ تَجْزِى بِهِ نِلْتُ مِنْكَ ... أَضْعَفَ حَظٍّ بِأَقْوَى سَبَبْ (٢)

وقد كان من أعماله السياسية التى قام بها المتنبى فى الكوفة دحر هجوم القرامطة على الكوفة إذ هاجم القرامطة الكوفة مرتين فساهم هو وغلمانه فى رد هذا الهجوم ، واستطاعت المدينة أن تدحر كلاب حينما حاولوا الدخول إلى الكوفة، وعندما وصل إلى مقر الخلافة فى بغداد أرسلت أحد قوادها وهو دلير بن لشكروز سنة ٣٥٣ هـ فلا يكاد هذا القائد أن يصل إلى الكوفة حتى يعرف الذين أبلوا فى رد القرامطة فيخلع عليهم ومنهم المتنبى . فإذا وصلت الخلعة إليه أنشده قصيدته اللامية المشهورة التي سبق أن أشرنا إليها ، وفى القصيدة هجاء لبنى كلاب إذ يقول :

أَرَادَتْ كِلَابٌ أَنْ تَفُوزَ بِدَوْلَةٍ ... لِمَنْ تَرَكَ رَعْىَ الشُّوَيْهَاتِ وَالإِبْلِ
أَبَى رَبُّهَا أَنْ يَتْرُكَ الوَحْشَ وَحْدَهَا ... وَأَنْ يُؤمِنَ الضَّبَّ الخَبِيثَ مِنَ الأَكْلِ (٣)

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبي / ١/ ٩٦ .
(٢) أبو البنقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٩٧ ، ٩٩، ١٠٤ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١١ .

فهذا هجاء لقبيلة بنى كلاب ، إذ أن المتنبى يستهزئ بها ، وكيف أنها قبيلة ضعيفة لا سياسة لها ؟ فكيف أجازت لنفسها طلب حكومة وهم رعاة الإبل والشاء وهم أهل بادية لا يعرفون إلاَّ صيد الضب وأن يكونوا رعاة لا ملوك حكم.

٣) شعره السياسى فى فارس :

خرج المتنبى إلى فارس فى ١١ صفر سنة ٣٥٤ (١)، وقد كان هناك بعض الأسباب فى جنوحه إلى فارس ، إذ إن ابن العميد كان عظيم الشأن نابه الذكر ولكنه على كل حال لم يكن ملكًا ولا أميراً ، وَإِنَّما كان وزيرا لأمير من أمراء الفرس ، أو سلطانًا من سلاطينهم . وقد رأيت أنى لا أعتقد أن المتنبى ترفع عن مدح الوزير المهلبى وإنما أرجح أنه لم يجد سبيلاً كريمة إلى هذا المدح ، وطبيعة أبى الطيب تصورا لنا الأمر على غير ما فهمه مؤرخو الشاعر وأصدقاؤه. وأكبر ظنى أن المتنبى هو الذى سعى فى التقرب من عظماء الفرس ، ليصلح به أمره فى الشرق الإسلامى ، بعد أن فسد عليه أمره فى الغرب الإسلامي ، وأن أبا الطيب رغب فى أن يتقرب من ابن العميد من ركن الدولة أو عضد الدولة ، حتى إذا مدح هؤلاء العظماء وظفر برضاهم أولا ، أو بجوائزهم بعد ذلك ، استطاع أن يتقربِ بهم إلى أصحاب السلطان فى بغداد أو أن يستغنى بهم عن أصحاب الحكم فى العراق . وهذا من غير شك فرض من الفروض ليس فى النصوص ما يدل عليه ، ولكنه ملائم كل الملاءمة لطبيعة أبى الطيب وسيرته (٢) . أو أنه ارتحل إليه لما سمع عنه من إعطاء الأموال لواحد ذكره شعره عنده .

وقد أحدث قدوم المتنبى إلى أرجان ، بعض الحقد فى نفوس كثير من المسئولين فى فارس والعراق ونحن نعلم أن ابن العميد كتب إلى أبى الطيب يستزيره مما أحفظ عليه الصاحب بن عباد الذى كتب إليه يستزيره الرى حين كان الشاعر ببغداد . ولم يرد عليه ، ولم يتأخر عن الاستجابة لابن العميد حين دعاه إلى أرجان (٣) . فما كان من الصاحب إلاَّ أن كتب رسالة فى الكشف عن مساوئ المتنبى . كما أن قدومه على ابن العميد ومدحه إيَّاه أحفظ عليه الوزير المهلبى

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب / ١٦٧ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٥٩ .

الذى لم يحسن المتنبى سياسته معه ففارق العراق لما رأى من حكام العراق حينذاك [١] .

وقد ظفر أبو الطيب بمال كثير من ابن العميد ولكنه ظفر بما هو أكثر من ذلك ، وهو الاتصال بعضد الدولة ، ويبدو أن ابن العميد لم يكن إلا واسطة يراد منه أن يقرب أبا الطيب إلى أمراء البويهيين . ولعل ابن العميد قد تردد فى تقديمه إلى ركن الدولة الشيخ أو إلى ابنه عضد الدولة الشاب ، فاستقر رأيه على الثانية، لشاب الأمير المقيم فى شيراز ، ولما كان هذا الأمير يدبر لنفسه وما كان يدبر له من خطة فى بغداد حتى تتاح له فرصة القدوم إليها ، وكان أبو الطيب أنفع أداة لهذه الدعوة وأقدر الشعراء على هذا التمهيد ، فوجه إذن إلى شيراز ، ولم يوجه إلى الرى .

« على هذا النحو وحده - كما يقول الدكتور طه حسين - أفهم تاريخ أبى الطيب فى السنة الأخيرة من حياته. ويخيل إلىّ أن من السذاجة أن نقبل الأمور كما نقلها إلينا القدماء من رواة الأدب والشعر ، وأن نهمل أثر السياسة فى حياة شاعر كأبى الطيب وقد عظم أمره وارتفع شأنه ، وأصبح عنصراً لا يقوم أثره الواضح فى نشر الدعوة السياسية . ونحن نرى الآن ما تصنعه الحكومات مع الصحف . وقد رأينا فى أول التاريخ الإسلامى ما كانت تصنعه الدول مع الشعراء، بل رأينا ما صنعته الدول الغربية مع أبى الطيب نفسه . فمن السذاجة أن نظن ابن العميد لم يرغب فى شعر أبى الطيب وأن البويهيين المقيمين فى فارس لم يريدوا إصلاح الخطأ الذى تورطت فيه بغداد حين تجهمت لهذا الشاعر العظيم» [٢] .

ولو رجعنا إلى بعض قصائده التى مدح بها ابن العميد لوجدنا فيها بعض الإشارة إلى حكام حلب فى تلك الفترة يقول المتنبى :

مِنْ مُبْلِغِ الأَعْرَابِ أَنِّى بَعْدَهَا ... شَاهَدتُ رَسْطَالِيسَ وَالإسْكَنْدَرَا [٣]

(١) الصاحب بن عباد / أمثال المتنبى - حققها وشرحها وعلق عليها زهدى يكن / ١١ .
(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣٦١ ، ٣٦٢ .
(٣) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتحقيق عبد الوهاب عزام / ٤٢٤ .

فالمتنبى فى هذا البيت يتكلف ازدراء الأعراب والغض منهم ، ويظن أنه يمدح ابن العميد بما يرضيه والأعراب هنا هم سيف الدولة وأصحابه فى شمال الشام [١] .

وهو يستنجد به كما استنجد بكافور من قبل لعله يساعده فى مطالبه العسكرية والسياسية وبهذا يغيظ أعداءه فى مصر والعراق والشام يقول :

إنْ لَمْ تُغِثْنِي خَيْلُهُ وَسِلاَحُهُ ... فَمتَى أَقُودُ إِلَى الأَعَادِي عَسْكَرَا ؟ [٢]

وأقام المتنبى فى شيراز ثلاثة شهور ومدح عضد الدولة بقصائد ممتازة ، ولكن نشاط المتنبى فى هذه الأشهر الثلاثة لا يمتاز بالخصب والتنوع وكثرة النتاج فحسب ، ولكنه يمتاز بالتنوع والاختلاف ، فقد طرق أبو الطيب فى هذا الطور أكثر فنون الشعر من الوصف والرثاء والمدح والطرد والسياسة « ومن الحق أنه لم يتعمق فى شعره سياسة عضد الدولة ، كما تعمق سياسة سيف الدولة وسياسة كافور ، ولكنه مع ذلك قد ألم بطرف من أطرافها فوصف فى قصيدتين ثورة الأكراد على البويهيين وانتصار هؤلاء عليهم » [٣] .

ومن هنا يرى الدكتور طه حسين أنَّ إقامة أبى الطيب عند عضد الدولة أعطته كثيراً من الأمل والمنزلة العليا وخصوصًا بعد نظم طرديته المشهورة ، إذ أن نفس الشاعر وملكاته قد استردت فى هذه الأشهر الأخيرة من حياته قوتها كلها ، وأضافت إليها قوة لم نكن نعرفها من قبل .

ويقول : « وأكبر ظنى أن نفس المتنبى لم تمتلئ بالأمل فى أى وقت من الأوقات كما امتلأت به فى ذلك الوقت . وما استبعد أن يكون المتنبى قد وثق بالفوز آخر الأمر ، واطمأن إلى أنه بعد اتصاله بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير منازع ، لا شاعر أمير فى شمال الشام أو فى مصر ، بل شاعر السلطان الأعظم . وما استبعد أنه قد تمثل المستقبل المشرق ، فإذا هو يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمال الذى لا يكاد يبلغه الإحصاء ، والتأييد الذى لا حد له ، وعاد إلى بغداد مقربًا إلى معز الدولة برغم المهلبى

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣٦٤ .
(٢) أبو الطيب المتنبى / ديوانه - تقديم وتصحيح عبد الوهاب عزام / ٤٢٢ .
(٣) طه حسين / مع المتنبى / ٣٦٧ .

وأشياعه ، وإذا الشاعر الإسلامى الفذ ، الذى يقول من بغداد فيدوى صوته فى أرجاء الدولة الإسلامية كلها شرقًا وغربًا ، وإذ هو يملى على الدهر قصائده حقًا.

وهذا الأمل الواسع العريض هو الذى يفسر لى اندفاع المتنبى فى نشاط غريب لا نراه حتى فى مدحه للأمير الحمدانى لا نكاد نستثنى من هذا المدح إلاَّ بعض قصائده [1] .

ومن القصائد فى مدح عضد الدولة يذكر انتصاره فى معركة وهشوذان [2] بن محمد الكردى بالطرم ، وكان والده ركن الدولة قد أنفذ إليه جيشًا من الرى فهزم وهشوذان الكردى وانتصر عليه وأخذ بلده وذلك فى سنة ٣٥٤ هـ ، وقال المتنبى قصيدته التى مطلعها :

إثْلِتْ فَإنَّا أيُّهَا الطَّلَلُ ... نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإبِلُ [3]

ثم يعود فيصور شجاعة عضد الدولة وجيشه ، ويصف وهشوذان بالقلة والضعف وقد جاء يطلب ملكًا فرجع مهزومًا هاربًا من المعركة :

وَإذَا الخَمِيْسُ أَبَى السُّجُودَ لَهُ ... سَجَدَتْ لَهُ فِيهِ القَنَا الذُّبُلُ
أَرَضِيْتَ وَهْشُوذَانُ مَا حَكَمَتْ ... أَمْ تَسْتَزِيدُ لأُمِّكَ الهَبَلُ
وَرَدَتْ بِلاَدَكَ غَيْرَ مُغْمَدَةٍ ... وَكَأَنَّمَا بَيْنَ القَنَا شُعَلُ
والقَوم فِى أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ ... وَالخَيْلُ فِى أَعْيَانِهَا قَبَلُ
فَأَتَوكَ لَيسَ بِمَنْ أَتَوا قِبَلٌ ... بِهِمْ وَلَيْسَ بِمَنْ نَأَوا خَلَلُ
لَمْ يَدْرِ مَنْ بِالرَّىِّ أَنَّهُمُ ... فَصَلُوا ولاَ يَدْرِى إذَا قَفَلُوا
فَأَتَيْتَ مُعْتَزِمًا وَلاَ أَسَدٌ ... وَمَضَيْتَ مُنْهَزِمًا وَلاَ وَعِلُ
تُعْطِى سِلاَحَهُمُ وَرَاحَهُمُ ... مَا لَمْ تَكُنْ لِتَنَالَهُ المُقَلُ

---

(١) طه حسين / مع المتنبى / ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
(٢) وفى ديوان المتنبى / تقديم وتحقيق عبد الوهاب عزام / ٤٣٧ = وهموذان .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع/ ١٥ .

أَسْـــخَى الـمُلُوك بِنَقْلِ مَــمْلَكَةٍ مَـنْ كَـــادَ عَنْهُ الـرَّأْسُ يَنْتَـــقِـلُ
لَولاَ الـجَـــهَـــالَةُ مَـــا دَلفَـتْ إلَى قَـــومٍ غَـــرِقَـتْ وَإنَّمَـــا تَفَلُوا
لاَ أَقْـــبَلُواسِـــرًّا وَلاَ ظَـفِـــرُوا غَــدْرًا وَلاَ نَصَــــرَتْهُمُ الـغِـــيَلَ [(١)]

وقال يمدحه بقصيدة أخرى ويذكر هزيمة وهشوذان :

أَزَائِرٌ يَـا خَــــيَـــالُ أَمْ عَـــائِدْ أَمْ عِنْـدَ مَـــوْلاَكَ أَنَّنِى رَاقِــــدْ [(٢)]

وفى هذه القصيدة يمـدح عضد الدولة بالشجاعة والفروسية وما كان من صواب رأيه وفساد رأى عدوه ، وما كان من حسن حظه وسعده ، إذ أنه وفق فى حرب وهشوذان وهزمه شر هزيمة فى هذه الموقعة بجيش قوى الشكيمة يحسن استخدام سلاحه :

يَا عَـــضُـــدًا رَبُّهُ بِـهِ الـعَـــاضِـــدْ وَسَـــارِيًا يَبْـعَـثُ القَطَـا الهَـــاجِـــدْ
وَمُـمْـطِرَ المَـوْتَ وَالحَـيَـاة مَـعًـا وَأَنْـتَ لاَ بَـارِقٌ وَلاَ رَاعِــــــــدْ
نِلْتَ وَمَـا نِلْتَ مِنْ مَضَـرَّةِ وَهْشُوذَانَ مَـــــا نَـالَ رَأْيِـهُ الفَـــــاسِـــدْ
يَبْـــدَأُ مِـنْ كَـيْـــدِه بِغَـــايَتِــه وَإنَّمَـــا الـحَـــرْبُ غَـــايَـةُ الكَـائِدْ
مَـــاذَا عَلَى مَـنْ أَتَى يُـحَـــارِبُكُمْ فَـذَمَّ مَـــا اخْـتَــارَ لَوْ أَتَـى وافِـد ؟
بِلاَ سِـــلاَحٍ سِـــوَى رَجَـــائِكُمْ فَـــفَـــازَ بِالنَّصْـــرِ ، وَانْثَنى رَاشِــدْ
يُقَـــارِعُ الـدَّهْرَ مَـنْ يُقَـــارِعُكُمْ عَلَى مَكَانِ الـمَـــسُـــودِ وَالسَّـــائِدْ
وَلَـيْتَ يَـومِى فَـنَـاءِ عَـــسْكَرِه، وَلَـمْ تَكُـنْ دَانِيًـــا وَلاَ شَـــاهِـدْ
وَلَمْ يَـغِبْ غَـــائِبٌ خَلِـيـفَـتُـــهُ جَـيْشُ أَبِيــه وَجَـدُّهُ الـصَّـاعِـدْ
وَكُلُّ خَـطِّيَّـــةٍ مُـــثَـقَّــفَـــةٍ يَـهُـــزُّهَا مَــارِدٌ عَلَى مَــارِدٌ

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٧٣ .

سَـــوَافكٌ مَـــا يَدَعْـنَ فَـــاصِـلَـةٌ   بَيْـنَ طَرىٍّ الدِّمَـــاء والـجَـــاسِـــدْ
إِذَا المَـنَايَا بَـدَتْ فَـــدَعَـــوْتُـــهَـــا   أُبْـدِلُ نُـونًا بِـدَالِـه الـحَـــائِـدْ [1]

الشىء الذى لا شك فـيه ، هـو أن نفس المتنبى كـانت قـد خلصت للبـويهيـين ولعـضد الدولة منهم خـاصة « ومـا أرتاب فى أنه يفـصل من شيـراز وفى نفسـه الذهاب إلى الكوفـة أو إلى حلب ، وإنمـا فـصل منها وفى نـفسـه الذهاب إلى بغداد، والاتصال بمعز الدولة والانتصار على خصومه » [2]. - كما يقول الدكتور طه حسين .

❊ ❊ ❊

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٧٧ـ ، ٧٨ـ ، ١٧٩ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٣٧٢ .

الفصل الرابع

قضَايا المجْتمع

أ- عروبــة المتنبى

ب- مشاعر العروبة فى سيفياتــه

ج- العروبــة والأعاجــم

د- البداوة والحضـــــارة

أ- عروبــة المتنبى :

يبدو أن دراســة العروبة في شعر المــتنبى تحتاج إلى تمثل شــعره عن هذه النزعــة التى نراها متناثرة فى كل أطوار حــياته وربمــا كانت هذه النزعــة هى التى حببته إلى كــثير من الناس والباحثين . إذ أن فى هذه النزعة مــا يجذب مشاعرهم وعواطفهم جميعًا ، كما أنها تحثهم على الحمية والأنفة والعزة . إضافة إلى بعث ماضى العرب المجيد وتمثل حاضرهم على أى وجه كان .

ومن هنا فــإن من الأسبــاب التى وقفــت وراء شهــرة المتنبى فى الأوســاط العربيــة والإسلاميــة ، هو ما كان فى شعــره من تعبيــر عن هموم عصــره العربى ومجتمعه الإسلامى .

ولا شك فى أن الطبع العربى هو الذى أعانه على تمثيل قومه كما نقول فى مصطــلح العصــر الحديث إذ أنه عــبر عن ذلك الطبع العــربى كمــا يقول عــباس محمود العقاد أصــدق تعبير فى زمن « التنبيه والحساسية والقومــية » وجاء تعبيره عن عالمــه ، حيث يشيع التعــبير وتتــجاوب أصداؤه فى الخواطر والنفــوس قبل الأقلام والألسنة لأنه كان يعبر عن العبقرية العربية فى معترك الحياة العملية ، وهو جانب من حــياة الأمة أقــرب إلى الحس وأدعى إلى السيرورة بيــن أبنائها من كل جانب آخر تنطوى عليه عبقريتها ،فقد كــان البحترى والمعري عربيين يمثلان تلك العبــقرية أحــسن تمثيل ، هذا فى جانب الذوق الفنى ، وهذا فى جــانب الفكر والتأمل ، ولكنهــما جانبــان لا يحيطان بحــياة أبناء الأمة كــما يحيط بهــا جانب الحكمة العلمية أو جــانب الواقع الذى يشترك فيه الشاعــر بحسه وخلقه وفكره ، ويتلاقى مع كل مشارك له من أبناء أمته فى سليقته ومنطق عقله ولسانه [(١)].

---

(١) عباس محمود العقاد / أبو الطيب المتنبى / تــراث الإنسانية / المجلد الأول المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر / ٦ .

ويحلو لبعض نقاد المتنبى أن يتهمه بأن هذه الدعوة إلى العربية وفكرتها وربما ترجع إلى الحالة الاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة فى ذلك العصر وأنه ليس للمتنبى فضل فى تناول هذا الموضوع الذى كان واضحًا لكل إنسان يقول الدكتور محمد عوض محمد : وليس هدفنا أن نشير إلى ما للمتنبى من فضل ، أو أن ننوه بأدب المتنبى وشعره . وإنما همنا أن نورد وأن نقرر الواقع ، ونحن مضطرون إلى أن نسلم بأن الأحوال الاجتماعية والسياسية لهما تأثيرهما الذى لا ينكر ، ولكنا لن نتمالك من التسليم أيضًا بأن روح هذا الشاعر هى المرآة الوحيدة التى انعكست فيها إحساسات العروبة ، وقلبه هو القلب الوحيد الذى نبض بهذه المشاعر ويوشك لسانه أن يكون اللسان الوحيد الذى عبر عنها فى قوة منقطعة النظير [1] .

وزعم بعض النقاد الذين تعودوا أن يتحاملوا على أبى الطيب ، أنه تلقى من بعض الدعاة دروسًا تأثر بها، أو لقن نزعات دفعته إلى التطرق والتهور ، والخروج على السلطان ، وأن هذا الخروج قد اتخذ صورة التعصب للعروبة ، فإن صح هذا جاز لنا أن نعجب من أن يكون المتنبى هو الشاعر الوحيد الذى تأثر بمثل هذه الدعاية ، حتى بز أساتذته فى هذا الميدان .

ومهما يكن من أمر ، فإننا لا يعنينا أن يكون المتنبى قد انتصر للعروبة بدعاية بعض الدعاة أم أصدر ذلك عن إحساسه وشعوره ، إنَّما يعنينا أن العروبة قد تبوأت من نتاجه الفنى مكانًا واضحًا ، وأن هذه النزعة لازمته طول حياته ، وإن كانت أشد ظهوراً وقوة فى عهد الصبا والفتوة [2] .

ولكن تعصب كثير من أدباء العرب جعلهم يتخذون من المتنبى أميرًا عليهم إذ يجيبون بقولهم : إنَّ أمير شعرائنا المتنبى . إذ أن هذا الشاعر رمز من رموز العرب الشعبية ، ومن تعريف أمير من أمراء الشعر ، أن يختلط فى طبيعته أخلاق مختلفة من الأخلاق التى تحتفى بها أمته . ولابد لذلك الشاعر من أن يستوعب

---

(١) محمد عوض محمد / المتنبى والعروبة / مصر - مجلة المجلة - العدد السابع ، ذو الحجة سنة ١٣٧٦هـ ن- يولية ١٩٥٧م / ٢٧ .

(٢) المرجع السابق / ٢٧ .

بعض ما في شعبه من فضائل ، وأن يجمع إلى ذلك ما قد يكون فى هذا الشعب من نواح سلبية لا تخلو منها أمة من أمم العالم [1] .

ولعل الشعر العربى لم يعرف شاعرًا فى القديم تعمقه الإحساس بعروبته ، كما تعمق أبو الطيب ، حتى لتصبح حياته وحتى ليصبح شعره تعبيرًا قويًا عن هذا الإحساس أشد ما تكون القوة بأسًا وضراوة ، وهى ضراوة تبدأ بنفسه أو قل يبدأ لهيبها اللافح بنفسه الفتية ، بل العاتية ويمتد منها إلى أمته ، ومن وراء ذلك حس العروبة التى لا ينضب معينها فى فؤاده وأمجادها فى الفتوح وغير الفتوح ، حتي ليهتف حين تقدم به العمر [2] :

لاَ بِقَومِى شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِى ... وبنفسى فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِى
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا ... دَ وَعَوْذَ الجَانِى وَغَوثُ الطَّرِيدِ [3]

ومما يدل على أصالة المتنبى العربية أنه حينما قدم علي سيف الدولة سنة ٣٣٧هـ، اشترط كما يقول الرواة ألا ينشده شعره إلا قاعدًا وأن لا يكلف بتقبيل الأرض بين يديه ، وقبل سيف الدولة شرطيه وعد ما طلبه استحقاقًا لنبوغه الشعرى ، إذ كان قد سمع شعره واستجاده . وإن دل هذان الشرطان على شيء فإنما يدلان على شعور المتنبى بالإباء والعزة شأن العربى الأصيل ، كما يدل قبول سيف الدولة لهما على عروبته الأصيلة هو الآخر ، إذ يأبى الكريم الذل لنفسه ولغيره [4] .

وكان المتنبى يتعصب لليمنيين على النزاريين بدليل قوله :

وَمَجْدِى يَدُلُّ بَنِى خِنْدِفٍ ... عَلَى أَنَّ كُلَّ كَرِيمٍ يَمَانِى [5]

---

(١) د. بيتر باخمان / الشاعر أبو الطيب المتنبى كما يراه المستشرقون الألمان ترجمة كلية دار العلوم- ط جامعة القاهرة ١٩٦٨م/ ٣ .
(٢) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٧٤ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى /١/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ .
(٤) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٩١ ، ٩٢ . وانظر فى ذلك أيضًا : عصر الدولة والإمارات / ٣٤٦ .
(٥) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان أبى الطيب /٤/ ١٨٨ .

ولعل فى هذا ما يدل على صحة أرومته العربية .

ومن مظاهر عروبة المتنبى أنه يشير فى قصائده إلى نسب ممدوحيه من العرب ، يقول فى مدح أبى القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى (١) :

إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَسِيبُ كَأَصْلِه ... فَمَاذَا الَّذِى يُغْنِى كِرَامُ المَنَاصِبِ ؟
إِذَا عَلَوِىٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ ... فَمَا هو إلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ
فَحَيَّيْتُ خَيْرَ ابْنٍ لِخَيرِ أَبٍ بِهَا ... لأَشْرَفَ بَيْتٍ فى لُؤَىِّ بنِ غَالِبِ (٢)

ويقول أيضًا فى صباه فى مدح محمد بن عبد الله العلوى :

مُرْ تَمِيَاتٌ بنَا إِلَى ابْنِ عُبَيْد ... اللّه غِيطَانُهَا وَفَدْ فَدُهَا
إِلَى فَتىً يُصْدِرُ الرِّمَاحَ وَقَدْ ... أَنْهَلَهَا فِى القُلُوبِ مُورِدُهَا
لَهُ أَيَادٍ إِلَىَّ سَابِقَةٌ ... أُعَدَّ مِنْهَا ولاَ أُعَدِّدُهَا
يُعْطِى فَلاَ مَطْلَهُ يُكَدِّرُهَا ... بِهَا ولاَ مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا
خَيرُ قُرَيشٍ أَبًا وأَمْجَدُهَا ... أَكْثَرُهَا نَائِلاً وأَجْوَدُهَا
تَاجُ لُؤَىٌّ بنِ غَالِبٍ وبِه ... سَمَالَهَا فَرْعُهَا وَمَحْتِدُهَا (٣)

وكان المتنبى يحس فى نفسه حافزًا قويًا لاستعادة الأمجاد العربية ، وشارعت فى شعره - حيثما قاله - نزعة إلى العروبة وبعثها وتعميمها ، فكان يصف الكرماء وأهل النجدة بأن خصالهم عربية وفضل السيوف العربية على السيوف الهندية بمثل قوله (٤) :

تُهَابُ سُيُوفُ الهِنْدِ وَهْىَ حَدَائِدٌ ... فَكَيفَ إذَا كَانَتْ نِزَارِيَّةٌ عُرْبًا ؟ (٥)

(١) زكى المحاسنى / المتنبى / ٩٥ ، ٩٦ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١/١٥٥، ١٥٦، ١٥٩.
(٣) المصدر السابق /١/٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٤) زكى المحاسنى / المتنبي / ٤٢ ، ٤٣ .
(٥) أبو البقاء العكبرى / شرح ديوان المتنبى / ١ / ٦١ .

ب- مشاعر العروبة فى سيفيات المتنبى :

كان المتنبى شخصية فريدة فى عصره ، إذ أن شخصيته هى التى أقامت قيامة الناس فى زمنه ، وجعلتهم لا يعدون فريقين أنصاراً متعصبين وخصوماً متعنتين . وذلك ما تفعله كل شخصية قوية ، كالعاصفة لا يبقى أحد إلاَّ عنى بها واكترث لها [(١)] .

ولذلك كان الأمير الحمدانى يكرم المتنبى ويحترمه وينزله من بلاطه منزلة رفيعة ، وأشبع فى نفسه ذلك الشوق العظيم إلى السلطة وإلَى الحكم وإلى المجد. وأشبع فى نفسه أيضًا ذلك النزوع العربى الإسلامى الذى كان يؤرق أبا الطيب بسيف الدولة، وعلى هذا كانت تجربته من أعمق التجارب العاطفية والفكرية ، وأصبحت من أهم التحولات فى حياته ، والتى أحدثت فى حياته الباطنية أعمق الآثار . ولا أعتقد أن فى حياته أحداثًا تشبه هذا الحدث [(٢)] .

ولقد أكبر المتنبى فى سيف الدولة الفكرة العربية والطموح والفروسية وطلب المجد وهى صفات تقمصت فى المتنبى ، وهذا هو الذى وحد بين نفسيهما وقرب بين روحيهما وواءم بين نزعاتهما وهذا الذى حفزنا أن نهز ذلك الإتجاه الذى يقرره مؤرخو الأدب بأن خلود سيف الدولة مرده المتنبى وأنه لولا أبو الطيب لكان الأمير الحمدانى نسيًا منسيًا . فالواقع أن كليهما عظيم وأن أثر سيف الدولة فى تكوين عبقريته لا يمكن إنكاره ، وإذا أردنا أن لا نغمط المتنبى حقه قلنا إن كل واحد كان متممًا لخلود الثانى . وفى هذا إنصاف الأدب وإنصاف التاريخ معًا [(٣)] .

وأبو الطيب عربى خالص العروبة تفتحت عيناه على عز العرب وما هم فيه من دولة ورأى ذوى المواهب يتسابقون فيها إلى امتلاك زمام الأمر والنهى ، هذا بهمته وجهوده وذاك بعصبيته وقومه ، وذلك بعلمه وثقافته فليس غريبًا أن تزداد

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى / حصاد الهشيم / ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) فى عالم المتنبى ، رؤية فنية / الثقافة العدد ٤٤ مايو سنة ١٩٧٧م / ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) سامى الكيالى / المتنبى فى بلاط سيف الدولة / حلب مجلة الحديث - السنة العاشرة العدد الثامن آب ١٩٣٦م / ٦٤١ .

روح الطموح فيـه نشاطًا وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافـة وأكبر همة وأعـز نفسًا ، فكيف لا يدفعهم استعلاءهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه ؟[1] .

والحق أن الأشعار التى نظمها أبو الطيب بوحى ضميره ، كان بعضها واردًا فى قصائـد ومقطوعات بعيـدة عن المديح ، وبعضهـا كان يحتل جزءا مـهمًا من قصائد المديح والرثاء ، بل والهجـاء أيضًا ، ولعلنا إذا جمعنا هذا كله لتألف منه ديوان صغير من الشعر الممتاز [2] .

والواقع أن شعر المتنبى يعكس بصورة جـادة مشكلات المجتمع العربى فى القرن الرابع الهجرى ، وأحداث الدولة الإسلامـية في تلك الحقبة . وربما صور على نحـو ما التطلعـات الروحيـة والفكرية التى كـانت تمور فى بعض النـفوس فتـدفعها إلى الثـورة . ولعل هذا هو الذى جعل الدارسين يهـتمون بما فى شـعر المـتنبى من وقائع وأحـداث وصور اجـتمـاعيـة وفكرية ويوازنون بينها والوقـائع التاريخية التماسًا للصدق التاريخى [3] .

ونخرج من هذه الدراسة إلى أن أدب المتنبى لم يكن أدب المديح والحكمة فحـسب ، بل كان صـورة حية لهـذا « الأدب القومى » الذى تكاد ترتـفع دعوته الصارخـة فى هذه الأيام « على الأدب العالمى » وأنه من الزراية بـأدبنا القديم أن نقف عند هذه النظرة الضيـقة التى لا ترى فى أغراض الشعر العـربى سوى الغزل والمديح والنـسيب والرثاء والفخـر . مع أن قليلاً من البـحث فى شعر الـمتنبي يكشفنـا على منازع قومية حيـة تنبثق من قصـائد المديح التى تجـمع بين نظرته الإنسانية الشاملة ، وعاطفته العربية الزاخرة . ومن الخبل أن نذهب مع بعض من الناس إلى أن الأدب القومى عـرض زائل والأدب العالمي جوهر خـالد . فخلود

(١) أحمد رضا / روح الطموح فى المتنبى / مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق / المجلد الرابع عـشـر / الجـزء الأول والثـانى / كـانـون الثـانى وشـبـاط ١٩٣٦م - شـوال - ذو القـعـدة ١٣٥٤هـ/ ٣٥٧ .

(٢) محمد عـوض محمد / الشعر الذى أنشأه المـتنبى لنفسه / مصر مجمـع اللغة العربية - الدورة الثانيـة والثلاثون ١٩٦٥م - ١٩٦٦م / ١٣٨٦هـ - الهـيئة الـعامة لشـئون المطابع الأمـيرية - البحوث والمحاضرات / ٢٧ .

(٣) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) في عـالم المتنبى - رؤية فنية / الثقافة العدد ٤٤ مايو سنة ١٩٧٧م / ٥٦ .

الأدب العالمى ذى النزعة الإنسانية لا يجرد الأدب القومى من قوته وطابعه وأثره الواضح فى تصوير منازع الأمم تصويراً يظل بارز الأثر مهما تصرمت السنون والأجيال وهذا الأدب يشغل مكانه السابق فى نهضات الشعوب وكفاحها (١).

وقد مجد المتنبى أبطاله وهم كثر - وإن أحتل الأمير الحمدانى مقدمة الصورة نتيجة طبيعية لانحصار عاطفته فى ذاته ، فرأى فى هؤلاء الممدوحين صورة من نفسه ، ورأى فى كفاحهم صوراً مختلفة للسعى نحو مثل أعلى من الجود والشجاعة والعدالة والعلم ، مثل أعلى عناقه فى خياله ولكنه مستحيل التحقيق فى الواقع . ومن هنا حدة الشعور بمأساوية الحياة .

فَمَالِي وَلِلْدُنْيَا طِلاَبِى نُجُومُهَا ... وَمَسْعَاىَ مِنْهَا فِى شُدُوقِ الأَرَاقِمِ (٢)

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِى ... مَا لَيسَ يَبْلُغُهُ فِي نَفْسِهِ الزَّمَنُ (٣)

هذه هى عقدة أبى الطيب . ولكنها ليست خاصة به وحده ، بل هى عقدة الإنسان العربى عموماً . ولعلها لا تزال عقدة الإنسان العربى إلى يومنا هذا ، فنحن نحب أبا الطيب ونكرهه لأنه يكشف لنا هذه العقدة ، وكأننا لم نتجاوز فى تطورنا الحضارى عصره . ومع ذلك فهى عقدة إنسانية أيضاً . فى أى عصر وفى أى مكان وأى إنسان لا يشعر بالبون الهائل بين المثال والواقع ؟ ولكنه شعور استطاع أبو الطيب أن يجسده أكثر من غيره من شعراء الإنسانية الكبار ، لأنه كان بدوياً عميق البداوية ، وكان فى الوقت نفسه عميق الثقافة ، والبداوة فى صورتها الأصيلة تشجع على التعلق بالمثل العليا لأنها أقل خضوعاً للضرورات التى يفرضها المجتمع المدنى . وكذلك الثقافة الصحيحة تجعل ألف الإنسان للقضايا الكلية المطلقة والأخلاق المثالية أكثر من ألفه للواقع المبتذل (٤).

(١) سامي الكيالى / عبرة الشاب - لمحة عن منازع القومية فى المتنبى / الهلال -عدد خاص بالمتنبى / المجلد الثالث والأربعون / أول نوفمبر ١٩٣٤م أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٥٤ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٣٧ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٣٤ .

(٤) شكرى محمد عياد / عقدة المتنبى / الكويت - مجلة العربى - العدد ٢٣١ فبراير سنة ١٩٧٨م / ٨٧ . وانظر فى ذلك . شريف الربيعى / أبعاد البطل فى شعر المتنبى / الأقلام - الجزء الثامن ذو الحجة ١٣٨٥هـ نيسان ١٩٦٦م / ١٢٦ ، ١٢٧ . وأحمد نصيف الجنابى / أثر شعر عنترة فى شعر المتنبى / الأقلام - الجزء الخامس - السنة الثالثة - رمضان المبارك ١٣٨٦هـ كانون الثانى ١٩٦٧م / ٩٥ .

ولقد خلف لنا أبو الطيب صورة حية ، وغير دقيقة جزئيًا ، عن الحرب البيزنطية ولكنها ذات أهمية تاريخية هائلة .

ذلك لأن شعره ينقلنا نقلاً رائعًا إلى الجو الذى ساد فى الجانب العربى حوالى عام ٩٥٠م وما تلاه من أعوام . تلك كانت الفترة التى تحول خلالها الأمير الحمدانى من كونه أميرًا صغيرًا في بلاد ما بين النهرين إلى كونه سيد سوريا الشمالية وتخومها الحربية ، فألفى نفسه المدافع الوحيد عن الأقاليم الإسلامية ضد البيزنطيين فاستعاد وحده كذلك التقاليد كعظام الخلفاء ، بينما كان الملوك المسلمون الآخرون يغطون في الكسل والملل . واستطاع بموارده المحدودة المدعمة بحماس الشباب فى الوقت نفسه ، والمعززة بجرأة وحمية لا نظير لهما ، النجاح فى تكبيد العدو البيزنطى هزائم منكرة ،وجعل قواد البيزنطيين يلهثون من الفزع والجزع ، وطوال إقامة المتنبى إلى جواره ، لم يعرف الأمير الحمدانى شخصيًا إلاً الانتصارات وهذا ما أدهش أبا الطيب المتنبى بل هذا مصدر وجيه ، وهذا ما دفع قصائده بتلك اللهجة الحربية . ولهذا كانت هذه القصائد أناشيد مجد وانتصار ، وقد ظلت غزوات الأمير البطولية مدوية الرنين فى أذنى الشاعر حتى بعد رحيله عنه (١) .

والتاريخ لا يعيد نفسه إلاً نادرًا . ومع ذلك فأحيانًا تتطلب أوضاع جديدة عدة اتجاهات قديمة وسط تنسيقات مختلفة .وإن عصرنا لا يشبه عصر المتنبي إلاً قليلاً . فالإسلام وهو بعيد كل البعد عن معاناة أزمة حب الانفصال ، يشعر شعورًا حدا بوحدته العميقة . ففوق المنازعات الدينية يرفرف ميل للتضامن ، للوحدة دفاعًا عن مصالح الإسلام العامة فى العالم . ولكن بموازاة هذه القضية، فإن الشعور التى يتآلف منها الإسلام قد استيقظت على الشعور بفردياتها القومية المختلفة . ومن ضمن هذه الأمم يحس الشعب العربى إحساسًا متزايدًا على مدى الأيام ، بوحدته التاريخية الأساسية .

---

(١) ماريسو كنار / المتنبى والحرب البيزنطية العربية ، الأهمية التاريخية لأشعاره / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبي بغداد ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م / ٨٢ .

فإذا كان اعتزاز المتنبى بالعنصر العربى هو أصل تطور جديد ، فبمقدورنا ولا شك أن نمنحه قيمة إضافية أخرى . فإلى جانب أهميته التاريخية من حيث انطلاقه ربما يحتفظ أبو الطيب كذلك بحالية قلت أو كثرت . ولكن هذه المسألة تتعلق بمن يمشى على خطاه من المعاصرين اليوم . ومن له صلة بالتاريخ الدينى الإسلامى ، يذكرنا هنا بالذات ، فى برهنة ساطعة - بنصيب شاعرنا فى تخمير الأفكار التى طبعت تلك الفترة الخلابة بطابعها . ومن المحتمل أن عبقرية عالمية على غرار عبقرية أبى الطيب ستوفق إلى أن تقول عنه ما لم يستطع أحد قوله حتى الآن عن شخصيته الملغزة المعماة . ولن يعجب أحد إذا ادعى بنصيبه فى إغناء التراث المقدس للدين الإسلامى ، والإشارة بجوهره . ونحن سعداء فى تقريب هذا الإنسان الفريد الممتاز إلى أنفسنا ، وذلك بالكشف عن دوره الحذر الفعال فى تكوين ما يجب أن تكون عليه صيرورة الأمة العربية (١) .

وفى نفس المتنبى وفى شعره نزعة عربية شديدة ، ولا غرابة ، فهو عربى يمنى ينتمى إلى قبيلة جعفى من جهة الأدب ، وهمدانى من جهة الأم ، ونعلم أنه كان متعصبا للعرب والحياة العربية وقد قوى هذا التعصب فيه إقامته فى البادية مدة طويلة وتعود عاداتها ، وقد كثر فى شعره الفخر بأصله العربى وذم الأعاجم، كقوله : وقد جرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل فقال مخاطبًا سيف الدولة (٢) :

إنْ كُنْتَ عَنْ خَيْرِ الأَنَامِ سَائِلاَ ... فَخَيْرُهُم أَكْثَرُهُمْ فَضَائِلاَ
مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ يَا هُمَامَ وَائِلاَ ... أَلطَّاعِنِينَ فِى الْوَغَى أَوائِلاَ
وَالعَاذِلِينَ فِى النَدى العَوَاذِلاَ ... قَدْ فَضَلُوا بِفَضْلِكَ القَبَائِلاَ (٣)

---

(١) جان لسيرف / المغزى التاريخى للعروبة فى شعر المتنبى / ترجمة د. أكرم فاضل - المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص - أبو الطيب المتنبى بغداد - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م / ٨٦ .

(٢) أحمد أمين / المتنبى وسيف الدولة / الثقافة - السنة الرابعة - العدد ١٧٠ ، ربيع الأول سنة ١٣٦١هـ ، ٣١ مارس ١٩٤٢م / ١١ وأنيس المقدسى / أمراء الشعر فى العصر العباسى / بيروت - ط دار العلم للملايين ١٩٦٨م / ٣٤٦ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٣٢ .

ويمدح المتنبى سيف الدولة بعروبته ويقول فى مدح العرب :

إِذَا العَـرَبُ العَـرْبَاءُ رَازَتْ نُفُـوسَهَـا ... فَـأَنْتَ فَـتَـاهَا وَالمَلِيكُ الحُـلَاحِلُ

أَطَاعَـتْكَ فِي أَرْوَاحِـهـا وتَصَـرَّفَتْ ... بِأَمْـرِكَ وَالتَـفَّتْ عَلَيْكَ القَـبَـائِلُ (١)

وقد تفرد العرب بأصله ومحتده ، فعم إحسانه قومه وغير قومه :

تَفَـرَّدَ العُـرْبُ فِي الـدُّنْيَـا بِمَـحْتِـدِه ... وَشَارَكَ العُـرْبَ فِي إِحْسَـانِه العَجَمُ (٢)

وثمة شعور مزيج بنكهة عزة قومية عربية ، يبدو غالبًا فى أشعار هذه الفترة ، هو الشعـور القومى الإسلامى ، الذى أنعشـه طبعيًا استئناف الهجوم البـيزنطى على الشرق فى القرن العاشر ،وانبعاث روح جديدة فى الإمبراطورية لاسترداد الأقاليم المفقودة .

لقد منح المتنبى أكثر من سطوة كلمته لتمجيد الإسلام والذين يجاهدون فى سبيله ورفع من قيمـة البطل الذى لا يدافع عن الثغور فـقط ويعيد بناء مـا خربه العدو. ويرد الدين إلى منزلتـه العليا ، إذ ترتفع منابر الوعظ وتؤمن إقـامة صلاة الجمعة فى الأراضى البيزنطية ويرى أن هذه الـحرب مع البيزنطيين إنَّما هى حرب بين الكفر والإسلام ، وسوف يذل دين الله سائر الأديان يقول المتنبى :

هَنِيئًـا لأَهْلِ الثَّغْـرِ رَأْيَكَ فِـيهِمُ ... وَأَنَّكَ حِـزْبَ اللَّه صِرْتَ لَهُمْ حِـزْبَا (٣)

وَلَسْـتَ مُلِيكًا هَازِمًـا لِنَظِيْـرِه ... وَلَكِنَّـكَ التَّـوحِـيْـدُ لِلشِّـرْكِ هَازِمُ

ولم لا يقى الرحمن حـديك ما وقى ... وتفليـقـه هام العـدا بك دائم (٤)

وَأَخْلَـصَ اللَّهُ لِلإِسْـلَامِ نُـصْـرَتَهُ ... وَإِنْ تَـقَـلَّـبَ فِـى آلائِـه الأُمَـمُ (٥)

مُـخْلًى لَهُ المُـرجُ مَنْصُوبًـا بِصَارِخَـة ... لَهُ المَنَابِرُ مَـشـهـودا بِهَـا الجُـمَعُ (٦)

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٤٠ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٩٢ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٦٢/١ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٥) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٩٢ .
(٦) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثالث / ٣٣٤ .

وتعكس أشعار أبى الطيب بوضوح روح الجهاد « الحرب المقدسة » فى أنبل مظاهرها وأنزهها ، وهذا ما ينبغى أن نشدد القول عليه ، فى أشرس مظاهرها . والمتنبى لا يشيد فقط بالمجاهد الذى يمضى قدمًا فرحًا باستشهاد وتضحية نفسه لمثله الأعلى ، الذى يعتبر الموت لأجله هى الحياة الحقة ، ولكنه يتغنى أيضًا بالغزو المدمر فى القطر المعادى ، ولا شك أن لديه من مسامعيه مشاركين له فى أحاسيسه [1] :

وَفَوَارِسٍ يُحْيِى الحِمَامُ نُفُوسَهَا ... فَكأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الحَيَوَانِ [2]

فَخَاضَتْ نَجِيعَ الجَمْعِ خَوْضًا كَأَنَّهُ ... بِكُلِّ نَجِيعٍ لَمْ تَخُضْهُ كَفِيلُ

تُسَايِرُهَا النِّيرَانُ فِى كُلِّ مَسْلَكٍ ... بِهِ القَوْمُ صَرْعَى والدِّيَارُ طلول

وَكَرَّتْ فَمَرَّتْ فِى دِمَاءِ مَلَطْيَةٍ ... مَلَطْيَةُ أُمٌّ لِلبَنِينَ تَكُولُ [3]

ويبدو منذ لقاء المتنبى بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ أنه أبدى تجاوبه وإعجابه بالأمير الحمدانى لتقمصه شخصيته بشكل واضح . يقول :

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيتُ صِفَاتِهِ ... بِلاَ وَاصِفٍ والشِّعْرُ تَهْذِى طَمَاطِمُهْ [4]

ثم شرع بعد ذلك يشيد بصفاته ويجسدها فهو سيف سله المجد لا يخفيه ولا تتلمه الحروب يزين المملكة وقبضته فى يد الله .

لَقَدْ سَلَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المَجْدُ مُعْلِمًا ... فَلاَ المَجْدُ مُخْفِيهِ وَلاَ الضَّرْبُ ثَالِمُهُ

عَلَى عَاتِقِ المُلْكِ الأَغَرِّ نِجَادُهُ ... وَفِى يَدِ جَبَّارِ السَّمَوات قَائِمُهُ [5]

---

(١) عبد الرحيم محمود زلط / آراء فى الشعر العربى ومذاهبه وفنونه / القاهرة . نشر مكتبة الشباب ١٩٧٩م / ٢١٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٨١ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٥٨ .

(٥) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٥٩ ، ٦٠ .

وقـد أقـر أبو الطيب لسيف الدولة بـحقـه فى الـحكم ، وهذه نظرية مـتـداولة ومعروفة، وقـد تعكزها واستهلكها شعراء بنى أمـية وخلفاؤهم ، ولكن أبا الطيب لم يسبغها على أحـد قبل سيف الدولة ، وقد أعجبته هذه النغمـة ، كما أعجبت غيره فلم يرتووا منها . . . فأخذ فى تكرارها يقول :

تَحَـيَّـرَ فِى سَـيْفٍ رَبِيـعَـةُ أَصْلُهُ   وَطَابِعُـهُ الرَّحْـمَنُ والمَجْـدُ صَـاقِلُ [١]

ويقول :

وَلَـولاَ قُــدْرُهُ الخَــلاَّقُ قُلْنَـا   أَعَـمْـدًا كَـانَ خَلْقُكَ أَمْ وِفَـاقَـا ؟

فَـلاَ حَطَّتْ لَكَ الـهَـيْجَـاءُ سَـرْجًـا   وَلاَ ذَاقَتْ لَـكَ الدُّنْيَـا فِــرَاقَــا [٢]

ويظهر فى تغنى الـمتنبى أسلوب ، لم يكن معـروفا ، فى شعـره قبل هذه المرحلة إذ أنه لم يقل فى أحد من الممدوحين أو الملوك ، قبل سيف الدولة ولا بعده ، مثلما قال :

لَنَـا مَلِـكٌ لاَ يُطْـعَمُ الـنَّوَم هَمَّـــه   مَـمَــاتٌ لِحَى أَوْ حَــيَــاةٌ لِمَــيِّت

ويَكْبَّـرُ أَنْ تَقْـذَى بِـشَىءٍ جُـفُـونُهُ   إِذَا مَــا رَأَتْـهُ خَلَّـةٌ بِـكَ فَــرَّت

جَـزَى الـلَّهُ عَنِّى سَـيْـفَ دَوْلَةِ هَاشِمٍ   فَـإِنَّ نَدَاهُ الـغَـمْـرُ سَـيْـفِى ودَوْلَتِى [٣]

انظر إلى قوله : « لنا ملك » وقوله « سـيفى ودولتى » إذ إنه لم يستعمل ضـمير الجمع « لنا » فى هذا الـموضع قبل هذه المـرحلة أبدًا ، ولم يستعـمله مثل هذا الاستعمال بعدها أيضًا .

وثمة سمة أخرى تظهر فى شـعر هذه المرحلة ، وهى أن المتنبى شرع فى موازنة بين سيف الدولة والملوك الآخرين ، فهـو يفضله عليهم بدافع خفى هو تقمصه شـخصية سيف الدولة ، وبدافع ظاهر ، هو كرم وسخاء الأخير الحمدانى، وتفوقه على الملوك الآخرين فى هاتين الخلتين بالإضافة إلى تحليه بالصلابة [٤].

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٣٥ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٤) جاسم محسن عبود / التطلع القومي عند المتنبي / ٩٢ ، ٩٣ .

وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ المُلُوكُ مَوَاهِبٌ   دُرُّ المُلُوكِ لِدَرِّهَا أَغْبَارُ [(١)]

ويشتد إعجابه بالأمير الحمدانى ، فيرى فيه سجايا وخلالاً لا تتمثل فى غيره :

رَأَيتُكَ فِي الذِينَ أَرَى مُلُوكًا   كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِ

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ [(٢)]

ويوغل أبو الطيب فى هذه الموازنات فيذهب بعيدًا فى أحلامه وآماله فيتوق أن يرى سيف الدولة متغلبا على الملوك معربًا سلطات الأقاليم ، يمن على بعض الأمراء بالعفو حين يريد :

أَعْطَى وَمَنَّ عَلَى المُلُوكِ بِعَفْوِهِ   حَتَّى تَسَاوَى النَّاسُ فِى أَفْضَالِهِ [(٣)]

والأمير الحمدانى يخشى سطواته الملوك الآخرون عربًا كانوا أم من ملوك الروم يقول :

تَظَلُّ مُلُوكُ الأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ   تُفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجَّدًا [(٤)]

ويقول أيضًا :

تَعَرَّضَ سَيفُ الدَّوْلَةِ الدَّهْرَ كُلَّهُ   يُطَبِّقُ فِى أَوْصَالِهِ وَيُصَمِّمُ

كَأَنَّ العِدَا فِى أَرْضِهِمْ خُلَفَاؤُهُ   فَإِنْ شَاءَ حَازُوهَا وَإِنْ شَاءَ سَلَّمُوا [(٥)]

ويرى المتنبى أن سيف الدولة ذو منزلة عالية عند خليفة بغداد فهو درع للخلافة يحميها ، ولا يقل عنها منزلة :

إِمَامٌ لِلأَئِمَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ   إِلَى مَنْ يَتَّقُونَ لَهُ شِقَاقَا [(٦)]

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثاني / ١٩١ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثالث / ١٥١ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٨٥ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب / ١/ ٢٨٢ .

(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٦٩/ ٧٠ .

(٦) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٤٣ .

ويمن بفضل الأمير الحمداني على الخلافة وقادتها :

لَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ مِنْ دَوْلَةٍ لَهَا مِنكَ يَا سَيْفَهَا مُنْصُلُ [١]

وما لقب « بسيف الدولة » إلا لأن الخليفة رأى جدارته بذلك واستحقاقه له :

إنَّ الخَلِيفَةَ لَمْ يُسَمِّكَ سَيْفَهَا حَتَّى بَلاكَ فَكُنْتَ عَيْنَ الصَّارِمِ

وَإِذَا تَتَوَّجَ كُنْتَ دُرَّةَ تَاجِهِ وَإِذَا تَخَتَّمَ كُنْتَ فَصَّ الخَاتَمِ [٢]

ومع ذلك ، فإن الأمير الحمدانى لم يكن آلة بيد الخليفة ، يصرفه كما يصرف الولاة والملوك والسلاطين .

وإذَا انْتَضَاكَ عَلَى العِدَا فِي مَعْرَكٍ هَلَكُوا وَضَاقَتْ كَفُّهُ بِالقَائِمِ [٣]

وقد بذر أبو الطيب فى هذا البيت ، أولى أفكاره وأخلاقه بتعريب سلطات بغداد والسيطرة على الخلافة فيها، لأن كف الخليفة تضيق عن الإمساك بالأمير الحمدانى وتحريكه حسب ما يهوى ويشاء .

ولهذا صور المتنبى حياة سيف الدولة وحياة غيره من الأمراء الآخرين . إذ أنه يشيد بسيف الدولة وانتصاراته على الروم ، موازنًا بين حياته وحياة هؤلاء الحكام الظالمين الآثمين ، فحياتهم كلها غناء وطرب وخمر ولهو ومجون ، وحياته كلها جد وبأس وبطش وجهاد ونضال وتقوى وهدى ورشاد ، وكأنه يغريه فى قوة بالاندفاع إلى حربهم اندفاع السيل العرم [٤] ، يقول :

أَلْهَى المَمَالِكَ عَنْ فَخْرٍ قَفَلْتَ بِهِ شُرْبُ المُدَامَةِ والأَوْتَارِ والنَّغَمُ

القَائِمُ المَلِكُ الهَادِي الَّذِي شَهِدَتْ قِيَامَهُ وَهُدَاهُ العُرْبُ والعَجَمُ [٥]

---

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٦٨ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٦٨ .

(٤) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ٩٧ ، ٩٨ .

(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ١٤١ ، ١٤٢ .

جـ- العروبة والأعاجم:

طرق المتنبى فى شعره موضوعًا جديدًا لم يطرقه الشعراء قبله ذلك هو موضوع القومية العربية وحرصه على مجد العرب أمام الأعاجم الذين قضوا عليه.

وقد وصف العرب لا بكونهم شتيتا من القبائل المتنافرة بل بكونهم شعبًا كريمًا حقًا أصيلاً ومجيدًا وبكونهم شعبًا لم يشاركهم أحد فى هاته المزايا .

وقد استمد المتنبى هذه الناحية من تفكيره القوى ومن تجاربه التى جابهته فى مجتمع سياسى ، فقد كانت الفرس والأتراك وغيرها من الأجناس التى دخلت الإسلام وقد ركزت نفوذها فى قصور الخلفاء والملوك والأمراء [١] .

ومن هنا كان المتنبى يصف نفسه بأنه « الفتى العربى » ، وكان متحيزًا فى قوة وصرامة إلى العرب ،وكانت أسعد أيام حياته السنوات التى قضاها مع «فتى عربى» آخر هو الأمير الحمدانى ، ولا نكاد نجد بين فحول الشعراء فى العصر العباسى شاعرًا شغلته مسألة العروبة كما شغلت المتنبى [٢] .

وهو ما جعله يخرج من الكوفة وهو على وعى تام بالقوى التى تتناوش مصير الأمة . فهناك المتسلطون فى عاصمة الخلافة من الفرس والأتراك ومن إليهم، وقد آثر أن يتجنبهم فلم يتصل بهم ولم يمدح أحدًا منهم ،ولو كان مطعمه فى عسجد يستفيده لفعل ، ولأغدقت عليه الهبات والعطايا ولقرت نفسه وطاب مقامه فى بلاده ، ولكن كان يرى فيهم أعداء لأمته ولمطامحه ، غير جديرين بغير الأطراح والازدراء .

وهناك البويهين الديلم ، الذين تحالفوا مع بعض خصوم الخلافة من أصحاب النحل ورفعوا شعار سيدهم وولى نعمتهم مرداويج ، وكانت أسماء مؤسسى دولتهم الأخوة الثلاثة أحمد وعلى وحسن ، وقد أخذت تتردد فى

---

(١) عبد المجيد بن الطيب بوديه/ عروبة المتنبى / تونس - مجلة الندوة - العدد الثامن ١٩٥٣م / ١٧ : وانظر فى ذلك : محمد فريد أبو حديد / أبو الطيب يعثر على موضعه / دمشق مجلة المجمع العلمى العربى - الجزء الأول - المجلد الأربعون - شعبان ١٣٨٤هـ يناير ١٩٦٥م / ٦١ .

(٢) محمد عوض محمد / المتنبى والعروبة / مصر مجلة المجلة - العدد السابع ذو الحجة ١٣٧٦هـ ، يولية سنة ١٩٥٧م / ٢٧ .

أحداث إيران الغربية وتبلغ أصداؤها العاصمة ، واستطاعوا أن يقتطنوا لأنفسهم عددًا من الولايات الشرقية ، ولم تأت سنة ٣٢٢ هـ حتى أصبح الجنوب ملكا خالصًا لهم ، استولوا عليه كما استولى الساميون والزياريون على أجزاء من إيران ولم يبق بيد الخليفة إلا حدود إيران الغربية . وكان باستطاعة أبى الطيب لو شاء، أن يضمن لنفسه غدًا مشرقًا مع هذه القوة الجديدة التى قوى عنفوانها وعنفها منذ أخذت تنسل تدريجيًا من طاعة مرداويج وتصنع لنفسها أمجادًا خاصة مستقلة عن سيدها الزيارى .

ولكن تاريخ هذه الأسرة وتاريخ اعتناق الديلم الإسلام ، وتحالفهم مع بعض القوى التى كانت تعاديه وتضمر له الشر في الكوفة ، وتطلعها إلى الاستيلاء على الحكم العربى كل هذا جعل أبا الطيب يطرحها ولا يلقى إلى زعمائها بالا حتي فيما بعده ،عندما بلغوا أوج عظمتهم ، كما كان شأنه مع معز الدولة ووزيره المهلبى فى آخر زيارة قام بها إلى بغداد بعد عودته من مصر [(١)] .

ومن الواضح أن دواعى سخط المتنبى على الولاة وبعضهم من الأعاجم ليس هو الشعور بعروبته فحسب ، بل إن هذه الدواعى مرتبطة بالوضع الاجتماعى والسياسى وسوء حال الدهماء من عرب وغيرهم فراح يضرب المتنبى على كل وتر حساس بما فى ذلك تذكير العرب بأن ملوكهم عجم حتى يتهيأوا للثورة ضدهم ، وإذا أردنا أن نفسر المسألة تفسيرًا فرديًا فمن المعقول عندئذ أن يكون المتنبى هجا هذا الوالى المولى أو الأعجمى أو ذاك بأنه ليس عربيًا أو ما يشبه هذا لأن هذا الوالى أو ذاك لم يف بوعد قطعه للمتنبى أو لم يجزل له العطاء والتقدير . وليس من شك فى أن واحدًا من دواعى سخطه على الملوك والعجم هو عدم تحقيق آماله فى الولاية أو سواها على أيديهم [(٢)] .

---

(١) محمد يوسف نجم / من خلاص الفرد إلى خلاص الجماعة . دراسة فى حياة أبى الطيب الشعرية / لبنان مجلة الآداب السنة الخامسة والعشرون - العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ١٥ .

(٢) حسام محيى الدين الألوسى / أضواء جديدة على نبوة المتنبي - مجلة كلية الآداب جامعة بغداد - العدد العاشر نيسان ١٩٦٧م / ٢٧١ ، ٢٧٢ .

ويؤكد المستشرقون ما يرونه من أن رواج المتنبى فى الأوساط المثقفة بدمشق والقاهرة وتونس ناشئ فى زماننا عن مصدر آخر ، وذلك أن مداح الأمراء فى الشام ومصر وفارس ، أصبح بدافع من التأثير القومى وفكرة الجامعة العربية اللذين دفعا المسلمين إلى البحث فى الشرق الوسيطى عن رجال يواجهون الغرب أقول : أصبح المداح ممثلا للعبقرية العربية المنتصبة فى وجه العبقرية الأعجمية، فهو يشبه الشاعر فينى وغوته وحتى نيتشه الشرقى مثبتا بوضوح المساواة الثقافية لبلاد واقعة اليوم تحت الوصاية الفكرية والسياسية لأوروبا (١) .

فالمتنبى إذن المناضل فى الشعر العربى ، يترقبه الرأى العام ليستدل ستار النسيان على شعراء الشعوبية ، وليبعث نموذج الشاعر العربى للعصر الذهبى ، الذى أخذ يزداد توشحه بالمعنى الصوفى أو العنصر عبر التاريخ كلما أمحي رسمه فى الماضى وطورت الظروف معنى كلمة « عربى » (٢) . ومع ذلك فإن المتنبى لا يفكر إلاَّ بالإشادة بالانتصارات العربية ، ناسيًا أنها فى الوقت نفسه انتصارات إسلامية (٣) .

ولا شك فى أن بلاشير وغيره من المستشرقين يكنون بعض الكراهية القوية لأبى الطيب المتنبى وقائده البطل سيف الدولة الذى قاوم الدولة البيزنطية سنوات طويلة ودمر محاولاتها المتعددة في اختراق الحدود الإسلامية ، وكان شعر المتنبى واحدًا من الأسلحة الضخمة فى هذه المعارك .

ونحن إذ نقرأ آراء المستشرقين هذه ، نراها بعيدة عن الصواب في كثير من جوانبها ، أولا : لأنهم يكرهون المتنبى الذى بعث القومية العربية فى أجيالها فى الماضى وفى الحاضر ، ومن هنا فهو يشكل لديهم خطرًا كبيرًا ، إذ ينادى بحق

---

(١) د. بلاشير / ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين - قسم ثاني / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى دمشق ١٩٧٥م/ ٥٢٢ . وأبو الطيب المتنبى / حلب مجلة الحديث - السنة التاسعة - العدد السابع - تموز يوليو ١٩٣٥م / ٤٦٩ .

(٢) كودوفروا موبيين / المتنبى وأسباب مجده . الأهمية التاريخية لأشعاره / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد -المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٣١٧هـ ، ١٩٧٧م / ٦٨ .

(٣) جان لسيرف / المغزى التاريخى للعروبة في شعر المتنبى / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد المجلد السادس العدد الثالث ١٣٩٧ ، ١٩٧٧م / ٨٥ .

العروبة ولم شملها ضد الاستعمار ، ولا شك فى أن تكاتف العرب جميعًا مما يوغر صدور الغرب لأنهم أصبحوا يشكلون قوة لا يستهان بها ، ثم إن عنصرية المتنبى التى يقولون بها لا صحة لها . إذ إن المتنبى شاعر قومى يفخر بذات وقومه شأنه فى ذلك شأن أى شاعر فى الأمم كلها ، ثم إنه لم يقتصر على تمجيد العروبة فى شعره فحسب ، وإنَّما دافع بنفسه وشعره عن حمى الدين الإسلامى .

وليس من شك فى أن سيفياته تشكل شعرًا إسلاميًا له مجاله الخاص وذوقه المنفرد فى عصره وبعده . والمهم أن آراء المستشرقين متناقضة فى بعض الأحيان مما يجعلنا لا نثق فيما كتبوه عن عروبة المتنبى (١) .

إن سمو عنصر المتنبى هو سمو المطلق . ولم تعد مسألة حضارة ولا مسألة خدمات تؤدى للإنسانية ، وإنَّما هى مسألة شرف وراثى ، وتربية عالية ، وكرم فطرى ، وأخيرًا براعة حربية . هذه المزايا هى مزايا قومية وليست مزايا أفراد . وإن قيمتها عالية بصورة خاصة نظرًا لكونها من مميزات العنصر العربى واليمانى . وإنَّ قيمة المتنبى لتظل فى أنه عبر عن هذا الشعور منذ مولد هذا الشعور . وذلك بقوة خارقة وثبات فائق لا يمكنها الآخرون . والشعراء هم أولئك الذين يحسنون أفضل ما يحسنون الأعراب عن الأمانى الوطنية فى فترة حرجة (٢) .

ومن هنا فإن القوة والكبرياء ، وتمجيد أبطال البادية ، وهى الجوهر الكامن فى الحضارة العربية ، وهى البراهين التى هزمت الشعوبية فى العصر العباسى ، وهى الدواء الذى أراد به ابن خلدون أن يعالج الإمبراطورية الإسلامية وقد أنهكها الضعف ، على امتداد القرن الرابع عشر الميلادى وهى المثل التى تغذى القصيدة القومية للشعوب العربية التى تخضع للحكم الأجنبى (٣) .

---

(١) ماريوس كنار / المتنبى والحرب البيزنطية . الأهمية التاريخية لأشعاره / ترجمة د. أكرم فاضل/ المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص - أبو الطيب المتنبى بغداد ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م / ٨٢ .

(٢) جان لسيرف / المغزى التاريخى للعروبة فى شعر المتنبى / ترجمة د. أكرم فاضل / المورد المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م/ ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) إميلو غرسيه غومث / شعراء الأندلس والمتنبى - سير ودراسات . تعريب . د. الطاهر أحمد مكى ط ثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م / ٤٩ .

لقد وجد المتنبى فى سيف الدولة وهو الأمير العربى المثل الذى كان يفتقده فى غيره من الأمراء الأعاجم الذين اتصل بهم من قبل ومدحهم ، فهو أمير عربى متعصب للعروبة مبغض أشد البغض حتى ليجعل من نفسه حاميًا للعروبة ، أمام الروم فى الشمال ،والإخشيديين الترك فى الجنوب .

وليس من شك فى أن هذا قد أرضى ما كان يملأ نفس أبى الطيب للعرب وتعصب للعروبة وهو لهذا يسمى سيف الدولة فى بعض قصائده « أمير العرب » وكان هذا كله يدفع أبا الطيب إلى مدح الأمير الحمدانى عن إخلاص وصدق ، وإلى تسجيل انتصاراته على الروم لأنها انتصارات للعرب على الأعاجم (١) .

ومن حبه للعرب ما يتضح فى مدحه العربى بنسبه وتعداد مفاخر قبيلته وأمجادها وممارسة أبى الطيب هذا الرمز يدل على ما كان من معرفة بطباع نفوس الأفراد والجماعات ، ومن ذلك ما قاله فى مدح العلوى المشطب .

خَيْرُ قُرَيْشٍ أَبًا وَأَمْجَدُها ... أَكْثَرُهَا نَائِلا وَأَجْوَدُهَا
تَاجُ لُؤَىِّ بنِ غَالِبٍ وَبِهِ ... سَمَالَهَا فَرْعُهَا وحتدها (٢)

وفى سيف الدولة :

وَأَنْتَ أَبُو الهَيْجَا بنُ حَمدَانُ يَا بْنُهُ ... تَشَابَهَ مَولُودٌ كَرِيمٌ وَوَالِدُ
وَحَمْدَان حَمْدُونٌ ، وَحَمْدُونُ حَارِثٌ ... وَحَارِثُ لِقْمَانُ رَاشِدُ (٣)

أما فى مدحه لغير العربى فإنه يتعرض للناحية الحسية ويذكر جمالهم ووسامتهم وغالبًا ما يشبه جمالهم بالشمس أو بالقمر (٤) . يقول فى الحسين بن على الهمذانى :

أَرَى القَمَرَ ابنَ الشَّمْسِ قَدْ لَبِسَ العُلاَ ... رُوَيْدَكَ حَتَّى يَلْبَسَ الشَّعَرَ الخَدُّ (٥)

(١) يوسف خليف / تاريخ الشعر فى العصر العباسى / ١٦٤ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٣) المصدر السابق / ١/ ٢٧٧ .
(٤) جاسم محسن عبود / التطلع القومى عند المتنبى / ٦٣ ، ٦٤ .
(٥) عبد الرحمن البرقوى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١٠٨ .

ويقول فى كافور :

يَفْضَحُ الشَّمْسَ كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ [(١)]

وكان لهذا إذا مدح كافور وغيره لم يخلص له ولم يواته طبعه ، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربيًا لا يرى غضاضته فى مدحه، وانثالت عليه المعانى انثيالا [(٢)].

ولم يكن أبو الطيب وضيعا ولا ذليلا عندما قدم إلى كافور وخير مثال على ذلك قصيدته التى مدح بها كافورا وحاول أن يرثى فيها شبيب العقيلى .

فقد ظل شعوره الجامح بعزته وهو يذوق لدى كافور طوال أربع سنوات عجاف اليأس المجدب كبير القلب فتى النفس فتوة خليقة بالإكبار . وكأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس البشر ، طبيعة لا تهرم ولا تضعف ، مهما تقدمت به السن ومهما اشتعل عذاره شيبا ، بل لكأن شعراته البيضاء حراب مشرعة إلى أعدائه ، حراب من ورائها نفس تزمجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرًا رائعًا فى آخر قصيدة مدح كافورًا بها لسنة تسع وأربعين إذ يقول [(٣)] :

وَفِى الجِسْمِ نَفْسٌ لاَ تَشِيبُ بِشَيْبِهِ وَلَو أَنَّ مَا فِى الوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ

لَهَا ظُفُرٌ إِنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِى الفَمِ نَابُ

يُغَيِّرُ مِنِّى الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا وَأَبْلُغُ أَقْصَى العُمْرِ وَهْىَ كَعَابُ [(٤)]

وكان المتنبى يحن إلى أميره سيف الدولة وكأنه يحن إلى العروبة المفقودة فى نظره عند كافور فى مصر ، وهذا ما سبق أن أشرت إليه [(٥)] .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٤ .

(٢) أحمد أمين / فيض الخاطر / الجزء الرابع / ٧٩ . وانظر فى ذلك : الشيخ الكبير على الشرقى / عروبة المتنبى وسر شهرته / النجف - مجلة الاعتدال - السنة الرابعة - العدد الثالث - محرم سنة ١٣٥٦هـ نيسان ١٩٣٧/١٤٣.

(٣) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ١٠١ ، ١٠٢ . وعصر الدول والإمارات / ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٩٠ .

(٥) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

ولقد امتلأت نفس أبى الطيب ضيقًا بهؤلاء الأمراء والملوك الذين وصلوا إلى الحكم وهم لا يستحقونه ، ومضى يجاهر به ويعلنه على الناس ، وحذره بعض من كان يتصل به مغبة اندفاعه وتهوره ، لكنه قال له :

أَبَا سَعِيدٍ جَنِّبِ العِتَابَا فَرُبَّ رَائِى خَطَأً صَوَابَا
فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الحِجَابَا وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدِّنَا البَوَّابَا
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ القِرْضَابَا وَالذَّابِلَاتِ السُّمْرِ وَالعِرَابَا
يَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الحِجَابَا [1]

إنه يصرح بما فى نفسه من سخط على هؤلاء الأمراء والملوك الذين أكثروا من الحراس والحجاب حولهم ، ويرى أن السيوف والرماح والخيل هى الوسائل التى تحقق له المساواة بينه وبينهم وترفع ما بينه وبينهم من حجاب [2] .

ولم يكف أبو الطيب عن ترديد هذه الأنغام الثائرة فى شعره ، بل راح يلح عليها ، ويطيل فيها، حتى وصل به الأمر إلى درجة التهديد بالثورة والخروج على السلطان ، وتحدى الملوك والأمراء والحكام جميعًا :

أَيَمْلِكُ المُلْكَ وَالأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ؟
مَنْ لَوْ رَآنِى مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ وَلَو مُثِّلْتُ لَهُ فِى النَّومِ لَمْ يَنَمِ؟
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَينِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ العُرْبِ وَالعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا فَمَا قَصْدِى بِهَا لَهُمُ وَإِنْ تَوَلَّوا فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ [3]

وليس من شك فى أن هذا كله قد أغضب الوالى الإخشيدى القائم بالأمر فى هذه المنطقة التى كان ينزلها أبو الطيب لأنه وجد فيها فوضويًا مزعجًا وثائرًا خطيرًا ،

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٠٥ .
(٢) يوسف خليف / تاريخ الشعر فى العصر العباسى / ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٦١ ، ١٦٢ .

يعد وجوده على سلامة الدولة ، فألقى به لؤلؤ الغورى الإخشيدى على حمص القبض عليه وألقى به فى غياهب السجن ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٣٢١هـ أو أوائل سنة ٣٢٢ هـ [(١)] .

ويقف أحيانًا ليهون من شأن الوالاة من الترك والأعاجم الذين تسلطوا على الشعب ، وهم أشد ما يكون خوراً وضعفًا وجبنًا ، وفيهم يقول :

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُم جُثَثٌ ضِخَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمُ بِالعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
أَرَانِبُ غَيْرَ أَنَّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ
بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ القَتْلُ فِيهَا ... وَمَا أَقْرَانُهَا إلاَّ الطَّعَامُ
وَخَيْلٍ لاَ يُخِرُّ لَهَا طَعِينٌ ... كَأَنَّ قَنَا فَوارِسِهَا ثُمَامُ [(٢)]

فالمتنبى يصف ملوك الترك الأعاجم بأن لهم أجسا بلا عقول ، ويرى أنهم أرانب أصبحوا ملوكًا وساسة للشعب ، ونواظرهم مفتوحة كنواظر الأرانب ، ولكن عيونهم نائمة ، كناية عن غفلتهم ، وأن أمور الدولة تدبر من دونهم دون أن يعرفوا عنها شيئًا . « ويقول إنهم يموتون بطنة وتخمة من كثرة ما يملأون به بطونهم من الطعام والشراب لا كما يموت الفرسان فى الحرب قعصًا بالرماح ، فهم جبناء أنذال ، وحقًا عندهم خيول كثيرة ، ولكن لا يخر ولا يسقط لها طعين ولا قتيل لأنها لا تلقى عدواً ولا تحمل فرسانًا ، ففرسانها لا يحملون قنا ولا رماحًا ، وإنما يحملون أعوادًا من الثمام . وإنه لحرى أن يجذب هؤلاء الحكام من أماكن حكمهم، وأن يوضعوا فى منازلهم الحقيقية ، ولا يغتر أحد بعلوهم وعلو مكانهم، فالجيش الجرار يعلوه الغبار غلواً لا يحط من الجيش ولا ينال منه » [(٣)] .

---

(١) يوسف خليف / تاريخ الشعر فى العصر العباسى / ١٥٨ . وزكى المحاسنى/ المتنبى / ٤٣ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب / ٤/ ٧٠ ، ٧١ .
(٣) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ٨٥ .

ويتعمق أبو الطيب إحساس بالأسى ، فالظلم يلقى بأعبائه على الشعب ، وهو منزوى لا يتحرك ولا يتسرع إلى رد الظلم والطغيان ، ولا يبادر إلى الثورة على البغى والعدوان ، وتتجسد لأبى الطيب أسباب المحنة وأنها تعود إلى ما أصاب فى أخلاقهم وكرامتهم ، فهى محنة خلقية قبل أن تكون محنة سياسية محنة جعلت الناس أضعف من أن يتحركوا وأن يثوروا لقهر من يستبدون بهم ، وهي بدورها محنة تتطلب من أبى الطيب حربًا لعلها أشد وأعنف من حرب الرماح والسيوف ، وإذن فليقتحم معها معركة حارة الوطيس ، يحمل فيها الناس على خلقية قويمة جديدة ، يرسم فيها المثل العربية رسمًا يجسدها لهم ويرفعها أمامهم شعارات يتمثلونها ، وفى الوقت نفسه يصور فيهم الرذائل التى جعلتهم يخنعون لظالميهم محاولاً بذلك أن يحفزهم حتى يحطموا العدوان الذى يحيق بهم ، وحتى يذكى فيهم الشعور بكرامتهم والإحساس بأن الحياة التى يحيونها بغيضة أشنع البغض . وهو فى أثناء ذلك لا ينسى الحملة القوية على ملوك الترك والأعاجم وحكامهم منذرًا إياهم ومتوعدًا إذ يقول [(١)] :

وَإنَّمَا نَحْنُ فِى جِيلٍ سَواسِيَةٍ ... شَرٍّ عَلَى الحُرِّ منْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ
وَلاَ أُعَاشِرُ منْ أَمْلاَكِهِمْ أَحَدًا ... إلاَّ أَحَقَّ بضَرْبِ الرَّأْسِ منْ وَثَنِ
لاَ يُعْجِبَنَّ مَضِيمًا حُسْنُ بزَّتِه ... وَهَلْ يَرُوقُ دَفِينًا جَوْدَةُ الكَفَنِ
للَّه حَالٌ أُرَجِّيهَا وَتُخْلِفُنى ... وَأَقْتَضى كَوْنَهَا دَهْرِى وَيَمْطُلُنى
مَدَحْتُ قَومًا وَإنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِدًا منْ إنَاثِ الخَيْلِ وَالحُصُنِ [(٢)]

وأبو الطيب يصف جيله بأنه سواء فى معايبه ونقائصه وشروره ، وإنه ليؤذى الحر كما يؤذيه الداء العضال بأوجاعه الأليمة . ويقول : إنه لا يعاشر أحدًا من أمرائهم وحكامهم ويؤمن بوجوب سفك دمه وقتله وسحقه كما يسحق رأي الوثن حتى يريح الشعب منه وحتى يصبح بمأمن من بغيه وعبثه ، وإنه ليعجب أن يكون هناك

---

(١) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده/ ٨٥ ، ٨٦ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب / ٢٠٩/٤ ، ٢١٠ ، ٢١٣ .

من يقبلون الضيم بتسلطه عليهم ، حتى ولو كانوا ينعمون بشيء من الغنى والسعة، ويقول : إن من ناله ضيم ورضى به واستكان ، حتى ولو كان حسن الثوب والحال مثله مثل ميت لا ينفعه شيئًا حسن كفنه . ويعود إلى نفسه ، فيتعجب من الدهر وأنه يعترضه دون ما يرجوه من الثورة المدمرة التي تأتى على هؤلاء الولاة الظالمين ويعجبه من أنه يسخر أشعاره فى مديحهم مديحًا لايستحقونه إنما يستحقون مكانه هجاء لاذعًا ، ويعاهد نفسه إن عاش وامتد به عمره أن يشعلها عليهم حربًا شعواء تجول وتصول فيها الخيل وتسفك الدماء (١) .

ويمضى أبو الطيب فى الاضطلاع بالتربية الخلقية لمعاصريه من العرب مجسدًا لهم خصال آبائهم الأولين التى تحلت بها نفوسهم الأبية من إباء الضيم والشعور بالكرامة ومن البسالة والفتوة والكرم الفياض ، ومن التضحية عندما تطلب التضحية والكفاح دون الحقوق الإنسانية حتى الموت . وفى تضاعيف ذلك يبرز لمعاصرين كل نقائصهم الخلقية ، محاولا أن يصرفهم بكل ما استطاع عن الصغائر مكبرًا العلل الخلقية التي تنخر فى قوامهم والتى جعلت الأمة كسيرة صريعة لا تقطيع الوقوف على قدميها فى وجه الظالمين ، فضلا عن امتشاق السيف فى تلك الوجوه . ويعلن مرارًا أنه لن يقبل الضيم والذل والهوان ، وأنه لابد من أن يؤلف جيشًا قويًا يقتص به ممن حرموا الشعب الأمن والعدل وأذاقوه الحرمان والبؤس والشقاء . ومن خير ما يصور ذلك كله عنده فى أثناء تجواله فى بلاد الشام شمالاً وجنوبًا مادحًا مستميحا قوله من قصيدة فى صديق يدعى أباالحسن على بن أحمد الخراسانى كان نازلاً بجبل جرش فى الأردن (٢) .

لاَ افْتِخَارٌ إلاَّ لِمَنْ لاَ يُضَامُ ... مُدْرِكٍ أَوْ مُحَارِبٍ لاَ يَنَامُ
وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤْيَةُ جَانِيـ ... ـهِ غِذَاءٌ تَضْوى بِهِ الأَجْسَامُ
ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بعَيْشٍ ... رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لُجْرحٍ بِمَيِّتٍ إيلاَمُ ؟

(١) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٨٥ ، ٨٦ .
(٢) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ٨٦ ، ٨٧ .

أَقَـــرَارًا أَلَـذُّ فَـــوْقَ شَـــرَارٍ　　　　وَمُـــرَامًـــا أَبْـغِى وَظُلْمِى يُرَامُ ؟
دُونَ أَنْ يَشْـرِقَ الحِـجَـازُ وَنَجْـدٌ　　　　وَالعِـــرَاقَـــانِ بِالقَـنَا وَالشَّـــآمُ [١]

وواضح أن نفس المتنبى قـد امتلأت لوعة وحسرة ، فقد تحطمت آمـاله وأخفقت ثورته وأصابه الضـيم والهوان ، وأحسن أن مـثله لا يحق له أن يفخر ولا أن يشـعر بعزة ، فقد وطئت عزته بالإقدام ، ولم يعـد أمامه إلاَّ أن يحتمل الأذى من أعدائه، ويده أقصر من أن تنالهم ، ونفسه تمتلئ شقـاء وجسمه يضوى نحولاً، وهو يتجرع ذلك غصصًـا مرة ، وكأنما يريد أن يستـرد نفسه المقهـورة ونفوس كل من حوله ، محاولاً أن يستثيرهم وأن يخرجـهم مما هم فيه من ذلك . فليس أمضي ولا أمر من الذل ، وأن الموت الشريف لخير من حياة مـهينة ، وهل بعد الهوان والذل من حياة كريمة ، وحسب المرء أن يقبل الهوان مرة ، فإذا هو ميت الإحساس ، وإذا طعنات الذل التـالية لا تؤلمـه . ويجمع أبو الطـيب قوته يسـتنقذ نفـسه من الذل والهـوان ويستنقذ معه معاصريه ، فإذا هو قد عاد له قوته وبأسه وإذا هو يمحو مشاعر الهوان والذل من صدره ، وإذا هو يتهدد ويتوعد ، معلنا أنه لن يقر له قرار على ما نزل به من هوان وضيم ، وكـأنه يتقلب منهمـا على جمر ملتـهب ، وإنه لينذر أعداءه بأنه سيملأ عليهم بلاد الحجاز ونجد والعراق والشام بالخيل والرجال [٢] .

ويمضى المتنبى فى بعض قصائده فينذر أهل الظلم والجور بقوله :

عَلَـىَّ لأَهْلِ الجَـــورِ كُلُّ طِـمِـــرَّةٍ　　　　عَلَيـهَـــا غُـلاَمٌ مِلْءُ حَـيْـزُومِــهِ غَـمْـرُ
يُدِيـرُ بِأَطْرَافِ الـرِّمَـــاحِ عَلَيْـــهِمْ　　　　كئـوس المَنَايَا حَيْثُ لاَ تُشْـتَهى الخَـمْرُ
وَجَنَّبَنِى قُـرْبَ الـسَّلاَطِينَ مَـقْـتُـهَـا　　　　وَمَا يَقْـتَضِينِى مِنْ جَـمَاجِمِهَـا النَّسْرُ [٣]

« وهو يقول : إنَّ عليه واجبا تكفل به وتعهد أن يسوق إلى أهل الجور من هؤلاء الملوك الذين أشار إليهم فى القصيدة أنفًا خيـلاً مغيرة تقدح الأرض قدحًا بفرسان

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ٨٧ ، ٨٨ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٢٥٦ ، ٢٦٢ .

قد امتلأت قلوبهم حقدًا وغيظًا . ويسخر من إكباب هؤلاء الملوك على الخمر ، فيقول : إنَّ هؤلاء الفرسان سيديرون عليهم كئوسًا أخري ، وهى كئوس الموت . ويصرح بأنه لا يقف بأبوابهم مادحًا ولا يقربهم لأنه يمقتهم ولأنهم أعداؤه الذين ينبغى عليهم أن يقاتلهم ويقطع رءوسهم ويرمى بها للنسور والعقبان»(١) ويذم هؤلاء الأعاجم لأن أفعالهم تدل على عنصرهم إذ يقول أبو الطيب :

أَفْعَالُ مَنْ تَلِدُ الكِرَامُ كَرِيمَةٌ ... وَفَعَالُ مَنْ تَلِدُ الأَعَاجِمُ أَعْجَمُ (٢)

وفى جنوبى الشام حيث كان الإخشيديون يبسطون سلطانهم ، فاضت نفس أبى الطيب ، بالسخط على الأوضاع السياسية الفاسدة التى يراها بعينيه فقد رأى كيف يتحكم هؤلاء الأعاجم فى العرب وكيف أصبح العرب يرعاهم هؤلاء العبيد كأنهم قطعان من غنم لا حول لها ولا قوة :

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ ... أَحْدَثَ شَيءٍ عَهْدًا بِهَا القِدَمُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالمُلُوكِ وَمَا ... تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لاَ أَدَبَ عِنْدَهُمُ ولاَ حَسَبُ ... ولاَ عُهُودٌ لَهُمْ ولاَ ذِمَمُ
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمُ ... تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهُمْ غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حِيْنَ يَلْبَسُهُ ... وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ القَلَمُ (٣)

لقد شهد أبو الطيب مصرع العروبة على أيدى هؤلاء الأعاجم فامتلأت نفسه بالسخط وتمنى أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملكهم القديم ، وأن يرد غير العرب عبيدًا أو رقيقًا وموالى كما كانوا من قبل حين كان السلطان عربيًا صميمًا . ورأى أبو الطيب إلى جانب ذلك أن العصر الذى يعيش فيه قد أصبح ميدانًا للمغامرين والطامحين ، وقد وصل بعضهم إلى السلطان والملك دون أن يكونوا أهلاً لذلك . وهنا خطرت فى ذهن أبى الطيب المتنبى فكرة لماذا يظل

(١) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ٨٩ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثانى / ٢٦١ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب / ٤/ ٨٥ ، ٥٩ .

مسالمًا قـانعًا بحياته؟ ولماذا تقف أهدافه عند حـد المدح وطلب العطاء ؟ أو كما كان يقول : عند حد « بيع الشعر في سوق الكسـاد » لماذا لا يغامر كما غامر من هم أقل منه مكانة وأصغر منه همة وأضـعف منه نفسًا ؟ لماذا لا يجرب حظه فى ميدان المـغامرة ؟ وإنما مضى يصـرح بأفكاره فى شعره فى غيـر تحفظ ولا حذر ومضى يصور طموحه ورغبته فى المغامرة التى تصل به إلى الملك أو السلطان أو تنتهى به إلى الموت والهلاك (١) .

ولقد انتقل موقف المتنبى فى كافورياته المتأخرة من الحدة والتطرف والثورة على الملوك والتـشنيع عليهم ، إلى مـوقف تشخـيص أدواء الحكم والسيـاسة ، وصار يركز على قومية الحكم وضرورتها فى إطار المعتقد الدينى الإسلامى (٢) :

سَـادَاةُ كُـلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُـوسِـهِمُ وَسَـادَةُ المُـسْلِـمِينَ الأَعْـبُدُ القَزِم
مَـا أَقْـدَرَ اللَّهُ أَنْ يُخْـزِى خَلِيقَـتَـه وَلاَ يُصَـدِّقُ قَوْمًـا فِى الَّذِى زَعَمُـوا (٣)

ويستغرب من انقياد الجماهير لسلطة دخيلة ولحكم مماليك لم يعرفوا الحرية يومًا فاختلط الأمر وصار المنقادون كالبهائم فى خنوعهم :

تَشَـابَهَـتِ الـبَهَـائِمُ وَالعِـبِـدَّى عَلَـيْنَا والـمَـوَالِى وَالصَّـمِـيمُ
وَمَـاأَدْرِى إذَا دَاءٌ حَـدِيـثٌ أَصَـابَ الـنَّاسَ أَمْ دَاءٌ قَـدِيـمُ؟
حَصَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَبِيْـدٍ كَـأَنَّ الـحُـرَّ بَيْنَهُـمْ يَتِـيـمُ
كَـأَنَّ الأَسْـوَدَ اللاَّبِىَّ فِـيْـهِمْ غُـرَابٌ حَـولَـهُ رَخَمٌ وبُـومُ (٤)

وفى هذه المرحلة برز تحول جديد فى موقف أبى الطيب ، أنه لم يشنع على أحد من الولاة بأكثر من افتقاره إلى القيم والمثل وأصالة العرق ، وهنا يركز لأول مرة

---

(١) يوسف خليف / تاريخ الشعر فى العصر العباسي / ١٥٦ .
(٢) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٢ ، وانظر فى ذلك : جاسم محسن عبود / التطلع القومى عند المتنبى / ٩٨ ، ٩٩ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٥٠ ، ١٥١ .
(٤) المصدر السابق / ٤/١٥١، ١٥٢.

على الجانب الاقتصادى فى الحكم ، فالمتسلط حين يحكم بلدًا ، فإنه لا يحكم بدافع شهوة التسلط فحسب ، وإنما هناك دوافع اقتصادية ومعايشة تبرر له التشبث بمركزه السلطوى [١] :

لَوْ كَانَ ذَا الآكِلُ أَزْوَادَنَا ضَيْفًا لأَوْسَعْنَاهُ إحْسَانَا
لَكِنَّنَا فِي العَيْنِ أَضْيَافُهُ يُوسِعُنَا زُورًا وَبُهْتَانَا [٢]

إنَّ ضمير الجمع الذى أجاد استعماله أبو الطيب فى هذين البيتين ، يعنى بالضرورة أنه لا يعد نفسه غريبًا على مصر ، بعكس حكامها ، ككافور الإخشيدى وحاشيته الذين يفتقرون إلى الارتباط القومى بالمصريين [٣] . وكان أبو الطيب بعد وصوله إلى العراق يتطلع ويحض سيف الدولة على تعريب السلطة فى بغداد والسيطرة على الخلافة ، فأضاف فى هذه الفترة تطلعه إلى تعريب سلطات مصر أيضًا ، مركزًا على جدارة الأمير الحمدانى فى قيادة العرب وعلى جديته فى سياسة البلاد ، وهاجم هؤلاء المستعجمين أعداء العرب والعروبة الذين يعيشون للهو والخمر والقصف والمجون [٤] . إذ يقول فى أبيات كثيرة من لاميته المشهورة التي أرسلها من العراق إلى حلب :

كَيْفَ لاَ يَأْمَنُ العِرَاقُ وَمِصْرُ وَسَرَايَاكَ دُونَهَا وَالخُيُولُ [٥]؟

. . . . إلخ .

وهذا ما أشرنا إليه فى الفصول السابقة .

وقد كان موقف الملوك الآخرين وخلافة العراق فى موقف المتفرج إن لم يكن موقف الشامت المحرض وسيف الدولة يحارب الروم برغم قلة مورده ورغم

---

(١) جاسم محسن عبود / التطلع القومي عند المتنبى / ٩٩، ١٠٠ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٤٨، ٢٤٩ .
(٣) جاسم محسن عبود / التطلع القومى عند المتنبى / ١٠٠ .
(٤) شوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٣ . وانظر فى ذلك : جاسم محسن عبود./ التطلع القومي عند المتنبى / ١٠٠ ، ١٠١ .
(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٧٦ .

علته ومرضه . وسقطت طرسوس بأيدى الروم فسار سيف الدولة لإنقاذها ، وبعث أبو الطيب قصيدة إلى « أمير العرب » وهذه تسمية لم ينلها من أبى الطيب غير الأمير الحمدانى ، وفى هذا الوقت فقط ، ينعى فيها تفرق العرب وتخاذلهم أمام عدو مشترك، بل ممالأتهم إياه ، ومركزًا على الجانب الإسلامى فى هذا الموضوع كهدف يستهلمه سيف الدولة فى تحرير ما أغار عليه الروم (١) ، وقد قال فى ذلك :

أَرَى المُسْلِمِينَ مَعَ المُشْرِكِينَ إِمَّا لِعَجْزٍ وإِمَّا رَهَبْ
وأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِى جَانِبٍ قَلِيلُ الرُّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبْ
كَأَنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ وَدَانَ البَرِيَّةُ بِابْنٍ وأَبْ (٢)

ولعل قصيدة أبى الطيب الميمية :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِى النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَدَمِ (٣)

خير ما يصور تطلعاته القومية وآراءه فى الملوك ، فى هذه الفترة من حياته . فهى من الشعر الوجدانى المحض .

وفى هذه القصيدة مقطع نظر فيه أبو الطيب آخر آرائه فى قضايا السياسة والحكم ، مركزًا فيه على جانب النزاهة التى يفتقر إليها كل ملوك ذلك العصر ، كما أشار إلى الأطماع والدوافع الشخصية فى حيازة المتسلطين لمراكزهم السلطوية ، وقولب آراءه فى شبه نظرية سياسية تعمد القوة قبل الفكر والرأى ، وعاد إلى شن هجماته الشعرية على من مدحهم من السلاطين والملوك بعد فترة صمت زادت على عشر سنوات (٤):

---

(١) جاسم محسن عبود / التطلع القومى عند المتنبى / ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق / ٤/ ١٥٥ .
(٤) جاسم محسن عبود / التطلع القومى عند المتنبى / ١٠١ ، ١٠٢ .

مَـا زِلْتُ أُضْحِكُ إِبِلِى كُلَّمـا نَظَرَتْ إِلَى مَنِ اخْتَـضَبَتْ أَخْفَـافُـهَـا بِدَمِ
أُسَـيِّـرُهَا بَيْـنَ أَصْنَامٍ أُشَـاهِدُهَا وَلاَ أُشَـاهِدُ فِـيْـهَـا عِـفَّـةَ الصَّنَمِ
حَـتَّى رَجَـعْتُ وَأَقْـلاَمِى قَـوائِلُ لِي الْمَـجْـدُ لِلسَّيفِ لَيْسَ الْمَـجْـدُ لِلْقَلَمِ
أُكْـتُبْ بِـنَا أَبَدًا بَعْـدَ الكِـتَـابِ بِهِ فَـإِنْ غَـفَلْتُ فَـدائِى قِـلَّةُ الفَـهِمِ
أَسْـمَـعْتَنِى وَدَوائِى مَـا أَشَـرْتُ بِهِ فَـإِنَّمَـا نَحْنُ لِلأَسْـيَافِ كَـالخَـدَمِ
مَنِ اقْتَـضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَـتَهُ أَجَـابَ كُلَّ سُـؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِـلَمِ (١)

وكان المتنبى يشعر بالغربة فى شيراز ، والتفسير المنطقى لهذا الشعور ، لا يمكنه أن يتجاهل وشائج الارتباط القومى فى تلك الأقـاليم ، وافتقادها فى شيراز وفى عضـديته الأخرى ، عـصف به هم الغربة ، فـتبلور ذلك فى مـوازنة فضل فيـها العرب على الفرس إذ يقول :

مَـغَانِى الشِّـعْبِ طِيْـبًـا فِى المَغَـانِي بِـمَـنْـزِلَةِ الـرَّبِـيعِ مِـنَ الزَّمَـــانِ
وَلَكِنَّ الْـفَـتَى الـعَـرَبِىَّ فِـيْــهَــا غَـــرِيبُ الوَجْـــهِ وَاليَـــدِ وَاللِّسَــانِ
مَــلاعِبُ جِـنَّةٍ لَوْ سَـارَ فِــيْـهَـا سُلَيْــمَــانٌ لَسَـارَ بِتُــرْجُـمَــانِ
إِذَا غَنَّى الْـحَـمَـامُ الوُرْقُ فِـيْـهَـا أَجَـابَتْـهُ أَغَـانِىُّ القِـيَـانِ
وَمَنْ بِالشِّـعْبِ أَحْـوَجُ مِنْ حَـمَـامٍ إِذَا غَـنَّى وَنَـاحَ إِلَى الْبَـيَـانِ ؟
وَقَــدْ يَتَـقَــارَبُ الوَصْـفَـانِ جِـدّاً وَمَـوصُـوفَـاهُمَـا ، مُـتَبَـاعِـدَانِ (٢)

فهذا هجاء واضح ببين أرض فارس وأهلها ، فقد زعم أن سليمان عليه السلام - الذى علم منطق الطيـر والجن والحشرات والبـهـائم - لو دخل بلادهم لاحتـاج إلى ترجمان ، فأخرجهم بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم ! وأنه من هوانهم على الله ، وقلتهم فى الأرض لـم يعلم الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على مثل عضد الدولة . ولم يكتف أبو الطيب بذلك ، بل أتبع هذا قوله :

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢) المصدر السابق / ٢٥١/٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ .

إِذَا غَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ فِيهَا   أَجَابَتْهُ أَغَانِيُّ القِيَانِ
وَمَنْ بِالشِّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ   إِذَا غَنَّى وَنَاحَ إِلَى البَيَانِ ؟

فتمم المعنى وأبان المراد من الأبيات السابقة ، إذ جعلهم أقل منزلة من الطير فى الإفصاح والبيان . ولم يكتف أيضًا بهذا ، بل أراد أن يعلم عضد الدولة، أن هذه البلاد ليست مكانه الذى يرتاح إليه ، وليست بالأرض التى تحرص عليه أو يحرص عليها ، وأنه غريب عنهم ، وأن مدحه لهم ليس شيئًا ، وأنه عربى اللسان واللغة والسلاح وليس بأعجمى يميل إليهم أو يكون له شأن بينهم [١] ، فقال :

ولكن « الفتى العربى » فيها   غريب الوجه ، واليد ، واللسان

★ ★ ★

د - البداوة والحضارة :

يبدو أن المتنبى الذى شغل الناس فى عصره وبعده ، لم تكن له هذه المنزلة أو المكانة إلا بتمثله للتقاليد العربية بكل ما فيها من مثل طيبة ، ولذا فإن أثر البادية عميق فى حياته مطبوعٌ فى ذهنه وخياله ، فكان شعره لا يخلو من هذا الأثر حتي بعد انتقاله إلى الحضر ، فكانت له البادية فى معانيه وقوافيه . يهيج فؤاده بالأعرابيات ويترنم بالوفاء والفداء ويعبد البطولة ، ويتغنى بالرماح والسيوف وحمحمات الخيل وهديرها [٢] .

ولم يستطيع ناقد متحامل مثل سعد بن محمد الأزدى الشاعر ، الملقب بالوحيد أن يدرك فى تعليقه على شرح ابن جنى المعروف بالنسر ، أن هذا التبدى فى شعره وهيئته لم يكن حبًا فى الغرابة ، أو رغبة فى مجافاة الحاضرة أى روح العصر ، بل كان موقفًا حضاريًا قوميًا اختاره أبو الطيب منذ عاد من بادية السماوة ولزمه فى شعره ونهج سلوكه حتى أواخر أيامه ، حين أحس بغربته فى كثير من الأمصار الإسلامية . وكان المتنبى أيضًا يميل إلى شىء من مظاهر الحضارة ،

(١) محمود محمد شاكر / المتنبى / ١/ ٢٨٠ وما بعدها .
(٢) زكى المحاسنى / المتنبي / ٥٧ .

ولذا فليس من الغريب أن نعتبر أبا الطيب بحسه القومى الصادق وبإدراكه العميق لمشكلات الحضارة وأسباب انهيار الأمم ، أكثر معاصرة من أكثر شعرائنا المعاصرين (١) .

إنَّ اختلاطه بالبدو جعل منه شخصية عربية صميمة تنزع إلى المجد فأكسبته القوة والأنفة والصراحة وحب السيادة والنفور من العبودية وأودعت فيه الغيرة القومية والكره للملوك غير العرب ، وحاول أن يرجع مجد العرب الغابر ونفوذهم القوى ، ولعل نزعته العربية المفرطة جعلت أصحاب النفوذ الأجانب من غير العرب يتحرزون جداً أن يمكنوه من بذور سلطة مهما كانت صغيرة حتي لا يصبح بها خطرا عليهم . وبهذا يتبين صحة القول من أن المتنبى أول شعراء القومية العربية (٢) .

ومن تلك المدينة العربية والمدرسة العربية والحالة الاجتماعية للعرب نبغ فتى كندة وهو ثورة عربية يحمل الرسالة البالغة للعرب فى أسلوبه فى أهدافه فى رجولته فى القوة البادية عليه والمثل العليا والحكم المستلة والمنتزعة من روح العرب وأخلاقهم وقرارات نفوسهم ترى بكل وضوح أثر لصقل البادية فيه ، ويتضح هذا فى أسلوبه الخطابى ، فإنك إذا سمعت قوله :

وَقُلْنَا لَهَا أَيـنَ أَرْضُ العِـرَاقِ   فَـقَـالَتْ وَنَحْنُ بِتُـرْبَانَ : هَا (٣)

لا تشك بأنه ابن البادية لأن هذه المجاوبة مختصة بالبدو لا يعرف ملحقها ولا يتذوق طرقها إلاَّ ابن البادية ، إنَّ كلمة « ها » البدوية تطوى دائمًا الفيافى والمسافات البعيدة فتربان فى الحجاز بضاحية المدينة المنورة طوت المسافة ما بينها والعراق قيلة البدوى . . . (ها) (٤) .

---

(١) محمد يوسف نجم / من خلاص الفرد إلى خلاص الجماعة. دراسة فى حياة أبى الطيب الشعرية / لبنان مجلة الآداب - السنة الخامسة والعشرون - العدد الحادي عشر نوفمبر ١٩٧٧م/ ١٣ ، ١٤ .

(٢) عبد المجيد بن الطيب بوديه / تونس - مجلة الندوة - العدد الثامن - السنة الأولى ١٩٥٣م/ ١٧ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٩ .

(٤) الشيخ الكبير على الشرقى / عروبة المتنبى وسر شهرته / النجف - مجلة الاعتدال - السنة الرابعة - العدد الثالث - محرم سنة ١٣٥٦هـ ، نيسان ١٩٣٧م / ١٤٤ .

ومن صقال البادية فيه كثرة استعماله للتصغير فى الألفاظ ومعرفة مواقع ذلك الاستعمال وترى آثار مدرسته فى مطاوى ديوانه فللغة ميزات فى مواطن كثيرة منه وللنحو باصطلاحاته وقواعده آثار كثيرة فى شعره ، أما الحكمة البالغة وأمثاله السائرة فلم تكن مدرسة مستمدة من النظرات العلمية ولا أثر فيها للذهنية الهندية والفارسية . إنما هى وحى العروبة ومظهر من مظاهرها تلك المظاهر التي ألهمت ابن أبى سلمى وقس بن ساعدة ، وكثيراً من نوابغ العرب ولا غرو فالعالم فيض فلسفة ومخزن لغو إلى الحكم وقد كان ديدن العرب الإقحاح انتزاع جوامع الكلم من التجارب والاختبار استلهاما من مظاهر الكون ونفوذا فى بواطنه كما طفح بذلك الأدب الجاهلى وأدب المخضرمين الذين نبغوا فى البادية وحتى اليوم تتمالح العرب في الضاحية بمثل هذه من جوامع الكلم والأمثال السائرة مستخرجة لها من الهامها ووحى الوقائع لا من الكتب المدرسية .

وقد سما أسلوب المتنبى عن أسلوب الحضر وطريقة بيانهم حتى إنَّه إذا تناول المعنى الدقيق من المعانى التى تخطر للحضرى أكثر مما تخطر لابن البادية يصوغه صياغة بدوية صرفة فتراه وهو يريد وصف وقع المطر على الأرض وأثر ذلك الوقع (١) :

لِسَاحِيهِ عَلَى الأَجْدَاثِ حَفْشٌ كَأيدِى الخَيلِ أَبْصَرَتِ المَخَالِى (٢)

ويتضح أثر البداوة فى استعماله أيضًا بعض الألفاظ الغريبة أحيانًا ، بما ألف من خطاب الأعراب والأخذ عنهم .

وقد رأيته فى كثير من تعليقاته على ديوانه يحتج بما سمع عنهم واكتفى هنا بمثال واحد قال فى قصيدة يعزى بها عضد الدولة :

مِثْلَكَ يَثْنِى الحُزْنَ عَنْ صَوبِهِ ويسترد الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ
إيمَا لإبْقَاءٍ عَلَى فَضْلِهِ إيمَا لِتَسْلِيمٍ إلَى رَبِّهِ (٣)

---

(١) المصدر السابق / ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٤٥ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢١٦ ، ٢١٧ .

ثم أتى بشواهد علي وضع العرب إيما مكان إما إلى أنْ قال : وقد ظلع الفرس لى فقال بعض أهل البادية من خفاجة وهو من أفصح الناس : إيما نسره مفلوق ، وإيما موهوص (١) .

ويتضح هذا التبدى والإغراب فى استخدامه مفردات اللغة وركوب بحر الرجز أحيانًا . حينما يحس بالسأم والملل ويضجر مما حوله ، يستشعر الحاجة إلى التفريج عن نفسه ، فيمارس رحلة استجمامية شعرية تنقله إلى أجواء وبيئات محببة وكان رمزه هذا واضحًا فى قوله :

وَمَنْزِلٍ لَيسَ لَنَا بِمَنْزِلِ ... وَلاَ لِغَيرِ الغَادِيَاتِ الهطلِ
نَدى الخُزَامَى ذَفِرِ القَرَنْفُلِ ... مُحَلّلٍ مَلْوَحشٍ لَمْ يُحَلَّلِ
عَنَّ لَنَا فِيهِ مَرَاعِى مُغْزِلِ ... مُحَيّنُ النَّفْسِ بَعِيدُ المَوئِلِ (٢)

فى ثمانية وعشرين على هذا المنوال والقافية . فى هذه الطرفية التى أنشدها عبد العزيز ابن هارون الأوراجى الذى طلب منه ذلك :

وفى بلاط أبى محمد بن طغج الإخشيدى ، والى الرملة بفلسطين نظم طردية أخرى هى :

وَشَامِخٍ مِنَ الجِبَالِ أَقْوَدِ ... فَرْدٍ كَيافُوخِ البَعِيرِ الأَصْيَدِ
يُسَارِحُنَ مَضِيقِهِ وَالجَلْمَدِ ... فِى مِثْلِ مَتْنِ المَسدِّ المُعَقَّدِ (٣)

فى اثنى عشر بيتا على هذا النمط . واشترك مع عضد الدولة فى رحلة صيد إلى دشت الأرزن فقال :

مَا أَجْدَرَ الأَيَّامَ واللَّيَالِى ... بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِى (٤)

---

(١) عبد الوهاب عزام / البداوة فى طباع أبى الطيب / مصر - مجلة الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٣ فى يوم الاثنين جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ - ١٧ أغسطس ١٩٣٦م / ١٣٣٣ .
وانظر فى ذلك : ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٢١ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى/ شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ١١٤ .
(٤) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٧ .

وبعد مقطع يصف فيه الإبل ، وصيده فقال :

فَــوَحْشُ نَجــدٍ مِنْهُ فِي بَلْبَــالِ | يَخَــفْنَ فِي سَلْمِي وفي قِــيَــالِ
نَوَافِــرَ الــضَّــبَــابِ والأوْرَالِ | وَالخَــاضِــبَــاتِ الرُّبْدِ وَالــرِّئَالِ
وَالــظَّبْيِ وَالخَنْسَــــاءِ وَالذَّيَّالِ | يَسْــمَــعْنَ مِنْ أَخْــبَــارِهِ الأزوالِ [1]

في تسعة وخمسين بيتا مثل هذا المقطع .

ونلاحظ ما يلي :

١) إنَّ ديوان المتنبي يخلو من الطرديات سوى هذه الثلاث .

٢) إنَّ هذه الطرديات نظمت في حضرة ملوك وممدوحين غير العرب.

٣) إنَّ جو هذه الطرديات لا يوحي براحة نفسية كان يعيشها أبو الطيب ، وَإِنَّما كان الضجر والسأم فيها واضحين ، فالأولى كانت بطلب ملحاح وكانت الثانية قبيل مغادرة أبي الطيب لابن طغج ، وكذلك الثالثة .

ولو تذكرنا قول أبي الطيب لابن العميد « إني ملقى من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد وأملكهم شيئًا يبقى ببقاء النيرين ، ويعطوني عرضًا فانيًا ولي ضجرات واختيارات ، فيعوقونني عن مرادي ، فاحتاج إلى مفارقهم على أقبح الوجوه [2] .

إذَنْ لأحسسنا بالجو المضجر المسئم الذي كان يعيشه المتنبي فيها . وهذا يعني أن أبا الطيب نظم تلك الطرديات وهو يزاول أحلام اليقظة والهروب من واقع حياته في كنف ملك أو ممدوح غير عربي ، فيعود بحنينه وأنينه إلى صحاري العرب ووديانها وإلى بحر الرجز ومفردات رؤبة ابن العجاج [3] .

---

(١) المصدر السابق / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٣٩ .

(٢) أبو القاسم عبد الله عبد الرحمن الأصفهاني / الواضح في مشكلات شعر المتنبي / تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور / ٢٠ .

(٣) جاسم محسن عبود / التطلع القومي عند المتنبي / ٥٥ .

وكيف وهو عربى لا يحن إلى الصحراء العربية فى الجزيرة ؟ إنّ هذه الطرديات تدل على أصالة عروبة المتنبى وحبه للفترة العربية وما فى حياة البدو من حب لرحلات الصيد فى أى قطر عربى ، وكأنما وجد له متنفسًا بها فى غربته عن بلاده وقومه .

ولو رجعت إلى دراسة اللغة القومية عند المتنبى ، لوجدت أن هذه اللغة مقوم من مقومات الوجود القومى للجماعات ، واتقان المرء للغته يعنى اعتزازه بذلك الوجود ، ويعني أصالته أيضًا ، والفصاحة لا تخرج عن هذا المفهوم ، ولا عبرة بكونها أصيلة قحة أخذها الإنسان بفطرته وبحكم نشأته فى جماعات متبدية أو هى مكتسبة تعلمها الإنسان حضريا ففى كلتا الحالتين ، هى سمة للعربى الأصيل ، وهى حد لاستحقاق الفرد شرف العروبة وإجادة الشعر :

بِأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ ، زِعْنِفَةٌ تَجُوزُ عِنْدَكَ لاَ عَربٌ وَلاَ عَجَمُ (١)

كما أنها سمة ملازمة عضويًا لأصالة الفرد ، فلا يمكنه الانفكاك منها ومخالفتها :

وَكِلْمَةٍ فِى طَرِيقٍ خِفْتُ أُعْرِبُهَا فَيَهْتَدِى لِي فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اللَّحَنِ (٢)

وبما للمتسم بها من مكانة اجتماعية رفيعة ، جعلها أبو الطيب ، خلة يدغدغ بها زهو الممدوح :

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفْظَةٍ أُصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِى تَتَفَرَّعُ (٣)

ويقرنها بشيم الممدوح العليا :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بُيُوتُهُ إِذَا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الحِبْرُ (٤)

ويفخر بها :

جُهْدُ المُقِلَّ فَكَيفَ بِابنِ كَرِيمَةٍ توليه خيرا واللسان فصيح (٥)

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٩ .

(٢) المصدر السابق / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٣٥٣ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٥٧ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٥٥ .

لاَ تَجْسُرُ الفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هَهُنَا بَيْتًا وَلَكِنِّي الهِزبْرُ البَاسِلُ [(١)]

ويكلف المتنبى فى حبه للفصاحة وتقديره لسلامة اللغة ، إلى حد التذاذه بسماع الفصيح ، حتى لو كان شتما فيه :

وَأَسْمَعُ مِنْ أَلفَاظِهِ اللُّغَةَ التِّي يَلَذُّ بِهَا سَمْعِي وَلَو ضُمِّنَتْ شَتْمِي [(٢)]

ولم تخل حياة المتنبى الشخصية من مشاكل ومشادات كان سببها كلفة بالفصاحة والفصيح . وخير مثال على ذلك ما حصل من مشادة بينه وبين ابن خالويه فى بلاط سيف الدولة ، وهى ولا شك تدل على أصالة أبى الطيب وعروبته التى لا يشك فيها أحد ، ومصداق ذلك قوله « مالك وللعربية ؟ إنَّك خوزى » فلو كان أبو الطيب ردئ الأصل لما جرؤ على أن يقول : هذه الكلمة فى مجلس سيف الدولة ولكنه واثق من أصالته فى اللغة ، وواثق أيضًا من أرومته العربية ، ومن هنا كان أبو الطيب فى مراحل حياته متعصبًا للعرب وللغتهم ، وقد اعترض عليه حين أنشد :

شَدِيدُ البُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تَرَنْجُ الهِنْدِ أَوْ طَلْعُ النَّخِيلِ [(٣)]

وكان الاعتراض منصبا على حذف الضمير من صيغة « شديد البعد » وعلى لفظة « ترنج » بدلا من « أترج » فكان جوابه أن قال [(٤)] :

أَتَيْتُ بِمَنْطِقِ العَرَبِ الأَصِيلِ وَكَانَ بِقَدْرِ مَا عَانَيتُ قِيلِي [(٥)]

ولقد عاش المتنبى مدة ليست بالمدة القصيرة فى البادية وكان أثرها فى حياته وأقواله وأفعاله . وكان بعض ممدوحيه من رؤساء يالبادية مثل سعيد بن عبد الله الكلابى . وشجاع بن محمد الطائى [(٦)] . وهو يقول :

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٣٧٦ .

(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٧٢ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٢١٣ .

(٤) جاسم محسن عبود / التطلع القومي عند المتنبى / ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٣/ ٩١ .

(٦) عبد الوهاب عزام / البداوة فى طباع أبى الطيب / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٣ فى جمادى الأولى ١٣٥٥هـ - أغسطس سنة ١٩٣٦م / ١٣٣١ . وانظر فى ذلك : ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢١٥ .

أَوَانًا فِي بُيُوتِ البَدْوِ رَحْلِي	وآوِنَةً عَلَى قَتَدِ البَعِيرِ
أُعَرِّضُ لِلرِّمَاحِ الصُّمِّ نَحْرِي	وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ

وَأَسْرِي فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ وَحْدِي	كَأَنِّي فِي قَمَرٍ مُنِيرِ (١)

ويقول فى موضع آخر :

وَمُدْقِعِينَ بِسَبْرُوتَ صَحِبْتَهُمُ	عَارِينَ مِنْ حُلَلٍ ، كَاسِينَ مِنْ دَرَنِ
خُرَّابُ بَادِيَةٍ ، غَرْثَى بُطُونُهُمُ	مَكْنَ الضِّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِلاَ ثَمَنِ
يَسْتَخْبِرُونَ فَلاَ أُعْطِيهُمُ خَبَرِي	وَمَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الظِّنَنِ (٢)

وتتجلى فى شعره قوة البداوة وعزتها . ومن آثار البداوة فيه تهاونه فى خطاب الممدوحين وخروجه عن الألف أحيانا . ولذلك أخذ عليه النقاد مآخذ لا يتسع المقام لذكرها . ومن آثار ذلك الكلف بالحرب وآلاتها والخيل والسفر ، وشعره ملئ بهذا . ومن ذلك وصف الحبيبة بالمنعة فى مثل قوله (٣) :

حَبِيبٌ كَأَنَّ الحُسْنَ كَانَ يُحِبُّهُ	فَآثَرَهُ أَوْ جَارَ فِى الحُسْنِ قَاسِمُهُ
تَحُولُ رِمَاحُ الخَطِّ دُونَ سَبَائِهِ	وَتُسْبَى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ
وَيُضْحِى غُبَارُ الخَيْلِ أَدْنَى سُتُورِهِ	وَآخِرُهَا نَشْرُ الكِبَاءِ المُلاَزِمُهْ (٤)

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق / ٤/ ٢١١ ، ٢١٢ .
(٣) عبد الوهاب عزام / البداوة فى طباع أبى الطيب / الرسالة ، السنة الرابعة - العدد ١٦٣ فى يوم الاثنين جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ - ١٧ أغسطس ١٩٣٦م / ١٣٣٣ وذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٢٠ ، ٢٢١ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٤٩ .

وقوله :

وَمَـا شَـرقِى بِالمَـاءِ إلاَّ تَـذكُّـرًا   لِمَـاءٍ به أَهْلُ الحَبِيب نُزُولُ
يُحَـرِّمُـهُ لَمْعُ الأسِنَّةِ فَـوقَـهُ   فَلَيْسَ لِظَمْـآن إِلَيْـهِ وَصُـوْلُ (١)

وقوله :

مَـتَى تَـزُرْ قَـومَ مَنْ تَهْـوَى زِيـارَتَهَا   لاَ يُتْحِفُوكَ بِغَيـرِ البِيضِ وَالأَسَلِ (٢)

وقوله :

سَـوائِر رُبَّمَـا سَـارَتْ هَوادِجُـهَـا   مَنيـعَـةً بَـينَ مَطْعُـونٍ وَمَـضْـروب
وَرُبَّمَـا وَخَـدَتْ أَيدِي المَطِيِّ بِـهَا   عَلَى نَجِيعٍ مِنَ الفُرْسَانِ مَصْبُوبِ (٣)

وليس أدل على بداوة المتنبى ما كان من هروبه من مصر وما كان له من صلة ببعض رؤساء القبائل فيها ، وقد استعان بهم لكى ينقذوه فوصفوا له الدليل وأنقذوه إليه! إذ أنه كان على معرفة بالقبائل وعارف بالطرق المجهولة فى الصحراء ، وهذا مما يدل على أنه كان ذا نزعة عربية واضحة . إذ فى خروجه من مصر وعبوره هذه الطرق ما يجعلنا نؤمن بأنه رجل البداوة والصحراء . وكيف لا يكون ؟؟ ووهو الذى سار على أحياء البادية والمجاهيل والمياه الأواجن حتى بلغ الغاية (٤) .

وكانت له فى مسيره وقائع تمثله بدويا قحا خبيرا بقبائل البادية وعادتها مزودًا بجرأة الأعراب وإقدامهم . ومن ذلك ما تلاحظه فى مدحه لصديقه العربى عبد العزيز بن يوسف ببلبيس (٥) . وصدق خين وصف خيله بقوله :

---

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢١٩ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٩٩ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٦١ .
(٤) عبد الوهاب عزام / البداوة فى طباع أبى الطيب / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٣ فى ١٣٥٥هـ ، ١٩٣٦م / ١٣٣١ . وذكرى أبى الطيب المتنبى بعد ألف عام / ٢١٦ ، ٢١٧.
(٥) المرجع السابق / ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ... ٢١٦ ، ٢١٧ .

وَخَـيْلاً تَغْـتَـذِى رِيحَ المَـوَامِى		وَيَكْفِـيـهَـا مِنَ الـمَـاءِ السَّـرَابُ [1]

وصدق حين جمع البداوة والثقافة فى بيت واحد :

فَـالخَـيلُ وَاللَّيـلُ وَالبَـيْـدَاءُ تَعْـرِفُنِى		وَالسَّيفُ والرُّمْحُ والـقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ [2]

ولا شك فى أن المـتنبى كان ابن الصـحراء الذى تناديه فـيلبى نداءها ، بل الذى يسعى إليها من غير نداء ! أليس هو القائل مصور فتنته بالصحرا . . . . ؟

ذَرَانِـى وَالـفَــلاَةُ بِـلاَ دَلِـيـلٍ		وَوَجْــهِى وَالهَــجِـيـرَ بِلاَ لِثَـامِ

فَــإِنِّـى أَسْــتَــرِيحُ بِـذَا وَهَذَا		وَأَتْعَـبُ بِالإِنَـاخَــةِ وَالمُــقَــامِ

عُــيُونُ رَوَاحِلِى إنْ حِـرْتُ عَـيْنِى		وَكَلُّ بُـغَـــامٍ رَازِحَــةٍ بُـغَـــامِى

فَــقَــدَ أَرِدَ الـمِـيَــاهَ بِغَـيـرِ هَادٍ		سِـوَى عَــدِّى لَهَــا بَرْقَ الغَــمَـامِ

يُذِمُّ لِمُـهْـجَـتِـى رَبِّى وَسَـيْـفِى		إِذَا احْـتَـاجَ الوَحِـيـدُ إِلَى الذِّمَـامِ [3]

وهو على امتداد رحلته الفنية يسلك الدروب الوعرة الصعبة بخطى ثابتة وأقدام قوية أعانه عليها ذلك الزاد الوفير من الثقافات العقلية التى تزود بها . وشهدت صحراء الشعر فتاها البـدوى يردد فى أرجائهـا غناء من ذوق جديد لـم تسمـعه من قـبل ، وهو ذلك الغناء البدوى الأصيل الذى ذابت فيه عناصر جديدة من الثقافات العقلية الوافدة [4] .

ومن مظاهر عروبة المـتنبى تشبيهـه بالبدويات موازنا بينهن وبين الحـضريات، وإذا به يفضل البدويات الطبيعيات على الحضريات المتصنعات يقول:

مَا أَوْجُـهُ الحَضَرِ المُـسْتَـحْسنَات به		كَــأَوْجُــهِ الـبَـدَوِيَّـاتِ الرَّعَــابِيبِ

حُسْنُ الحَـضَـارَةِ مَـجْلُـوبٌ بِتَطْرِيَةٍ		وَفِى البَـدَاوَةِ حُـسْنٌ غَيْـرُ مَـجْلُوبِ [5]

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٨٤ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٨٥ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/١٤٣ ، ١٤٤ .
(٤) يوسف خليف / تاريخ الشعر فى العصر العباسى / ١٩٠ ، ١٩١ .
(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٦٨ .

ويرى أن الحضريات تشبهن المعيز ، علي حين أن البدويات تشبهن الآرام :

أَيْنَ المُعِيزُ مِنَ الآرامِ نَاظِرَةً ... وَغَيرَ نَاظِرَةٍ فِي الحُسْنِ وَالطِّيبِ [1]

ويعجبه من البدويات - أو من ظباء الفلاة - كما يسميهن - أنهن يتكلمن على سليقتهن ولا يمضغن الكلام صناعة ، ولا يصبغن الحواجب زينة ، ولا يخضعن أنفسهن لفن التجميل فى الحمام :

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ... مَضْغَ الكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ الحَوَاجِيبِ

وَلاَ بَرَزْنَ مِنَ الحَمَّامِ مَائِلَةً ... أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلاَتِ العَرَاقِيبِ [2]

وهو فى هوى الحسان غير المموهات لا يخضب شعره ، ولا يخفى شيبه، مع أنه فى سن الثالثة والأربعين ، والشيب أبغض ما يكون للرجال [3] :

ومَنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتَ مُمَوَّهَةً ... تَرَكْتُ لَونَ مَشِيبِى غَيرَ مَخْضُوبِ

وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِى قَولِي وَعَادَتِهِ ... رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي الوَجْهِ مَكْذُوبِ [4]

ويكرر هذا الرأى متغزلا مستعتبا إذ يقول :

أَتَتْ زَائِرًا مَا خَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَهَا ... وَكَالمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ

وَمَا جَلَسَتْ حَتَّى انْثَنَتْ تُوسِعُ الخُطَا ... كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ [5]

فإذا لم يكن للمرأة بد من بعض مظاهر التجميل ، فإن أبا الطيب لم ير فى ذلك تجملاً بل حياء - واحتشاما ، فإذا لبس الحسان الوشى لم يلبسنه تجملا ، بل

---

(١) المصدر السابق / ١/ ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق / ١/ ١٦٩ .

(٣) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٦٥ ، ٦٦ ، وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢١٦ ، ٢١٧ . وشوقى ضيف / فصول فى الشعر ونقده / ١٠٦ . وزكى المحاسنى / ٤١ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبي / ١/ ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٥) المصدر السابق / ٢/٢٣٧ ، ٢٣٨ .

صيانة لجمالهن وإذا ضفرن غدائرهن لم يكن ذلك زينة ، بل خيفة أن يختفين فى الشعر [(١)] .

لَبِسْنَ الوَشْىَ لاَ مُتَجَمِّلاَتٍ ... وَلَكِنْ كَىْ يَصُنَّ بِهِ الجَمَالاَ
وَضَفَّرْنَ الغَدائِرَ لاَ لِحُسْنٍ ... وَلَكِنْ خِفْنَ فِى الشَّعَرِ الضَّلاَلاَ [(٢)]

ويبدو رمز الرجل فى البداية عندما يمزج روحه بالبداوة وعمق إحساسه فيها . يقول المتنبى :

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِى الأَعْرَابِ خَافِيَةٍ ... أَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ الذِّيبِ [(٣)]

فهو يقول : كم قد زرتهن زيارة لم يعلم بها أحدا ، كزيارة الذئب الغنم. والحافظون لهن قد رقدوا فوقعت بهن كما يقع الذئب بالغنم والراعى راقد . ومازال هذا من عادات أهل البادية حتى الآن .

وقد فسر أحد النقاد المحدثين هذا الغزل بالبدويات بقوله : إنَّ المتنبى اتخذ من هؤلاء البدويات فى أغلب الظن رمزًا للعروبة التي افتقدها فى عصره ، والتى كان يسعى جاهدًا لإعادة مجدها الضائع ، وهو بهذا التعصب للبدويات ضد الحضريات ، إنما يتعصب للعرب ضد الأعاجم . . . ولعله بهذا كان يغمز كافورًا بهذه المقدمة فى قصيدته البائية [(٤)] .

وأما القصيدة الثانية التى بدأت بداية تقليدية بمقدمة غزلية نرى فيها الظعائن والإبل والهوادج فإننا نحس أن جوا حضريًا ينتشر فيها ، وأن أبا الطيب يتنفس هذا الجو ملء صدره ، بل نحس أنه إنما يتغزل فى فتاة فارسية [(٥)] .

---

(١) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبي فى شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثانية - العدد الأول - ١٩٣٦ / ٦٦ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ١٦١ .
(٤) يوسف خليف / تاريخ الشعر فى العصر العباسى / ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٥) يوسف خليف / تاريخ الشعر في العصر العباسى / ١٩٨ .

بَاد هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا ... وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
كَمْ غَرَّ صَبْرَكَ وابْتِسَامُكَ صَاحِبًا ... لَمَّا رَآهُ وَفِى الحَشَى مَا لاَ يُرَى
أَمَرَ الفُؤَادُ لِسَانَهُ وَجُفُونَهُ ... فَكَتَمْنَهُ وَكَفَى بِجِسْمِكَ مُخْبِرَا
تَعِسَ المَهَارِى غَيرَ مَهْرِى غَدَا ... بِمُصَوَّرٍ لبِسَ الحَرِيرَ مُصَوَّرَا
نَافَسْتُ فِيهِ صُورَةً فِى سِتْرِهِ ... لَوْ كُنْتُهَا لَخَفِيتُ حَتّى يَظْهَرَا
لاَ تَتْرَبِ الأيدِى المُقِيمَةُ فَوقَهُ ... كِسْرَى مُقَامَ الحَاجِبَيْنِ وَقَيْصَرَا
يَقِيَانِ فِى أَحَدِ الهَوَادِجِ مُقْلَةً ... رَحلَتْ فكَانَ لَهَا فُؤَادِى مَحجَرَا
قَدْ كُنْتُ أَحْذرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِنًا أَنْ يَحْذَرَا
وَلَو اسْتَطَعْتُ إِذَا اغْتَدَتْ رُوَّادُهُمْ ... لَمَنَعْتُ كُلَّ سَحَابَةٍ أَنْ تَقْطُرَا
وَإِذَا السَّحَابُ أَخُو غُرَابِ فِرَاقِهِمْ ... جَعَلَ الصِّيَاحَ بَبَيْنِهِمْ أَنْ يُمْطِرَا
فَإِذَا الحَمَائِلُ مَا يَخِدْنَ بِنَفْنَفٍ ... إِلاَّ شَقَقْنَ عَلَيهِ ثَوبًا أَخْضَرَا
يَحْمِلْنَ مِثْلَ الرَّوْضِ إِلاَّ أَنَّهُ ... أَسْبَى مَهَاةً لِلقُلُوبِ وَجُؤْذَرَا
فَبِلَحْظِهَا نَكِرتُ قَنَاتِى رَاحَتِى ... ضَعْفًا ، وَأَنْكَرَ خَاتِمَاىَ الخُنْصُرَا
أَعْطَى الزَّمَانُ فَمَا قَبِلْتُ عَطَاءَهُ ... وَأَرَادَ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَخَيَّرَا (١)

وينتقل أبو الطيب من هذه المقدمة البدوية الحضرية التى تعد بدعًا جديدًا فى الشعر العربى إلى مدح ابن العميد ، فإذا نحن أمام مدح من طراز جديد أيضًا، تختفى منه المعانى والصور التقليدية التى ألفناها فى الشعر العربى القديم، لتخلى مكانها لمعان وصور جديدة يدور بها أبو الطيب فى جو عقلى تنتشر به العناصر الأجنبية الوافدة يقول فى بعض أبياتها (٢) :

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) يوسف خليف / تاريخ الشعر العربى فى العصر العباسى / ١٩٨ ، ١٩٩ .

بِأَبى وَأُمِّى نَاطِقٌ فى لَفْظِه ثَمَنٌ تُبَاعُ بِهِ القُلُوبُ وَتُشْتَرَى

يَتَكَسَّبُ القَصَبُ الضَّعِيفُ بِكَفِّه شَرَفًا عَلَى صُمِّ الرِّمَاحِ وَمَفْخَرَا

وَيبِينُ فِيمَا مَسَّ مِنْهُ بَنَانُهُ تِيهُ المُدِلُّ فَلَوْ مشى لَتَبَخْتَرَا

يَا مَنْ إذَا وَرَدَ البِلادَ كِتَابُهُ قَبْلَ الجُيُوشِ ثَنَى الجُيُوشَ تَحَيُّرَا

أَنْتَ الوَحِيدُ إذَا ارْتَكَبْتَ طَرِيقَهُ وَمنَ الرَّدِيفِ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا

قَطَفَ الرِّجَالُ القَوْلُ وَقْتَ نَبَاته وَقَطَفْتَ أَنْتَ القَوْلَ لمَّا نَوَّرَا

فَهُوَ المُشَيِّعُ بِالمَسَامِعِ إنْ مَضَى وَهُوَ المُضَاعَفُ حُسْنُهُ إنْ كُرِّرَا

وَإذَا سَكَتَّ فَإنَّ أَبْلَغَ خَاطِبٍ قَلَمٌ لَكَ اتَّخَذَ الأَصَابِعَ مِنْبَرَا

وَرَسَائِلٌ قَطَعُ العُدَاةَ سِحَاءَهَا فَرَأَوْا قَنًا وَأَسِنَّةً وَسَنَوَّرَا (١)

ويقول :

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أَنِّى بَعْدَهَا شَاهَدْتُ رَسْطَاليسَ وَالإسْكَنْدَرَا

وسَمِعتُ بَطْليمُوسَ دَارِسَ كُتْبِه مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرَا

ولَقِيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ ، كَأَنَّمَا رَدَّ الإلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالأَعْصُرَا

نُسِقُوا لَنَا نَسْقَ الحِسَابِ مُقَدَّمًا وَأَتَى «فَذَلِكَ إذ أَتَيتَ مُؤَخَّرَا (٢)

وتراه يعود إلى التغزل بالبدويات فى شيراز وكأنه يرمز بذلك إلى عروبته المفقودة فى شيراز يقول فى القصيدة التى مطلعها :

إثْلِثْ فَإنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإبِلُ

. . . .

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق / ٢/ ١٧٠ ، ١٧١ .

إنَّ الذَّيـنَ أَقَــمْتَ وَاحْــتَـمـلُوا | أَيَّـا مُـــــــهُـمْ لِـدَيَـارِهِـمْ دُوَلُ
الحُـــسْنُ يَـرْحَلُ كُلَّـمـــا رَحَـلُوا | مَــعَـــهُمْ وَيَنْزِلُ حَــيْــثُـمَـــا نَزَلُوا
فِى مُـــقْلَتِى رَشَـــأ تُـدِيرُهُمَـــا | بَـدَوِيَّةٌ فَـــتَـنْتُ بِـهَـــا الـحِلَلُ
تَشْكُـو المَطَاعِـمُ طُولَ هِجْـرَتِـهَـا | وَصُــــــدُودِهَا وَمـنَ الَّذى تَـصِلُ
مَــا أَسْــأَرَتْ فِي القَــعْبِ مـِنْ لَبَنٍ | تَرَكْــتُــهُ وَهُو المِــسْكُ وَالعَــسَلُ [١]

والمتنبى عرف الترف ولابسه وأحسن وصف أدواته ولكنه لم يكن أسيره ، وقد كان مشغوفًا بالعلم ويدل شعره على أنه كان قارئًا نهم لكل ثقافات عصره [٢] . يقول :

أعَـزُّ مَكَانٍ فى الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ | وَخَيـرُ جَلِيسٍ فِى الزَّمَانِ كِـتَابُ [٣]

والملاحظة الجديرة بالدراسة هى مسألة غربة المتنبى ، فالغربة بالمفهوم النفسى ، واردة فى حياة أبى الطيب ، واكتوى بنارها شديدًا ، سواء أكان فى الشام أم فى الكوفة ، ومنذ صباه وهو « غريب كصالح فى ثمود » وهذا شأن كل فنان ، إنَّ قدرات الفنان وإمكاناته وقابلياته وافتقاره أقرانه إلى تلك الصفات مما يعمق شعور الغربة فى نفسه ، فتكون النتائج عطاء وأصالة غالبًا . أما إذَا قنع الفنان بما عنده ، ورضى عن واقعه وأوضاعه ، فقد زالت الغربة من أحاسيسه ، واغتال طموحه وإبداعه ، ولا عجب أن يتحول إلى تاجر أو صيرفى.

أما غربة المتنبى فى أرجان وشيراز فما قصدت بهذا النوع وإنَّما كانت افتقادًا للغة القومية ، للسان ، للتقاليد ، للملامح ، للأواصر التى تشد المرء إلى قومه ، إلى أهله ، مجتمعًا وترابًا .

وهذا النوع من الغربة لم يعرفه المتنبى ، لا فى مصر ، ولا في الشام ، ولا فى متاهات سيناء ونجد .

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

(٢) شكرى محمد عياد / عقدة المتنبى / الكويت - مجلة العربى - العدد ٢٣١ ، فبراير شباط ١٩٧٨م / ٨٦ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٩٣ .

وردد أكثر من بيت من مضمون :

غَنِيٌّ عَـنِ الأَوْطَانِ لاَ يَسْـتَـفِـزُّنِي إِلَى بَـلَدٍ سَـــافَـــرْتُ عَنْـهُ إِيَابُ [١]

ولم يدر بخلده أنه سيتعرض إلى تجربة تنسيه تلك الأقوال والادعاءات ، فترجم مشاعره بذكريات ثوية الكوفة ، وغوطة دمشق ، وسخاء قومه العرب ، وجفانهم الكبير . ذكريات ومشاعر حنين اضطرته أن يقول مثل [٢] :

وَكَمْ دُونَ الـثَّـــوِيَّةِ مِـنْ حَـزِينٍ يَقُـــولُ لَهُ قُـــدُومِيَ ذَا بِـذَاكَـــا
إِذَا اشْـتَـبَـهَتْ دُمُـوعٌ فِي خُـدُودٍ تَبَـــيَّنَ مَـنْ بَكَى مِـمَّـنْ تَبَـاكَى [٣]

ويعادوه الحنين إلى أهله ووطنه حتى بدأت فكرة العودة تداعب مخيلته :

وَقَـدْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ المُنَى غَـيرُ أَنَّنِي يُعَـــيِّـرُنِي أَهْلِي بِـإِدْرَاكِـهَـا وَحْـدِي
وَكُلُّ شَرِيكٍ فِي السُّرُورِ بِمُصْبِحِي أَرَى بَعْـدَهُ مَـنْ لاَ يَرَى مِـثْلَـهُ بَعْـدِي
فَـجُـدْ لِي بِقَلْبٍ إِنْ رَحَلْتُ فَـإِنَّنِي مُـخَلِّفُ قَلْبِي عِنْدَ مَنْ فَـضْلُهُ عِنْدِي [٤]

ويظل إحساسه بعروبته فى فارس يفعم قلبـه حتى ليرى ذروة الفضائل فى ابن العميد لسانه العربى الفصيح الذى ينبغى لأمثاله أن يشمخوا به فى الأفلاك [٥]. يقول :

عَـــرَبِـيٌّ لِسَـــانُهُ ، فَـلْسَـــفِيٌّ رَأْيُهُ ، فَـــارِسِـــيَّـــةٌ أَعْـــيَـــادُهْ
خَلَـقَ اللَّـهُ أَفْـــصَحَ الـنَّاسِ طُـرًّا فِـي بِلاَدٍ أَعْـــرَابُـهُ أَكْـــرَادُهْ [٦]

وفى فارس نراه يوازن بين شعب بوان وبادية دمشق ، ويشـير إلى أنه فقـد عرب دمشق الذين كانوا يكثرون من إكرامه فقال :

(١) المصدر السابق / ١/ ١٩١ .
(٢) جاسم محمد السعدى / حول التطلع القـومي عند المتنبى / بغداد مجلة الأقلام - السنة الثانية عشرة - العدد التاسع - حزيران ١٩٧٧م / ١١٣ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٣٩١ ، ٣٩٤ .
(٤) المصدر السابق / ٢/ ٦٩ .
(٥) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ١٠٤ .
(٦) أبو البقاء العكبري / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٤٩ .... ٥٥ .

وَلَو كَـانَتْ دِمَـشْقَ ثَنَى عِنَانِى   لَبِـيقٌ الثُّـرْدِ صِـينِىُّ الجِـفَـانِ
يَلَنْجُوجِى مَـا رَفَـعَتْ لِضَـيفٍ   بِـهِ النِّيـرَانُ نَـدِىُّ الدُّخَـانِ
يُحَلُّ بِهِ عَلَى قَلْبٍ شُـجَـاعٍ   وَيُرْحَلُ منهُ عَنْ قَلْبِ جَبَـانِ
مَنَازِلُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَـا خَـيَالٌ   يُشَـيِّـعُنى إِلَى النَّوْبَنْدَجَـانِ [1]

وفى ذكره للثرد والنار ما يدل على أنه يريد بادية دمشق لا حاضرتها [2].

وأروع مدائحه فى عضد الدولة مدحته الهائية ، التى يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل العروبة فى الشام التى قضى فيها أيام شبابه ، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين حتي لتشبه حرارة الحمى وما يلبث أن يجسده فى فتاة شامية خلبت لبه ويصور جمالها وفتنته بها ، قائلاً فى تضاعيف حنينه [3].

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَـوْلَتِى وَاهَـا   لِمَنْ نَأَتْ وَالبَدِيلُ ذِكْرَاهَـا
أَوْهِ مِنْ أَنْ لاَ أَرَى مَحَاسِنَهَـا   وَأَصْلُ وَاهَـا وَأَوْهِ مَـرآهَـا
شَامِيَّـةٌ طَالَمَـا خَلَوتُ بِهَـا   تُبْـصِـرُ فِى نَاظِرِى مُحَيَّـاهَا
فَقَبَّلَتْ نَاظِرِى تُغَـالِطُنِى   وَإِنَّمَـا قَبَّلَتْ بِهِ فَاهَـا
فَلَيْتَـهَـا لاَ تَزَالُ آوِيَهُ   وَلَيْتَهُ لاَ يَزَالُ مَأْوَاهَـا
كُلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلاَمَتُهُ   إِلاَّ فُؤَادًا دَهَتْهُ عَيْنَاهَـا
تَبُلُّ خَدِّى كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ   مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَـا

---

(١) المصدر السابق / ٤/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢) عبد الوهاب عزام / البداوة فى طباع أبى الطيب/ الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٦٣ سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م / ١٣٣٣ ، وذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٣) شوقى ضيف / فصول في الشعر ونقده / ١٠٤ ، ١٠٥ . وعبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب المتنبى بعد ألف عام / ٢١٨ ، ٢١٩ . ومحمد فريد أبو حديد / أبو الطيب يعثر على موضوعه / دمشق مجلة المجمع العلمى العربى - الجزء الأول - المجلد الأربعون - شعبان ١٣٨٤ هـ ، يناير ١٩٦٥م / ٦٠ ، ٦١ .

مَــا نَـفَـضَـتْ فِـى يَدِى غَــدَائـِرُهَا جَــعَلْتُــهُ فِى الـمُـــدَامِ أَفْـــوَاهَا
فِى بَـلَد تُضْـــرَبُ الحِـــجَـــالُ بِه عَلَـى حِـــسَـــانٍ وَلَسْنَ أَشْـــبَـــاهَا
لَقِــــينَنَـا وَالحُــــمُــــولُ سَــــائِرَةٌ وَهُـنَّ دُرٌّ فَـــــذُبْـنَ أَمْــــوَاهَـا
كُلُّ مَــهَــاةٍ كَــأَنَّ مُــقْلَـتَـهَــا تَـقُــــــــولُ : إياكم وَإِيَّـــاهَـا
فَــهِنَّ مَـنْ تَقْطُرُ السُّــيُوفُ دَمَـا إِذَا لِسَـــانُ الْمُــحِبِّ سَــمَّــاهَا
أُحِبُّ حِــمْــصًـا إِلَى خُنَـاصِــرَةَ وَكُلُّ نَـفْسٍ تُـحِبُّ مَــحْــيَــاهَا
حَــيْـثُ الْتَـقَى خَــدُّها وتُفَّـاحُ لُبْــ ــنَانَ وَثَغْــرِى عَلى حُــمَــيَّــاهَا
وَصِــفْتُ فِــيهَــا مَـصِـيفَ بَادِيَةٍ شَـتَـوتُ بِالصَّــحْـصَـحَانِ مَشْتَـاهَا
إِنْ أَعْـشَــبَتْ رَوضَـــةٌ رَعَــيـنَاهَا أَوْ ذُكِـــرَتْ حِلَّـةٌ غَـــزَوْنَاهَــا
أَوْ عَــرَضَتْ عَــانَةٌ مُــقَـزَّعَــةٌ صِــدْنَا بِأُخْـرَى الجِـيَـادِ أُولاَهَا (١)

وهكذا تراه يذكر حمص وخناصرة ، وكأنه يريد أن يذكر عضد الدولة بأنه عربى شديد الاعتزاز بقومه وبعروبته وبذلك يرفع من منزلته فى عين ممدوحه ولو بالرغم عنه .

تلك مواقف وطنية يقفها أبو الطيب فى كل وقت أو زمان لم يميزوا مثل هذه المشاعر إذا كانت الروابط المعروفة هى روابط الدين والروابط المذهبية القبلية . ولعل تلك الغيرة والحمية الوطنية هى العلة التى بغضت أبا الطيب المتنبى إلى بعض المستشرقين الأوروبيين فى العصر الحديث . فهم يهاجمونه فى كتبهم بمناسبة أو غير مناسبة (٢) .

★ ★ ★

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) إحسان ملائكة / المتنبى فى مرآة العصر / لبنان مجلة الآداب - السنة الثامنة عشرة نيسان - إبريل ١٩٧٠م / ٥٦ .

الفصل الخامس

قضَايا الذات

أ- طموح المتنبى وتمـــرده

ب- التشـــــاؤم

ج- آراؤه فى الحيـــاة

د- آراؤه فى النـــاس

أ- طموح المتنبى وتمـــرده :

يدور معظم شعر المـتنبى تقريبًا حول العظمة والطمـوح . وهاتان الصفتان واضحـتان فى نفس أبى الطيب وفى شـعره ، وهمـا عنوان الشاعر الـعظيم ورمز خلوده ، وهما سر من أسرار روعة شعره وتأثيره في النفوس إلى اليوم ، حتى لا يكاد يعرف الأدب العـربى شعراً في الاعتداد بالنفس وعلـو الهمة أبلغ ولا أروع من شعر أبى الطيب المتنبى .

ونحن نقدر مـبدئيًا أن الطمـوح والعظمة ظاهرتان نفسـيتان واجـتماعيـتان متداخلـتان بشدة فى كيان الفـرد . وهما أساسًا لا يعـدوان غريزة حب الذات أو تأكيـد الذات لدى الإنسان وهى من الغرائز العـامة فى البشر يؤكـدها قانون تنازع البقاء والبقـاء للأفضل . ومن هنا فالعلاقة بين الإحساس بـالعظمة ونزعة الطموح علاقة تكامليـة ، ويستتبع حتمًـا الواحدة منهما الأخرى . والمـلاحظ أن الشعور بالعظمة ومـا يستتبعـه من تطلع وطموح للمجد لا يطفـو على سطح الفرد إلاّ إذا صادف صـاحبه مناخًـا ملائمًا للتعـبير عن ذاته بحـرية واضحة ، وبالعكس فـقد ينطلق هذاالشعور المزدوج من أغوار الذات فجأة نتيجة حرمان وكبت طويلين .

وقد تشكل هذه الظاهرة على أية حال حالة مرضـية لدى الفرد خصوصًا إذا كان حجمه الاجتماعى ومؤهلاته والظروف المحيطة به لا تسمح له بتجسيم شىء من طموحـاته البعيدة فى الواقع العـملى ، ويعجز معـها على فرض احتـرامه فى نفوس الآخرين (١) .

ولا شك فى أن اعتداد المـتنبى بنفسه وظهور شخـصيته وقوة طبعـه وكثرة تجاربه وحاجـة الناس إلى الاستشهـاد بأمثاله وحكمه فى عـصره وتنافس الأمراء على اشتراء مدحه وكثرة حساده هذه هى الخصائص التى انفرد بجمعها أبو الطيب فأشـاعت ذكره ، وحـفظت شعره وأنالتـه من المكانة فى أدب العرب مـا لم ينله شاعر سواه (٢) .

---

(١) منجى الكعـبى / مظاهر العظمـة والطموح في شـعر المـتنبي / لبنان – مـجلة الآداب – السنة الخامسة والعشرون – العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ١٨ ، ١٩ .

(٢) عباس محـمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحيـاة / ١٤٣ . وأحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربى – ط الاعتماد ١٩١٤م / ٢٠٤ .

ومن هنا فإن الخصومة التى ألفيناها حول المتنبي تختلف عن الخصومة التى دارت حول أبى تمام ، لأن الخصومة التي تعقبت أبا تمام كانت تدور حول شعره ، أما الخصومة التى تعقبت أبا الطيب فقد كانت تدور حول شخصيته ومكانته وطموحه وآماله [(١)].

إن هذه القدرة على القريض وما عنده من صفات الجودة جماعها أمر واحد وهو الروح الخاصة التى تظهر فيما له صلة من شعره بآماله وخيبتها وتفيض على ما ليس له صلة مباشرة بتلك الآمال ، فتعم إذن هذه الروح كل شعره وتكسبه «جاذبية الشخصية» وجاذبية الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها وجاذبية لذة البيان المعبر عنها . ولأكثر الشعراء نصيب منها ، ولكن نصيب أبى الطيب أوفر نصيب. وهى أيضًا التي بصرته بدخائل النفس الإنسانية وخفاياها وعيوبها لكى تتخذ من تلك البصيرة بالنفس الإنسانية عامة سلاحًا يساعده فى الاعتداد بنفسه، فاعتداد أبى الطيب بنفسه إذن سبب طلاوة شعره وسبب حكمه وأمثاله وسبب ما يشعر به القارئ فى شعره من القوة [(٢)].

والملاحظ مع ذلك أنه بقدر ما يستطيع الفنان التنفيس عما يعتمل فى داخله من أدوار العبقرية والإبداع بقدر ما يوفق إلى حفظ توازنه الصحى والنفسى ، وبالتالى بقدر ما يحقق ذاته في الخارج . فالفن لذلك مجال طبعى ومأمون فى الغالب لتحقيق نزعات الفرد فى أشكال مختلفة . والفن والحلم صنوان ، كلاهما عالم فسيح لإطلاق النزعات الفردية الكامنة فى النفس . بيد أن الفرق بينهما هو أن الفنان يقوم بعمله واعيًا ومقيدًا فى ذلك ببعض القيود . والفرق الآخر هو أن الفنان لا يستشعر بعد تحقيق عمله الفنى إلاَّ بالشرح والراحة ولذة إصابة الهدف ، بينما المستيقظ من حلمه يخرج منه كالمطرود من الجنة ويظل لا يتمنى غير أن يعاوده ذلك الحلم اللذيذ أو يعود إليه [(٣)].

(١) حفنى محمد شرف / النقد الأدبى عند العرب . أصوله . قضاياه - تاريخه / مصر ط مكتبة الشباب ١٩٧٠م / ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٢) عبد الرحمن شكرى / المتنبى وسر عظمته / الرسالة - السنة السابعة - العدد ٢٩٠ ذو الحجة سنة ١٣٥٧هـ / يناير ١٩٣٩م / ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) منجى الكعبى / مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبى / الآداب - السنة الخامسة والعشرون - العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ١٩ .

وعدوى الشخصية فى نظرنا هى الصفـة الغالبة التى ميزت شعر أبى الطيب، ويشترط في وجود هذه العدوى أن تكون شخصية صاحبها ذات هبات نفسية وعقلية طبيعـية ، والعدوى قد تظهر بين الناس فى مـقدار أقل حتى ولو كانت الشخـصية المعتـد بها المعتز بها صـاحبها قليلة الهبـات العقلية ، وهذا أمر مشـاهد فى حياة البشـر اليوميـة وتأثير بعضـهـم فى بعض أعمالـهم وأفكارهم وأخلاقهم ومـذاهبهم وصداقاتهم وعداوتهم ، فـالناس إذن خليقون أن يهتموا للكاتـب أو الشاعر الشديد الاعتزاز والاعتداد بنفسه ، وقد يهتمـون له أكثر من اهتمامهم لكاتب أو شاعر آخر أقل اعتـدادا بالنفس وأكثر هبـات عقلية ونفـسية ، فليس اهتـمام الناس للكاتب أو للشاعر إذن على قدر هبـاته العقلية وحدها كما يظنْ المعجبـون به الذين يستهويهم اعتداده بنفـسه - ولا نريد أن نقول : إن الكتاب والشعراء الذين يبـالغون فى إظهار الاعتـداد بالنفس هم مثل هؤلاء الغزاة المـدمرين فى شرهـم وإنما نعنى أن ظاهرة الاعتزاز بالنفس تستـدعى اهتمام البشر فى الحالتـين. وتغلب الاعتداد بالنفس على المقاومة يكون شبيهًا بتغلب النعاس على اليقظة.

وقد لاقى أبو الطيب أشد المقاومة ، ولكـن شدة اعتداده بنفسه تمكنت من تحويل المقاومة على مر الزمن إلى إعجاب كثير [١].

ولذلك فلا نعـجب كثيرًا ، فـإن المتنبى قال أكـثر شعـره وهو يتقلب بين الأمل والألم وقد غلـب عليه الانفعـال ، بل كان لا يتأتـى له الإبداع ، إلاَّ حين يثب به أمل واسع أو يضطرم فى صدره غيظ صاخب [٢].

وإذا صدقت قصة مقـتله التي قيل فيها إنه فر طالبًا النجـاة ممن أغاروا عليه حتى ذكره مذكر بقوله :

فَـالخَـيْلُ وَاللَّيـلُ وَالبَـيـداءُ تَعْـرِفُنِى ... وَالسَّيفُ وَالرُّمحُ وَالـقِرطَاسُ وَالقَلَمُ [٣]

(١) عبد الرحمن شكرى / المتنبى وسر عظمته / الرسالة - السنة السابعة - العدد ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ذو القعدة سنة ١٣٥٧هـ ، يناير ١٩٣٩م / ١٥٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) حنا الفاخورى / تاريخ الأدب العربى / بيروت - ط المكتبة البوليسية ط سادسة / ٦٠٥ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٨٥ .

وذكره بأن من يقول هذا القول لابد أن يكون فعله كقوله ، فعاد للقتال حتى قتل أقول : إذا صدقت هذه القصة ، كان الاعتزاز بالنفس الذى قتله ، هو الاعتزاز بالنفس الذى خلد عظمته وزادها . وهو أيضًا كذلك إن لم تصدق هذه القصة (١) .

وينقسم شعر المتنبي إلى ثلاثة أقسام : قسم يرضى به ممدوحه ، وهو حين يطنب فى مدح سيف الدولة أو كافور إنَّما يطنب فى مدح نفسه ويشيد بإمكانياته وأمانيه التي يجدها مجسدة فى الممدوح الذى هو كالمرآة الصافية التى يرى صورة فيها (٢) .

وقسم يرضى به ذاته التى غالى فى محبتها والاعتداد بها . وقسم يرضى به الإنسانية جمعاء . وهذا القسم فيه الكلمات الخالدة التى لا تخلو منها قصيدة من قصائد أبى الطيب المتنبى وهى أقرب إلى نفوس الناس جميعًا (٣) .

إنَّ هذه القصص التى تتعلق بكبريائه ، والتى أكثرها موضوع افتعله حساده ليشوهوا سمعته ، ويحفظوا من مكانته ، إنما تصوره فى حالة خلقية وهى نقيصة النقائص فى الطبع ، وعيب العيوب فى الخلق . ولم يجد حساده فى زمنه سلاحًا يحاربونه أقوى من هذا السلاح الذى يغري به الملوك وذوي السلطان . وقد اتخذوا من هذه القصة صفة الكبرياء التى قلبوا حقيقتها فيه، وانكروا فضيلتها عنده وسيلة استخدموها للدس عليه والغض من شأنه (٤) .

ونحن نعلم أن المتنبى عرف قيمة رسالته الفنية . وعرف ما للفن من مقام فى حياة الجماعة فربأ به عن أن يكون ذليلاً مهينًا ، وأراد أن يفرض على الناس احترامه وتعظيمه ، حتى وجد نفسه وهو فتى لا يفهمون فنه كما يريد أن يفهموه فقال فى أبيات تمثل طموحه :

---

(١) عبد الرحمن شكرى / المتنبي وسر عظمته / الرسالة - السنة السابعة - العدد - ٢٩١ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ هـ ، يناير ١٩٣٩م / ١٩٨ .

(٢) نوري جعفر / الأصالة في شعر أبى الطيب المتنبي / ١٢١ .

(٣) مارون عبود / الرؤوس / بيروت ١٩٦٧ م / ٢٦٥ .

(٤) هاملتن جب / المدخل فى الأدب العربى / ترجمة كاظم سعد الدين / بغداد وزارة التربية والتعليم / ١٩٦٦ م / ٨٥ .

إنْ أكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ   لَمْ يَجِدْ فَوقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أنَا تِربُ النَّدَى وربُّ القَوَافِي   وَسَمَامُ العِدَا وَغَيْظُ الحَسُودِ
أنَا فِي أُمَّةٍ تَدارَكَهَا اللَّـ   ـهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ (١)

ولا يشكو هذه الشكوى إلا الفنان الذى يفهم قيمة فنه ، ويرى الوسيط المحيط به لم يفهم هذا الفن الذى يجب تبجيله وتعظيمه (٢).

وهذا الإحساس المنعم تتردد أصداؤه فى كل قصيدة حتى ولو كان فى موقف العبرة أمام الموت كقوله عن نفسه فى مرثيته لجدته :

تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِمًا غَيرَ نَفْسِهِ   وَلاَ قَابِلاً إلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا (٣)

بل إنه ليقع فى دخيلة روعنا منه ، إنَّه فى تسليمه هنا للقضاء لينطوى على مضاضة ، وإنَّ الشطر الأخير منتزع منه انتزاعًا ، فإننا نعرف الرجل متمردًا على كل سلطان ، مستخفًا بكل شيء (٤).

وتستيقظ ذاته على مطامح لا حد لها ، فليس هو بالإنسان العادى الذى يرضى من دهره بالقليل أو بالأحلام الفارغة :

لَيسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى   وَلاَ القَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِى (٥)

وهو يعرف أن الزمان سيحاربه ، وأن المصائب لن تفسح له فى دروب تحقيق الأهداف ، ولكن همته أسمى من أن يجد لها حدًا (٦).

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول – الجزء الثاني / ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) طاهر أحمد الطناحي / جنون العظمة فى المتنبي . فضيلة خلقية / الهلال – عدد خاص بالمتنبي – المجلد الثالث والأربعون نوفمبر ١٩٣٤م ، أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٨٢ ، ١١٨٣ . وساعات من حياتي – أبحاث ودراسات فى الأدب والفن والنقد . مصر ط الدار المصرية للتأليف والترجمة / ٧٨ . وفؤاد أفرام البستانى / المشرق – أبو الطيب المتنبى / السنة السادسة والعشرون العدد (١) كانون الثانى ١٩٢٨م / ٥٣، ٥٤ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٠٧ .
(٤) عبد الرحمن صدقى / جنون العظمة فى المتنبى. مرض نفسى / الهلال – عدد خاص بالمتنبى– المجلد الثالث والأربعون نوفمبر ١٩٣٤م، أول أغسطس ١٩٣٥م/ ١١٧٨ ، ١١٧٩.
(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٣٩ .
(٦) إنعام الجندى / دراسات فى الأدب العربى / ٢٢٨ .

وَمَـا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْـرُكَنِى حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا همـمى [1]

ولعل أجمل ما افتخر به المتنبى تلك الأبيات التي قالها عندما رثى جدته لأمه فهو ينصرف لنفسه فيها كل الانصراف ، ويحلق بمعانيه فيها إلى مستوى رفيع فيقول :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِى بِنْتَ أَكْـرَمَ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِى أُمَّا

لَئِنْ لَذَّ يَومُ الشَّامِتِينَ بِمَوتِهَا فَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى لأَنَافِهِمْ رَغْمَا

إلى أن يقول :

وَلاَ سَالِكًا إلاَّ فُؤَادَ عَجَاجَةٍ وَلاَ وَاجِدًا إلاَّ لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا [2]

ويتحدث المتنبى عن قومه وتلك أول إشارة فيها إليهم ولكنها إشارة عابرة سريعة كأنما خاف أن يفطن أحد إليها فمر عليهم مرور الكرام ، ثم انثنى يخاطب الدنيا غير عابئ بها ويخاطب نفسه طالبًا الحرب والنزال ، ثم يستنكر من الدنيا أن تمر به ساعة منها لا تضعه فيها موضعه من العزة والمنعة [3] :

وَإِنِّى لَمِنْ قَومٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالعَظْمَا

كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتِ فَاذْهَبِى وَيَا نَفْسُ زِيدِى فِى كَرَائِهِهَا قُدْمَا

فَلاَ عَبَرَتْ بِى سَاعَةٌ لاَ تَعُزُّنِى وَلاَ صَحِبَتْنِى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا [4]

وكان المتنبى كبير الطموح واسع الأمل ، وكيف لا يكون كذلك ؟ وهو يحمل بين جنبيه قلبا ليس لهمته وآماله مدى أو حدود وهو فى سبيل هذه الهمة وهذه الآمال يتحمل كل شىء ويخوض غمار المتاعب والمصاعب :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٣٩ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٠٧ .
(٣) مصطفى الشكعة / فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين / ١٩٦ ، ١٩٧ . وزكى المحاسنى / المتنبى / ٢٥ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٠٩ .

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرضَى بِمَيسُورِ عَيْشِه — وَمَرْكُوبه رِجْلاَهُ وَالثَّوبُ جِلْدُهُ
وَلَكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَىَّ مَا لَهُ — مَدَى يَنْتَهِى بِى مُرَادٌ أُحدُّهُ
يَرَى جِسْمَهُ يكسى شُفُوفًا تَرُبُّهُ — فَيَخْتَارُ أنْ يُكْسَى دُرُوعًا تَهُدُّهُ
يُكَلِّفُنِى التَّهْجِيرُ فِى كُلِّ مَهْمَةٍ — عَلِيقِى مَرَاعِيهِ وَزَادِى رُبُدُّهُ [(١)]

إنَّ نفسية المتنبى الطموح واضحة فى هذه الأبيات وضوحًا قويًا وتلك النفسية الطموح التي تلف معظم قصائده برؤية خاصة يبدو فيها العنف الذى يتبدى لنا كأثر دفين يعمل عمله فى معظم ما تفيض به شاعريته فيخرج مغموسًا بهذا الحماس الجارف [(٢)] .

وليس من شك فى أن المتنبى كان موفقًا حين وضع هذه النغمة فى شعره بسبب طبعى وهو أن كل عربى ينطوى عليها ، ينطوى على الثقة بالنفس التى لا حد لها وما يتصل بها من الشعور بالكرامة والإباء والأنفة ، ومن أجلها كان شعر المتنبى يلتصق بنفوس العرب على مدار الزمن ويشغفون به شغفًا شديدًا [(٣)] .

وكان من قوة طموحه واعتداده بشخصيته أنَّه يتغزل بالمجد والمعالى فى كثير من شعره يقول :

ذَرِينِى أَنَلْ مَا لاَ يُنَالُ مِنَ العُلاَ — فَصَعْبُ العُلا فِى الصَّعْبِ ، والسَّهْلُ فِى السَّهْلِ
تُرِيْدِينَ لُقْيَانَ المَعَالِى رَخِيصَة — ولابد دون الشهد من إبر النحل [(٤)]

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثاني / ١٢٣ .
(٢) سامى منير / ملامح وحدة القصيدة فى الشعر العربى بين القديم والحديث / مصر - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب . فرع الإسكندرية ١٩٧٩م / ٢٤٣ ، ٢٤٤ . وسامى الكيالى / عبرة الشباب لمحة عن المنازع القومية فى المتنبى / الهلال - عدد خاص بالمتنبي - المجلد الثالث والأربعون - أول نوفمبر ١٩٣٤ م أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٥٣ ، ١١٥٤ .
(٣) شوقى ضيف/ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى/ ٣٤٨ ، ٣٤٩ . وعصر الدول والإمارات/ ٣٥٠ .
(٤) أبو الطيب المتنبى / ديوانه / تقديم وتصحيح عبد الوهاب عزام / ٤٠٩ .

إن بوادى الطموح ، ذلك الخلق العنيف الوثاب ظهرت فى شاعرنا منذ نشأته الأولى ، وملكت عليه جوانب نفسه ، فأحس عظم همته وسمو مطالبه فى صباه وفتوته حين يقول فى صلف وكبر [١] :

وَخُضْرَةُ ثَوبِ العَيْشِ فِى الخُضْرَةِ الَّتِى   أَرَتْكَ احْمِرَارَ المَوتِ فِى مَدْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِى بِمَا وَكَأَنَّهُ   فَمَا أَحَدٌ فَوقِى وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِى [٢]

وكأن المتنبى يظن أن نفسه خلقت لمهمة اجتماعية وسياسية ولهذا فهو يكثر من وصف نفسه بالبطولة والشجاعة ومن قوله فى ذلك :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِى   تَعْجِزُ عَنْهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ
بِصَارِمِى مُرْتَدٍ بِمَخْبُرَتِى   مُجْتَزِئٌ بِالظَّلاَمِ مُشْتَمِلُ
فِى سِعَةِ الخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ   وَفِى بِلاَدٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلُ [٣]

وكان لإعجابه بنفسه وإعدادها لمهمة عظمى يصد عن مجالس اللهو والمجون وكان جاداً لايعرف المجون ولا يتنزل إلى ما يتنزل إليه غيره . من الشعراء الذين أثر عنهم ذلك .كما أنه لم ينصرف إلى الحب والغزل بصورة تامة، كل ذلك لأنه يطلب مطلبا فى الحياة عظيماً حتى قال [٤] :

يَقُولُونَ لِى : مَا أَنْتَ ؟ فِى كُلِّ بَلْدَةٍ   وَمَا تَبْتَغِى ؟ مَا أَبْتَغِى جَلَّ أَنْ يُسْمَى [٥]

ومن هنا أخذ بعض النقاد المحدثين يقارن بين المتنبى ونابليون ، إذ إن كلا منهما كان محباً للعلا والمجد والرفعة . وحينما كان المتنبى يرى أن المجد يترك فى

(١) على الجارم بك / طموح المتنبى / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) محمد شوكت التونى / أبو الطيب فى مصر نبى فى بلاد الوحى لا يوحى إليه / الهلال - عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون أول نوفمبر ١٩٣٤م أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٦٦ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٠٧ .

الدنيا دويًا ، ذلك الدوى الذى ذكره فى قصيدته الرثائية ، فإنا نجد نابليون أيضًا يصف ذلك الدوى فيقول : « ليست الشهرة إلاّ ضجة عظيمة كلما اشتدت كان ذلك أذيع لذكرك وأطير لشهرتك ، ولتعلم أن القوانين والأنظمة والأمم كلها إلى فناء ، ولكن ضجيج الشهرة دائم خالد لا يزال يدوى فى آذان الأجيال الآتية » [1] .

وكان المتنبى لا يعنى بالذكريات بل ينعم بالحالة الحاضرة ، وفى هذا قال :

خُلِقْتُ أُلُوفًا لَوْ رَحَلْتُ إلَى الصِّبَا ... لفَارَقْتُ شَيْبِى مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيَا [2]

وهو أيضًا لا يتأسف على ما فات ولا يخشى ما هو آت إنه يسعى للخلود، والخلود فى نظره كما قال [5] :

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِى وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ [3]

وكثيرًا ما يضع القارئ نفسه كما يقول عبد الرحمن شكرى فى منزلة نفس القائل المعتد بشخصه ويشاركه فى أطماعه وآماله وإحساسه واعتزازه بنفسه ، ويشاركه فى حالات نفسه وخواطرها ، كما يفعل القارئ أيضًا عندما يقرأ قصة لكاتب فيضع نفسه فى مكان بطل القصة الموصوف الذى يعجب به القارئ . وقد يفعل بعض القراء ذلك حتى فى قراءة قصص مشاهير المجرمين الذين يعتزون ويعتدون بأنفسهم إلى حد الإجرام . وهذه شواهد متطرفة بهذه الظاهرة النفسية وجاذبية الاعتداد بالنفس تختلف باختلاف الكاتب وباختلاف نفوس القراء المتأثرين بها

وهذه الجاذبية كالمعدن السائل الذى يسيل بمقادير متفاوتة مع ماء الينابيع من التى لا تتفاوت فى مقادير مياهها السائلة ، فالأدباء والشعراء قد لا يختلف مقدار نتاجهم مع اختلاف فيض ينبوع معدن الجاذبية فى قولهم ، وعلى قدر ما فى قولهم من جاذبية وبيان الاعتداد بالنفس يكون قد تأثر القراء بهم . فإذا قرأ قارئ قول أبى الطيب :

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى / حصاد الهشيم / ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٤٢١ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثالث / الجزء الثالث / ٤٠٧ .

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِى وَلاَ أُعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانَا
وَهَكَذَا كُنْتُ فِى أَهْلِى وفِى وَطَنِى إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسَّدُ الفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِى أَلْقَى الكَمِيَّ وَيَلْقَانِى إِذَا حَانَا [1]

تلمس تلك النفس واكتسب شيئًا من إحساسها بالنفاسة والقدرة على الاعتداد بنفاستها وأحس ما رأته النفس الموصوفة فى حياتها من صفح وإهوان ؛ وهو قد يكتسب كل هذا الشعور فى أثناء قراءته قول الشاعر من غير فطنة له ، فهو فى رحلة نفسية ، إمَّا فى مسالك العقل الظاهر وإمَّا فى مجاهل العقل الباطن .

وكذلك إذا قرأ قول أبى الطيب :

إِذَا غَامَرْتَ فِى شَرَفٍ مَرُومِ فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ المَوْتِ فِى أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ فِى أَمْرٍ عَظِيمِ
يَرَى الجُبَنَاءُ أَنَّ العَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِى المَرْءِ تُغْنِى وَلاَ مِثْلُ الشَّجَاعَةِ فِى الحَكِيمِ
وَكَمْ مِنْ عَائبٍ قَوْلاً صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الآذَانُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ القَرَائِحِ وَالعُلُومِ [2]

أحس أن حكمة الشاعر فى التمييز بين عقل العجز والجبن وبين عقل الفطنة المقرونة بالشجاعة والطموح ليست حكمة الشعر الوعظى أو التعليمى ، وإنما هى حكمة التجارب والخبرة والفطنة المقرونة بالطموح إلى الآمال السامية ، وهو ذلك الطموح الذى كان من مظاهر الاعتداد بالنفس عند أبى الطيب ، وهذا ما يلمسه القارئ فى باقى حكمه ، فيسلم نفسه للمتنبى يتصرف بها في أثناء قراءة شعره حسب بيان حكمته وخبرته وآلامه وآماله [3] .

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثالث / الجزء الرابع / ٣٥٤.
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٣) عبد الرحمن شكرى / المتنبى وسر عظمته / الرسالة - السنة السابعة - العدد ٢٩٠ ذو الحجة سنة ذو الحجة سنة ١٣٥٧ هـ يناير ١٩٣٩م / ١٥٥ .

ولقد بعث هـذا الطموح الجائر لدى شـاعرنا لونا من التـمرد على الحـياة والناس وجعل بعد ذلك يردد نغمة التمرد والثورة، وكل هذا كان من نتاج طموحه الكبيـر ، وآمالها الـواسعة ، ونحن إذ نرى هذا التـهور ظاهرا فى القـصائد التى أنشأها لنفسـه وظاهرًا أيضًا فى قصائده التي أنشدها لبعض المـمدوحين نرى هذا الغلو فى القول وليد ما طبع عليه أبو الطيب ، ونابع من خلقه الوعر .

وليس من الضـروري أن نرجح أن أبـا الطيب قـد اعـتنق بعض المـذاهب الهدامة ، وتأثر بدعاية الدعاة من القرامطة ونحوهم ، فإن الغلو فى شعره جاء فى الأغلبية نـتيجة الحدة والتـهور فى طبعه وشـدة اعتداده بنفسـه . وقد لازمه هذا الخلق طول حيـاته ، وإن كان الزمان قـد لطف من تطرفه هذا قليـلا ، وأكسبـته السنون لونا أكثر هدوءًا ولعله أيضًا أكثر عمقًا (١) .

فنحن نراه وهو بعد فى الكتاب صبى لم يبلغ الخمسة عشر عامًا ، يقول له أحد الناس ما أحسن هذه الوفرة . فيجيب لفوره :

لاَ تَحْـسُنُ الـوَفْـرَةُ حَـتَّـى تُرَى　　　مَنْشُـورَةَ الضَّـفْـرَيْـنِ يَوْمَ القِـتَـالْ
عَلَى فَـتىً مُـعْـتَـقِـلٍ صَـعْـدَةً　　　يَعُلُّهَـا مِنْ كُـلِّ وَافِي السِّـبَـالْ (٢)

ولعل هذا التمرد والتهور هو الذى جعله يطلب مطلبًا أسمى من قرض الشعر ومن بلوغ الغاية فيـه وقد وسوست إليه نفسه أن هـذا المطلب من حقه ، وإن لم يسع إليه متطفلا ، ولم يحبس عليه آماله وهيا استمعوا إليه حين يقول (٣) :

سَـأَطْلُبُ حَـقِّى بِالقَنَا وَمَـشَـايِخٍ　　　كَـأَنَّـهُمُ مِنْ طُولِ مَـا الـتَـثَـمُـوا مُـرْدُ
ثِقَـالٍ إِذَا لاَقُـوا خِـفَـافٍ إِذَا دُعُـوا　　　كَـثِـيـرٍ إِذَا شَـدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُـدُّوا (٤)

---

(١) محمد عوض محمد / الشعر الذى أنشأه المتنبي لنفسه / مصر - مجمع اللغة العربية - الدورة الثانية والثلاثون - البحوث والمحاضرات - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٥م ، ١٩٦٦م / ٢٩ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٧٩ .

(٣) على الجارم / طموح المتنبى / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٧٢ .

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٩٢ .

ثم تتوالى أشعاره على هذا النمط بل تزداد عنفا وقوة ، وتتقدم أيضًا من الوجهة الفنية فقد قال فى صباه أيضًا تلك القصيدة الميمية التى مطلعها :

ضَيفٌ أَلَمَّ بَرأسِ غَيرَ مُحْتَشِمِ ... وَالسَّيفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللِّمَمِ [1]

لم يمدح بهذه القصيدة أحدا ، بل هى كسابقتها من نوع التنفيس عن النفس الثائرة وقد رأى أن يفتتحها بذكر الشيب ، على سبيل العبث . ولكن الذى يهمنا منها تلك الثورة الجامحة التى تتمثل فى الأبيات الآتية :

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فَالآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ
رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاتركِى ... حِيَاضَ خَوفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
إنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً ... فَلا دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجْدِ وَالكَرَمِ
أَيَمْلِكُ المُلْكَ والأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ ... وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ
مَنْ لَو رَآنِى مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... وَلَو مَثَلْتُ لَهُ فِى النَّومِ لَمْ يَنَمِ
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَينِ غَدًا ... وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ العُرْبِ وَالعَجَمِ [2]

فهو فى هذه القصيدة يتحدث فى تهور عنيف عن « دولة الخدم » أى الدولة التى يتحكم فيها الرقيق والمماليك أولئك الذين يملكون الملك ، ولا يعدو الواحد منهم أن يكون مجرد لحم على وضم ، وأنه آن الأوان لأن يشهر عليهم حربا شعواء ، وأن يوردهم موارد الحتف [3] .

ولقد كانت مبالغته الطريفة فى كل شىء ثمرة من ثمرات هذا الطموح الجامح الذى لا يتوقف عند حدود القيام بالأعمال الخارقة ، وصنع المستحيل ، بل يتجاوزها إلى أن يكون الإنسان نفسه معجزة عمره ، وأن يكون فى مستوى البشر غير العاديين [4] :

---

(١) المصدر السابق / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٣) محمد عوض محمد / المتنبى والعروبة / مجلة المجلة - العدد السابع - ذو الحجة سنة ١٣٧٦هـ يولية ١٩٥٧م / ٢٩، ٣٠ . وأبو الطيب المتنبى بين خصومه وأنصاره / الهلال - السنة ٧٠ - العدد الخامس مايو سنة ١٩٦٢م / ٤٢، ٤٣ .
(٤) صدقى إسماعيل / المؤلفات الكاملة / المجلد الأول ١٩٧٧م / ٣٧٢ .

وَلْيَـفْـخَـرِ الـفَـخْـرُ إذْ غَـدوْتُ بهِ   مُـــرتَدِيًا خَـــيْــرهُ وَمُنْتَــعِـلَهْ

أنَـا الَّـذى بَـيَّـنَ الإلـهُ بِـهِ الأَقْـــــ   ـــدارَ والمَــرْءَ حَـيْــثُمَــا جَـعَـلَهْ

جَـــوْهَرةٌ يَفْـــرحُ الـكِرَامُ بِهَـــا   وَغَـــصَّـــةٌ لاَ تُسِـــيغُـهَـا السَّـفِلَهْ (١)

ولا نستطيع أن نتحدث عن تـمرده إلا ونقر بطموحه واعتداده بنفـسه وهى النغمة التي حرص عليها طول حياته ، ولقـد كان حريصا على أن يبلغ المجد ، دون أن تتوافـر لديه الوسائل المألوفـة لنيل المجد ، نظر إلى مـا حوله فإذا المـجد شيء بعيد المنال لمن كان مثله قليل الـنصير والصديق ، وهاله أن يرى أناسا ليس لهم حظ من النيل أو العقل يتـبوأون المناصب الرفيـعة ، وكثيـر منهم من الأعاجم، ومع ذلك يتمتعون بخير العالم العربى . . . فنراه وهو بعد فيما يسمعه الرواة زمان الصبا ، والأرجح أنه كان دون العشرين على كل حال ينظم قصيدته الدالية التى لا يمدح بها أحدًا ، ولا يتقرب بها إلى أحد ، بل هى عبارة عن الخواطر التى كانت تجيش بها نفسه إذ يقول (٢) :

أَبدًا أَقْـطَعُ الـبِــــلاَدَ ونَجْـــمِــى   في نُـحُـــوسٍ وَهِمَّـــتِى فِى سُـــعُـــودِ

عِشْ عَـــزِيزًا أَوْ مُتْ وأَنْتَ كَــرِيمٌ   بَـيْـنَ طَعْـنِ الـقَـنَا وَخَـــــفْـقِ البُـنُـودِ

فَــرءُوسِ الـرِّمَــاحِ أَذْهَبُ للغَــيْـظِ   وأَشْـــقَى لِغِلِّ صَــدْرِ الحَـــقُـــودِ

فَـــاطلُـبِ العِــزَّ فِى لَظَىً وَذَرِ الذُّ   لَّ ، ولَـو كَـــانَ فِـى جِنَانِ الـخُلُـودِ (٣)

وهذه الثورة النـاقمة الثـائرة جذوة من نفـسه ونفخـة من روحه ، بل هو ترجـمان طموحه أو قل هو ذوب نفسه الكبيرة ، تارة يتألف قولاً وطورًا يتمثل فعلا (٤) :

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٣٨٤ .

(٢) محـمد عوض محـمد / المتنبـى والعروبة / مجلة المـجلة - العدد السابع - ذو الحـجة سنة ١٣٧٦ هـ - يوليو ١٩٥٧م / ٢٩ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول / الجزء الثانى / ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) طه الراوى / الفـخر فى شعـر أبى الطيب / الرسـالة - السنة الرابعة - العـدد ١٦٩ ١٢ رجب ١٣٥٥هـ ٢٨ سبتمبر ١٩٣٦م / ١٥٧٩ .

ولهذا فإنَّ المتنبي وهو فى حضيض يأسه وأحزانه لا ينسى طبيعته ، وفى لحظات اليأس تواتيه نبضات الفروسية ، ولكنها فى هذه المرة ممزوجة بالحكم ، فالتى عنده يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوان ، وما دامت الحياة لا تبقى لحى فاقتحمها ولا تخش شيئًا [(١)] .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ   فَمِنَ العَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا [(٢)]

وتثور نفس أبى الطيب على هذا اليأس الذليل وتهيج فيها معانى التمرد والسخط والمغامرة ، بل معاني الحياة الدافقة الحافلة الإيجابية ، وتختص منها عوامل الضعف والانهيار والتردد والإحساس بالعزلة والانطوائية والسلبية ، فيصرح بأن السيف والرمح والخيل هى الوسائل التي تخلص المرء مما يلم به من ذلة وهوان، ومن أضاع هذه الوسائل فليرض بأن يعيش ذليلاً مهينًا :

فَمَا يَنْفَعُ الأُسْدَ الحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى   وَلا تُتَّقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا [(٣)]

وما الحياة سوى قصة مغامرة جريئة لا تعرف اليأس ولا التردد ولا الجرى خلف الأوهام الحالمة ، ولكنها تعرف الجرأة والقوة والعزم والإقدام [(٤)] .

وقد قدم المستشرق كرانجريه دى لاكرانج ، دراسة عن المتنبى فى كتابه «المختارات العربية» وأتبعها بالحكم الآتى :

« ولا يسعنا بعد أن نكون قد درسنا العربية دراسة جدية ، ثم انتقلنا إلى قراءة أبى الطيب إلاَّ أن نتعرف فيه إلى الصفات التى تشكل الرجل العبقرى . إنَّ هذا الشاعر ذو خيال وقريحة شعرية وحماسة ، ويتميز ، أساسيًا ، بسمات الرجولة والقوة وسمو الفكر : إنَّ أسلوبه موجز متقد متألق بالعبارات الموفقة ، إنَّه ذو روح تنزع ، بطبيعة الحال ، إلى التسامى الذى بلغه أحيانًا ، ولكنه لشدة

---

(١) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) مأساة المتنبى / الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٩ - أغسطس ١٩٧٨م / ٦١ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع ٣٧٢ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٤١٨ .

(٤) سامى منير / ملامح وحدة القصيدة فى الشعر العربى بين القديم والحديث /٢٣٨ .

شوقه إليـه يسىء أحيانًا كثيرة ، فى اختيـار الأفكار أو الصور فيسقط حـينئذ فى الغلو والتفخيم » [1] .

ومن القصائد التى أحـاط بها الحزن والتمرد والطمـوح والتهرب من النفس فى شعر المتنبى قصيدته في الحمى [2] .

وطمـوح المتنبى المـترامي المـتقلـب ، وحلمه بالمـجد المـؤثل والملك الشـاسع، واعـتقـاده فى أن له حـقـا فى طلب الملك ، من أقـوى بواعث هذه الشكوى المـرة التي تطالعنا فى شعـره ، والحزن الذى تنضج به قـصائده . ومن أبعد الأمل وأسـرف فى الطمع كان خليقًـا أن يعود بالحرمان ، ويبـوء بالحزن ، وعجب أن يكون أبو الطيب هو أعظم شعـراء العربية طموحًا وأضخـمهم أملاً هو نفسه الذى يقول :

أَذَا قَنِى زَمَـنِى بَلْوَى شَـرِقْـتُ بِهَـا   لَو ذَاقَـهَا لَبَـكَى مَا عَـاشَ وَانْتَـحَبَـا [3]

ويتحدث عن الخطوب التى أنشبت فيه مخالبها فيقول :

كَـيْفَ الرَّجَاءُ مِنْ الخُطُوبِ تَخَلُّصًـا   مِنْ بَعْـدِ مَـا أَنْشَـبْنَ فِىَّ مَـخَـالِـبَـا
أَوْحَـدْنَـنِي وَوَجَـدْنَ حَـزَنًـا وَاحِـدًا   مُـتَنَاهِيًـا فَـجَـعَلْنَهُ لِى صَـاحِـبَـا
وَنَصَبْنَنِى غَـرَضَ الـرمَـاةِ تُصِـيبُنِي   مِـحَنٌ أَحَدَّ مِنَ السُّـيُـوفِ مَضَـارِبَا [4]

ولما نالته الحمى بمصر خاطبها بقوله :

أَبِـنْـتَ الـدَّهْـرِ عِـنْـدِى كُـلُّ بِـنْـتٍ   فَـكَـيْفَ وَصَـلْـتِ أَنْـتِ مِنَ الزِّحَـامِ
جَـرَحْـتِ مُـجَـرَّحًـا لَـمْ يَبْقَ فِـيـهِ   مَكَـانٌ لِلسُّـيُـوفِ وَلاَ السِّـهَـامِ [5]

---

(١) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلاني / ٥٤٧ .

(٢) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) أحزان الشاعر العظيم / الثقافة -السنة السادسة - العدد ٦١ أكتوبر ١٩٧٨/ ٧١ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب / ١/ ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق / ١/ ١٢٤ .

(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٢٧٧ .

فطموح أبى الطيب هو باعث حزنه ، وكبرياؤه هى سبب كثرة أعدائه وخصومه ، وإفراطه فى طلب الدنيا هو سبب ما يروى عنه من البخل والشح . ولقد أبعد أبو الطيب الهدف وغالى فى الطلب ، فلم يبق سوى الحزن وخيبة الأمل . والدرس الذى نتعلمه من حياته هو أن نعتدل ونقتصد فى طلباتنا ، نبغى الأهداف المعقولة. وقد كان أبو الطيب بعيداً عن القناعة والزهد والترفع عن المطامع فظل فى حياته محزونًا شقيًا .

وكان كلما أخفق فى نيل بغيته ، وأحس بعجزه ، لاذ بكبريائه وتدرع بغروره وملأ أدبه بالافتخار المسرف مرة ، وبالشكوى المرة مرة أخرى .

ولم يستطع طول حياته أن يوازن بين أمله وقدرته ، وظل طفلاً يطمع فى الملك ويحلم بالنفوذ والسلطان وضرب أعناق الملوك قبل السوقة . وكان يسمع إطراء المعجبين بأدبه المأخوذ من شعره فيزداد ثقة بنفسه وإعجابًا بمواهبه الشعرية (١) .

وفى هذه الفترة التى نسميها فترة الضياع والشرود ، كان مضطرب الفكر ، كثيف الحزن ، بائسًا ممزقا من الداخل ، وكأنه بطل تراجيدى ممزق الباطن تتصادم فى داخله المتناقضات وكان يحاول أن يحقق أى شيء بعد أن فقد أحلامه واضطرب حظه الفكرى والسياسى (٢) .

ونحن نعزو سمو المتنى فى شعره وطموحه وإبائه وشخصيته إلى طبيعته العربية إذ إنه حاول أن يطلب المستحيل فى حياته ، فتحول هذا المستحيل ، إلى شعر ذاتى يتحدث فيه الشاعر عن نفسه وطموحها وحزنها وتمردها ، وانكسارها، وضياعها وحقا إنَّ هذا من حظ الشعر العربى ، إن المتنبى لم يبلغه أهدافه الدنيوية والذاتية فظهر لنا هذا الشعر الذي لا يساوى بثمن ، أو أن يشترى بأسعار غالية الأثمان ، ولا شك أن فى شعر المتنبى الذاتى سمة مميزة هي ، تعبيره عن

---

(١) على أدهم / أبو الطيب المتنبى بين الغرور والطموح والحزن / مصر مجلة الكاتب المصرى - المجلد الأول - العدد الرابع - يناير ١٩٤٦م / ٥٠٥ ، ٥٠٦ . وعلى هامش الأدب والنقد / ط دار الفكر العربى / ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) عبد العزيز الدسوقى . قضايا وملاحظات (١) فى عالم المتنبى رؤية فنية / الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٨ يوليو ١٩٧٨م / ٦٧ .

نفوس الناس وخواطرهم ولذا أحبوه الناس وأحبوا طموحه ونفسه ، وشخصيته التى أبدعت هذا الشعر العظيم .

وإذا كان النقاد أخذوا علي المتنبى غلوه فى شعره فإن هذا لا يجعلنا نسايرهم فى كثير مما قالوه عن شخصية المتنبى وشعره .

ويعزو أحمد حسن الزيات أن أبلغ ما أثر فى نفسه من حياة المتنبى منذ عرفه هى هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز ، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية ، سمت نفسه منذ أيفع إلى المعالى ، ولم يجد معينا عليها غير المال والقوة ، أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق ، وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب . وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية ، ومن تلك الغاية السماوية بين عاملين مختلفين :

عامل يرفعه فيدل على الملوك ، ويتأبى على السوقة ، ويتجافى عن الهوان يقول لبعض الأمراء :

وَفُؤَادِي مِنَ المُلوكِ وَإنْ كَا ... نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ (١)

وعامل يضعه فيهش للهبة هشاشة السائل ، ويحرص على المال حرص الشحيح ويعفر خده الأصعر فى البحث عن درهم ويقول لبعض الأغنياء :

تَهَلَّلَ قَبْلَ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ ... وَأَلْقَى مَالَهُ قَبْلَ الوِسَادِ (٢)

ولكنه فى كلتا الحالين طالب ملك ، وعاشق مجد ، وخاطب دولة (٣) .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٦ .

(٢) المصدر السابق / ١/ ٣٥٨ .

(٣) أحمد حسن الزيات / أبو الطيب المتنبى بمناسبة ذكراه الألف / الرسالة – السنة الثالثة – العدد ١٢٩ فى ٢٧ رمضان ١٣٥٤هـ – ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥م / ٢٠٤٢ – ووحى الرسالة فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع / المجلد الأول ط سابعة ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢م / ط نهضة مصر / ٢٨٢ . ومحمد مندور / فى الميزان الجديد / ط دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣م / ١١٢ ، ١١٣ .

وفى هذا الكلام ما جاوز الحق ، فالمتنبى إذا أراد أن يحقق لنفسه الغاية التى يرجوها فإنه وجد ذلك ، ولكنه وجدها فى شعره ، إذ إن هذا الشعر هو الغاية التى يريدها الناس ، أما شخصيته ومطامعه الشخصية فليس عندنا ما نتمنى أن يحققها ، لأنه لو حقق هذه المطالب كما قلت سابقًا لكان فيه الضياع للفن ورسالته ، ولا يدرينا لو وصل المتنبى إلى غايته أن يكون من أحد المصلحين فى القرن الرابع الهجرى ، وإن كنا لا نطالبه بهذا الدور ، وإنما نطالبه بدور الفنان الذى يصور ما فى نفسه وما فى حياته وعصره من متناقضات .

وتتجلى فى شعره المصرى ، سمة ، وهى سريان هذا التيار الحزين فيها ، وتصارعه مع تيار الثورة والتمرد . وهى من أعمق هذا اللون من الشعر الحزين الهامس الذى يختلط فيه الحزن بالكبرياء والثورة [١] . وهذا يتضح فى قوله :

فَإِنْ أَمْرَضْ فَمَا مَرَضَ اصْطِبَارِى   وَإِنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعْتِزَامِى [٢]

فَإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ   سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إِلَى الحِمَامِ

تَمَتَّعْ مِنْ سُهَادٍ أَوْ رُقَادِ   وَلاَ تَأْمَلْ كَرًى تَحْتَ الرِّجَامِ

فَإِنَّ لِثَالِثِ الحَالَيْنِ مَعْنًى   سِوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ وَالمَنَامِ [٣]

فهذه الحياة المنطفئة التى يعيشها أبو الطيب عند كافور لا تمثل كما يحدثنا البيت الأول نهاية آماله وطموحه . فلا يزال صبره على تحمل أهوال الحياة فتيًا معافى «فإن أمرض فما مرض اصطبارى » بالدقة فى التعبير ، وقدرته على الإيحاء بأضخم المعاني . . . . « وإن أحمم فما حم اعتزامى » . لا تزال عزيمته فتية قوية . إنها النار المتقدة تحت رماد هذه الحياة المنطفئة . . . !! ونلمح فى هذه الأبيات لونا من الحكم المستعرة ، والتأمل النابض العميق ، ففى البيت الثاني -

---

(١) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات : مأساة المتنبى / الثقافة - السنة الخامسة / العدد ٥٩ أغسطس ١٩٧٨ م / ٦٣ . ومحمد زغلول سلام ./ دراسات فى الأدب العربى - العصر العباسي / الإسكندرية ط التقدم أغسطس ١٩٧٨م / ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٧٩ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

تسليم للظروف وفهم لمعني الحياة . . . فسلامته من الحمى لا تعنيٰ آنه سلم من الموت . ولـكنه سيـموت بسبـب آخر ولهذا يدعـو نفسـه إلى التمـتع بأى شيء بالسهاد أو الرقاد . . . . قبل أن يحل الموت فـينتهى كل شيء ويسدل الستار على مأساة الحياة [١]:

فـــإن لثـالـث الحــالـين مـعـنى سـوى مـعنى انـتـبـاهك والمنام

ويتحـدث الأستاذ على أدهم عن هذه العظـمة المتوهـمة التى نسجـها أبو الطيب حول نفسه فجعلها لونًا من ألوان الغوص عـما أصابه فى طفولته وابتداء نشأته من الإهانات وأنواع التحقيـر والإساءة بسبب فقره ويتمه وضـعة أصله . وهو كمعظم الذين اتسموا بالـكبرياء واستهدفـوا فى حياتهم لامتحـانات قاسية ونقـدات مهينة وامتهانات جارحة .

وقد لوحظ أن شـدة شعور الإنسـان بناحية من نواحى الـنقص تحدوه على ابتغـاء المعالى والمجـد وطلب العظائم . و« أدلر » العالم النفسى المـعروف يرد كل موهبة إنسانية سامـية إلى الرغبة فى التعويض عن لون أصيل من ألوان العيب والنقص . وقد لا يصدق رأيه فى كل المواقف ، ولا يفسر كل حالة من الحالات النفسية ، ولكن لا نزاع فى أن الشعـور بناحية من نواحى النقص يحفز النفس إلى استـدراك هذا العيب واسـتكمال ذلك النقص . وتوهـم العظمة عريـق فى نفوس الناس فالطفل يتلهف على أن يكون ضخمًا ، ويود أن ينمو ويكبر فى مثل غمض العين ورجعة الطرف [٢].

ونحن هنا أمام كلام يحتاج إلى مناقشة كبيرة ، ولعل العيب فى هذا يكمن فى تطبيق المنهج النفسى فى هذه الدراسـة ، إذ إنه يوغل فى دراسات انعكاسات نفسية لا مبـرر لها ، وهل من المعقول أن يطبق على كل شخصـية فى المجتمع؟

(١) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) أحـزان الشاعر العظيم / الثقافة - السنة السادسة - العدد ٦١ أكتوبر ١٩٧٨م / ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) على أدهم / أبو الطيب المتنبى بين الغـرور والطموح والـحزن / مـجلة الكاتب المصـرى - المـجلد الأول - العـدد الـرابع - يناير سنة ١٩٤٦م / ٥٠٤ ، ٥٠٥ . وعـلى هامش الأدب والنقد / ٧٨ .

إنَّ هذا كلام وهم لا يقف أمام النقد الموضوعى ، فقد ثبت فى فصول سابقة أن أبا الطيب لم يكن وضيعًا فى أصله كما ذهب الباحث وإنما هو عربى يفتخر بعروبته وهو افتخار ترجمه لنا فعلاً فى سيفياته الإسلامية ، وأما قضية الإهانات فإنها لا تشغل بالنا إلى هذا الحد الذى نذهب فيه إلى أن أبا الطيب كان فى طموحه وعظمته انعكاسًا لما صادفه من إهانات ، إذ إن المتنبى كان منذ بدء حياته يدافع عن نفسه ، ويركب الصعاب في سبيل عزتها ، والأهم من هذا ، أنه بقى على هذه العظمة والطموح منذ بداية حياته حتى نهايتها ، وما تجواله فى الأقطار الإسلامية إلاَّ دفاع عن نفسه وطموحه ، وأى نقص في شخصية المتنبى وشعره حتى يحاول تعويضه .

ونظرية الطموح كما نري ، تبدو لنا فى العربى أكثر من غيره ، ولعل هذا هو السبب الذى حدا علماء النفس والمستشرقين أن يعدوا طموح المتنبى إنما هو تعبير عن نقصه ولذلك فهو يحاول أن يعوض هذا النقص بطموحه وفخره على الآخرين ، والواقع خلاف ذلك فإن المتنبى يتمثل طموح العربى البدوى ، الذى لا يحد طموحه أى صعاب أو متاعب ، والمتنبى الطموح ، نراه جادًا فى كل مراحل حياته ، فلا نرى انعكاسات سيئة تسعف المنهج النفسى بذلك ، فالمتنبى خلق للطموح وللمجد وللمعالى وللجد ، فلم يكن المتنبى صاحب لهو مجون، وإنما كان صاحب مجد وسلطان ، ومن هنا كما يقول العقاد فإن جنون العظمة لابد أن تقترن بعقيدة كاذبة موهومة أو مبالغ فيها ، لغة تشبه الوهم والكذب ولم تكن عقيدة المتنبى فى شعره وأدبه من هذا القبيل لأنه كان فى الحق أشعر شعراء زمانه وأغزرهم أدبًا - وأقواهم خلقًا وطبعًا (١) .

ومن هنا فإن الفن الذى أجاده المتنبى وبرع فيه فى أثناء إقامته فى مصر ، هو الغناء فقد وفق المتنبى لنغمات جديدة لعله لم يوفق لمثلها فى شعره كله . ولم تكد تخلو من هذا الغناء قصيدة من قصائد المدح بها كافورًا أو هجاه والتى مدح بها فاتكا أو رثاه . وهو بعد هذا قد خرج عن مألوفه منذ زمن بعيد ، فاختص نفسه بشىء من هذا الشعر الذى يشرك معه فيه أحدا بمدح أو هجاء (٢) .

---

(١) عباس محمود العقاد / آراء فى الأدب والفنون / الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ، وبيروت - بدون تاريخ / ٥٤ .

(٢) طه حسين / مع المتنبى / ٢٩٥ . ومحمد زغلول سلام / دراسات فى الأدب العربى - العصر العباس / ٣٧٢ .

ولم يستطع المتنبى أن يصف لنا آثار مصر كلها والذى يبدو أن المتنبى كان منغص الإقامة ، كثير الهموم . ومن هنا يظهر أن السبب الأول فى ذلك إنما كان عكوف المتنبي على نفسه وهمومه ، وعناياته بآلامه وآماله التي شغلته عن كل شيء ، فلم تكن مصر فى مذهبه هذه الطبيعة الجميلة أو المجتمع الكريم أو الصفحة التاريخية التى خطت سطورها بالآثار الخالدة (١).

ويخيل لى أن أبا الطيب لم يتصل بمصر اتصالاً وثيقًا ، فلم تتهيأ له بها هذه الصلة النفسية التى ذكرناها من قبل ، وذلك أن الرقابة الشديدة التى ضربها عليه كافور وأعوانه لم تسمح له أن يتصل بالشعب المصرى اتصالاً قويًا ، وربما كان ذلك للخوف من أن يحدث فى الجماهير تأثيرًا ما متصلاً بالسياسة أو نحوها . وكذلك لم يثبت أن المتنبي قام برحلات فى نواحى مصر فعاش فى الفسطاط كالسجين لا يغادرها إلا نادرًا ، وكانت حياته ضرورة موقوتة يرجو أن تزول . ومثل هذه العزلة لا تظهر للمتنبي على مجالى الوادى وآثاره القديمة ومنشآته الحديثة ، أو على الأقل لا تخلق فى نفسه جانبًا يتربعه المصريون وبلادهم ويبدو فى ديوان الشاعر (٢).

ونراه يذكر بعض الأماكن التى مر بها (٣)، ومن ذلك جبل المقطم بمصر وذكره عندما خاطب كافورًا بقوله :

وَسَمْنَا بِهَا البَيداءِ حَتَّى تَغَمَّرَتْ   مِنَ النِّيلِ وَاسْتَذْرَتْ بِظِلِ المُقَطَّمِ (٤)

---

(١) أحمد الشايب / أبحاث ومقالات / ٩٦ ، وعلى النجدى ناصف / المتنبى فى مصر / صحيفة دار العلوم / الجزء الأول سنة ١٣٥٣هـ ، ١٩٣٤م / ١٢٩ . ونعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

(٢) أحمد الشايب / أبحاث ومقالات / ٩٩ . وسيد نوفل / شعر الطبيعة فى الأدب العربى / ط دار المعارف بمصر ١٩٧٨م / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) محمد على اليأس العدوانى / الجبال والأمكنة والمياه فى شعر المتنبى / بغداد - المورد عدد خاص أبو الطيب المتنبى - المجلد السادس - العدد الثالث / ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م / ١٧ ، ٢١ .

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٢٦٩ .

وتراه يذكر أيضًا مدينة بلبيس فى شعره إذ يقول :

جَزَى عَرَبًا أَمْسَتْ بِبُلبيْسَ رَبُّهَا بِمَسْعَاتِهَا تَقْرر بِذَاكَ عُيُونُهَا
كَرَاكِرَ مِنْ قَيسِ بنِ عيلانَ سَاهِرًا جُفُونُ ظُبَاهَا لِلعُلاَ وَجُفُونَهَا [1]

وتراه أيضًا يذكر الأهرام فى قوله :

أَيْنَ الذَّى الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِه مَا قَومُهُ مَا يَومُهُ مَا المَصْرَعُ ؟ [2]

والمتنبي شاعر الجد والطموح والإقدام ، ورياضة النفس ، كان على سمة طلاب العظائم وعشاق المجد والرياسة ، قد يعرف المزح ولكنه مزوح الساخر المترفع كقوله فى صباه متهكما على صائدى « المستغير » [3] :

لَقَدْ أَصْبَحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ أَسِيرَ المَنَايَا صَرِيعَ العَطَبْ
رَمَاهُ الكِنَانِىُّ وَالعَامِرِىُّ وَتَلاَّهُ لِلوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلاَ الرَّجُلَينِ اتَّلَى قَتْلَهُ فَأَيُّكُمَا غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ
وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِى الذَّنَبْ [4]

وكقوله للشاعر الذى مدح الأمير بقصيدة من نظمه فى منامه :

قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ فِى الأَحْلاَمِ وَأَنَلْنَاكَ بَدْرَةً فِي المَنَامِ [5]

---

(١) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٣٨١ ، ٣٨٢ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٢٧٠ .
(٣) عباس محمود العقاد / أبو الطيب المتنبى - مصر تراث الإنسانية - المجلد الأول - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر / ٧ . وأحمد حسن الرحيم / الفكاهة فى شعر المتنبى / الرسالة - السنة الثانية عشرة العدد ٨٩٦ . سبتمبر ١٩٥٠م / ٩ ١٠٠ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٩٣ ، ٩٤ .

وقوله فى ابن كروس :

فَيَابْنَ كَرَوَّسَ يَا نِصْفَ أَعْمَى ... وَإنْ تَفْخَرْ فَيَا نِصْفَ البَصِيرْ (١)

ويقول الدكتور محمد عوض محمد والذى يقرأ شعر أبى الطيب ربما خيل إليه أنه لم يكن ينظر إلى شعره إلاَّ على أنه وسيلة يتوسل بها لنيل ما تصبو إليه نفسه من الرتب والمناصب ونحو ذلك من مظاهر العظمة ، ولكن هذا الظن يبعد عن الحقيقة ، فإن أبا الطيب كان شديد الإحساس بشاعريته ، شديد التقدير لمكانته الشعرية ، ولما لها من الخطر . ولعله كان أشد الناس إدراكًا لذلك من أى شاعر آخر . ولذلك نراه يحتفل لإنشاء قصائده احتفالاً ،ويعني بتأليفها أشد العناية، ويجد فى ذلك لذة عظيمة . وقد عنى عناية خاصة بجمع شعره وتبويبه وتنسيقه، ولم يرتبه على حسب الحروف الأبجدية للقوافى كما يفعل الكثير ، بل رتبه ترتيبًا تاريخيًا نستطيع أن نستجلى تاريخ حياته من مطالعة أدبه .

ونظرًا إلى أن شعر أبى الطَيب يتمشى ويتطور مع أدوار حياته المضطربة ، فإن ترتيبه على النسق الذى اختاره المتنبى ، هو الترتيب الوحيد الذى يظهر هذا الشعر في صورته الصحيحة . ولو أننا رتبناه على الحروف الأبجدية كما فعل العكبرى أو قسمناه إلى أبواب من مدح ورثاء ونسيب وهجاء وأدب ، لأضعفنا تماسكه ، ومزقنا وحدته .

إن أكبر ما يمتاز به شعر أبى طيب هو أنه رواية متتالية الفصول ، متماسكة الأجزاء ، متصلة الحلقات ، وهذا هو السبب الأكبر فى المكانة الخاصة التى نالها هذا الشعر .

وقد كان المتنبى مشوقًا بملكة نقد صادقة ، حينما رتب ديوانه بحيث يتمشى الشعر مع أدوار حياته، مع أن هذا قد يضطره إلى أن يضع الأشعار القليلة النضج فى أول الكتاب ولعله قد تغلب على هذه الصعوبة بحذف غير قليل من أشعاره الأولى .

وهكذا نرى ديوان أبى الطيب عبارة عن مأساة أو قصة متعاقبة الفصول ، تنتهى بشىء من خيبة أمل البطل ومصرعه .

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٤٤ .

فإذا قبلنا هذا الوصف بشعر المتنبى استطعنا أن ندرك أن السبب الأكبر الذى من أجله شغل الناس بشعره أكثر من سواه ، إنه يمثل قصة . والقصة تمتاز عن غيرها من ضروب التأليف بأنها مرتبطة الأجزاء ممتلئة بالحركة والحياة ، وتشمل على صور تتبدل وتتغير ، وتنتهى إلى غاية مرسومة أو محتومة [(١)] .

ومن هنا فإن علة هذه السيرورة التى رزقها شعر المتنبى هى أن فى شعره «قوة» تخطئها فيمن عداه من مشاهير العرب [(٢)] . وحقًا فإن أبا الطيب هو الشاعر المسيطر على فن الشعر الذى تخدمه الأفكار ، والقوافى فى متناول يده [(٣)] .

ولا شك فى أن مكانة أبى الطيب وسيرته وشعره هى التى جعلت شعره يشغل الناس فى كل قطر عربى ولا شك أنَّ مكانته الشعرية هى التى خلقت له حسادًا ووشاة فى كل أطوار حياته عند كل أمير عربى [(٤)] .

إنَّ هذه الحرارة فى عواطفه والتى تكاد تحيل حروفه شفار سيوف ، تدفعنا من حيث ندرس أو لا ندرس ، إلى أن تشعر أن المتنبى مؤمن بما يقول كل الإيمان ، وأن هذه المزاعم التى يدعيها لنفسه والتى تخرج من حيز المعقول أحيانًا ، إنما تنبعث من أعماق المتنبى ومن صميم نفسه . وكل هذه القوة فى شعره مثار إعجابه هو نفسه فلم يعد يفخر بنفسه وحدها بل فخر بشعره أيضًا ، وفخره بنفسه أصيل قوى متدفق ، تتمتع منه بهذا الإيجاز غير المخل بهذه القوة والتدافع الذى يملك على القارئ مشاعره [(٥)] .

وشعر المتنبى هو فى الصدارة من الأشياء التى يفتخر بها لقد افتخر بشجاعته وقوته وخوضه الغمرات وافتخر بأخلاقه ولكن فخاره بشعره، كان نمطًا

(١) محمد عوض محمد / المتنبى والعروبة / مجلة المجلة - العدد السابع / ذو الحجة سنة ١٣٧٦هـ / يوليو / ١٩٥٧م / ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) إبراهيم عبد القادر المازنى . حصاد الهشيم / ١٢٧ .

(٣) بيتر باخمان / الشاعر أبو الطيب المتنبي كما يراه المستشرقون الألمان / ترجمة دار العلوم - ط جامعة القاهرة ١٩٦٨م / ١٢ .

(٤) أحمد الشايب / أبحاث ومقالات / ٤٥ ، ٤٦ .

(٥) عدنان حسين العوادى . التضخم الذاتى عند المتنبى وأسبابه ومظاهره / بغداد - الأقلام - السنة الثالثة - الجزء الرابع ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م / ١٧١ .

من الشعر عاليًا . ولننظر فى هذه الدالية العظيمة فى مدح سيف الدولة التي يتحدث فيها عن نفسه وعن شعره [١] .

وَمَا أَنَا إلاَّ سَمْهَرِىٌّ حَمَلْتَهُ ... فَزَيَّنَ مَعْرُوضًا ورَاعَ مُسَدَّدَا

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَلائِدِى ... إذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

فَسَارَ بِه مَنْ لاَ يَسِيرُ مُشَمِّرًا ... وَغَنَّى بِهِ مَنْ لاَ يُغَنِّى مُغَرِّدَا

أَجِزْنِى إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فَإنَّمَا ... بِشِعْرِى أَتَاكَ المَادِحُونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوتٍ غَيرَ صَوتِى فَإِنَّنِى ... أَنَا الصَّائِحُ المَحْكِىُّ وَالآخَرُ الصَّدَى [٢]

وهو يتمادى فيوازن بينه وبين سائر مادحى سيف الدولة :

لَيْسَ قَولِى فِى شَمْسِ فِعْلِكَ كَالشَّـ ... ـمْسِ وَلَكِنْ فِى الشَّمْسِ كَالإِشْرَاقِ

شَاعِرُ المَجْدِ خِدْنُهُ شَاعِرُ الـ ... لَّفْظِ كِلانا رَبُّ المَعَانِى الدِّقَاقِ

لَمْ تَزَلْ تَسْمَعُ المَدِيحَ وَلَكِنَّ ... صَهِيلُ الجِيَادِ غَيرُ النُّهَاقِ [٣]

فهو ينهقون وهو يصهل وشتان بين النهاق والصهيل . بل إنَّه يعتبر الشعراء غيره يقدمون بأمداحهم عملات زائدة وهو إنَّما يقدم الدر يميزه الانتقاد يقول لممدوحه :

إِنِّى نَثَرْتُ عَلَيْكَ دُرًا فَانْتَقِدْ ... كَثُرَ المُدَلَّسُ فَاحْذَرِ التَّدْلِيسَا

حَجَّبْتُهَا عَنْ أَهْلِ أَنْطَاكِيَّةٍ ... وَجَلَوْتُهَا لَكَ فَاجْتَلَيْتَ عَرُوسَا [٤]

وإذا كان قد سار بشعره من لا يسير وغنى به من لا يغنى ، فإنَّ هذا المعني قد أعجبه فردده بصور مختلفة منها :

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٩١ ، ٩٢ ، وطه الراوى / الفخر فى شعر أبى الطيب / الرسالة / السنة الرابعة - العدد ١٦٩ ، رجب ١٢ - ١٣٥٥ هـ -٨ سبتمبر ١٩٣٦م / ١٥٨٠ ، ١٥٨١ . والعوضى الوكيل / مطالعات وذكريات . أدب وتاريخ / ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٣) أبو المصدر السابق / ٢ / ٣٧١ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٢٠١ .

أَنَا الَّـذِى نَظَرَ الأعْـــمى إِلَـى أَدَبِى وَأَسْـــمَـــعَتْ كَـلِمَـــاتِى مِنْ بـِـه صَـــمَمُ
أَنَامُ ملء جُــفُــونِى عَنْ شــواردها وَيَسْــهَــرُ الخَلْقُ جَــرَّاهَا وَيَخْــتَــصِمُ (١)

ويقول وقد نظر إلى من حوله من شعراء سيف الدولة وفيهم الصفوة من سحرة ذلك العصر فلم يعتبرهم شيئًا مذكوراً :

خَلِيلِى إِنِّى لاَ أَرَى غَــيْـرَ شَــاعِــرٍ فَلِمْ مِـنْهُمُ الدَّعْــوَى وَمِنِّى القَــصَــائِدُ (٢)

ويقول العوضى الوكيل : ولا جدال فى أنه كان يرى أن جودة شعره مؤذنة بسيرورته فى الزمان ما عليه إلاَّ أن يقول وعلى الأيام أن تجرى بقوله فى مشرق الأرض ومغربها يقول (٣) :

وَعِنْدِى لَكَ الـشُّـــرَّدُ السَّـــائِرَا ت لا يَخْـــتَـــصِـــصْنَ مِنَ الأَرْضِ دَارَا
قَـــوافٍ إِذَا سِـــرْنَ عَنْ مِــقْــوَلِى وَثَبْـنَ الجِـبَـــالَ ، وَخُـضْـنَ البِـحَـــارَا
وَلِى فِـــيْكَ مَـــا لَـــمْ يَقُلْ قَـــائِلٌ وَمَـــا لَمْ يَسِـــرْ قَـــمَـــرٌ حَـيْثُ سَـارَا (٤)

ويقول متحدثا عن شعره :

فَـشَـرَّقَ حَتَّى لَيسَ لِلشَّرْقِ مَشْـرِقٌ وَغَـرَّبَ حَـتَّى لَيس لِلْـغَـرْبِ مَـغْـرِبُ (٥)

وهو يرى كذلك أن أبياته كالمهارى العتاق تنشدها فتعرف أصالتها يقول لابن العميد وهو الكاتب الأديب الناقد :

قَـــدْ بَعَـــثْنَا بِأَرْبَـعِـــينَ مِــهَـــارًا كُلُّ مُـــهْـــرٍ مَـــيْـــدَانُهُ إِنْشَـــادُهْ (١)

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٧١ .
(٣) العوضى الوكيل / مطالعات وذكريات . أدب وتاريخ / ٤٠ ، ٤١ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٩٥ ، ٩٦ .
(٥) المصدر السابق / ١/ ١٨٧ .
(٦) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٥٦ .

ومن لطائف ما يقال هنا ، إنَّ هذا البيت من القصيدة التى مدح بها ابن العميد ليس هو البيت الأربعين فيها ، بل هو البيت الثامن والثلاثون فيضطر أبو الطيب إلى المال القصيدة لتبلغ أربعين بيتًا ويجد أمامه فرصة جديدة للحدث عن شعره فيقول لابن العميد [1] :

فَارْتَبِطْهَا قَلْبًا نَمَاهَا ... مَرْبَطُ تَسْبِقُ الجِيَادَ جِيَادُهْ [2]

يعنى بذلك أن قلبه ينتج شعرا رائعا يعلو على أشعار القائلين سواه . وهو حتي فى مقام الغزل يتحبب إلى محبوبته بالبلاغة والشعر فيقول :

جَفَتْنِي كَأَنِّي لَسْتَ أَنْطَقَ قَوْمِهَا ... وَأَطْعَنَهُمْ وَالشُّهْبُ فِي صُورَةِ الدُّهْمِ [3]

وثمة ناحية أخرى من فخره بشعره تستحق أن نلم بها إلمامة يسيرة ذلك أنه يرى أن قوافيه حين يسبغها على ممدوحيه تكسبهم رفعة يغيظون بها أعداءهم بل إنها أحيانًا قد تجر على هؤلاء الممدوحين بعض العداوات انظر إلى قوله [4] :

رَمَيتُ عِداهُ بِالقَوافِي وَفَضْلِه ... وَهُنَّ الغَوازِي السَّالِمَاتُ القَوَاتِلُ [5]

إلى قوله :

رُبَّ نَجِيعٍ بِسَيفِ الدَّوْلَة انْسَفَكَا ... وَرُبَّ قَافِيَةٍ غَاظَتْ بِهِ مَلِكَا [6]

وإلى قوله عن شعره :

فَإذَا مَرَّ بِأذْنِي حَاسِدٌ ... صَارَ مِمَّنْ كَانَ حَيًّا فَهَلَكْ [7]

---

(١) العوضى الوكيل / مطالعات وذكريات . أدب وتاريخ / ٤٠ ، ٤١ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٥٧ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٦٩ .
(٤) العوضى الوكيل/ مطالعات وذكريات . أدب وتاريخ / ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .
(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث/ ٢٣٨ .
(٦) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١١٣ .
(٧) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١١٤ .

ويقول الدكتـور شوقى ضيف ويستنفذ طموح المـتنبى كل شىء فى حياته وإذا هو يقرن نفسـه بسيف الدولة ، وإذا به يتغنى ببطولة الأميـر هذا الغناء الملتهب الذى يشعل الحماسة فى نفس كل عربـى ، وهو غناء صدر عن قلب شاعر عربى عاش يمجد البطولة العربية حتى إذا رآها مصورة فى شخص هذا الأمير وما ينزل بالروم من الموت الفاتك أخذ يرتل الأناشيد مذيبا كل ما ضم عليه جناحه من قوة وكل ما رآه فى سـيف الدولة من بأس وشجـاعة شديدة ، وكـأنما وهب نفسـه لحرب الـروم [١]. فيبين أن سيف الدولة بطل محارب كـثير القتلى ويبدو ذلك من كثرة الدماء عـلى ثيابه وهو لم يقـتلهم بسيـفه قـتلهم بجوده وأنه قـادر على مواجـهة الجيوش الكثيرة العدد قادر على أن يفصم عراها [٢] :

لَو لَم تكُنْ تَجْرِي عَلَى أَسْيَافِهِ ... مُهَجَاتُهُمْ لَجَرَتْ عَلَى إِقْبَالِهِ

لَمْ يَتْرُكُوا أَثراً عَلَيهِ مِنَ الوَغَى ... إلاَّ دِمَاءَهُمُ عَلَى سِرْبَالِهِ

فَلِمِثْلِهِ جَمَعَ العَرَمْرَمَ نَفْسَهُ ، ... وَبِمِثْلِهِ انْفَصَمَتْ عُرَى أَقْتَالِهِ [٣]

والبطل عند المتنبى صـورته وهو صوته وهو جبروته وهو تجربتـه وهو قافز على متون الممدوحين عابراً بحور الافتخار موقنًا أنه كذلك فى تباهيه :

أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت ... وإذا نطقت فـإننى الجـوزاء [٤]

يظهر الفعل المادى فى القوة على الصدام والقول الجرىء فهو صلب ومنيع وحين تجتمع الشـجاعة فى الميـدان مع الجرأة فى القول يتحدد الـبعد الأول فى سلوك البطل . ولو أردنا استقصاء البعدم الزمانى فى قوله هذا لوجدناه فى صورة الزمان الذليل الذى جاء يطلب ويقـدم عطاياه وهباته بسخاء ولكن الامـتناع يجىء شاهداً على أن البطل يسخـر بهذا الخنوع من الزمن ويأبى إلا أن يختار فـهل يقدر الزمن أن يرفض ؟ .

(١) شوقى ضيف / البطولة في الشعر العربى / أقر ط دار المعارف بمصر ١٩٧٠م / ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) عبـد الجبار داود البـصرى / فن الصورة الشـخصيـة عند المتنبى / الأقـلام - ملف خاص - مهرجان أبى الطيب المتنبى - السنة الثالثة عشرة - كانون الثانى - ١٩٧٨م / ٧٥ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ١٨٦ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٥ .

كأنى عجيب في عيون العجائب

الزمن أضعف من أن يتمرد وقد أمسك زمامه صوت المتنبى . وهو العجيب فى عيوب العجائب فحتى العجب والدهشة لهما وجهان آخران لا يظهران إلا لعظيم النظرة وواسع الإطلاع فالعجب يتعجب كما أن الموت يموت والخوف يخاف . فلسفة الأدهاش والإثارة ترد كثيراً على لسان الشاعر البطل وإلا كان شعراً لا يمتاز عن غيره لكن فيه إعجازاً وإذهالاً [(١)].

ولكن هذا البطل يدرك أن دون المجد صعابًا كثيرة إذ يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال [(٢)]

ويقول :

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ... ولكن طبع النفس للنفس قائد [(٣)]

وغرضه من مثل هذه الحكم تمجيد الشجاعة ، ولا أرى فى أقواله هذه دليلاً على أنه بدأ يشك فى قدرته على بلوغ العلا والمجد .

وإن أدرك أنه لم يعد له نصير فى سعيه إلى المجد إذ يقول :

وحيد من الخلان فى كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعد [(٤)]

★ ★ ★

---

(١) شريف الربيعى / أبعاد البطل فى شعر المتنبى / الأقلام - الجزء الثامن - ذو الحجة ١٣٨٥هـ -نيسان ١٩٦٦ م / ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٤٠٦ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٧٢ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٧٠ .

ب - التشـــاؤم :

التشاؤم طبـيعة العقل المتيـقظ الذى فتح عينيه فرأى نفـسه فى هذه القافلة البشرية ، فأخذ يسأل نفـسه : لم يمشى ؟ ومن أين إلى أين ؟ ولكنه أخذ يمشى . . . . وكيف لا يتشاءم العقل حـين ينظر إلى الكون والحياة ؟ ويحاول أن يحكم على أشيائه بميزاته ، فـيجده قاعداً ما كان يحب أن يكون قائمًـا ، وقائمًا ما كان ينبغـى له أن يكون قاعداً . هذه الـنظرة الأولى التى تبدأ فى العـقل حين يتـيقظ وعلى مقـدار سعة دوائر العـقل تتسع هذه الآماد وتـتباعد هـذه الدوائر وهنا يعود العقل فى كل مراحله خاسـئا ويحمل إلى النفس خيبته فى رحلته ، فـتلقاه الحيرة دون إيمان ، والشقاء دون عزاء ، والنفس إزاء هذا الـقلق العميق إما أن تعود إلى نفسها ويلتف بعضها على بعضها التفاف الأفعى ، تخلق من نفسها العزاء فى هذه الحياة وسـواء عندها أن تخلفه من إيمان تفرضه ، أو تفـاؤل تؤمن به ، فترى فى الحياة إشراقًا ولا إشـراق ولا بهجة ، فتتغنى مغتبطـة بهذا التفاؤل الذى هو وليد التشاؤم المبطن به ، وإما أن تعود ولا تكسب من التشاؤم إلاَّ التشاؤم [1] .

وقد يكون هذا التشاؤم عامًا يمثل رسالة الإنسانية المتألمة وقد يكون خاصًا يمثل رسالة الأديـب أو الشاعر نفسه ، يضع فـيها آلامه ولا يتصـل بالإنسانية إلاَّ بقدر ما تريد نـفسه أن تتصل بها . وآفـاق التشاؤم العام أوسع مـدى ، وأصحابه أكثـر نبلاً لأنهم أفنوا ذواتهم فى الذات الإنسـانية ، وأصبـحت تتمثل فـيهم كل أوجاعـها وآلامهـا ، لأن الإنسانية ذاتها تـجهل ما تريد من الكون ومـا يراد منها وآفاق التشاؤم الخاص ضيقة محدودة تدل على أنانية أصحابه ، إذ لو أن حظًا من حظوظ الحيـاة الضائعة أتاهم لبدل نظـراتهم فى الكون والحياة ولون لهم شمـسًا جديدة بألوان غير ألوانهم [2] .

إننا لا ننكر امتلاء الحـياة بصور الأسى والتعاسة والألم والشـقاء ، كما لا ننكر عبـور المتع وعدم ثباتهـا بالنسبة لنا - نحن البشـر - لكننا لا ننكر أيضًا أن

---

(١) خليل هنداوى / تشاؤم المتنبى وما أعد لهذا التشاوم / الرسالة - السنة الرابعة - العدد ١٧٦ - رمضان سنة ١٣٥٥هـ ، نوفمبر ١٩٣٦م / ١٨٧٧ .

(٢) المرجع السابق / ١٨٧٧ .

هناك صوراً للسعادة والفرح والخير واللذة ، حقيقة أن الحياة تضم من الأضداد ما لا يكاد يقيده حصر فهناك الظلام والإشراق والمرض والصحة والقبح والجمال والشوك والورد والجرح والألم والسلامة وما إلى ذلك مما يفوق الغد وتركيز النظرة على جانب واحد فى الحياة قصور فكرى ومجافاة للدقة الموضوعية بصرف النظر عن المفكر نفسه ، بمعنى أنه إذا أخطأ فى مفتاح السعادة فليس معنى ذلك فلسفيًا خلو الحياة من السعادة كما أن موضوع السعادة أو مصدرها يختلف باختلاف الأفراد . ولذا وجب على الفيلسوف أن يستقصى ألوانها وموضوعاتها ويحاول أن يربط بينها أو يستنبط منها لبًا وجوهراً مشتركًا يسمو بقيمته إلى أعلى مستوياتها (١) .

ولكن التشاؤم لا تتخذ نتائجه ، فمن التشاؤم ما يذهب بصاحبه إلى الاستسلام حين يؤمن بعجزه ، وإلى الزهد حين يؤمن بفناء الحياة ، وهذا أقبح التشاؤم وإن يكن أصدقه عند العقل . ومن التشاؤم ما يثير فى النفس قوى المقاومة فيها بالعنف والشدة ، وبهذا تعتز الحياة وتشرق ألوانها القاتمة .

إنَّ انتفاء صور الآلام والمحن وحدها من الحياة وجعلها العنصر السائد الوحيد تجن على الحقيقة ، وخيانة للأمانة .ففى الحياة متقابلات ألمحنا إلى بعضها فيما سبق . والحياة على هذا النحو تقدم للإنسان أنواعًا جديدة متواصلة من التجربة والخبرة مما يتطلبه موقف المسئولية الهادف (٢) .

وتشاؤم المتنبى كان اجتماعيًا ، وهو ما اصطلح أدباؤنا على تسميته بالحكمة المتنبية - وتشاؤمه الاجتماعى كان وليد حظه فى هذا الوجود الذى جعل من حياته المعلومة والمبهمة مرحلة آلام وجهاد . تشاؤمه فى نظراته الاجتماعية ولا يرى منها ما يتصل بنفسه ، ولقد يطغى هذا التشاؤم على بقية نظراته في مسائل الكون والحياة لأنه كان مريضًا يحب المعالى ، مريضًا بعظمة نفسه ، كأنما يرى - بعد أن حرمه المجتمع حقه - يرى واجبه أن يضع نفسه وهو حربها - موضعًا غاليًا ، وهذا أقل ما يفعل ؟ ولا أستطيع إلاَّ أن أتصور تلك

(١) محمد كمال جعفر / رحلة بين العقل والوجدان - كتاب الهلال - العدد ٣٥٧ ، ط دار الهلال سبتمبر ١٩٨٠م / شوال ١٤٠٠هـ / ٧٦ .

(٢) المرجع السابق / ٣٧ .

الحدة فى جهازه العصبى الذى كان عنيفا في احتداده متوترًا فى هدوئه . ومن هنا كان سر اختلاف التشاؤم بين المعرى والمتنبى .

فالمعـرى كان أوسع أفقًا فى دائرته ومغازيه ، ،وكـان نظره أعم فى مسائل الحياة والكون لأنه وقف درسه وشعره عليهـا ، وكان له فى زهده وعما ما يصرفه عن الاشتغال بدنياه . فمال به تشاؤمه إلى الزهد والعدمية . ومع أن المعري أحد محبى أبى الطيب المتنبى والمتأثرين به ، أخذ منه تشاؤمه وأغفل ما كان عنده من أسباب المقاومـة . وإذا فكر الإنسان قليلاً فى حالة بدا له أن الكآبة تنتظره ، وأن كل فكرة هنا تعود إلى الحـزن . وما حياة الإنسان على الأرض إلاَّ مـأساة تنتهى بالشقاء والدمـوع والموت . يعلم المفكرون هذا المغزى ولكن بعـضهم لا يقول به، بل إنَّ منهم من كان يدعو إلى الإيمان القـوى بالحياة . ولكن هل كان الناس كلهم يملكون هذه القوة الروحـية ؟ وهما أمران مختلفـان أن يتغلب الإنسان على تشاؤمه وهمومـه فى سبيل إتمام دوره بالحياة ، أو أن يجتنب الحـياة فتطغى عليه أنانية حاقدة . وهل كان هذا الإيمان القوى بالحيـاة إلاَّ نتيجة تشاؤم عميق ونفور عميق من الكون والحياة وولع عنيف بها يولد هذا النفور ؟ (١) .

ويمكننا أن نرجع روح الشـاعرية عـند أبى الطيب إلى بعد آمـاله ، وطول إخفاقه فيها وسخطه على الناس والحـياة ، وإلى روح العظمة وشذوذ العبقرية فى نفسه وإلى نهمه في الانتقام ممن يتعرض له من بشر أو يحول بينه وغاياته ، وهى فى وضوحها وغلبتها على شعره لا يعـاد لها إلاَّ دعواته الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الأحياء والحيـاة وأبو العلاء يستمد من أبى الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخـالفه فى بواعثه ونتـائجه ، فسخط أبى العـلاء وتشاؤمه يقوم علـى شعور وثيق يبعد الإنسانيـة عن حياته المثلى ، أما تشاؤم أبى الطيب فـراجع إلى إخفاقه فى آماله ، وسخطه ينتهى به إلى خوض غمار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبى العلاء ينتهى به إلى الزهد فيها والانصراف عنها (٢) .

---

(١) خليل هنداوى / تشاؤم المتنبى ومـا أعد لهذا التشاؤم / الرسـالة – السنة الرابعة العدد ١٧٦ ، رمضان ١٣٥٥هـ ، نوفمبر ١٩٣٦م / ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ .

(٢) محمد عبـد المنعم خفاجي – محمد مصطفى الماحى / شعـراء مصر من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الفـاطمية – ٢٠ – ٣٥٨ هـ / ١٩٨٠م / ١٣١ . وعبـد الحميد حـسن الخيال في شعر المنبى / صحيفـة دار العلوم – السنة الثانية – العدد الأول – ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ – يونية ١٩٣٦م / ٨٠ ، ٨١ .

ويقول الدكتور عبد العزيز الدسوقى : وأحزان الشاعر العظيم أحزان إنسانية عميقة ترتبط بتجربة المجد وتجربة الطموح ، وتجربة السعادة . وترتبط فى النهاية بالحياة وما فيها من مفارقات .

فالمتنبى يحس فى ظلال العيد بإخفاقه فى كل هذه التجارب ، فلا يعبر عنها تعبيراً مباشراً ولا يحدثنا عن هذا الإخفاق فى أية تجربة من هذه التجارب ، ولكنه يجسد كل هذه الأحزان وينقل عدواها إلى نفوسنا ، مظلمة أليمة فى بيت واحد وهو مطلع القصيدة :

عِيدٌ بأَيَّةِ حَالٍ عُدتَّ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ بِأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ[1]

بهذا البيت يفتح لنا دروب الأحزان التى خاضها ، فهو يخاطب العيد مستنكراً عودته . ويناجيه فى ملل لا حدود له : هل تعود بما مضى ؟ أم تحمل لى شيئًا جديداً . . . يقول الدكتور عبد العزيز الدسوقى : والعيد معنى للفرح والاجتماع والالتقاء بالأحباب . وممارسة المباهج واللذات . فإذا حمل معه كل معانى البهجة والفرح والأنس . أما المفارقة المثيرة فهى لا تحمل للإنسان هذه المعانى بل تفجر عكسها .

لقد استغل أبو الطيب هذه المفارقة فى تفجير مشاعر الحزن فى تجربته الشعرية . وراح يصور لنا كل مفارقات حياته . وكأنه يسجل تاريخ قلبه وصراعه مع الحياة من خلال ربطه كل تجارب حياته بهذه اللحظة التى اقتنصها وجمدها وألقى عليها الأضواء . وهى اللحظة التى بدأت رياح العيد تهب عليه وهو حزين. فما قيمة العيد والأحبة بعيدون عنه .وبينه وأحبته بيد دونها بيد . لهذا ترفض مجىء العيد . ويصرخ فى وجهه ليتك تبعد عنى ، وتفصلنى عنك هذه البيد التى تفصلنى عن أحبتى ؟ .

والمراد بالأحبة هنا كل من أحب وما أحب من رجال ونساء ومطامح وأمجاد . ويتذكر أنه هو السبب فى هذا البعد . ومن هنا نحس أن هذا العملاق المتجبر يتحول إلي طفل وديع حزين يعترف بأنه السبب فى كل شقائه وأحزانه[2] .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٣٩ .

(٢) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) مأساة المتنبى / الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٩ أغسطس ١٩٧٨م / ٦٢ .

وأنه لمن الحق أن نذكر أن تلك المأساة التى عاشها أبو الطيب فى مصر وما صاحبها من آلام وأهوال كان لها أعمق الأثر على شعره . فقد تحول إلى لون من الغناء الذاتى الحزين ، وراح يتأمل الحياة تأملاً متوهجًا ، ولا أقول تأملاً فلسفيًا - وظهرت فيه الحكمة الكونية الممزوجة بهياح العاطفة ، واحتدام المشاعر . وظهرت على بعضه مسحة من الحزن الهامس الأليم [(١)] .

ويتضح أن تشاؤم المتنبى كان نتيجة طبيعية لفساد العلاقات الإنسانية فى مجتمع تجاذبته المدنية والبداوة ، وطفت سيئاتهما جميعًا على السطح . وقد اصطدم بمجتمع ارتكس بعضه إلى البداوة ، واكتفى الآخر بقشور المدنية ، فأخذ ينهار من داخله بينما كان الأعداء ينوشونه من الخارج . ولهذا انحصرت عاطفته فى ذاته ، وكانت حركته فى ذلك المجتمع مزيجًا من العداوة والحب ، ومن الأثرة والغيرة ، فهجاؤه لمجتمعه لا يمكن إلا أن يكون صادرًا عن خيبة أمل فى ذلك المجتمع ، وخيبة الأمل لا تكون إلاَّ من قبل محبوب ، لقد استحال الحب إلى ضده وما أكثر ما تستحيل الصفات إلى أضدادها على حد قول المتنبى نفسه [(٢)] .

وَلَجُدتَ حَتَّى كِدتَّ تَبْخَلُ حَائِلاً　　　لِلْمُنْتَهِى وَمِنَ السُّرُورِ بُكَاءُ [(٣)]

ولقد ظهرت فى أشعاره أثر للانتكاسات التى حصلت له فى جانب كافور ، إذ إن المتنبى كان يطمح من خلال علاقته به إلى تحقيق بعض المآرب التي هى بمثابة الجولة الأخيرة فى تحقيق المعالى والآمال ، ولهذا فإنَّ خيبة أمله منه كان معناها خيبة الجولة الأخيرة من تحقيق الأمانى . . . . ولهذا فإن أول رد فعل للإخفاق بعد انتهاء علاقته مع كافور هو هجاؤه له ، وإنْ لم يكن هو السبب الحقيقى للإخفاق ، فأفرغ من خلاله كل آماله وإخفاقه وانتكاسته وكرهه للدنيا والناس ، وسأمه وتشاؤمه . . . . ولهذا فإن هجاءه لكافور هو أثر من آثار الإخفاق عنده [(٤)] .

---

(١) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) مأساة المتنبى / الثقافة - السنة الخامسة - العدد ٥٩ أغسطس ١٩٧٨م / ٦٢ .

(٢) شكرى محمد عياد / عقدة المتنبى / الكويت - مجلة العربى - العدد ٢٣١ - فبراير ١٩٧٨م/ ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٩ .

(٤) صبيح صادق / أثر الإخفاق فى شعر المتنبى / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى / ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م / ١١٨ .

ومن الآثار التى تركها الإخفاق في شعر المتنبى هو زيادة النظرة المتشائمة التى أخذت تطغى عليه . فكان أن نظر إلى ما تعارف عليه الناس من حسن وجيد وسعيد ... واعتبره قبيحًا وسيئًا وتعسًا ، وهذه نظرة جديدة لحقت شعر المتنبى فى هذه الحقبة ، وما كانت موجودة فى شعره قبل ذلك . فالموت هو فى الحقيقة قتل ... والولد المحبوب علة ... والحسناء أذى .... !!

إذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرْفَهُ تَيَقَّنْتُ أَنَّ المَوتَ ضَرْبٌ مِنَ القَتْلِ
هَلِ الوَلَدُ المَحْبُوبُ إلاَّ تَعِلَّةٌ وَهَلْ خَلْوةُ الحَسْنَاءِ إلا أذَى البَعْلِ [(١)]

وهنا يعتبر المتنبى الموت ضربًا من القتل ، ومعنى هذا أن نظرته واضحة التشاؤم ، أما اعتباره الولد علة من العلل فهو غاية التشاؤم ، ولعله أثر من آثار نظرته العامة للحياة التي لا ترى فى هذه الدنيا شيئًا حسنًا . أما اعتباره الخلوة مع الحسناء للزوج فليس غاية فى التشاؤم بل إنها لنظرة سوداوية عجيبة ما كان ليحملها إلاَّ أبو العلاء ، وأضرابه [(٢)].

بل إنَّه فى هذه القصيدة ينادى بفكرة قطع النسل ، لأن هذا الدهر لا حياة تؤمل عنده :

وَمَا الدَّهْرُ أَهلُ أن تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ حَيَاةٌ ، وأَنْ يُشْتَاقُ فِيهِ إلَى النَّسْلِ [(٣)]

ولم يتركنا الشاعر فى حيرة ، فقد أعلنها لماذا هو حرب على هذه الدنيا؟ ولماذا يكرهها ويدعو الناس إلى هجرها وكرهها ، وهو يخبرنا بذلك عن تجربة ويقين ، فقد أظمأته الدنيا ، وعندما أقبل عليها مستشفيًا لم تمطر عليه إلاَّ المصائب :

أَظْمَتْنِى الدُّنْيَا ، فَلَمَّا جِئْتَهَا مُسْتَسْقِيًا مطَرَتْ عَلَىَّ مَصَائبَا [(٤)]

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) صبيح صادق / أثر الإخفاق فى شعر المتنبى - المورد المجلد السادس عدد خاص أبو الطيب المتنبى / ١١٦ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٧٩ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبو الطيب المتنبى / ١/ ١٢٤ .

ويقول فى موضع آخر :

عَــرَفْتُ نَوَائِبَ الحَــدَثَانِ حَــتَّى ... لَوِ انْتَــسَــبَتْ لَكُنْتُ لَـهَـا نَقِـيْـبَـا [1]

ويقول على أدهم وكيف يشعر الشاعر بلذة الحياة وقد عانى منها ما عانى من المصائب لقد صحب الدنيا فى رحلة طويلة تقلبت فيها الدنيا على عينيه فأصبح يرى صدقها كذبًا ، إنه لن يسعد إلاَّ إذا عادت أيامه الحلوة السعيدة ، وزال الهم والكرب [2].

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلاً تَقَلَّبَتْ ... عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرى صِدْقَهَا كِذبا

وكَيْفَ التَلَذُّذِ بالأَصَائِلِ وَالضُّحَى ... إِذَا لَمْ يَعُدْ ذَاكَ النَّسِيمُ الَّذِى هَبَّا [3]

وتنتهى تجربة الشاعر مع الدنيا برأى بكونه بعيدًا عن الصحب ، نحس منه نغمة اليائس الحزين ، نغمة الفشل والنقمة والحرمان ، ولعل أروع قصيدة تصور لنا ذلك نونيته التى قالها فى مصر ، فهى تدل على حصاد تجربة طويلة مريرة ومعاناة شديدة مع هذه الحياة إذ يقول فى بعض أبياتها :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانا ... وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلَّوا بِغُصَّةٍ كُلُّهُم مِنْـ ... ـهُ وَإِنْ سُرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَالِيـ ... ـهِ ولَكِنْ تُكَدِّرُ الإِحْسَانَا [4]

ويصف لنا ضيقه بالحياة فى موضع آخر فيقول :

بِقَلْبِى وَإِنْ لَمْ أرْوَ مِنْهَا مَلالَةٌ ... وبِى عَنْ غَوَايَتِهَا وَإِنْ وَصَلَتْ صَدُّ

خَلِيلاَى دُونَ النَّاسِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ ... عَلَى فَقْدِ مَنْ أَحْبَبْتُ مَا لَهُمَا فَقْدُ

تَلَجُّ دُمُوعِى بِالجُفُونِ كَأَنَّمَا ... جُفُونِى لِعَيْنِى كُلِّ بَاكِيَةٍ خَدُّ [5]

(١) المصدر السابق / ١/ ١٤٠ .

(٢) على أدهم / المتنبى وموقفه من مشكلة الموت / الشعر ، العدد الثالث - يوليو ١٩٧٦م / ٨١، ٨٢ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول - الجزء الأول / ١٨٢ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

والمتنبى مع حفيظته على الحياة وحملته عليها وتشاؤمه منها يعشقها ويذكر أن كل من بكى من الناس فإنما يبكى عليهما فيقول [١] :

وَهْىَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الغَدْرِ لاَ تَحْفَظُ عَهْدًا وَلاَ تُتَمِّمُ وَصْلاَ [٢]

وبلغ التشاؤم عنده فى هذه الحقبة أن اعتبر المنجزات الإنسانية ليست ذات قيمة تذكر ذلك أن الإنسان لابد فان فما فائدة ما يبقيه ؟ ولهذا فهو يتساءل أين الذى بنى الهرمان ؟ وأين قومه ؟ إنهم فانون :

أَينَ الَّذِى الهَرْمَانِ مِنْ بُنْيَانِه مَا قومُهُ مَا يومُهُ مَا المصرع ؟
تَتَخَلَّفَ الآثارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينًا ويُدْرِكُهَا الفَضَاءُ فَتَتْبَعُ [٣]

وهذه نظرة جديدة لديه لم يكن يؤمن قبل ذلك ، ويبدو أن المتنبى قد بدأ يدرك نهايته لهذا أخذ يبرر هذه النهاية التي لم تحقق شيئًا فى نظره، فالتجأ إلى تبريره هذه الانتكاسة إلاَّ أن الحياة ليست بذات قيمة لكل ما تعمله فيها ضائع وفان فما فائدته إذن ؟ فبعد أن كان يلوم الدنيا لأنها تعيق العظماء والعلماء عن العمل أخذ يقول ما فائدة كل ذلك ؟ وهذه نظرة يظهر الإخفاق والسأم فيها واضحًا جليًا [٤] . ومع كل هذا فإن المتنبى محبوب فى كل حالاته ، وخاصة فى قوته ورجولته رغم الألم المنبعث من نفس حساسة معذبة [٥] . ويبلغ السأم قمته فى هذه الحياة فلم يهتم لما يؤديه طريقه ، أكان يؤدى إلى الأذى ، أو السلام ، أو الموت . . . . !!!

وَأَيًّا شِئْتِ يَا طُرُقِى فَكُونِى أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلاَكَا [٦]

---

(١) مصطفى الشكعة / فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين / ٤٢٤ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٥٠ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٢٧٠ .
(٤) صبيح صادق / أثر الإخفاق فى شعر المتنبى / المورد المجلد السادس - العدد الثالث عدد خاص أبو الطيب المتنبى / ١١٨ .
(٥) إبراهيم ناجى / المعرى والمتنبى / الهلال - الجزء الثامن - السنة السادسة والأربعون - ربيع الاخر ١٣٥٧هـ يونية ١٩٣٨م / ٩٣٧ .
(٦) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٣٩٥ .

وقد فسر بعض الباحثين هذه النظرة على أنها تدل على التحدى . ولكنها إلي السأم أقرب منها إلى التحدى . ولا نتبع رأى من يقول : إنَّ السبب فى تشاؤم المتنبى أنه عاش فى أول أمره فقيراً محروماً لا يجد الكفاف وقد عاش فى عصر ملىء بالدسائس السياسية وكانت السيادة فيه لغير العرب من فرس وترك وديلم . والمتنبى عربى متعصب لعروبته إلى أبعد الحدود فتلفق حوله ولمس سيادة هؤلاء الموالى القساة الذين كانوا إلى عهد غير بعيد عبيدا للعرب أو شبه عبيد فنشأت فى نفسه عقدة أدت إلى التشاؤم الذى صبغ نفسيته طول حياته حتى إننا لا نكاد - نحس للمتنبى يوماً ضاحكاً أو لحظة سعيدة أمكنه أن يقضى فى غضونها فترة من السعادة الغامرة أو السرور الملحوظ [1]. لأنَّ السبب الرئيسى فى تشاؤمه كما قلنا مراراً هو إخفاقه فى آماله وانتكاس حظوظه فى هذه الحياة.

إنَّ المتنبى يحمل على الأيام ويصفها بالغدر والخيانة وأنها لا تسعد شخصاً بآماله أو تصل إلى متمناه فيقول :

وَإِنْ سَرَرْنَ بِمَحْبُوبٍ فُجِعْنَ بِهِ وَقَدْ أَتَيْنَكَ فِى الحَالَيْنِ بِالعَجَبِ
وَرُبَّمَا احْتَسَبَ الإِنْسَانُ غَايَتَهَا وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُحْتَسَبِ
وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنهَا لُبَانَتَهُ وَلاَ انْتَهَى أَرَبٌ إِلاَّ إِلَى أَرَبِ [2]

وندخل هنا فى كل باب ولجه المتنبى فى اجتماعياته وفى إحساسه بذاته وفى نظراته إلى الحياة والموت وما وراء الموت نجد فى ثنايا هذه النظرات تشاؤما عميقًا ينفذ إليه النظر الثاقب ، ونجد أن هذه المقاومة التي تمثل الرجولة الكبيرة وقد كلفت صاحبها كثيراً ، وجعلت حياته مسرحًا للشقاء والاضطراب . أما المجتمع عنده فهو باب تتصارع فيه سباع الإنس وينال واحدها الشىء غلابًا واغتصابًا . وقد تنقلب هذه السباع غربانا ورحما ، فويل للجريح الذى يشكو إليها ، وويل للذى يأمن لهم ، ويثق بهم ويغره منهم الثغر المبتسم . ولا عجب إذا تناحرت السباع فالحياء لا يسد لها جوعًا والسلام لا يحفظ لها بقاء .

---

(١) مصطفى الشكعة / فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين / ٤٢٤ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول - الجزء الأول / ٢٢٤ .

والشاعر خلال ذلك - يريد أن يكون أسدًا ولكنه حبيس « وهل ينفع الأسد الحياء من الطوى » ؟ يريد أن يكسب ما لا يصحبه ولا يشركه فيه وغد . وإذا لم ينل ذلك فالذنب ذنب الزمان الهرم .

كيف يريد أن يقابل مثل هذا المجتمع ؟ أيشكو ويتعتب ؟ وهو فى كل قصيدة يشكو ويتعتب . أيسكن ويرضى ؟

تَمَلَّكَهَا الآتِي تَمَلُّكَ سَالِبٍ وَفَارَقَهَا المَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ
وَلِلْوَاجِدِ المَكْرُوبِ مِنْ زَفَرَاتِهِ سُكُونُ عَزَاءٍ أَوْ سُكُونُ لُغُوبِ (١)

أيرضى عن الحياة وما صنعت إلا لجاهل متعاقل وما شقى فيها إلا عاقل ؟

ذُو العَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ (٢)

أيطمئن إلى سرورها وقد رأى انتقاله ؟ أيسعى فى مناكبها ومسعاه منها في شدوق الأراقم ؟ أيتعلل بشيء منها ولا أهل يتعلل بهم ولا طن ؟

بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ، وَلاَ وَطَنٌ وَلاَ نَدِيمٌ ، وَلاَ كَأْسٌ ، وَلاَ سَكَنُ (٣)

اتخذ المتنبى مواقف متعددة إزاء المجتمع ، فهو طورًا يسعى إلى مداراة أصحابه، وقلما يفعل فيصادق العدو من نكد الدنيا مصادقته ، وهو طورا وقد مل من المبالاة بالأرزاء يسعى أن تهون عليه الأرزاء ، وأن يحذر إحساسه بها، لأنه ما انتفع بالمبالاة وطورًا ينظر إلى الأيام نظرة عميقة فلا ينكر عليها تقلبها ، ولا يمدحها ولا يذمها ، لأن تبطن لا عن جهل وتكشف لا عن حلم ، ولأنها لا تشبع إلاّ إذا جاع ، ولا تروى إلاّ إذا ظمئ وفى هذه النظرة يدنو من مذهب القائلين باللاشعور فى الطبيعة وقد يضطرب هذا الرأى فى نفسه فيتصور أن البشر هم الجانون لا الأيام وحدها ، فيزيد نقمته على المجتمع ويصبح لا يميل إلى

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٥٠ ، ٥٥ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٥١ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٣٣ .

مجازاة الابتسام بالابتسام ، ولا الشك فى كل إنسان ، لأنه واحد من الأنام ، وإنَّما يريد أن ينتقم من الناس وأن يطأ قلوبهم وآمالهم كما يطأون قلبه وآماله [١] :

ومن عرف الأيام معرفتى بها | وبالناس روى رمحه غير راحم

وقد يسأم المتنبى من هذه المقاومة العنيفة فيعود إلى عدم الاكتراث بدهره، ويرى أن هذا المراد الذى تتفاني عليه نفوس البشر أحقر من أن نتعادى فيه ونتفانى . ولكنه ينظر إلى نفسه فيرى أن المراد الكبير - المراد الذى جل أن يسمى - هو سبب شقائه . فلو مال عنه لوجد فى الحياة رغدًا كثيرًا وراحة كبيرة ، ولكن ما هى قيمة الحياة بدون مراد كبير ؟؟ والمتنبى ليس ممن يرضون بميسور عيشهم ! فيتعلل وهو أبلغ بقليل يراه بأن لا عذاب في العذاب ،وأن كل بعيد الهم فيها معذب .

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا | تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامِ [٢]

فليحمل العذاب فى سبيل ما جل أن يسمى .

هذه مراحل كان يأوى إليها المتنبى فى نضاله ، أقربها تجثم فوق غيوم سوداء من التشاؤم ، ولقد زاد فى تشاؤمه إحساسه بعظمته التي لا يضعها مظهر من المظاهر وهو الذى كان فى محفل من البشر واليوم أصبح فى محفل من قرود! ولكن المتنبى إزاء هذه النوازع هل راح يبغض الكون والحياة ؟

ظل إحساس المتنبى برغم هذه العوارض التى ألمت به إحساسًا قويًا فنيًا ، يحب الحياة ولا ينكر ابتغاء كل نفس للحياة وحرصها عليها وهيامه بها . ومن الذى يعشق الدنيا والحياة ؟ ولكنه لا ينسى أنها لا تنيل أولاً ولا تعطى غاية ولا تسمح بوصال . وقد كان هذا وحده كافيا فى خلق النفور منها ولكن :

وَلَذِيذُ الحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْـ | ـسِ وأشهى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيخُ قَالَ أُفٍ فَمَا مَـ | ـلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلاَّ [٣]

---

(١) خليل هنداوى / تشاؤم المتنبى ومـ أعد لهذا التشاؤم / الرسالة العدد ١٧٦ ، رمضان ١٣٥٥هـ، نوفمبر ١٩٣٦م / ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الرابع / ٦٤ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٤٩ .

وإذا كان الشيخ وحده يمل الحياة بسبب ضعفه فليبادر وهو فتى إلى الحياة يستخلص منها ملذاتها قبل أن يستخلص منه نفسه ويجنح إلى اللهو فأوقات اللهو تمر سراعًا كأنها كما قال قبل يزودها حبيب راحل . . . ! والزمان لا لذيذ فيه ولا سرور كاملاً وليت شاعرنا يقنع بهذا التعليل ، فلقد تطغى عليه فى بعض مواطنه موجة من التشاؤم لا نجد لها مثيلاً إلاَّ عند المعرى . . . . ينظر إلى الدنيا وقد أعياه أمرها فيراها خائنة (١) .

فَذِى الدَّارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ ... وَأَخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحَابِلِ
تفَانَى الرِّجَالُ عَلَى حُبِّهَا ... وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ (٢)

ويراها خائنة معشوقة :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ... وَلَكِنْ لاَ سَبِيلَ إِلَى الوِصَالِ (٣)

ولعل أوضح صورة رسمها المتنبى للدنيا هى تلك الصورة التى صورها بأنها غانية وشيم الغانيات معروفة ، ولعل هذا هو الذى دعاه لتأنيث اسمها ، ومن شيمها الغدر فهى لا تحفظ عهدًا ، ولا تتم وصلاً ،وهى أبدًا تسترد منا باليمين ما وهبته بالشمال (٤) .

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا ... وَبِفَكِّ اليَدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى
شِيَمُ الغَانِيَاتِ فِيهَا فَلاَ أَدْ ... رِى لِذَا أَنَّثَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لاَ (٥)

---

(١) خليل هنداوى / تشاؤم المتنبى وما أعد لهذا التشاؤم / ٧٩ ، وعفيف عبد الرحمن / هل كان المتنبى متشائمًا ؟؟ المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م / ١٠٩ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٤١ .

(٤) عفيف عبد الرحمن / هل كان المتنبى متشائمًا؟؟ / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م / ١١٠ .

(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ٢٥١ .

وقد نظر المتنبى فيما نظر إلى الموت وما بعد الموت ، فكان نظره قصيرا فيما وراء الطبيعة وخياله محدودا ، ليس له رأى ذاتى فيه وإنما يسمع ما قيل ويشك فيما قيل ، ولعل سما فى قصيدته التي رثى بها عمة عضد الدولة سمواً يذكرنا بما سما إليه المعرى فى الرثاء . فقد مزج نظرته بشيء من الفلسفة التي تعيد الأرواح إلى جوها والأجساد إلى تربها وترى كل شيء معلقًا بالزمان [1] :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لابد من شربه !

تَبْخَل أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا ... عَلَى زَمانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ

فَهَذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ ... وَهَذِه الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأنِ فِي جَهْلِهِ ... مَوتَةَ جَالِينُوسَ فِي طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ ... وَزَادَ فِي الأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

وَغَايَةُ المُفْرِطُ فِي سِلْمِهِ ... كَغَايَةِ المُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ [2]

وبعد فهل هذه النظرات العميقة إلاَّ تشاؤم عميق ؟ ولكنه لم يسلم صاحبه إلى الاستسلام ، تشاؤم يرى ما يشق منظره فيحسب يقظات العين حلما ! ويعفو عن الزمن لأنه لا يعقل أن يبلغه ما ليس يبلغه الزمن من نفسه .

وهكذا خلق هذا التشاؤم فيه قوة يعود تعليلها إلى أمور كثيرة ، منها إلى حياته ومنها إلى بيئته ، وحقًا إذا كان مزاجه العصبى قد أضر به فى موطن فقد عاد عليه بفوائد كثيرة . منها هذه المقاومة العنيفة ، والمجابهة التي يطفح بها شعره ، وقد كان أولى بهذا التشاؤم أن يقوده إلى ما قاد المعرى إليه برغم أن المعرى لم يبل الأصحاب والحياة بمثل ما ابتلى به المتنبى [3] .

---

(١) خليل هنداوى / تشاؤم المتنبى وما أعد لهذا التشاؤم / الرسالة - العدد ١٧٦ - السنة الرابعة - رمضان سنة ١٣٥٥هـ - نوفمبر ١٩٣٦م / ١٨٧٩ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٣) خليل هنداوى / تشاؤم المتنبى وما أعد لهذا التشاؤم / ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ .

ويمكننا أن نخلص مذهبه فى التشاؤم فى نقط ثلاث يدور بعضها حول بعض وتلتقى كلها فى فكرة واحدة . فهو يرى أن الدنيا لا تصفو إلاَّ للأغبياء والحمقى ، وأن الإنسان لئيم حقود ، وأن الدنيا من أجل ذلك كلها حقيرة ذميمة. وليس احتقاره للدنيا فيما أعتقد - وفيما يؤيده تاريخه - زهادة ولا تورعًا،ولكنه لوعة ، وتحرق واضطغان (١) .

★ ★ ★

جـ- آراؤه فى الحياة :

حاول كثير من المستشرقين والنقاد العرب أن يصموا المتنبى بوصمة الشح والبخل وإنه كان جشعًا إلى حد يفوق التصديق . وهكذا عاش الرجل أفاكًا مداحًا متكسبًا بالشعر على أسوأ ما يكون التكسب مناقضًا بفعله كل ما سطره بقلمه أو أنشده بلسانه ولم يكن لخلقه نصيب كبير فى الفضائل التى كان يمجدها ويتغنى بها فى نفسه وفى غيره (٢) .

وقد اعتمد كثير من هؤلاء النقاد علي بعض الروايات التى وردت فى المصادر الأدبية القديمة يقول الثعالبى فيما رواه عن غيره :

---

(١) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبي من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٥١ .

(٢) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٩٦، ٢٤٢ . ومحمد توفيق البكرى / أخبار أبى الطيب المتنبى - القاهرة ط الأميرية ببولاق ١٣١١ هـ / ١٧ ، ١٨ ، ١٩ . ومحمد مظهر سعيد / نفسية المتنبى - تحليل لبعض نواحى حياته / الهلال - عدد خاص بالمتنبى المجلد الثالث والأربعون أول نوفمبر ١٩٣٤م ، أول أغسطس ١٩٣٥ م / ١٢١١ وخليل مطران / أبو الطيب المتنبى كان عبقريًا ، ولكن ...!! / الهلال - عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون - أول نوفمبر ١٩٣٤م أول أغسطس ١٩٣٥ م ١١٤٢ . وسليم عبد الأحد / أبو الطيب المتنبى . تاجر من تجار الأدب / مجلة الهلال - عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون ، أول نوفمبر ١٩٣٤م ، أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٨٩٥ ، ١١٩٦ . وطه حسين مع المتنبى / ٣٣٩ . ومصطفى الشكعة / فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين / ٢٠٣ . ومحمد كامل حسين / الحكم فى شعر المتنبى / مصر مجمع اللغة العربية - مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين - القسم الثانى / ١٣٩١هـ ، ١٩٧١ م / ٤٤ .

« سمعت أبا بكر الخوارزمى يقول : كان أبو الطيب المتنبى قاعدًا تحت قول الشاعر :

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللَّوْمِ شَاعِرٌ ... يَلُومُ عَلَى البُخْلِ الرِّجَالَ وَيَبْخُلُ

وإنما أعرب عن عادته وطريقته فى قوله:

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتِمُهُ (١)

فحضرت عنده يومًا بحلب وقد أحضر مالاً من صلات سيف الدولة ، فصب بين يديه على حصير قد افترشه ، ووزن وأعيد فى كيس ، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير ، فأكب عليها بمجامعه ينقرها ويعالج استنقاذها منه ، ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل إلى إظهار بعضها، فتمثل ببيت قيس ابن الخطيم :

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ بَيْنَ غَمَامَةٍ ... بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِحَاجِبِ

ثم استخرجها ، وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس ، وقال : إنَّها تحضر المائدة » (٢).

وأما **الثانية** فتقول : « وحكى أبو الفرج الببغاء قال : كان أبو الطيب يأنس بى ويشكو من سيف الدولة ، ويأمننى على غيبته له ،وكانت الحال بينى وبينه عامرة دون باقى الشعراء ، وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه ، ويحنو عليه إذا كلمه ، والمتنبى يجيبه فى أكثر الأوقات ، ويتغاضى فى بعضها . قال أبو الفرج الببغاء : وأذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشقها بسكين الدواة ، فمد أبو عبد الله بن خالويه طيلسانه فحثا فيه سيف الدولة صالحًا ، ومددت ذيل ذراعتى فحثا لى جانبًا ، والمتنبى حاضر ، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا ، فما فعل ، فغاظه ذلك ، فنثرها كلها على الغلمان ، فلما رأى المتنبى أنها قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم عليه سيف الدولة ، فداسوه

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٤٦ .

(٢) الثعالبى / يتيمة الدهر / ١/١١٩ ، ١٢٠ . والبديعى / الصبح المنبى / ٩٣ ، ٩٤ .

وركبوه ، وصارت عمامته فى رقبته ، فاستحي ومضت به ليلة عظيمة ، وانصرف فخاطب أبو عبد اللـه بن خالويه سيف الدولة فى ذلك ، فـقال : يتـعاظم تلك العظمة ، وينزل إلى مثل هذه المنزلة لولا حماقته » [1].

والرواية الثالثة تحكى :

« أن أبا الطيب المتنبى دخل مجلس ابن العـميد ، وكان يستعـرض سيوفا فلما نظر أبا الطيب نـهض من مجلسه ، وأجلســه فى دسته ، ثم قال له : اختـر سيفـا من هذه السيوف ، فاختـار منها واحداً ثقـيل الحلى ، واختار ابن العـميد غيـره. فقال كل واحـد منهمـا : سيفى الذى اختـرته أجود ، ثم اصـطلحا على تجربتهما. فقال ابن العميد : فـبماذا نجربهما ؟ فقال أبو الطيب فى الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض ، ثم يضرب به ، فـإن قدها فهو قاطع ، فاستدعى ابن العميـد عشرين دينارا فنضدت ، ثم ضربها أبو الطيب فـقدها ، وتفرقت فى المجلس ، فقام من مجلسه الفخم يلتقط الدنانير المتبددة فقال ابن العميد : ليلزم الشيخ مـجلسه فإن أحـد الخدام يلتقطهـا ويأتى بها إليك ، فقـال : بل صاحب الحاجة أولى » [2].

ويمضى هؤلاء النقـاد فى الهجوم على المـتنبى وشعره ، حـتى جعلوا من هذه الظاهرة التي يدعونها منقـصة لشعره بل إنها هى التى كان لـها أكبر الأثر فى حياته ومن هنا فـإن شدة حبه للمال وحـرصه عليه انقلب غير مـرة على أصدقائه الذين وصلوه وخلعوا عليه . فهاجم ولم ينزه قلمه عن سلقهم بأقذع ما تجيش به قريحة الشـاعر . وهذا من جملة ما أحفظ الكثـيرين عليه حتى لقـد نفي بعضهم الشاعرية كابن خلدون وغيره ، مع أن أكثـر علماء الأدب رجحوا شعره من حيث الصياغة على شعر أبى تمام والبحترى [3] .

ونحن إذ نقـرأ هذه القصص الثـلاث يجب علينا أن ندرسـها ونمـحصـها تمحيصًا وافيًا ،ولعلنا بعد هذا نهتدى إلى الحق ونرجح الصواب .

---

(١) البديعى / الصبح المنبى / ٩٢ .

(٢) البديعى / الصبح المتبى / ٩٣ .

(٣) سليم عبد الأحد / أبو الطيب المتنبى تاجـر من تجار الأدب / الهلال - عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون - أول نوفمبر ١٩٣٤م ، أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٩٥ ، ١١٩٦ .

فأما قصة اليتيمة فليس فيها دليل بين على البخل - لو صحت - وقد يتشاغل الإنسان بمثل هذا رغبته فى التشاغل . على أن الرجل جعلها مزاجًا حين قال : تبدت لنا كالشمس . . . إلخ [1].

وقصة سيف الدولة بعيدة عن كبرياء أبى الطيب . وما أحسبه قام لمزاحمة الغلمان ولكن سيف الدولة نثرها عنده ، وأغرى غلمانه به . فإن صلحت القصة دليلاً على شىء فهى دليل على أنفة أبى الطيب من أن يقوم إلى سيف الدولة ليأخذها من البدرة التى شقها كما قام الببغاء وابن خالوية ، وكيف يستكبر عن أن يقوم إلى المال ليأخذه من الأمير ولا يستكبر أن يلتقطه من الأرض ويزاحم فيه الغلمان [2] .

وهذه القصة التى تروى عن أبى الطيب المتنبى فيها مواضع للنظر تبعث على الريب فى صحتها ، وتثير الشك فى صدق راويها .

ذلك أن أبا الفرج الببغاء لم يكن يحتاج إلى هذه المقدمة في بيان منزلته من أبى الطيب . واطلاعه على سره لو أنه كان فى حقيقة بحيث يصف نفسه . إذن لكان هذا معروفًا لا يحتاج إلى شرح، ومفهومًا بطبيعة الحال لا يستلزم أن يسوقه توطئة للقصة ، وليلاحظ القارئ كذلك أن أبا الفرج هذا جعل نفسه «شاهد عيان» يقول المازنى : «للقصة التى يرويها . ولو أنه أبا الطيب المتنبى يأتمنه على غيبته لسيف الدولة ، وإنَّ ما بينهما كان عامرا دون سائر الشعراء ، فأما وهو شاهد عيان فلا محل على الإطلاق لهذه المقدمة التى يخيل لنا أنها دفاع سابق لتهمة مقدرة . ولم يعرف عن أبى الطيب أنه كان ممن يغتابون البشر ، وبخاصة سيف الدولة .

وهذا بالبداهة لا يمنع أنه كان يشكو جفوته فى بعض الأحيان ، ولكن الغيبة شىء والشكوى شىء آخر . وما حجة أبى الطيب إلى مؤتمن على الغيبة وهو يعلن عتابه ويذيعه فى شعره لسائر الناس حتي قبل أن يفارق سيف الدولة . . !!

---

(١) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٠٨ .
(٢) المصدر السابق / ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

وليس هناك من الشهود على صحة هذه القصة غير ابن خالويه ، وهذا خصم للمتنبي لا يصدق قوله فيه . وفى القصة مبالغة ظاهرة لا يعقل أن تصدر عمن كان كأبى الطيب ترفعًا وتعاظمًا ،ومن ذا الذى يصدق أن أبا الطيب يبلغ من حماقته واستهانته بكرامته أن لا يكتفى بمزاحمة الغلمان له على الدنانير حتى يرضى أن يدوسوه ويركبوه ؟ » [1].

وقصة ابن العميد يمكن أن يقال فيها إن أبا الطيب ما كان خائفا من ضياع الدنانير فى مجلس رهان ولهو لا يلزم فيه التوقر . ويقول عبد الوهاب عزام : ولعل قصة الحصير وقصة ابن العميد تمثلان ما فى خلق الرجل من التياسر وتجنب التكلف [2] .

وقصة ابن العميد يمكن أن يقال فيها إن أبا الطيب ما كان خائفا من ضياع الدنانير فى مجلس رهان ولهو لا يلزم فيه التوقر . ويقول عبد الوهاب عزام : ولعل قصة الحصير وقصة ابن العميد تمثلان ما فى خلق الرجل من التياسر وتجنب التكلف [2] . وليس فى هذه القصة ما يجعلنى أصدقها ، وقد كان المتنبي يلقى شعره عند سيف الدولة قاعدًا ، فكيف تصح هذه القصة المتعارضة مع أقوال وأفعال المتنبى .

إن من يؤمن بهذه القصص لا يؤمن بها عن صدق ، وإنما يجعلها وصمة فى أخلاق المتنبى وحبه للمال ،وربما كان ذلك من اختلاق الرواة فلما رويت هذه القصص وحفظتها الكتب آمن بها بعض المحدثين ، وهذا ما يجعلنا ندرس ظاهرة حب المتنبى للمال - كما يرى هؤلاء النقاد - دراسة مستفيضة مستوفية كاملة فى دراستهم عنه .

وقال بعضهم وقد اتخذ من هذه مجالا للحط من شأن المتنبى وشعره . إن من نكد الأقدار أن أكثر الشعراء المداحين كانوا إذا لم يكافأوا عن شعرهم انقلبوا إلى الذم والهجو ، لأن الشعر عندهم كان وسيلة لا غاية ولأن الغرض فى نظرهم كان فوق كل اعتبار اخر ، فإذا خيب الممدوح ظنهم أطلقوا عليه سيلا من

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى / حصاد الهشيم / ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) عبد الوهاب عزام / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / ٢٠٩ .

قوارص المنظوم وشهروا به تشهيـراً . وقلما سلم من هذه أحد من الشعراء الذين زاولوا صناعة المديح . وهذا مما يخفض قـدر الشعر لأن الشاعر الذى يمعن في الخيال إلى ما وراء العالم المنظور ثم ينقلب مرتزقًا يتـاجر بشعره إنما يبيع كرامته بالعرض .

وغريب أن شاعـرًا كأبى الطيب لم يسلم من هذه النقيصـة إذ لم ينزه قلمه عما يجب أن تعف عنه النفس بل وقف قريحتـه على مدح الأغنياء والأمراء طمعًا فى نوالهم . فإذا أجزلوا له أجـزل لهم الثناء وإذا طووا عنه الكشح قلب لهم ظهر المجن وسلقهم بألسنة حـداد . وذلك لأن عرض الدنيا كان فى نظره كل شىء . فلا شرف ولا مـجد ولا جاه ولا سلطان إلاَّ لمن اتسعت ثـروته ووفرت أمواله . وعلى كل فقد كان حرص أبى الطيب علي المال مـضربا للأمثال ، حتى يقال أنه ما كان ينتقل من مكان إلى مكان إلاَّ ويحمل معه متاعه وكنوزه (١) .

لقد أخذ النقاد في العصر الحديث هذه القصص السابقة دون روية ودراسة، ومعروف مـا فيها من تزيد ودس قـد دسه حساد المـتنبى عليه دسا حتي افـتعلوا افتعالاً يجعلنا نشك في صحتها ، لأن شجاعة أبى الطيب ، وعلو نفسه واستهانته بالحياة تأبى عليه ذلك . ولو كان بخيلاً حريصًا على المال لما فارق سيف الدولة وزهد فى خلعه وعطاياه وكانت تعد بالآلاف . والحريص البخيل يضحى بكرامته وبأعز شىء لديه فى سبيل الحصول على المال . وما كان كذلك أبو الطيب (٢) .

ولم يكن أبو الطيب فى شتـى اتصالاته تاجرًا من تجار الأدب ، كـما ظن بعض الباحثين الذين جهلوا نفسية أبى الطيب وغاياته ، فرموه بالجنون حين التجأ إلى الأمير بعد أن كان يطلب لنفسه الإمارة ، وبالتجارة بالأدب بعد أن كان يطمح إلى أسمى ما يطمح إليه الطامحون ، وليتهم علموا أن قصائد أبى الطيب التى كان

---

(١) سليم عبد الأحد / أبو الطيب المتنبى . تاجـر من تجار الأدب / الهلال -عدد خاص بالمتنبى - المـجلد الثـالث والأربعـون .. أول نوفـمبـر ١٩٣٤م . أول أغـسطس ١٩٣٥م / ١١٩٤ ، ١١٩٥ .

(٢) طاهر أحمد الطناحى / جنون العظمة فى المتنبى / فضـيلة خلقية / الهلال عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثـالث والأربعون / ١١٨٧ . وساعـات من حياتى . أبحـاث ودراسات فى الأدب والفن والنقد .

يهديها إلى الملوك والأمراء ، إنّما كانت وسيلة إلى المجد ولم تكن مدائح بالمعنى الضيق المحدود . إنّما كانت فى أغلبها تصويراً لنزعاته واتجاهاته وآرائه فى الحياة والناس ، وإشادة بنفسه هو قبل كل شيء [(١)].

والحقيقة أن الأمر لم يكن أمر فقر أو غنى ولو كان كذلك لما احتاج المتنبى إلى أن يتنكب عن مبادئه ولا أن يغضب نفسه على غير ما ترضاه، كما أن الأمر لم يكن حبًا ولا تهالكًا على المال وإلاَّ لما عدم وسيلة يرقى بها إلى كل ما يتمناه ، ولو كان على ما يهتم به من الذلة والهوان لما تأبى على مدح كبار رجال الدولة فى مصر وغير مصر ،ويشق طريقه فى مجتمع كان يعتمد على الرياء والنفاق والمداجاة ، ولما خرج من مصر على هذا النحو الذى خرج عليه . لم يكن أبو الطيب بحاجة إلى المال فقد كان عنده من فوق ما يحتاج ، وإنّما كان بحاجة إلى السلطان الذى يفتح له الطريق إلى تشييد مجد العرب . وإقامة مجتمع المساواة والعدل بينهم ، فهو لم يبع نفسه لكافور وإنما خاتله عن نفسه ليأخذ من يده سلاحًا يحتاج إليه ، كما فعل كافور حين خطط لتجريد أعدائه الحمدانيين من سلاح يعتدون به عندما اجتذب المتنبى إلى مصر ، ولقد كان كل منهما يطلب صيداً لكنما الشباك مختلفات [(٢)].

أما عن تكسبه بشعره فهو أمر لم ينفرد به لا بين شعراء عصره ولا بين شعراء العرب جميعًا حتى يومنا هذا . ولا يحقر تكسبه به من شأنه ولا ينقص من حقه ، فشعره الذى يتكسب به زاد عبقرى يقبل عليه الممدوحون ويبذلون في سبيله ما يملكون لإقرارهم بعظمته وبحاجتهم إليه [(٣)].

والواضح أن المتنبى مدح بشعره على عادة العرب ولا يجوز أن نشبهه بالشعراء الجوالين كما رأى الأستاذ بلاشير [(٤)]. ويقول الدكتور عبد العزيز

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي - محمد مصطفى الماحى / شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ٢٠ - ٣٥٨هـ ، ط ١٩٨٠ / ١٥١ - ١٥٢ . وعبد الله التطاوى / القصيدة العباسية . قضايا واتجاهات / القاهرة ط دار غريب للطباعة ١٩٨١/ ١٠٨ .

(٢) نعمان القاضى / كافوريات أبى الطيب . دراسة نصية / ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٣) المرجع السابق / ٩٩.

(٤) بلاشير / أبو الطيب المتنبى . دراسة فى التاريخ الأدبى / ترجمة د. إبراهيم الكيلانى / ٩٦ ، ٢٤٢ .

الدسوقى : ولهـذا لا أظن أن المتنبى كان شاعـرا متسولا يمـدح الملوك والأمراء ليحصـل على المال . وإنَّما كان رجـلاً سياسيًا يشـتغل بالحياة العـامة ، ويرتبط بهولاء القادة والأمراء ويرسم لهم الطريق ويرشدهم ويذيع أعمالهم وأمجادهم من خلال شعره ، وكأنه مؤسسة إعلامـية . ولو دققنا فى طبيعة هذا الشعر الذى كان يمدح به الأميـر الحمدانى . أو كافـورًا أو ابن العميد أو عضـد الدولة ، لوجدنا شخصيته هذا الداعية السياسى والمفكر القومى والشاعر العبقرى ، واضحة تزحم هذه القصائد ، لقد كان يمدح نفـسه ويتغنى أشواق روحه ، فى بداية معظم هذه القصائد وفى خواتيمها . وأحيانًا كانت تشغله ذاته عن شخصية الممدوح . ولهذا عندما كان يرتبط بأمـير أو وزير كان يقصر شعره عليـه . لأنه كان يحقق ذاته من خلال هذا الأمـير أو الوزير . وقـد ظل مرتبطا بسـيف الدولة طوال تسعـة أعوام كاملة أنجب خلالها أجـمل شعره . وأداره عليه مادحًا . ومشيدًا بـحروبه ومعاتبا وراثيًا أقاربه . ولكنه كان فى كل هذه الأحوال يعبر عن ذات نفسه أصدق تعبير ، ويصور ما يمور في حياته أدق تصوير . ويبدو أن حـبه للأمير الحمدانى كان حبًا لنفسـه ،ومدحه له كـان مدحًـا لنفسه ، إنَّه أمـير عربى فى مـثل سنه أتيح له أن يحمى ثغور المسلمين ويحارب الروم [١].

ويدرس شعـر المتنبى محـمدكامل حـسين فيـقول : ويستـنتج منه أنه كان يطلب الغنى لا أكثر ولا أقل إذ يرى أن في شعره ما يدور على أمور كان يجدر به أن يخفيها . ومن ذلك قوله :

فَـلاَ مَـجْـدَ فِي الدُّنْيَـا لِمَنْ قَلَّ مَـالُهُ ... وَلاَ مَـالَ فِى الدُّنْيَـا لِمَنْ قَلَّ مَـجْـدُهُ [٢]

الشطر الأول مقبول معقول ، والمجد الذى كان يصبو إليه المتنبى وسعى إليه كان من النوع الذى لا يبلغـه الفقـراء ولكنى أقف عند الشطر الثـانى فأعجـب به أشد العجب لقوله :

ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

---

(١) عبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) فى عالم المتنبى « رؤية فنية » الثقافة - العدد ٤٤ - مايو سنة ١٩٧٧م / ٥٥ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٢٣ .

ولعل الذين يحبون المتنبى يجدون لقوله هذا تفسيرًا لا يغض من قدره ، أما أنا فلا أستسيغه . والشطر الأول قد يدل على أن المجد كان الغرض الأول للشاعر ، ولكن الشطر الثانى قد يدل على أنه طلب المجد ليبلغ الغني . قد يقال : إنَّه أراد المقابلة بين المال والمجد وبين المجد والمال فى كلا الشطرين ، ولا يليق هذا بشاعر مثل أبى الطيب ،وإذا كان قد أراد حقا ما يقول فإن المجد الذى تحدث عنه طول حياته لم يكن عنده إلاَّ وسيلة لبلوغ الغنى ، وليس هذا أسمى أنواع المجد . ولعل سر المأساة الواضحة فى حياة أبى الطيب هو هذه الحيرة بين المال والمجد وأيهما وسيلة وأيهما غاية . ولعله لو أراد المجد مخلصًا لبلغه ولأصاب من المال ما يكفيه ، ولكنه حار بين الأمرين ، وسعى إلى المجد ليبلغ المال الوفير فلم يبلغ منهما ما أراد . ولا شك فى أن أبا الطيب بلغ من المجد الأدبى ما لم يبلغه شاعر غيره ، ولكنه لم يقنع بذلك بل كان يريد أن يبلغ السلطان فيكون ندا للأمراء ولما لم يستطع ذلك التمس المجد بشعره ، وليس الشعر طريق المجد الذى أراده (١) .

ورد بعض النقاد فقال : ولو أن هؤلاء وغيرهم من الكتاب المعاصرين الذين رأينا لهم كتبًا فى هذا الباب نظروا إلى شعر الرجل باعتباره صورة لنفسه وجوانبها المتعددة لنبذوا هذه القصص ، ولفطنوا إلى أن المتنبى ، لم يكن بالرجل البخيل وإنما كان رجلا يعرف قيمة المال وماله من الأثر البالغ فى الحياة. والمال عند المتنبى لم يكن مطلوبًا لذاته ، ولا لأن له قيمة قائمة بنفسها ، ولا لأن به مرضا يدفعه إلى التماسه وتكديسه ، بل لأنه عون على الغايات وفى ذلك يقول :

وَمَا رغبَتِى فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ ... وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ (٢)

ويقول لكافور وهو يمدحه ويطلب منه الولاية التى جاء طامعًا فيها :

وَأَتْعَبُ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ ... وَقَصَّرَ عَمَّا تشتهى النَّفْسُ وُجْدُهُ

---

(١) محمد كامل حسين / الحكم في شعر المتنبى / مصر مجمع اللغة العربية - مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين - القسم الثانى / ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١م / ٤٤ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٣٠ .

فَـلاَ يَنْحَلِلْ فِـي المَـجْـد مَـالُكَ كُلُّه   فَـيَنْـحلَّ مَـجْـدٌ كَـانَ بِالمَـالِ عِـقْـدُهُ
وَدَبِّرْه تَدْبِيـرَ الَّذى المَـجْـدُ كَـفُّـهُ   إذَا حَـارَبَ الأَعْـدَاءَ وَالمَـالُ زَنْدُهُ
فَـلاَ مَـجْـدَ فِى الدُّنْيَـا لِمَنْ قَلَّ مَـالُهُ   ولا مَـالَ فِى الدنيـا لِمَنْ قَلَّ مَـجْـدُهُ (١)

أى أنه يقول : أشقى الناس من زادت همته وقصر ماله عن مبلغ ما يهم به، وينصح لكافور أن لا يسرف فى العطاء فيذهب ماله كله فى طلب المجد والرياسة، لأن المجد لا يعقد إلاَّ بالمال ، فإذا ذهب المال انحل ما كان معقودًا به ، وكما أن الضرب لا يكون إلاَّ باجتماع الكف والزند ، كذلك المجد والمال قرينان وصاحب المال بلا مجد فقير ، وصاحب المجد بلا مال موشك أن يزول عنه مجده .

وفى هذه الأبيات ما يوحى بالحزم وضبط الأموال لغاية مفهومة معقول أن يضبط لها المال . وقد صارت القضية الآن جلية بعد الذى سقناه . رجل له غاية معينة يريد أن يوفر لها الوسائل ، وأن يحشد لها المال ، فى غير كزازة ، إذا كان المال أقوى أداة وأمتن وسيلة (٢).

ويقول ماثيوز : أن هناك أربعة بواعث على خلق الأدب ، تحقيق غاية عاجلة والتعبير عن النفس ، والشهرة والمال ، وأحيانًا تجتمع كل هذه البواعث جميعًا غير أن أكثرها إلحافًا هي الحاجة إلى المال . ومهما يكن رأى المرء فى تسلط هذه الحوافز على الكتابة ، فإن من الواضح أن الحاجة إلى المال ترتبط بالدراسة الاجتماعية للكاتب أكثر من ارتباطها بالأدب من حيث هو فن وليس لذلك دخل تقريبًا فى الإسهام الذى يكمن خلف العمل الأدبى (٣).

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى ٢/ ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) إبراهيم عبد القادر المازنى / حصاد الهشيم / ١٥٣ ، ١٥٤ . وعبد الوهاب عزام/ ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام/ ٢٠٨ ، ٢٠٩ . وعباس محمود العقاد / مطالعات فى الكتب والحياة / ١٥٠ . وشخصية المتنبى من شعره / الهلال عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون/ ١١٢٤ ، ١١٢٥ . وعبد الرازق محيى الدين / تعقيب على بحث الحكم فى شعر المتنبى للدكتور محمد كامل - مجمع اللغة العربية - مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين - القسم الأول - ١٣٩١ ، ١٩٧١م/ ٧٩ .

(٣) وليم فان أوكونور / النقد الأدبى - الأدب الأمير فى نصف قرن / ترجمة صلاح أحمد إبراهيم/ ١٩٦٠ م ، ١٦٧ .

وقد بين المتنبي كما يقول مهدى علام الاحتفاظ بالمجد للمال ، وبالمال للمجد فنراه أميل إلى إنفاق المال فى سبيل المجد [١] .

كَأَنَّ نَفْسَكَ لاَ تَرْضَاكَ صَاحِبَهَا ... إلاَّ وأَنْتَ عَلَى المِفْضَالِ مِفْضَالُ
وَلاَ تَعُدُّكَ صَوَّانًا لِمُهْجَتِهَا ... إلاَّ وأَنْتَ لَهَا فِى الرَّوْعِ بَذَّالُ
لَولاَ المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الجُودُ يفقر وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ [٢]

وهو يزيدنا بيانًا أن المال ليس مقصوده الأول ولا غايته الذاتية حين يقول :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا ، إِذَ لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ [٣]

ومن ثم لم يستبدله بالكرامة والمودة ، فهو يقول لكافور :

إِذَا نِلْتَ مِنْكَ الوُدَّ فَالمَالُ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الَّذِى فَوقَ التُّرَابِ تُرَابُ [٤]

وينأى بنفسه أن ينال المال ممنونًا عليه ، أو غير مسموح به فيقول لكافور كذلك :

وَإِنْ بَذَلَ الإِنْسَانُ لِى جُودَ عَابِسٍ ... جَزَيتُ بِجُودِ البَاذِلِ المُتَبَسِّمِ [٥]
وَلاَ أُقِيمُ عَلَى مَالٍ أُذَلُّ بِهِ ... وَلاَ أَلَذُّ بِمَا عِرضِى بِهِ دَرِنُ [٦]

ويفتخر فى شرخ شبابه فيقول :

كَفَانِي الذَّمَ أَنَّنِى رَجَلٌ ... أَكْرَمُ مَالٍ مَلَكْتُهُ الكَرَمُ
يَجْنِى الغِنَى لِلِّئَامِ لَوْ عَقَلُوا ... مَا لَيس يَجْنِى عَلَيهِمُ العَدَمُ
هُمُ لأَمْوَالِهِمْ وَلَيسَ لَهُمْ ... وَالعَارُ يَبْقَى والجُرحُ يَلْتَئِمُ [٧]

(١) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة العدد الأول ١٩٣٦ م / ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثانى / ٤٠٦ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٤١ .
(٤) المصدر السابق / ١/ ٢٠٠ .
(٥) المصدر السابق / ٤/ ١٣٦ .
(٦) المصدر السابق / ٤/ ٢٣٧ .
(٧) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٦٠ .

ويمنحه أبو شجاع فاتك هدية قيمتها ألف دينار فيقول له :

وَمَا شَكَرْتُ لأَنَّ المَالَ فَرَّحَنِي ... سِيَّانَ عِنْدِي إكْثَارٌ وَإقْلاَلُ
لَكِنْ رَأَيتُ قَبِيحًا أَنْ يُجَادِلَنَا ... وَأَنَّنَا بِقَضَاءِ الحق بُخَّالُ (١)

وقد كان أبو الطيب من الدعاة إلى العصامية ، نرى ذلك فى شعره فى جميع مراحل حياته !! أوحاه إليه عقله الباطن فى صباه ، وجاشت به نفسه فى شبابه ، ونطقت به حكمته فى كهولته . ولهذا فإنَّ عقله الباطن يملى عليه عصاميته : سأله أحد التنوخيين أن يقول له قصيدة يفتخر بها ، فقال وقد كان صبيًا :

قُضَاعَةُ تَعْلَمُ أَنِّي الفَتَى الَّـ ... ـذِي ادَّخَرْتُ لِصُرُوفِ الزَّمَانِ
وَمَجْدِي يَدُلُّ بَنِي خِنْدِفٍ ... عَلَى أَنَّ كُلَّ كَرِيمٍ يَمَانِي
أَنَا ابْنُ اللِّقَاءِ ، أَنَا ابنُ السَّخَاءِ ... أَنَا ابْنُ الضِّرَابِ ، أَنَا ابْنُ الطِّعَانِ
أَنَا ابْنُ الفيافِى ، أَنَا ابنُ القَوافِى ... أَنَا ابنُ السُّرُوجِ ، أَنَا ابنُ الرِّعَانِ
طَوِيلُ النِّجَادِ ، طَوِيلُ العِمَادِ ... طَوِيلُ القَنَاةِ ، طَوِيلُ السِّنَانِ
حَدِيدُ اللِّحَاظِ ، حَدِيدُ الحِفَاظِ ... حَدِيدُ الحُسَامِ ، حَدِيدُ الجِنَانِ
يُسَابِقُ سَيفِى مَنَايَا العِبَادِ ... إِلَيهِمْ كَأَنَّهُمَا فِي رِهَانِ
يَرَى حَدُّهُ غَامِضَاتِ القُلُوبِ ... إذَا كُنْتُ فِي هَبْوَةٍ لاَ أَرَانِى
سَأَجعله حَكَمًا فِي النُّفُوسِ ... وَلَو نَابَ عَنْهُ لِسَانِى كَفَانِى (٢)

فهذا الغلام يعلل منذ صباه رأيه فى العصامية ، فهو لا يفتخر بالأجداد والآباء ، ولكنه يفتخر بالمكرمات (٣) . وعلى هذا لا يصح ما ادعاه بعض النقاد

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٣٩٧ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٣) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالث العدد الأول ١٩٣٦م / ٢٣ ، ٢٤ .

أن المتنبى كان يحب التكسب بشعره فهذا هو فى صغره ويدعو إلى المجد والعصامية والاعتماد على النفس مما يجعلنا نكون فى جانبه .

ولقد أثرت فى نفسية المتنبى تلك المدة التى قضاها بمصر . فأوحت إليه بمبادئ آمن بها ؛ لأنها كانت نتيجة اختباراته فى المدة بمصر ، فأظهر هذه المبادئ ، وظهرت عنده فلسفة النقمة على الدهر وسوء الظن به ، والحقد على تصاريفه ، وذلك نتيجة لما صادف أبو الطيب من خيبة الأمل وانهيار الرجاء وكان واسع الامال - كثير المطامع ويهون على نفسه كل شيء . ويرى الإنسان - هو ذلك الذى زاد همه يقول :

وأتعب خلق الله من زاد همه   وقصر عما تشتهى النفس وجده

وهذا الشاعر الذى يحب المال ، بل يحب الدنيا ليصل إلى نتيجة حتمية وهى أن الدنيا حقيرة ذميمة ، تتربص به الدوائر وإن هذا المعنى ليتشبث بنفسه ويلح عليها حتي ما يكاد يفارق شعره . فهو حين يمدح أولياءه يمدحهم بذم الدنيا ، ففى آخر بيت من قصيدة يمدح بها على بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، يخترع من هذا التشاؤم معنى من أجل المعانى فى المدح فيقول [(١)] :

أَزَالَتْ بِكَ الأَيَّامُ عَتْبِى كَأَنَّمَا   بَنُوهَا لَهَا ذَنْبٌ ، وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ [(٢)]

ويذم الدنيا ليمدح سيف الدولة حين يقول :

وَلَو جَازَ الخُلُودُ خَلَدْتُ فَرْدًا   وَلَكِنْ لَيسَ لِلدُّنَيَا خَلِيلُ [(٣)]

وحين يصف ، يتخذ من تشاؤمه ورأيه فى الدنيا مادة لوصفه ومعينًا لتشبيهاته :

كَأَنَّ الجَوَّ قَاسَى مَا أُقَاسِي   فَصَارَ سَوَادُهُ فِيهِ شُحُوبَا

---

(١) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦ م / ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المنبى / ٢/ ١٥٩ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / وشرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ١٤٠ .

كَـأَنَّ دُجَـاهُ يَجْـذِبُـهَـا سُـهَـادِى فَلَيس تَغِـيبُ إلاَّ أَنْ نَعِـيبَـا
أُقَلِّبُ فِـيـهِ أَجْـفَـانِى كَـأَنِّى أَعُـدُّ بِهِ عَـلَى الـدَّهْرِ الـذُّنُوبَـا [1]

وحين يتغزل ويشتاق لا ينسى الدهر وخبثه ، ولا يضن عليه بتقريعه ، وإذا كان الدهر يكرثه بحوادثه فإن يثأر لنفسه منه فى شعره :

وَأَحْـسِبُ أَنِّى لَوْ هَـوِيتُ فِـرَاقَكُمْ لَفَـارَقْـتُـهُ وَالدَّهرُ أَخْـبَثُ صَـاحِبِ
فَـيَـا لَيْتَ مَـا بَيْنِى وَبَـينَ أَحِـبَّـتِى مِنَ البُعْـدِ ، مَا بَيْنِى وَبَينَ المَـصَائِبِ [2]

وإذا كان المحبون لا يؤلمهم فى الدهر إلا فراق أحبتهم فإنَّ أبا الطيب لا يجد فى ذلك الدهر شيئًا يحمد :

مَنْ خَـصَّ بِالذَّمِّ الفِـرَاقَ فَـإِنَّنِى مَنْ لاَ يَرَى فِى الدَّهْرِ شَـيـئًا يُـحْمَـدُ [3]

وهو يعجب من حب الناس لها ، وسعيهم وراءها ، وهى خائنة غادرة ، لا تهب إلاَّ لتسترد ، ولا تسر إلاَّ لتضر .

أَبدًا تَـسْـتَـرِدُّ مَـا تَـهَبُ الدُّنْيَـا فَـيَـالَيْتَ جُـودَهَا كَـانَ بُخْـلاَ
فَكَفَتْ كَـونَ فَـرْحَـةٍ تُورِثُ غَمَّ وَخَـلٍّ يُغَـادِرُ الـوَجْـدَ خَـلاَّ
وَهْىَ مَـعْـشُـوقَـةٌ عَلَى الغَـدْرِ لاَ الـ تَحْـفَظُ عَـهْـدًا وَلاَ تُتَـمِّمُ وَصْـلاَ [4]

ويكاد يعذر الناس فى انخداعهم بهذه الدنيـا ، لأنها تحتاج فى الكشف عن أمرها إلى خبرة طويلة :

وَمَنْ صَـحِـبَ الدُّنْيَـا طَوِيلاً تَـقَلَّبَتْ عَلَى عَـينِهِ حَتَّى يَرَى صِـدْقَهَـا كِذْبًا [5]

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٢) المصدر السابق / ١/ ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣) المصدر السابق / ١/ ٣٨٤ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٥٠ .
(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٥٧ .

ويبتسم الدهر لأبى الطيب ، ولكنه لا يبتسم للدنيا ، ولقد يخفف من ذمها ولكنه لا يمدحهـا ، بل هو يذكر دائمًا مرارتـها حتى حين يذوق حلاوتـها ، لأنها وإنْ كانت تحسن الصنيع، تكدر الإحسان :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا   وَعَنَاهُمْ فِي شَأْنِه مَا عَنَانَا
وَتوَلَّوا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ منْه   وإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا
ربمـا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَالِيـ   ـه ولَكِنْ تُكَدِّرَ الإحْسَانَا (١)

ويصارع أبو الطيب الدهر جلدًا صبورًا ، حتى إنَّ الدهر ليتعجب من جلده واصطباره :

غَاضَ الوَفَاءُ تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ   وَأَعْوزَ الصِّدْقُ فِي الأَخْبَارِ والقَسَمِ
سُبْحَانَ خَالِقِ نفسى كَيفَ لَذَّتُهَا   فِيمَا النُّفُوسُ تُرَاهُ غَايَةَ الأَلَمِ
الدَّهْرُ يَعْجَبُ من حَمْلِي نَوائِبَهُ   وَصَبْرِ جِسْمِى عَلَى أَحْدَاثه الحُطُمِ
وَقْتٌ يَضِيعُ وَعُمْرٌ لَيتَ مُدَّتَهُ   فِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفُ الأُمَمِ
أَتَى الزَّمَانُ بَنُوهُ فِى شَبِيبَتِهِ   فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الهَرَمِ (٢)

ولكنه مع ذلك يعترف بقوة الليالى وسطوتها ، شأن الجبار فى مصارعة الجبار:

فَلاَ تَنلْكَ اللَّيَالِى إنَّ أَيْدِيَهَا   إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالغَرَبِ
وَلاَ يُعِنَّ عَدُوًّا أَنْتَ قَاهِرُهُ   فَإِنَّهُنَّ يَصِدْنَ الصَّقْرَ بِالحَرَبِ (٣)

ولقد تنوء كوارثه بكاهله ، ولكنه يتذرع بالصبر ، ثم يدعى الزهادة فى الدنيا وما فيها ، ولكنها ليست زهادة الفيلسوف القانع ، بل زهادة اليائس القانط :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٣٩٥، ٢٩٦ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٩٤ ، ٩٥ .

بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ، وَلاَ وَطَنٌ وَلاَ نَدِيمٌ ، وَلاَ كَأْسٌ ، وَلاَ سَكَنُ ؟
أُرِيدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ فِي نَفْسِهِ الزَّمَنُ
لاَ تَلْقَ دَهْرَكَ إِلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ (١)
فَمَا يَدُومُ سُرُورُ مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْكَ الفَائِتَ الحَزَنُ (٢)

ولقد تنهد عزيمته ، فتخونه ألفاظه ، فيعترف بضعفه أمام الدنيا وهمومها :

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهرُ مِنْ قَلْبِى ولاَ كَبِدى شَيئًا تَتَيَّمُهُ عَيْنٌ وَلاَ جِيدُ
يَا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ فِى كُئُوسِكُمَا أَمْ فِي كُئُوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدُ؟ (٣)

ولكن تعاوده عزة النفس ، فيضعف قويًا ، ويحتمل أبيا . أليس – إذ تتحطم آماله صخرة لا تحركها المدام ، ولا الأغاريد ؟ ليت شعرى أى شيء يريد أن يكون أبو الطيب إذ يكون جبارًا قويًا ؟

أَصَخْرَةٌ أَنَا ؟ مَالِى لاَ تُغَيِّرُنِى هَذِى المُدَامُ وَلاَ هَذِى الأَغَارِيدُ ..!
إِذَا أَرَدْتُ كُمَيتَ الخَمْرِ صَافِيَةً وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ (٤)

ثم يقوى شعوره بعظمته ، فيرى أن ما تعافه نفسه مما يحسده عليه الناس ، فيعلن عجبه فى شكوى يصونها الإباء ، وتضعضع تنهض به الكبرياء ، وعبقرية يخضع لها الشعراء :

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبُهَا أَنِّى بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ ..! (٥)

ومن ثم يعلن فى هذه الدنيا التي لا ترضى أن تمر عليه فيها ساعة لا تعزه ، أو تصحبه فيها مهجة تقبل الضيم :

---

(١) المصدر السابق / ٤/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٣) المصدر السابق / ٢/ ٤٠ .
(٤) المصدر السابق / ٢/ ٤٠ ، ٤١ .
(٥) المصدر السابق / ٢/ ٤١ .

كَـذَا أَنَا يَـا دُنْيَـا إِذَا شِـئْتِ فَــاذْهَبِى		وَيَا نَفْسُ زِيدِى فِـى كَـرَائِهِـهَـا قُــدْمَـا
فَـلاَ عَــبَـرتْ بِي سَـاعَـةٌ لاَ تُـعِـزُّنِى		وَلاَ صَحِـبَتْنِى مُـهْجَـةٌ تَقْبَلُ الظُّلْـمَا [1]

ويرى أن هذه الدنيا لا تصفو إلاَّ لأشباهها من طغام الناس [2].

وَشِـبْــهُ الشَّىءِ مُنْجَـذِبٌ إِلَـيْـهِ		وَأَشْــبَــهُنَا بِدُنْـيَــانَـا الطَّغَــامُ
وَلَـوْ لَـم يـعل إِلاَّ ذُو مَــــــحَــلٍّ		تَعَــالى الجَـيشُ وَانْحَـطَّ القَـتَـامُ
وَلَو لَـمْ يَرْعَ إِلاَّ مُــسْـتَــحِقٌّ		لِرُتْبَــتِــهِ أَسَـامَـهُمُ الـمَـسَـامُ [3]

وكيف يكون لأبى الطيب رأى غير هذا ، وهو يرى أن آماله تتحطم فوق رأسه كل يوم ؟ فلم يكن له مفر إذن من أن يستمسك بهذا الرأى ، ليعلل فضله وسموه إذ يعلن مصائبه وكوارثه حين قال :

كَـيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الخُطُوبِ تَخَلُّصًـا		مِنْ بَعْـدِ مَـا أَنْشَـبْنَ فِىَّ مَـخَـالِبَـا ؟ [4]

أو حين يقول :

وَمَا الجَمْعُ بَينَ الماءِ والنَّارِ فِي يَدِى		بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الجِدَّ وَالفَهْمَا [5]

ويخرج من هذا التخصيص إلى قاعدة عامة ، يعتنقها ويعلنها ، وهى أن الزمن عدو لأفضل الناس يأبى إلاَّ معاداتهم :

أَفَــاضِلُ النَّاسِ أَغْـرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ		يَخْـلُو مِنَ الهَـمِّ أَخْـلاهُمْ مِنَ الفِـطَنُ
وَإِنَّمَــا نَحْنُ فِي جِـيلٍ سَـوَاسِـيَـةٍ		شَـرٍّ عَلَى الحُـرِّ مِنْ سُـقْمٍ عَلَى بَدَنِ [6]

---

(١) المصدر السابق / ٤/ ١٠٩ .
(٢) محمـد مهدى علام / فلسفـة المتنبى من شعره / صـحيفة دار العلوم - السنة الثـالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٧١ ، ٧٢ .
(٤) المصدر السابق / ١/ ١٢٤ .
(٥) المصدر السابق / ٤/ ١٠٨ .
(٦) المصدر السابق / ٤٥/ ٢٠٩ .

وأنه مناخ وضيم لراكبيه ، فظل بعيدا لهم فيه معذب :

لَحَا اللَّهُ ذِى الدُّنْيَا مُناخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدُ الهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ [١]

وهو مع ذلك يصفو لجهالهم وغافليهم :

تَصْفُو الحَيَاةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلَبَ المُحَالِ فَتَطْمَعُ [٢]

أما الحظ فليس له مكان فى تقدير المتنبى . يعرف أن الأيام تحاربه ، وأن الأحوال التى أحاطت به غير عادية ، ولكنه يظل يقود الحظ إليه ، ويحقق ما يريد فكأنما الحظ وليد فعله .

أَقَلُّ فَعَالِى بَلْهُ أَكْثَرُهُ مَجْدُ وَذَا الجِدُّ فِيهِ نِلْتُ أَمْ لم أَنَلْ جِدُّ [٣]

★ ★ ★

د - آراؤه فى النـاس :

قبل أن نتحدث عن آراء المتنبى فى الناس أرى أن نوجز القول فى حديثه عن نفسه وما وصفها به فى شعره ، وما كان من غروره المتزايد فى بداية حياته.

والحق أن المتنبى لا يخرج عن حالة فنان عظيم منحه الشعر فرصة التعبير بقوة عن دخائل نفسه وإحساسه إزاء الناس والحياة . وقد تكون صاحبته فى حياته أعراض مرضية نفسية نتيجة ما يحمله من هموم نفسه أو من هموم ما يعبر عنه . ولا نجد من ذلك ما تدل عليه أخباره وأشعاره ، اللهم إلا حالة نحول لازمته وخبر تلك الحمى التى أضنته حين كان فى أوج أزمته فى مصر ، مع ما عرف عنه من حدة وقلق فى الطبع [٤].

(١) المصدر السابق / ١/ ١٨٠ .

(٢) المصدر السابق / ٢/ ٢٩٦ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٢٧٣ .

(٤) منجى الكعبى / مظاهر العظمة والطموح فى شعر المتنبى / الآداب - السنة الخامسة والعشرون العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ١٩ .

لقد ركب الغرور الرجل منذ نشأته وظهر جليًا فى تهوره وإدعائه النبوة - يوضح ذلك - ولم يكن هذا الفعل طريقًا ميسورًا للمجد فأراد تحقيق آماله الهوجاء ومطامعه الخيالية عن الطريق الناعم السلس المأمون العاقبة . طريق الاتصال بمدح الأمراء حتى أسرف في مدحهم - وهكذا - بل ربما استوزروه وولوه - لو أرادوا - فأخذ يتجشم المشاق فى أسفار بعيدة أبعد من آماله [(1)] .

والواقع أن أيا من الناس يتاح له مخالطة الشعراء وسائر أصحاب القرائح الفنية يدهشه ادلالهم بمواهبهم وفرط تدلههم بأنفسهم التى قد يعجز عن احتمالها أشد الناس إعجابًا بهم وأعظمهم تقديرًا لفنهم ، ويعجب لإشفاقهم من الملاحظة اليسيرة والنقد الرفيق . وحذار أن يخدع الإنسان فى إدعائهم الترحيب بتقبل الملاحظة والنقد ، فليس هذا النوع من الاحتمال والصبر فى طوقهم ، وليس الغرور بوجه عام مقصورًا على أصحاب الأمزجة الفنية فإنه من الطبائع الشائعة بين الناس . فكل منا يخال نفسه محور الوجود ، وغرض الحياة ، وأنه أنفذ الناس بصيرة ، وأصحهم إدراكًا ، وأن العالم لا يستغنى عنه ، ولا يصلح بدونه . وهذا الغرور الملازم للطبيعة الإنسانية هو الذى يهون علينا احتمال الحياة فى أقسى الحالات وأسوء الظروف ، وهو الذى يشد عزمنا ويعيننا على لقاء عثرات الجد ونوبات التخاذل واليأس .

وكل منا يحاول فى حياته اليومية المألوفة أن يتحمل للبشر ، ويصانعهم ويتظاهر بالمودة لهم والتواضع ، وتوطئة الأكناف وخفض الجناح ، فإذا أجنه الليل أو حفت به الوحدة خلا إلى أنانيته ودخل المحراب المقدس الذى لا يسمح لأحد بأن يطأ أرضه أو يدنس عرضه ، وناجى غروره وقدم القرابين إلى كبريائه المتوارية وزهوه المستور . وأكثرنا في العالم الخارجى يخلع رداء الغرور ويتناسى الكبرياء ويمثل دور التواضع ويحاول أن يكون خليقًا بقول أبى تمام فى رثاء صاحبه الطوسى :

فَتَى كَانَ عَذْبَ الرُّوحِ لاَ عَن غَضَاضَةٍ ... وَلَكِنَّ كِبْرًا أَنْ يُقَالَ بِهِ كِبْرُ

---

(١) محمد مظهر سعيد / نفسية المتنبى - تحليل لبعض نواحى حياته / الهلال عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون أول نوفمبر ١٩٣٤ م - أول أغسطس ١٩٣٥م / ١٢١٠ ، ١٢١١ .

فالغرور والزهو وتوهم العظمة والمغالاة بقيمة الإنسان داء يغش البشر جميعًا . ويلفهم فى غياهبه ، ولا معدى لهم عنه ، ولا خلاص لهم منه . ورجال الفنون، سواء المبرزون منهم وغير المبرزين أكثر استهدافا لهذا الداء . المتفشى وأشد قابلية لإيواء جراثيمه وإنمائها ، وهم مطبوعون على حب الحرية والصراحة والرغبة فى التعبير عن النفس والتحدث عن ميولها واتجاهاتها فى غير جمجمة ومواربة ، ولا قدرة لهم على المداراة والتحفظ والنفاق الذى تألفه الناس ليستروا هواجسهم وهواتف نفوسهم . ولذا يبدو غرورهم واضحًا ، وتتجلى ذاتيتهم سافرة . وهم يتجرعون من جراء ذلك الغصص المرة ويلقون المقاومة والعداء . وفرط ثقة الفنان بنفسه وإسرافه فى حبها وكثرة تعلقه بأهدابها يقابلها من ناحية أخري رغبة منافسية وأضرابه وحساده الجنونية الطاغية فى انتقاص قيمته ، وتشويه محاسنه ، وإذاعة مثالبه ، وإنكار فضله والحرص على النيل منه وهدم بنائه . ومن دأب الإنسان أنه كلما غالى بعرفان نفسه ، وارتقى بها رفيع الذرى ، وهانت عليه أقدار الناس وتضاءلوا فى عينه . والفنان الذى ينتشى من خمر حبه لنفسه وهوس إعجابه بفنه قد يصل إلى حالة كتلك الحالة التى وصفها دعبل الخزاعى فى قوله :

إنِّى لأفْتَحُ عَينِى حِينَ أفتَحُهَا ... عَلَى كَثِيرٍ ولَكِنْ لاَ أَرَى أَحَدَا

فالناس حوله كثيرون ولكنه يشرف عليهم من أبراجه العالية فهو لا يكاد يراهم ، وإذا شغل نفسه بهم ودقق فى النظر إليهم رآهم كالحشرات التى تزحف على أديم الأرض [(١)] .

وفى اعتقادى أن شاعرنا أبا الطيب كان من أشد شعراء العالم غرورًا بنفسه وثقة بها ، وأكثرهم إدلالا بقدرته . وقد ذهبت به الخيلاء أبعد المذاهب حتي أوفى على الغاية فى الكبرياء والتنفسج ولازمه ذلك في شتى أدوار حياته من إبَّان نشأته وشبابه حتى قبيل مصرعه ومماته . فهو فى صباه ومطالع شبابه يقول :

---

(١) على أدهم / أبو الطيب المتنبى بين الغرور والطموح والحزن / مصر - مجلة الكاتب المصرى - المجلد الأول - العدد الرابع - يناير سنة ١٩٤٦م / ٤٩٨ ، ٤٩٩ . وعلى هامش الأدب والنقد / ٧١ ، ٧٢ .

أيَّ مَـــــــحَلٍّ أرْتَـقـى ؟ أىَّ عَــظِــيـــمٍ أتَّــقــى ؟
وَكُـلُّ مَـــــــا خَلَقَ الـلَّـهُ وَمَـــــــا لَـمْ يَـخْـلُـقِ
مُـــحْـــتَـقَـــرٌ فِي هِـمَّــتِي كَـشَـعَــرَةٍ فِى مَــفْــرِقِي [(١)]

وفرط الغرور مـهما كانت مـواهب الإنسان - من الأشياء السمـجة المكروهة وإنْ كانت لا تخلو فى بعض الأحيان من عنصر الفكاهة وإثارة الضحك . وقد يحتمل البشر غـرور المغتر بنفـسه لتوقد ذكـائه وغزارة إطلاعه ولكنهم لا يستـطيعون أن يحتملوه طويلا . ولذا قد يكون للمغرور أنصار وأتباع يحملون عرشه ، ولكنه لا يكون له أصدقـاء يبادلونه العطف . والظاهر أن بعض أصـحاب أبى الطيب نعى عليه غروره وإمعانه فى التيه فاعتذر بقوله يسوغ غروره [(٢)] .

إنْ أكُنْ مُـعْـجَبًا فَـعُـجْبُ عَـجِيْبٍ لَمْ يَجِـدْ فَـوقَ نَفْـسِـه مِنْ مَــزِيدِ [(٣)]

ويقول فى مكان آخر من شعره :

ضَـــاقَ ذَرْعًــا بِـأَنْ أَضِـيـقَ بِهِ ذَرْ عًــا زَمَــانِى وَاسَـــتَكْرَمَـتْـنِـى الكِرَامُ
وَاقِـفًــا تَحْتَ أَخْـمُـصَىْ قَـدْرِ نَفْسِي وَاقِـفًــا تَحْتَ أَخْــمُــصَىَّ الأَنَامُ [(٤)]

وفى بعض الأحيـان كان يتلاقى فى نفســه الغرور والطموح ، أو يستـحيل الغرور طموحًا وينقلب طلبا لعظيمات الأمور حلمًا بالمجد كما فى قوله :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٣٤١ .
(٢) على أدهم / أبو الطيب المتنبى بين الغـرور والطموح والـحزن / مـجلة الكاتب المصـرى / المجلد الأول - العدد الرابعة - يناير ١٩٤٦م / ٤٩٩ ، ٥٠٠ . وعلى هامش الأدب والنقد / ٧٢، ٧٣ . ومارون عبود / المتنبى . . . عناصـر أولية / الكويت مجلة الرائد / المجلد الأول - السنة الأولى - الـعـدد الرابع ، رمـضـان ١٣٧١ هــ - مـايوت ١٩٥٢م / ٥، ٦ . وزكي المحاسنى / المتنبي / ٢٨ . وحليم كنعان / أنتيجة كان الشعر عند المتنبى أم غاية ؟؟ بيروت المكشوف - السنة السادسة العدد ٢٧٥ تشرين ثانى سنة ١٩٤٠م / ٦ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٢٣ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٩٤ .

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ ... وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي المَدَى المُتَطَاوِلُ
وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِي مِنَ المَجْدِ والعُلاَ ... تَسَاوَى المَحَابِي عِنْدَهُ وَالمَقَاتِلُ (١)

وباعد غروره ما بينه والناس، وأفسد علاقاته بهم ، فصار يشعر بعزلته وغربته ، ويعزى نفسه بمثل قوله : « إنَّ النفيس غريب حيثما كان » والاحتفاظ بالغرور ، والكلف الشديد بالنفس ، والتفكير الدائم فيها يثير فى النفس شعوراً آخر هو الشعور بالظلم والاضطهاد والاعتقاد الراسخ بِأَنَّ هناك من ليس لهم عمل فى الحياة الدنيا سوى أن يكيدوا لنا وينصبوا فى طريقنا الإشراك والفخاخ ، ويعملوا على هدم بنائنا والقضاء على حياتنا . ومن ثم هذه الشكوى الدائمة فى شعر أبى الطيب من الحاسدين وكيد الكائدين . فالرجل الذى يكثر من ذكره حساده ومنافسيه لابد أنه كثير التفكير فيهم ، حريصًا على إغاظتهم ورد كيدهم (٢).

لقد كان المتنبى شديد الأثرة بعيد الأنانية ، لا يعنيه إلاَّ نفسه ، يرى كل ما فى الوجود مسخراً له وحده . فالملوك لم يخلقوا إلاَّ ليغمروا بجاههم ومالهم. والجماهير لم تخلق إلاَّ لتهتف له وتملأ الدنيا إعجابًا بشعره ، وعلماء عصره لم يوجدوا إلاَّ ليتناقشوا قوله ويفردوا له الشروح المتعددة ، وشعراء العربية قاطبة لم ينظموا إلاَّ ليتخير من معانيهم الجيدة ، ما يحلو له أن ينظمه ويضعه فى صيغته النهائية فكأنما هم يهيئون له مشروعات قوانين ليصدرها - بعد ذلك - للناس مراسيم (٣) .

وربما كان السبب فى هذه النزعة الفردية التى تظهر فى شعر المتنبى . بهذه الصورة الطاغية هو عامل العصر الذى عاش فيه المتنبى ففى عصره عظمت الشخصية الفردية حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط فى التاريخ الإسلامى

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٢) على أدهم / أبو الطيب المتنبى بين الغرور والطموح والحزن / الكاتب المصرى - المجلد الأول - العدد الرابع - يناير ١٩٤٦م/ ٥٠٣ ، ٥٠٤ . وعلى هامش الأدب والنقد / ٧٦ ، ٧٧ .
(٣) كامل كيلانى/ فى مجلس سيف الدولة - بين المتنبى وأبى فراس / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد الخامس والسبعين - جمادى الأولى ١٣٤٨هـ - ٤٣٤ . وصور جديدة من الأدب العربى / القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م ، ٦٤ ، ٦٥ .

قبله . ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة وتحكمت فى الأفراد - وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم وامحى الإيثار أو كاد [1].

أما أخلاق أبى الطيب - كما يراها بعض الباحثين - فصورة من صور الأخلاق السيئة كما عرضها علينا ديوانه . فهو شاعر منافق كاذب ، يمدح حينًا ويذم حينًا بدافع خاص ، ونفع ذاتى ، فزاد فى المدح والذم إرضاء لنفسه وتحقيق مآربها ، وما ظنك بشاعر يغمره سيف الدولة الحمدانى بعطاياه وهباته ويرضيه فيعترف له بالفضل ، وبأن كل ما يملكه هو من عطاياه ، فيقول فيه [2] .

أَسِيرُ إلَى إقطَاعِهِ ، فِى ثِيَابِهِ ... عَلَى طِرْفِهِ ، مِنْ دَارِهِ ، بِحُسَامِهِ
وَمَا مَطَّرَتْنِيهِ مِنْ البِيضِ وَالقَنَا ... وَرُومِ العِبِدَّى هَاطِلاتُ غَمَامِهِ
فتًى يَهَبُ الإِقْلِيمَ بِالمَالِ وَالقُرَى ... وَمَنْ فِيهِ مِنْ فُرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ [3]

ثم يقع بينهما جفوة ، فيهجره إلى مصر ، ويهجوه حين يمدح كافورًا :

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ العِرضُ جَارُكُمُ ... ولاَ يَدرُّ عَلَى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ ... وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ
وَتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ ... حَتَّى يُعَاقِبُهُ التَّنْغِيصُ وَالمِنَنُ
وَإنْ بُلِيتُ بِوُدٍّ مِثْلِ وُدِّكُمُ ... فَإِنَّنِى بِفِرَاقِ مِثْلِهِ قَمِنُ
عِنْدَ الهُمَامِ أَبِى المِسْكِ الذِّى غَرِقَتْ ... فِى جُودِهِ مُضَرُ الحَمْرَاءِ وَاليَمَنُ [4]

---

(١) أحمد نصيف الجنابى / أثر شعر عنترة فى شعر المتنبى / الأقلام - الجزء الخامس - السنة الثالثة - رمضان المبارك ١٣٨٦ هـ تشرين ثانى ١٩٦٧م / ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) عباس حسن / المتنبي وشوقى وأمارة الشعر دراسة ونقد ، وموازنة - ط دار المعارف بمصر / ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ . وعائشة عبد الرحمن / قيم جديدة للأدب العربى / الجزء الأول - معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٦٦م / ١٦٣ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

ويمدح كافورًا أيضًا فيقول :

وَأَخلاقُ كَافور إذَا شِئْتُ مَدْحَهُ ... وإنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلِى عَلَيَّ وَأَكْتُبُ
إذَا تَركَ الإنْسَانُ أَهْلاً وَرَاءَهُ ... وَيَمَّمَ كَافُوراً فَمَا يَتَغَرَّبُ
فَتىً يَمْلأُ الأفْعَالَ رَأْيًا وَحِكْمَةً ... وَنَادِرَةً أَيَّانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ
إذَا ضَرَبْتَ بالسَّيفِ في الحَرْبِ كَفُّهُ ... تَبَيَّنْتَ أَنَّ السَّيفَ بِالكَفِّ يَضْرِبُ
تَزِيدُ عطَايَاهُ عَلَى اللَّبْثِ كَثْرةً ... وَتَلْبَثُ أَمْواهُ السَّمَاءِ فَتَنْضَبُ

ويهجوه بعد هروبه من مصر بقوله :

أَمَيْنًا وإخْلافًا وَغَدْرًا وَخِسَّةً ... وَجُبْنًا ؟ أَشَخْصًا لُحْتَ لِى أَمْ مَخَازِيَا ؟
وَتُعْجِبُنِي رِجْلاكَ فِي النَّعْلِ ، إنَّنى ... رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإنَّكَ لاَ تَدْرِى أَلَونُكَ أَسْوَدٌ ... مِنَ الجَهْلِ أَم قَدْ صَارَ أَبْيَض صَافِيَا [(1)]

ولو رجعنا إلى شعر المتنبي لبدت لنا الصورة على غير ما يرى هذان الباحثان ، فالمتنبى لم يهج سيف الدولة بالمعنى الصحيح وإنما عاتبه وفرق بين العتاب والهجاء ، أما قضية هجاء المتنبى لكافور ، فهى مسألة واضحة جدًا ، وأن موقف الشاعر لم يتغير من كافور أبدًا إذ أنه وعد المتنبي إلى إجابة طلبه ، وعندما لم ير من كافور إجابة طلبه لم ير أمامه سلاحًا سوى شعره .

والطريف أننا نجد المتنبي يدرك أمر الصدق والكذب فى الشعر على وجه صحيح ويأبى إلاَّ أن يفصل بين المشاعر الحقيقية للشاعر إزاء الممدوح وشعره ، ويجعل الرابطة الوحيدة بينهما قضية - محصنة حتي لا يقحم الشاعر فى موقف أخلاقى أو سياسى بالضرورة ونستنتج ذلك فى الحقيقة من قوله يعاتب سيف الدولة :

---

(١) المصدر السابق / ٤/ ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

حَنَانَيْكَ مَسئُولاً ، وَلَبَّيكَ دَاعِيًا وَحَسْبِي مَوهُوبًا ، وَحَسْبُكَ وَاهِبَا
أَهَذَا جَزَاءُ الصِّدقِ إنْ كُنْتَ صَادِقًا أَهَذَا جَزَاءُ الكِذْبِ إنْ كُنْتُ كَاذِبًا ؟ (١)

ومع ذلك فقد صور الباحث المتنبى فى صورة أفاك كبير يحمل « لافتة » كذاب من الطراز الحقير جدًا أخلاقيًا واجتماعيًا . وهذا لعمري تجن كبير على علم من أعلام أدبنا القديم وجهل فادح بتقاليدنا النقدية . وصدق المتنبى حين قال :

وَكَم مِنْ عَائِبٍ قَولاً صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الآذانُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ القَرِيحَةِ وَالعُلُومِ (٢)

والمبالغة وإن كانت من ركائز الكلام عند العرب أو قل من صفات العرب إلاَّ أنها عند أبى الطيب من الصفات القاتمة بنفسه وبشعره فضلا عن عروبته الخالصة . ولا شك أن مزاج أبى الطيب من الصفات القاتمة بنفسه وبشعره فضلاً عن عروبته الخالصة . ولا شك أن مزاج أبى الطيب الحاد وطبيعته المهيمنة وهمته البعيدة وطموحه ، كلها عوامل دفعته به دفعًا إلى تطلب الغلو والتطرف فى المدح والهجاء . كما دفع به هذا التكوين النفسى بالذات إلى التصرف فى التعبير وفى اللغة والاشتقاق والنحو بما لم يأت به الأوائل طلبًا للإعجاز ، وما ظاهرة استعمال التصغير فى شعره إلا صورة من صور الميل فى نفسه للتعبير عن الأشياء أو وصفها بشكل مبالغ فيه تحقيرًا أو تعظيمًا . وليس كما ذهب بعض النقاد بسبب ما فى نفسه من احتقار للناس والأشياء أو كما قال الآخر تأثرًا ببعض خصائص التغير لدى المتصوفة ، وإنْ كانت هذه الأمور من بعض ما يلاحظ فى شعره (٣) .

وتعظيم المتنبى لنفسه لا ينبغى أن يفسر على أنه جنون أو إغراق فى الغرور إنَّما هو فى حقيقته تعظيم للإنسان ولقدرة الإنسان . وهو حين يأخذه الغلو في

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٧٠ ، ٧١ .
(٢) المصدر السابق / ٤/ ١٢٠ .
(٣) منجى الكعبى / مظاهر العظمة والطموح فى شعر المتنبى / الآداب - السنة الخامسة والعشرون - العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ٢٨ .

مدح نفسه إنَّما يغالى فى الوقت نفسه فى الحط من هيبة السلطان . وتهوين شأنه والاستخفاف بحاشيته وأعوانه [1] .

وليس هنا تناقض بين طمــوح المتنبى وتعاظمــه وبين طلب النوال من الأمراء والبخل الشديد الذى شاع عنه ، ولا تناقض بــين الظاهرتين كما قد يلوح لنا الآن ، لأن نوال الملوك كان حقًا للشــاعر فى ذلك العصر لولاه لما استطاع الشــعراء الحياة ومع هذا لم يكن المتنبى يبتذل حقه مواقف المدح ولم ينزل إلى مدح كل طامع فى قصــيدة ولا رضى لنفســه مع الذين ارتضاهم لمديحــه . مقامًــا دون مقام الحــفاوة والكرامة ، فينشدهم الشعر وهو قاعــد أو يقف لديهم وقفة المهابة والتجلة . ومنهم من كان يتخلى له عن مكانه ويجلس بين يديه فى مــقام المادح من الممدوح ، ومع هذا وذاك لم ينس غــضاضــة النوال ولم يسكن إلى دوام هذه الحــال ، لأنه يريد أن يكون مشكورًا ولا شاكرًا لذوى الدسوت والأموال :

إِذَا الفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ   عَلَى هِبَةٍ ، فَالفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ [2]

ولا يغيبن عنــا أن الإنسان لن ينكر على نفسه طلب الجــاه إذا علم فيها عــيبًا من العيوب لأنه يحــابيها ويلتمس لها المــعاذير ولا يحاسبهــا كما يحاسبهــا أصدقاؤه وخصومه فإذا فرضنا أنَّ المتنبى كان بخــيلا فليس من اللازم أن يلومها ولا يجتهد فى تحمل أعــذارها ، وإذا فرضنا أنه لامسهــا فليس من المعقول أن يعــاديها ولا يتمنى لها مــا يتمناه المحب لحبيبــه فضلاً عن نفسه ، ولا سيمــا حين يقارن بينه ومن بلغوا الإمارة والمجد ، فيرى فيهم عــيوبًا شرًا من عيوبه . وقد يتخذ الرجل من الطموح إلى المجد عذرًا لاقتناء المال . فــالبخل لو فرضنا ثبت من هذا شيئًا عن أبى الطيب والفخر لا يتناقضان ، بل لا يتناقض البخل والمغامرة وعلو الهمة لما هو معروف من اشتهار كثير من عظماء الرجال بالتقتير الشديد الذى يخرج عن حد التدبير ، وإن حيــلة فى تمليق أصحابها لتجعل العظمة عذرًا للــنقيصة وتسوغ البخل كأنه ضرورة لا محيص عنها لنجاح المغامر الطموح فيما يتمناه [3] .

(١) عزيز عارف / الاتجاه الباطنى فى شعر المــتنبى / المورد - المجلد السادس - العدد الثالث - عدد خاص أبو الطيب المتنبى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧ م / ٩٩ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٤٩ .

(٣) عباس محمود العقاد / شخصية المتنبى من شعره / الهلال - عدد خاص عن المتنبى - المجلد الثالث والأربعون أول نوفمبر ١٩٣٤ م - أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٢٤ ، ١١٢٥ .

وقد كان فى المتنبى جفاء وخشونة ، وقد كانت القوة آخذة كل مأخذ من نفس هذا الرجل ولهذه القوة فضائل تنشق عنها وتنشأ منها ومن فضائلها الشجاعة وعظم الهمة والأنفة والتثبت والنجدة والشهامة (١) .

الشجاعة : أى التهاون بالأمور والإقدام على ما ينبغى كما ينبغى ولذلك كان شجاعًا مقدامًا لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه يقول :

وَلَو أَنَّ الحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا الشُّجْعَانَا
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَوتِ بُدٌّ فَمِنَ العَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا (٢)

عظم الهمة : أن استصغار ما دون النهاية من معالى الأمور حيث كان ذا همة لا منتهى لها وأظنه أكبر الشعراء المتأخرين علو همة وكبر نفس وقد كانت نفسه ترمى به المرامى فيراها وأن الغبن والزمان يعاكسه والدهر يحاربه ويبكى حاله فيقول :

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبُهَا أَنِّى بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنهُ مَحْسُودُ ؟ (٢)

ويقول :

ذَرينى أنل مـا ينال من العلا فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

الحمية : أى الغضب عند الإحساس بالنقص ، كان أبو الطيب من أشد الناس غضبًا عند الإحساس بالنقص وهو القائل :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم (٣)

---

(١) محمد توفيق البكرى / أخبارم أبي الطيب المتنبى / القاهرة ط الأميرية ببولاق - ١٣١١هـ ، ١٢ ، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ . ومناقب المتنبى ومعايبه / المقتطف - الجزء الأول - من السنة السابعة عشرة ١ أكتوبر ١٨٩٢ م - ١٠ ربيع الأول سنة ١٣١٠ هـ / ٣٦٦ ، وعلى أدهم / أبو الطيب بين الأصالة والاستعارة / الكويت - العربى - العدد ٢٦٣ ، ذو القعدة - ١٤٠٠ هـ أكتبور ١٩٨٠م / ٦٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٢٤١ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى/ المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٨٨ .

الأنفــــة : أى بعد النفس عن الأمـور الدنيئة ، كان مـن طبع أبى الطيب النفور والبعد عن الأمور الدنيئة والمواطن الخسيسة ونحوها وهو القائل :

ذَلَّ مَنْ يَـغْـبِـطُ الذَّلِيـلَ بِعَـيشٍ ... رُبَّ عَـيشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِـمَـامُ

مَنْ يَـهُنْ يَسْـهل الهَـوَانُ عَلَيْـهِ ... مَـا لِجُـرحٍ بِمَـيِّتٍ إيْلامُ [1]

التثبت : وهو الفضيلة التـى يقوى بها الإنسان على احتـمال الآلام ، وكان أبو الطيب صبورا على احتمال الآلام غير مـحتفل بالحوادث وقد جرب الزمان وتعلم من مصائبه شيئا كثيرًا يقول :

أَنْكَـرتْ طَارِقَـةَ الحَـوادِثِ مَـرَّةً ... ثُمَّ اعتَـرفْتُ بِهَـا فَـصَـارتْ دَيْدَنَا [2]

ويقول :

عَـرَفْتُ اللَّيـالِي قَبْلَ مـا صَنَعتْ بِنَا ... فَلَمَّـا دَهَتْنِي لَمْ تَزِدْنِـي بِهَـا عِلْـمَـا [3]

النجدة : أى ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يجاورها فزع قال أبو الطيب فى نفسه :

أُطَاعِنُ خَـيْـلاً مِنْ فَـوارِسِـهَـا الدَّهْرُ ... وَحِيدًا ، وَمَا قَولِى كَذَا وَمعِى الصَّبْرُ ..!

وَأَشْـجَعُ مِنِّـى كُلَّ يَومٍ سَـلامَـتِى ... وَمَـا ثَبَـتَتْ إلاَّ وَفِى نَفْـسِـهَـا أَمْـرُ

تَمَـرَّسْتُ بالآفَـاتِ حَـتَّى تَرَكْـتُـهَـا ... تَقُولُ : أَمَاتَ المَوتُ أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ...!

وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ الأَتِّى كَـأَنَّ لِي ... سِوَى مُهْـجَتِى أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ [4]

الشهامة : وهى الحرص على الأعمال العظام توقعًا للأحداث - قضى أبو الطيب معظم عمره فى هذا السبيل يقول :

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٩٣ / ٩٤ .

(٢) المصدر السابق / ٤/ ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق / ٤/ ١٠٤ .

(٤) المصدر السابق / ٢/ ١٤٨ .

إذَا لَمْ تَجِـدْ مَـا يَبْتُـرُ الفَقْـرَ قَـاعِـدًا   فَـقُمْ وَاطْلُبِ الشَّىءَ الَّذِى يَبْتُـرُ العُمْـرَا
همـــا خَلَّتَــــانِ : ثَرْوَةٌ أَوْ مَنِيَّـــةٌ   لَعَلَّـكَ أَنْ تَبْـقَى بِـواحِـدة ذِكْـرَا [1]

الوفـاء : وكان المتنبى وفيا لأصدقائه متوددًا إليهم ، وظهر ذلك فى مراثيه وفى حنينه لأصدقائه . وقد كان صادقًا حين قال :

وَيَزِيدُنِى غَـضَبُ الأعَـادِى قَسْـوَةً   وَيُلِمُّ بِى عَـتْبُ الصَّدِيقِ فـأَجْزَعُ [2]

وهذا مثل على شدته بأعدائه ، ومثل على رقته مع أصدقائه .

وحين نشرح موقف المتنبى من المرأة والتغزل بها ، تعود إلى ذهن القارئ أسئلة كثيرة ومتعددة حول حب المتنبى وغزله بالمرأة وموقفه منها ، إننا حين نعود إلى قراءة شعره حول المرأة نجده قليلاً بالنسبة إلى شعره فى كل الأغراض، فما السبب فى ذلك ؟؟ ولماذا جنح أبو الطيب كثيرًا عن تغزله بالمرأة ؟؟ إن من الأسباب الواضحة لدينا طموح المتنبى وهو عنصر المأساة فى شخصيته ، فقد نشأ صراع فى نفسه بين الواقع والمثال ، بين الشاعر والسلطان الذى كان الشاعر يتمنى أن يكونه ، وهذا مأساوية حياة المتنبى .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن حياة أبى الطيب العريضة التى كانت دائمًا فى حالة تطلع إلى المجد عامرة بالأسفار والآلام التى وجد نفسه مرغمًا عليها، زكبرياءه الشامخة التى جعلته أقرب إلى الاكتفاء بنفسه عن العالم ، كل هذا شغله عن المرأة وقضية الحب التى تشغل غيره من الشعراء ، وكثير من الباحثين والكتاب رأوا فى أبى الطيب شاعر الآمال الواسعة ، وقالوا إنَّه لم يعشق إلاَّ نفسه - وَإنَّ هذه النفس لم تكن تتسع بحال من الأحوال لحب امرأة حبًا عاديًا مثل كل حب عادي . ولا شك فى أن هذا الرأى الذى خاض فيه كل من درس أبو الطيب أبعد ما يكون عن الصواب - **أولا** - إنَّ الطموح وامتلاء الذات بالكبرياء والزهو لا يعطل الغريزة الطبيعية فى الإنسان خاصة إذَا كان شاعرًا حساسًا ينبض قلبه بكل

---

(١) المصدر السابق / ٢/ ١١٤ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى ت/ ٢/ ٢٦٩ .

ما فى الحياة من متعة وبهجة وحياة ، والمرأة فى مقدمة متع هذه الحياة ، **ثانيـا:** أن من كانت حيـاته عاصفة مـملوءة بالمرارة مثل حيـاة أبى الطيب هو أحوج من غيره للحب والعاطفة للتخفـيف من هجير العداوات التى تحيط به ، وقد كان أبو الطيب كثير الأعداء يكسب الأعداء بسهولة منقـطعة النظير بسبب شموخه ومكانته الشعرية واعتزازه بنـفسه واحتقاره الدائم للآخرين ، ولقد كانت الـعاطفة الإنسانية عنصراً بارزاً فى شعره برغم قسوته . **ثالثًا** : أن قارئ ديوانه يدهش لكثرة الشعر العاطفى فيـه ، ومن الحق أيضًا أن نقول : إنَّ القصائد التى خلصت كـاملة لشعر العاطفة قليلة ، ولكن من الحق أيضًا أن نقول : إنَّ القصائد التى خلت من الشعر العاطفى قليلة جدًا أيضًـا ، إنَّ ربع ديوانه تقريبًا إذا أخذنا بمقدمـات القصائد هو من شعر الحب والغزل ولا شك فى أن هذا الشعـر العميق الرؤى والواسع الخيال والخبير بحقيقة المرأة يؤكد أن شعره نشأ عن تجارب متصلة [(١)] .

وربما لم يشأ المتنبى أن يكتب قصائد كاملة مكرسة للحب لأنه يرى أولاً : أن مكانته الشعـرية قد ألزمته نوعًـا من الرزانة والوقار وادعاء الحكمة مـما يجعل الإفاضة فى شعر الحب نوعًا من اللهو والعبث الذى لا يليق به ، كما أنَّ مشاغل المتنبى الكثيرة واهتمامه بالدفاع عن مـركزه كشاعر فى كنف فارس وملك كسيف الدولة قد جعلته يكرس شـعره لمدحه أولاً ، ولإعجابه الشديد به كـفارس جسَّد الصورة المثلى للعـصر ، ثم من ناحية أخرى بـاعتباره وسينة المـتنبى إلى المجد وإرغام أنفس الحـاقدين عليه وحـاسديه ، ولكن هذا الشاعـر العظيم الذى صور معارك سيف الدولة ومجده قد انطوى على عـواطف جامحة متأججة ، ولا شك فى أن أبا الطيب لم يجد الزمن ولا الوقت والفرصة لكى يفرد لها قصائد كاملة . وكانت هذه المـقدمات الغزلية تجنب الـشاعر ما حرص على تجنبـه من تعريض وقاره للاهتزاز أو كشف عواطفه أمام أعدائه وما أكثرهم [(٢)] .

وقد كان أول شعر نظمه ارتجالاً قوله وهو صبى :

---

(١) محمـد إبراهيم أبو سنة / دراسات فى الشعـر العربى / اقرأ ٤٥٢ ، ديسـمبر ١٩٧٩م ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) خليل شيبوب / غزل المتنبى – المقتطف – الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين – شعبان سنة ١٣٥٤ هـ نوفمبر ١٩٣٥م / ٤٢١ .

بأبى مَنْ وددْتُه فَافْتَرقْنَا   وَقَضى اللّهُ بَعْدَ ذَاكَ اجْتِمَاعَا
وَافْتَرَقْنَا حَولاً فلَمَّا التَقَيْنَا   كَانَ تَسليمُهُ علَىَّ وَدَاعَا (١)

ولا شك فى أن البيتين يجيشان بعاطفة أصيلة صادقة ، وذلك واضح منذ البداية بالقسم بأبيه ثم فى اختيار أرق الألفاظ للتعبير عن عاطفته ، ولكن عبقرية الشاعر الحقيقية تتضح فى هذا المعنى الرائع « كان تسليمه على وداعا » وشعر الصبا عامر بالإشارات إلى هذا الإعجاب الشديد بالنساء ، مثل قصيدته التى يشير فيها إلى دار أثلة وهى موضع بظاهر الكوفة :

كَمْ قَتيلٍ ، كَمَا قُتلْتُ ، شَهيدِ   بِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ
وَعُيُونُ المَهَا ، وَلاَ كَعُيُونٍ   فَتَكَتْ بالمُتَيَّمِ المَعْمُودِ
عَمْرَكَ اللّهَ هَلْ رَأَيتَ بُدُوراً   طَلَعَتْ فى بَرَاقِعٍ وَعُقُودِ
رَامِيَاتٍ بأَسْهُمٍ رِيشُهَا الهُدْ   بُ تَشُقُّ القُلُوبَ قَبلَ الجُلُودِ
يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِى رَشَفَاتٍ   هُنَّ فِيهِ أحلى مِنَ التَّوحِيدِ
كُلُّ خُمْصَانَةٍ أَرَقُّ مِنَ الخَمْرِ   أَقْسَى مِنَ الجُلْمُودِ
ذَاتُ فَرْعٍ كَأَنَّمَا ضَرَبَ العَنْبَرُ   فِيهِ بمَاءِ وَرْدٍ وَعُودِ
تَحْمِلُ المِسْكَ عَنْ غَدَائِرِهَا الرِّيحُ   وَتَفْتَرُّ عَنْ شَتِيتٍ بَرُودِ
هَذِهِ مُهْجَتِى لَدَيْكِ لِحَيْنِى   فَانْقصِى مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيدِى (٢)

وواضح فى هذه القصيدة أنها فعلاً من قصائد المرحلة الأولى من حياته، ففيها تأثر مباشر بمحفوظاته من الشعر العربى القديم خاصة البيت الأول الذى يستدعى بيت جميل بن معمر :

لِكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ   وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٢٧٩ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبي / ١/ ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ .

كمــا أن الشاعــر يهتم فى وصــفه بالأوصاف الحــسيــة الخارجــية ، ولا شك فى أن الأوصاف الخارجية هى أول ما يلفت الغر الســاذج . كما توحى الأبيات بنرجسية أبى الطيب حيث يصور إقبال النساء عليه « يترشفن من فمى رشفات » ولو كان ناضجًا فى ذلك الوقت لأدرك أن من العيب أن يصور نفسه هذا التصوير السلبى(١) .

ويتقدم المتــنبى فى العمر والتجربة والنضج فتطالعنا هــذه الأبيات الراسخة التى تنبئ عن تعمق وفهم يقول :

حُشَاشَةَ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يومَ وَدَّعُوا ... فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أُشَيِّعُ
أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ ... تَسِيلُ مِنَ الآمَاقِ وَالسُّمَ أَدْمُعُ
حَشَايَ عَلَى جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ الهَوَى ... وَعَيْنَايَ فِى رَوْضٍ مِنَ الحُسْنِ تَرْتَعُ
وَلَو حُمِّلَتْ صُمُّ الجِبَالِ الَّذى بِنَا ... غَدَاةَ افْتَرَقْنَا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ
بِمَا بينَ جَنْبَيَّ الَّتى خَاضَ طَيْفُهَا ... إِلَى الدَّيَاجِى وَالخَلِيُّونَ هُجَّعُ
أَتَتْ زَائِرًا مَا خَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَهَا ... وَكَالمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ
وَمَا جَلَسَتْ حَتَّى انْثَنَتْ تُوسِعُ الخُطَى ... كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ
فَشَرَّدَ إِعْظَامِى لهَا مَا أَتَى بِهَا ... من النوم وَالْتَاعَ الفُؤَادُ المُفَجَّعُ
فَيَا لَيْلَةً مَا كَانَ أَطْوَلَ بِتُّهَا ... وَسَمُّ الأَفَاعِى عَذْبُ مَا أَتَجَرَّعُ
تَذَلَّلْ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى القُرْبِ وَالنَّوَى ... فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ(٢)

هذه أبيات وردت فى مــقدمة قــصيدة مــدح ، ولكن من ذا الذى يترك نفســه لهذه الحيل الشعرية التــى يلجأ إليها الشعراء دائمًا فــيضعون أسرارهم فى غير مــوضعها ويصورون لواعج يوهمون بغيرها - ألم تكن قصائد المديح التى صاغها المتنبي فى أميره سيف الدولة من الاعتزاز والفخر بالشاعر كما تحمل من المدح للأمير .

---

(١) محمد إبراهيم أبو سنة / دراسات في الشعر العربى - اقرأ ٤٥٢ - ديسمبر ١٩٧٩م / ٢١ ، ٢٢ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

ولم تكن قصائد المتنبى تخلص لغرض واحد ولكنها كانت تصويراً بارعًا لتجربة حياته الكلية . هذه التجربة التى احتلت الحكمة فيها حيزاً واضحًا واحتل الفخر ووصف الحروب والغزل مكانًا لائقًا بها . وها هى أبياته تجئ من أعماق فؤاد يعرف جيداً مرارة الهوى ولوعة الحب ، خبير بهذه التجربة الإنسانية الكبيرة [1] .

جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمِى فِي مَفَاصِلِى | فَأَصْبَحَ لِى عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بِهَا شُغْلُ
وَمِنْ جَسَدِى لَمْ يَتْرُكِ السُّقْمُ شَعْرَةً | فَمَا فَوقَهَا إلاَّ وَفِيهَا لَهُ فِعْلُ
إِذَا عَذَلُوا فِيهَا أَجَبْتُ بِأَنَّهً | حُبَيِّبَتَا قَلْبًا فُؤَادَا هَيَا جُمْلُ
كَأَنَّ رَقِيبًا منْك سَدَّ مَسَامِعِى | عَنِ العَذْلِ حَتَّى لَيس يَدْخُلُهَا العَذْلُ
كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يعشق مُقْلَتِى | فَبَيْنَهُمَا فِى كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ
أُحِبُّ الَّتِى فِى البَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ | وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لاَ يصاب لَهُ شَكْلُ [2]

وهذا شعر صادق فى التعبير عن العاطفة الصادقة .

وهنا يثور سؤال جوهرى هل كان أبو الطيب عاشقًا أبديًا حيث إنَّ معظم قصائده بدئت بالغزل وهل هذا منطقى ؟ والرد على هذا السؤال هو أن المتنبى كان فى معظم قصائده يعبر عن نفسه وما يجيش فيها من مشاعر وعواطف ، فلم يكن شاعراً عبداً لممدوحه يرجو منه النوال فحسب ، بل كان شاعراً حراً يكرس شعره لنفسه قبل أن يكرسه لغيره ، ومن هنا فما الذى يمنع أن يكون المتنبى إنما يعبر عن لوعة حب صادق مر به فى حياته ، وكان المتنبى شاعراً نابه الذكر شهيراً، ولا شك فى أنه كانت له معجبات يفضلن ويتقن إلى الاستماع له ، وكانت لديه الفرصة كبيرة لرؤية الجميلات وما الذى يمنع قلبًا مثل قلبه أن يكون معلقًا بالجمال طوال حياته، ثم إنَّ أبا الطيب كشاعر كبير كان حراً فى اختيار مقدمات قصائده وليس من المنطقى أن نتصور أن المتنبى كان أسير التقليد العربى القديم بافتتاح القصائد بالغزل وهو نفسه لم يلتزم دائمًا بهذا التقليد . كما أنَّ هذا

(١) محمد إبراهيم أبو سنة / دراسات فى الشعر العربى - اقرأ ٤٥٢ ديسمبر ١٩٧٩ / ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني - الجزد الثالث / الجزد الثالث / ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

التقليد كان يهدف إلى جذب النفوس إلى الاستماع إلى القصيدة بما للغزل من أثر طيب فى النفوس[(١)].

وقد وصل به الحد إلى أن نبذ الاستهلال فى القصيدة بالغزل على طريقة أسلافه من الشعراء وصار يدخل مباشرة فى موضوعه والشواهد على ذلك متعددة[(٢)].

وها هو المتنبى فى واحدة من أعظم قصائده - يصرح بأنه ليس ممن يعشق ولكن ما حيلته أمام الجمال ، هو نفسه يعرف أن الطبيعة الإنسانية ليست صماء أمام الجمال يقول :

لعَيْنَيْكِ مَا يَلْقَى الفُؤَادُ ومَا لَقِى ... وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّى وَمَا بَقِى
ومَا كُنْتُ ممَّنْ يَدْخُلُ العشْقُ قَلْبَهُ ... وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَك يَعْشَقِ
وبَينَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى ... مَجَالٌ لِدَمْعِ المُقْلَةِ المُتَرَقْرِقِ
وَأَحْلَى الهوَى مَا شَكَّ فِي الوَصْلِ ربُّهُ ... وَفِى الهَجْرِ فَهُوَ الدَّهْرُ يَرْجُو ويَتَّقِى
وَغَضْبَى مَنَ الإدْلاَلِ سَكْرَى من الصبَّا ... شَفَعْتُ إلَيهَا مِنْ شَبَابِى بريِّقِ
وَأَشْنَبَ مَعْسُولِ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ ... سَتَرْتُ فَمِى عَنْهُ فقبل مَفْرَقِى
وَأَجْيَادِ غِزْلاَنٍ كَجِيدِكَ زُرْتَنِى ... فَلَمْ أَتَبَيَّنْ عَاطِلاً مِنْ مُطَوَّقِ
وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعِفُّ إذَا خَلاَ ... عَفَافِى ويُرْضِى الحُبَّ وَالخَيْلُ تَلْتَقِى
سَقَى اللَّهُ أَيَّامَ الصِّبَا مَا يَسُرُّهَا ... وَيَفْعَلُ فِعْلَ البَابِلِيِّ المُعَتَّقِ
إذَا مَا لَبِسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتِعًا بِهِ ... تَخَرَّقْتَ وَالمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ
وَلَمْ أَرَ كَالأَلْحَاظِ يَومَ رَحِيلِهِمْ ... بَعَثْنَ بِكُلِّ القَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ

---

(١) محمد إبراهيم أبو سنة / دراسات في الشعر العربى - اقرأ - العدد ٤٥٢ ديسمبر ١٩٧٩م / ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) خليل شيبوب / غزل المتنبى / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين - شعبان سنة ١٣٥٤ هـ - نوفمبر ١٩٣٥م / ٤٢٥ .

أَدرْنَ عُـيُـونًا حَـائـرَات كَـأَنَّهَـا		مُـرَكَّـبَـةٌ أَحْـدَاقُـهَـا فَـوقَ زئْبَق
عَـشِـيَّـةَ يَعْـدُونَا عَنِ النَّظَرِ البُكَى		وَعَنْ لَذَّةِ التَّـوديعِ خَـوفُ التَّـفَـرُّقِ [(١)]

لم يكن المتنبى إذَنْ بطموحه وشموخه يتخرج عن دائرة الإنسانية ، ولو خرج من دائرة الإنسانية لما وقع هذا العذاب الذى تجرع مرارة كئوسه طوال حياته بسبب العجز عن التوحيد بين الواقع والخيال . كان أبو الطيب شخصًا عشق كما يعشق الشعراء ولكنه آثر أن يطوى لواعج نفسه فى ثنايا قصائده التى كرسها لخدمة مجده. كان يتقى أعداءه لأنه كان كثير الأعداء ، وقد مر شعره فى الغزل بنفس مراحل النضج التى مر بها شعره كله [(٢)].

ولم يفت المتنبى أن يعرف الحب منذ نشأته وحالاته وكيف يطغى على العقل ويغلب العاطفة على الفكر ويعقل الإرادة فقال :

وَمَـا هِيَ إلاَّ لَحْـظَةٌ بَعْـدَ لَحْـظَةٍ		إِذَا نَزلَتْ فِـي قَلْبِـهِ رَحلَ العَـقْلُ [(٣)]

وقال أيضًا فى باب التعريف :

الـحُبُّ مَـا مَنَع الـكَلاَمَ الأَلْـسُنَـا		وَأَلَذُّ شَـكْوى عَـاشِقٍ مَـا أَعْلَنَا [(٤)]

ويعتبر هذا البيت من أدق الملاحظات النفسية المتوافرة فى الديوان . وقد اشتط بعض النقاد حينما وهم أن فى البيت تنافرًا معنويًا إذ زعم أن الحب يمنع اللسان الكلام ، وأن الشكوى لا تعلن إلاَّ بالكلام الذى منعه الحب فكيف يكون ذلك ؟ على أن هذا الاعتراض لا يؤبه له إذَا علمنا أن العاشق الصادق يذهب فى مواقف الغرام ويختبل حتى لا ينبس بحرف وهذا معني صدر البيت ثم إنَّه لابد له أن

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /٢/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
(٢) محمد إبراهيم أبو سنة / دراسات فى الشعر العربى - اقرأ العدد ٤٥٢ ديسمبر ١٩٧٩م / ٢٥، ٢٦ وخليل شيبوب / غزل المتنبى / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين شعبان ١٣٥٤ هـ - نوفمبر ١٩٣٥ / ٤٢٤ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٩٨ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى /٤/ ١٩٥ .

يشكو فإذا أعلن شكواه شعر بلذة غريبة قريبة من بعض اللذة التى يحدثها الألم وهذا معنى عجز البيت . وفى تناقض العشق والعقل [(١)] يقول المتنبى :

يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعْ فِئَةً   أَضَلَّهَا اللَّهُ كَيفَ تُرْشِدُهَا [(٢)]

ويقول أيضًا :

إِلاَمَ طَمَاعِيَةُ العَاذِلِ   وَلاَ رَأْيَ فِي الحُبِّ لِلْعَاقِلِ [(٣)]

هذا هو موقف المتنبى من العشق والغزل إلى السنة الأولى التى لحق بها الأمير الحمدانى .

وقد أبدع المتنبى يصف نفسه فى مواقف غزله بما ينطبق كل الانطباق على تعريف هذا الضعف من المحبين حيث يقول :

فَمَا أُمُرُّ بِرَسْمٍ لاَ أُسَائِلُهُ   وَلاَ بِذَاتِ خِمَارٍ لاَ تُرِيقُ دَمِى [(٤)]

وحيث يقول :

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِى فُؤَادٌ شَيِّقُ [(٥)]

وحيث يقول على التعميم :

الثَّغْرُ وَالنَّحْرُ وَالمُخَلْخَلُ وَالمِعْـ   ـصَمُ دَائِى وَالفَاحِمُ الرَّجِلُ [(٦)]

وهكذا لا يمر بربع إلاَّ وقف يسأله قطينه أين ذهبوا وماذا جري لهم ولا يرى ذات خمار إلاَّ استشف جمالها من وراء خمارها فشعر أنه يموت حيًا وهو ما كنى عنه

---

(١) خليل شيبوب / غزل المتنبى / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين شعبان سنة ١٣٥٤هـ - نوفمبر ١٩٣٥م / ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٩٨ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ١٥٢ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٣٦ .

(٥) المصدر السابق / ٢/ ٣٣٢ .

(٦) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبي / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ٣٢٦ .

بإراقة دمه ، كما أنه يصبو لكل برق يلوح وطائر يترنم وإنَّما داؤه حب الثغر والمخلخل وسائر الأعضاء الجميلة ومظاهرها فأين تذهب بهذا تلك المحبوبة المنفردة التي يختصها بعاطفته ويقف عليها صبوته لذلك نرى أبا الطيب يفرط فى التغزل بالنساء عامة وبالحسان مجتمعات كقوله (١) :

الرَّامِيَاتُ لَنَا وَهُنَّ نَوافِرٌ وَالخَاتِلاتُ لَنَا وَهُنَّ غَوافِلُ (٢)

وقوله وهو فى درجة لا تدانى من الإبداع :

دِيَارُ اللَّوَاتِى دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ بِطُولِ القَنَا يُحْفَظْنَ لاَ بِالتَّمَائِمِ
حِسَانُ التَّثَنِّى يَنْقُشُ الوَشْىُ مِثْلَهُ إِذَا مِسْنَ فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ
وَيَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تقلدن مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِى وُشِّحَتْ بِالمَبَاسِمِ (٣)

ويتسم شعره بالعطف والحنان وذلك فى مثل قوله :

قَدْ كُنْتُ أُشْفِقُ مِنْ دَمْعِى عَلَى بَصَرِى فَالَيَومَ كُلُّ عزِيزٍ بَعْدَكُمْ هَانَا (٤)

وقوله فى موقف الوداع :

وَلَو زُلْتُمُ ثُمَّ لَمْ أَبْكِكُمْ بَكَيتُ عَلَى حُبِّى الزَّائِلِ (٥)
تَنَفَّسَتْ عَنْ وَفَاءٍ غَيْرِ مُصْدِعٍ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَشَعْبٍ غَيرِ مُلْتَئِمِ
قَبَّلْتُهَا وَدُمُوعِى مُزْجُ أَدْمُعِهَا وَقَبَّلَتْنِى عَلَى خَوفٍ فَمًا لفم (٦)

---

(١) خليل شيبوب / غزل المتنبى / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين شعبان سنة ١٣٥٤هـ - نوفمبر ١٩٣٥م / ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ٣٦٨.
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الرابع / ٢٣٧ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٢٢ .
(٥) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / الجزء الثالث / ١٥٣ .
(٦) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٣٦ ، ٣٧ .

ولقد تركت القبل فى فمه طعمًا تناولته شاعريته الكبيرة فوضعته موضع التشبيه البارع حيث قال :

لِلَّهْوِ آوِنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا ... قُبَلٌ يُزَوِّدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ [(١)]

ولابد هنا من الإشارة إلى افتتان المتنبى بجمال العينين لوفرة ذكرهما فى شعره فهل كان ذلك مصادفة شعرية أم هو افتتن بذات عينين جميلتين انطبعت صورتهما فى قرارة صدره حتى قال [(٢)] :

عَزِيزُ أسى مَنْ دَاؤُهُ الحَدَقُ البخل ... عَيَاءٌ بِهِ مَاتَ المحبون مِنْ قَبْل [(٣)]

وقال :

وَعُيُونُ المَهَا ، وَلاَ كَعُيُونٍ ... فَتَكَتْ بِالمُتَيَّمِ المَعْمُودِ [(٤)]

وقال :

وَفَتَّانَةَ العَيْنَيْنِ قَتَّالَةَ الهَوَى ... إذَا نَفَحَتْ شَيْخًا رَوَائِحُهَا شبا [(٥)]

وقال أيضًا :

أَلَمْ يَرَ هَذَا اللَّيلُ عَيْنَيْكَ رُؤْيَتِي ... فَتَظْهَرَ فِيهِ رِقَّةٌ وَنُحُولُ [(٦)]

ولقد أشار إلى أن الجمال أكثر ما يكون فى العينين حيث قال :

الحَسْنُ يَرْحَلُ كُلَّمَا رَحَلُوا ... مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ حَيْثُمَا نَزَلُوا

فِي مُقْلَتَى رَشَأٍ تُدِيرُهُمَا ... بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الحِلَلُ [(٧)]

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني - الجزء الثالث / ٣٧٠ .

(٢) خليل شيبوب / غزل المتنبى / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين شعبان ١٣٥٤ هـ نوفمبر ١٩٣٥م / ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبي / المجلد الثانى / الجزء الثالث / ٢٩٦ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣١٣ .

(٥) المصدر السابق / ١/ ٥٩ .

(٦) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ٢١٩ .

(٧) المصدر السابق / المجلد الثانى / الجزء الثانى / الجزء الرابع / ١٦ ، ١٧ .

وما أحسن قوله :

كُلُّ جَـرِيـحٍ تُرْجَى سَـلاَمَـتُـهُ إلاَّ فُـؤَادًا دَهَـتْـهُ عَـيْنَاهَا [1]

وبعد فنحن لا ننكر الحب على المتنبى لأنه ظاهرة مشتركة بين الناس ومن هنا فهو صور الحب فى مقدمات قصائده وهى ولا شك مقدمات تعطينا صورة الغزل والحب عنده ، ولكن هذا الحب أو الغزل لا يبعده عن أهدافه الأساسية ، وآماله الكبيرة .

وهو فى هذا الغزل محتفظ بكرامته ، لا يذل في الشوق والهيام ، ولا يتقرب إلى المرأة فى إسفاف أو انحدار ، إذ لا ينزل به الغزل إلى الهوان الذى ينزل إليه ضعفاء الإرادة من المتغزلين . فمنتهى ما يتقرب به إلى المرأة أن يقول :

زَوِّدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِك مَادَا مُ فَحُسْنُ الوُجُوهِ حَالٌ تَحُولُ
وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هَذِه الدُّنْيَا فَإنَّ المُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ
إنْ تَرَيْنِى أَدمْتُ بَعْدَ بَيَاضٍ فَحَمِيدٌ مَنَ القَنَاةِ الذبُولُ [2]

أو يقول :

إنَّ الَّتِى سَفَكَتْ دَمِى بِجُفُونِهَا لَمْ تَدْرِ أَنَّ دَمِى الَّذِى تَتَقَلَّدُ
قَالَتْ وَقَدْ رَأَتْ اصْفِرَارِى : مَنْ بِهِ ؟ وَتَنَهَّدَتْ فَأَجَبْتُهَا المُتَنَهِّدُ
فَمَضَتْ وَقَدْ صَبَغَ الحَيَاءُ بَيَاضَهَا لَوْنِى كَمَا صَبَغَ اللُّجَيْنَ العَسْجَدُ
رأيت قَرْنَ الشَّمْسِ فِي قَمَرِ الدُّجَى مَتَأودا غُصْنٌ به يَتَأَوَّدُ
عَدَوِيَّةٌ بَدَوِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا سَلْبُ النُّفُوسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوقَدُ [3]

وفى هذه الأبيات يضع نفسه من محبوبة فى مكان من يستحق أن يقاسم الحب. وأن يكون نصيبه منه عندها كنصيبها منه عنده ،وهذا على ما نظن يتفق

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٧١ .
(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني - الجزء الثالث / ٢٦٨، ٢٦٩ .
(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

والدعوة للمساواة ! على أنه لا يواصل محبوبته إلاَّ إذَا واصلته . فإذا كان يجود بالوصال فإنه يجود به . وهو إذا رضى بسفك دمه ، فإنما لأن محبوبته لا تعلم أن دمه هو الذى يسفك . ولو أنها علمت لما سفكت . حتى إذا رأته فى إصفراره أشفقت وتنهدت كتنهده ، وقابلته بمثل ما قابلها به . وفى ذلك ما فيه من الاعتداد بالنفس والحرص على الكرامة حتى فى الحب ، أما الذل فلا يقبله بحال من الأحوال :

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَينَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُودِ

فاطْلبُ العِزَّ فِي لَظَّى وَذَرِ الذُّلَّ وَلَو كَانَ فِى جِنَانِ الخُلُودِ [1]

كذلك كانت كبرياء أبى الطيب . وكذلك كان ترفعه . وهو ترفع يشرف الشعراء حقًّا . وهو فضيلة خلقية من أسمى فضائل الأدب [2].

والحق أن حياة المتنبى كان لها صلة بشعره ، فإذا نظرنا فى طائفة من شعره تبين لنا أن بين حياته الخاصة وهذا الشعر كثيرا من التناسب ، فمعظم شعر المتنبى يكاد يكون صورة هذه الحياة التى ملئت بالقلق والاضطراب والتعب . لم تكن الحياة فى نظر أبى الطيب حياة راحة وهدوء . فالذين يريدون أن يعيشوا هذه العيشة التي وصفها المتنبي ينبغى أن يهيئوا أنفسهم للكثير من الجهاد . جاهد المتنبى فى حياته فنازع وزاحم وطاعن فكانت هذه الحياة المملوءة بالمنازعة والمطاعنة والجهاد ملء شعره ، فهو لم يصف هذا النوع من العيشة إلاَّ بعد أن جربه وقاسى أهواله ولقى منه ما لقى . فالحياة التى يريدها أبو الطيب إنَّما هى الحياة السالمة من كل ضيم ومن كل راحة . وإذَا وازنا بين حياته الخاصة وفلسفته فى الحياة وجدنا صلة وثيقة بين هذين النوعين . إنه لم يذق الراحة كل عمره . إنَّه لم يتحمل الضيم فى ظلال الأمير الحمدانى ولا تحمله فى ظلال كافور ولا تحمله فى ظلال الوزير المهلبى ، فالمتنبي يعرض لنا فى شعره نمطًا من تعب

(١) المصدر السابق / ١/ ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) طاهر أحمد الطناحى / جنون العظمة فى المتنبى . فضيلة خلقية / الهلال - عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون أو نوفمبر ١٩٣٤م - أول أغسطس ١٩٣٥ / ١١٨٦ ، ١١٨٧ . وساعات من حياتى / أبحاث ودراسات في الأدب والفن والنقد / ٨٢ ، ٨٣ .

الحياة وجهدها ثم يضرب لنا مثلا لهذا النمط . أما المثل فهو حياته الخاصة من مبادئها إلى خواتيمها . علام نخاف فقد يقتل العاجز وهو آمن فى سربه . . . !! والمتنبى لم يخف الموت حتى فى الأيام التى تفتر فيها الأعصاب ويميل فيها الإنسان إلى الهدوء . فقد قاتل لما تعرض له بنو ضبه القتال الجدير به فلم يعجز ولم يهرب (١) .

ما أتعب حياة المتنبى ؟

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ   فَلاَ تَسْتَعِدَّنَّ الحُسَامِ اليَمَانِيَا
فَمَا يَنْفَعُ الأُسْدَ الحَيَاءَ مِنَ الطَّوَى   وَلاَ تُتَّقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا (٢)

ويقول :

لَمْ يَتْرُكُ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِى وَلاَ كَبِدِى   شَيْئًا تُتَيِّمُهُ عَينٌ وَلاَ جِيدُ (٣)

إنَّ له موقفًا خاصًا من المرأة وهى أس فى بناء علاقة الحب أو الزواج ، يتلخص فى أنها تعيق عن المطامح وتحد من الآمال . . . ولذا تغدو العلاقة بها نوعًا من القيود التى تحول دون بلوغ المرامى العظيمة ولا شك فى أن هذه نظرة قاصرة للمرأة ولكننا لن نعدم له عذراً حين نضعها ضمن موقفه الموحد الخاص ، من عصره فما دام ذلك العصر مرفوضًا من قبله فلم لا يعرض عن المرأة وقد حولها ناموس الحياة إلى حاجة تجد نفسها مرغمة على الاحتيال والتلون من أجل البقاء؟ (٤) .

قَالَتْ أَلاَ تَصْحُو فَقُلْتُ لَهَا   أَعْلَمْتِنِي أَنَّ الهَوَى ثَمِلُ
لَوْ أَنَّ فَنَا خُسْرُ صَبَّحَكَمْ   وَبَرَزْتِ وَحْدَكِ عَاقَهُ الغَزَلُ

(١) شفيق جبرى / حياة المتنبي - حياة متعبة ممزوجة بالدم / الهلال - عدد خاص بالمتنبى المجلد الثالث والأربعون - أول نوفمبر ١٩٣٤م - أول أغسطس ١٩٣٥م / ١١٦٠ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٢٨٢ .

(٣) المصدر السابق / ٢/ ٤٠ .

(٤) حاتم محمد الصكر/ أبعاد عصرية فى شعر المتنبى / العراق - مجلة آفاق عربية - السنة الثانية - العدد ٣ تشرين الثاني ١٩٧٦م / ٤٨ .

وَتفَــرَّقَتْ عَـنكُمْ كَـتَـائِبُـهُ   إنَّ المِـلاَحَ خَـوَادِعٌ قُـتُلُ (١)

وكان شعر المتنبى بما فيه من جزالة وعذوبة وروعة وحيوية وحكمة بالغة فى أشد الغنى عن افتعال هذه المقدمات ، ولا شك أن الفضل فى كل هذا إنما هو حرارة الصدق التى تبدو واضحة وجلية فى كل أشعاره ولعل ما يقف حجة إلى جانب الرأى القائل بأن المتنبى عرف المرأة معرفة العاشق المجرب ، وهذا التحليل العميق لنفسية المرأة وَإنْ كان يبدو متحاملاً عليها ، إلاّ أنه يوحى بأن وراء التحليل خبرة واسعة وتجارب قاسية ، ولما كانت هذه التجارب قد حيل بينها وأن تظهر فى قصائد كاملة فإن مقدمات قصائده كانت خير مكان لهذه التجارب ، يقول فى مقدمة قصيدته التى يمدح بها الحسين بن على الهمذانى :

لَقَدْ حَازِنِى وَجْدٌ بِمَنْ حَازَهُ بُعْدُ   فَيَا لَيْتَنِى بُعْدٌ وَيَا لَيْتَهُ وَجْدُ
أُسَرُّ بِتَجْدِيدِ الهَوَى ذِكْرَ مَا مَضَى   وَإنْ كَانَ لاَ يَبْقَى لَهُ الحَجَرُ الصَّلْدُ
سُهَادٌ أَتَانَا منْك فِى العَيْنِ عِنْدَنَا   رُقَادٌ ، وَقُلاَّمٌ رَعَى سِرْبِكُمْ وَرْدُ
مُمَثَّلَةٌ حَتَّى كَأَنْ لَمْ تُفَارِقِى   وَحَتَّى كَأَنَّ اليَأْسَ مِنْ وَصْلِكِ الوَعْدُ
وَحَتَّى تَكَادى تَمْسَحِينَ مَدَامِعِي   وَيَعْبُقُ فِي ثَوْبَىَّ مِنْ رِيحِك النَّدُّ
إذَا غَدَرَتْ حَسْنَاء وَفَّتْ بِعَهْدِهَا   فَمِنْ عَهْدِهَا أَنْ لاَ يَدُومَ لَهَا عَهْدُ
وَإنْ عَشِقَتْ كَانَتْ أَشَدَّ صَبَابَةً   وَإنْ فَرِكَتْ فَاذْهَبْ فَمَا فَرْكُهَا قَصْدُ
وَإنْ حَقَدَتْ لَمْ يَبْقَ فِى قَلْبِهَا رِضًا   وَإنْ رَضِيَتْ لَمْ يَبْقَ فِى قَلْبِهَا حِقْدُ
كَذَلِكَ أَخْلاَقُ النِّسَاء وَرُبَّمَا   يَضِلُّ بِهَا الهَادِى وَيَخْفِى بِهَا الرُّشْدُ
وَلَكِنَّ حُبًّا خَامَرَ القَلْبُ فِى الصِّبَا   يَزِيدُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَشْتَدُّ (٢)

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان أبي الطيب المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ١٨ .
(٢) أبو البقاء العكبري / ديوان أبى الطيب المتنبي / ٢/ ٣ ، ٤ .

هذه الأبيات فى هذه القصيدة أبلغ دليل على ما ذهبنا إليه من أن أبا الطيب كان يضمن قصائده أغراضه الذاتية ، وإلاَّ فما الداعى لهذه الإفاضة فى تحليل أخلاق النساء ، وهو تحليل أقرب إلى نتائج التجارب منه إلى الحكم العامة ما علاقة الممدوح بهذا الفهم العميق للمرأة .

هذه الصورة المترابطة القوية التى تعبر عن وجهة نظر ممدوحه ما هى ضرورة وضعها فى هذا الموضع من المدح ؟ وربما يعثر بعض علماء البلاغة والنقد اللفظى على موازنات بين المقدمة والقصيدة ، ولكن ذلك يظل بعيداً عن طبيعة المتنبى الشامخة المعتزة بنفسها وقضاياها وشواغلها (١) .

ولقد كان المتنبى ممن يتحدث عن عصاميته واعتزازه بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته ولقد كان شبه بعيد عن روح الغزل فى أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغوانى ، وقلب أبى الطيب صلة ظاهرة ، فهو طالب مجد وداعى قوة وشاعر سيف ورسول فضيلة ومثل ، فما له وللغوانى والنسيب بهن ، والنسيب إنما هو وحى الحب الصادق والروح الوادعة والعواطف المتيمة حين يقع القلب فى أسر الهوى ، وما أبعد المتنبى عن ذلك ، وهل عرف الحب حقا من يقول (٢) :

وَمَا العِشْقُ إلاَّ غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ ... يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ

وَغَيرُ فُؤَادِى لِلغَوانِى رَمِيَّةٌ ... وَغَيرُ بَنَانِى لِلرِّمَاحِ رِكَابُ

---

(١) خليل شيبوب / غزل المتنبى / المقتطف - الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين شعبان ١٣٥٤هـ - نوفمبر ١٩٣٥م / ٤٢٢ . وحسن الأمين / الحب عند المتنبى / الرسالة - السنة الثانية عشرة عدد ٥٨١ رمضان سنة ١٣٦٣هـ أغسطس سنة ١٩٤٤م / ٦٩٥ ، ٦٩٦ . ومحمد إبراهيم أبو سنة / دراسات فى الشعر العربى / اقرأ العدد ٤٥٢ ديسمبر ١٩٧٩م / ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) محمد محمد توفيق / شهرة المتنبى - شهرة العظمة والفن الخالد / الهلال عدد خاص بالمتنبى - المجلد الثالث والأربعون - أول نوفمبر ١٩٣٤م - أول أغسطس ١٩٣٥م / ١٢٠٣ . وحسن الأمين / الحب عند المتنبى / الرسالة السنة الثانية عشرة - العدد ٥٨١ رمضان ١٣٦٣هـ أغسطس ١٩٤٤م / ٦٩٥ . ووديع ديب / تحت راية المتنبى / بيروت / مجلة الآداب - السنة الثانية العدد الثانى / فبراير ١٩٥٤م / ٤٨ .

تَرَكْنَا لأَطْرَافِ القَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ ... فَلَيسَ لَنَا إلاَّ بِهِنَّ لِعَابُ

أَعَزُّ مكَانٍ فِى الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ [(١)]

ولقد كان أبو الطيب موجه النظر إلى نفسه ونفوس الناس ، وإلى ما يظهر من أخلاقهم أكثر من توجهه إلى مظاهر المرئيات ، ولذلك ضؤل عنده وصف الطبيعة والمناظر الخارجية ، أما ما يتعلق بالعلاقة بين الفنان ومجتمعه ، فلا أحد يستطيع أن ينكر الاتصال الوثيق بينهما . فالفنان يستقى انفعالاته على اختلاف صورها من المجتمع الذى هو عضو فيه . ولكن الميزة التى تميز الفنان الملهم عن غيره هى الإرادة الخالقة التى هى انعكاس لشخصية الفنان ، ولا يمكن أن يكون الفن فنًا ذا قيمة إلاَّ إذَا توفرت فيه هذه الصفة [(٢)] .

ولقد صور المتنبى النفس الإنسانية فكان ترجمان عصره ، ومفسرًا لدخائلها، إذ نرى فى شعره إلمامًا واضحًا بهذه النفس وإذا قرأ القارئ قوله :

عَدُوِّى كُلِّ شَىءٍ فِيكَ حَتَّى ... لخلت الأُكْمَ مُوغِرَةَ الصُّدُورِ

فَلَو أَنِّى حُسِدْتُ عَلَى نَفِيسٍ ... لَجِدْتُ به لذى الجَدِّ العُثُورِ

وَلَكِنِّى حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِى ... وَمَا خَيْرُ الحَيَاةَ بِلاَ سَرُورِ [(٣)]

كان قد بلغ من تلك المرحلة النفسية قفرا موحشًا تختلط فيه الحقيقة بالخيال فى نفس بلغت من النفرة من الناس والشك فيهم مبلغًا يجعلها تشك فى الجماد ، وتخاله موغر الصدر كالبشر ، وهذه حالة حقيقية في النفس ، وإنْ اختلطت فيها الحقيقة بالخيال ، وهى من الحالات النفسية التى يجيد المتنبى وصفها [(٤)] .

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) محمود السمرة / مقالات فى النقد الأدبى / بيروت دار الثقافة / ٧٥ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ١٤٣ ، ١٤٤.

(٤) عبد الرحمن شكرى / المتنبى وسر عظمته / الرسالة - السنة السابعة - العدد ٢٩١ ذو الحجة ١٣٥٧ هـ يناير ١٩٣٩م / ١٩٥ .

وَمَنْ جَاهِلٍ بِي وَهْوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ ... وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِي جَاهِلُ
وَيَجْهَلُ أَنِّي مَالِكَ الأَرْضِ مُعْسِرٌ ... وأَنِّي عَلَى ظَهْرِ السِّمَاكَيْنِ رَاجِلُ
تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ ... وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي المَدَى المُتَطَاوِلُ (١)

وهى أبيات تدل على تفكير طويل فى أنواع النفوس بالنفوس ، وهو موضوع عميق كعمق الحياة ، ومجاهل أعماق النفس والحياة كمجاهل أعماق المحيط .

وهو يحيى فى هذه الحياة بضآلة مطالبها بالرغم من إقبال نفسه عليها فيقول:

وَمُرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ ... نَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانَى
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الأَنْـ ... ـفُسِ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا (٢)

وقد كان المتنبي قوى الشخصية موغلاً فى عصاميته ، فهو عصامى كثير الاعتداد بعصاميته فيبرأ من أخيه لأبيه وأمه إذا لم يجده على رأيه فى المكارم، ويحتاط لذلك فيعزو فساد رأيه فى مخالطة اللئام (٣) :

وَآنَفُ مِنْ أَخِي لأَبِي وَأُمِّي ... إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الكِرَامِ
أَرَى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا جَمِيعًا ... عَلَى الأَوْلاَدِ أَخْلاَقَ اللِّئَامِ
وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ ... بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدٍّ هُمَامِ (٤)

ولأبى الطيب فى الصداقة والأصدقاء فلسفته وهى لا شك ثمرة حياته ، ونتيجة فلسفته العامة فى الكبرياء والطموح والتشاؤم . فلقد عاش أبو الطيب وحيداً لا نعرف له أصدقاء حتى ممدوحيه ، فكان لا يصادقهم إلاَّ على دخل ، وإلى أجل

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ٢٩٢ ، ٢٩٣.
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ٢٤١ .
(٣) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٢٧ .
(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤/ ١٤٤ ، ١٤٥ .

وكان له فى حاشية كل أمير منهم منافسون وحقدة ، وكان له من كبريائه وطموحه ما يزهده فى الاستنكار من الأصدقاء تعاليًا وترفعًا ، وكان له من تشاؤمه وما يحجبه عن مؤاخاة الناس اتهامًا لهم وحذرًا منهم . فهو لذلك مقل من الأصدقاء، مقل إلى حد العدم ، فقد يكتفى بنفسه صديقًا لنفسه ، محتقرًا من عداها أن يكون صديقًا له صنينا بها أن تكون صديقًا لغيره :

خَلِيلُكَ أَنْتَ ، لاَ مَنْ قُلْتَ خِلِّي ... وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالكَلاَمُ [(١)]

فإذا استكثر من الأصدقاء لم يزد على صديق شبيه بنفسه ، ينبض قلبه بما ينبض به قلبه، فيتحدان فى الوجدان ، ويتآلفان فى الرأى ، ويتعاطفان فى البأساء [(٢)].

مَا الخِلُّ إلاَّ مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِهِ ... وَأَرَى بِطَرْفٍ لاَ يَرَى بِسَوَائِهِ

إِنَّ المُعِينَ عَلَى الصَّبَابَةِ بِالأَسَى ... أَوْلَى بِرَحْمَةِ رَبِّهَا وَإِخَائِهِ [(٣)]

ويقول مهدى علام : وكأننى أسمع فى هذا الرأى تعريف « فيثا غورس » للصداقة إذ يقول « الصداقة مساواة متسقة » وكأن الشاعر أحس بالحاجة إلى الصديق لأنه لم يستطع أن يتحمل وحده عبء الحياة فقال :

شَرُّ البِلاَدِ مَكَانٌ لاَ صَدِيقَ بِهِ ... وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الإِنْسَانُ مَا يَصِمُ [(٤)]

ويزداد بهذا الرأى تعلقًا ، فيعلى شأن الصداقة التى من هذا الطراز ، ويفضلها علي القرابة ويتوسع فى هذا المعنى فيسحبه على الوطن - فكما أنه لم يتقيد فى تعريف الصديق بأواصر القربى ولحمة الدم ، كذلك لم يتقيد فى تعريف الوطن بخطوط الطول والعرض [(٥)] :

---

(١) المصدر السابق / ٤/ ٧١ .

(٢) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم / السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٤٤ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٤، ٥ .

(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الرابع - ٩٨ .

(٥) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره/ صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٤٤ ، ٤٥ . ورئيف الخورى / دراسات فى الأدب العربى - الرقة والكآبة في شعر =

وَمَــا بَلَدُ الإنْسَــانِ غَيْــرُ المُــوَافِقِ   وَلاَ أَهْلُهُ الأَدْنُوْنَ غَيْـرَ الأَصَادِقِ [1]

وكأنما يشعر أبو الطيب إذ قال ذلك بأنه قد أفرط في القول ، وفسح الطريق لمدعى الصداقة ، فيعود إلى انحجازه وانقباضه ، بتحذيره الآتى :

وَجَائِزَةٌ دَعْوَى المَحَبَّةِ وَالهَوَى   وَإنْ كَانَ لاَ يَخْفَى كَلامُ المُنَافِقِ [2]

ونسمعه فى موضع آخر يحذر نفسه الاستكثار من الأصدقاء وفيه تعريض بصداقة سيف الدولة وربما كان فيه تعريض بكافور حين يقول :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ عَلَى الفَتَى   أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا
أَقِلَّ اشْتِيَاقًا أَيُّهَا القَلْبُ رُبَّمَا   رَأَيْتُكَ تَصْفِى الوُدَّ مَنْ لَيسَ جَازِيَا [3]

ويعلن ذلك مرة أخرى حين يقول :

وَمَا الخَيلُ إلاَّ كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ   وَإنْ كَثُرَتْ فِى عَيْنِ مَنْ لاَ يُجَرِّبُ
إذَا لَمْ يُشَاهِدْ غَيرَ حُسنِ شِيَاتِهَا   وَأَعْضَائِهَا فَالحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ [4]

ولكن أبا الطيب حين يعترف بأن ود الناس خب ، وبأن الألسنة الموالى تغلبها الأفئدة الأعادى ، وبأن للعدو دموعًا خداعة – يأتى أن يعترف بأنه ينخدع بهذه الظواهر . وخليق بمن كان فى مثل ذكائه ، وفى مثل اعتداده بعقله ، وتعويله على تجاربه وخبرته ، أن يحرص – حين يعبر عن خداع الناس وخبثهم – على أن يفصح عن أنه بذلك الخداع والخبث خبير . فهو يقرأ فى نظر العدو سر عداوته وإن أخفاها [5] .

= المتنبى / بيروت – المكشوف - السنة السادسة – عدد ٢٥٠ – آيار ١٩٤٠م / ص٢ . وعلى شلق / المتنبي شاعرًا ألفاظه تتوهج فرسانًا وتأسر الزمان / بغداد ١٩٧٧ م / ١٨٦ ، ١٨٧ وعبد الرازق إبراهيم حميدة / الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين – ط الأنجلو المصرية ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧م / ٢٥٤ .

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٣٢٠ .

(٢) المصدر السابق / ٢/ ٣٢١ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان المتنبى / ٤ / ٢٨٤ .

(٤) المصدر السابق / ١/ ١٨٠ .

(٥) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم – السنة الثالثة – العدد الأول ١٩٣٦ م / ٤٥ ، ٤٦ .

يُخْفِى العَدَاوَةَ وَهْىَ غَيرُ خَفِيَّةٍ   نَظَرُ العَدُوِّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ [1]

وهو يفرق بين دموع الأحباب ، ودموع التماسيح :

وَفِى الأَحْبَابِ مُخْتَصٌّ بِوَجْدٍ   وَآخَرُ يَدَّعِى مَعَهُ اشْتِرَاكَا
إِذَا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ   تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى [2]

كما يفرق بين ابتسامة الود الخالص ، وابتسامة النفاق المتلون :

وَلاَ تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ   شَكْوَى الجَرِيحِ إِلَى الغِرْبَانِ وَالرَّخَمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ   وَلاَ يَغُرُّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ
غَاضَ الوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي عِدَةٍ   وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِي الأَخْبَارِ وَالقَسَمِ [3]

وبين ابتسامة الأسد ، إن كان للأسد ابتسامة - وبروز أنيابه :

إِذَا رَأَيتَ نيُوبَ اللَّيثِ بَارِزَةً   فَلاَ تَظُنَّنَ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ [4]

وليس يتلبس عليه الورم بالشحم ، فالفرق بينهما فى نظره الثاقب كالفرق بين الأنوار والظلم :

أُعِيذُهَا نَظَرات مِنْكَ صَادِقَةً   أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ   إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ [5]

ولا يخفى عليه معسول اللفظ . يخفى سموم البغضاء :

فَلاَ تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوَالٍ   تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِى [6]

---

(١) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٥٣ .
(٢) المصدر السابق / ٢/ ٣٩٤ .
(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني - الجزء الرابع / ٢٩٥ .
(٤) الواحدي / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثاني / ٤٨٣ .
(٥) المصدر السابق / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .
(٦) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٣٦٣ .

ويزداد ظن أبى الطيب بالناس سواء ، ولكن تحفزه الحاجة إلى الاختلاط بهم ، ويلتمس رضاهم :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى   عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ (١)

غير أنه يصنطع حسن السياسة ، فينافق أو يكاد :

فَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا   جَزَيْتُ عَلَي ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ   لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ
وَلَمْ أَرَ فِى عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا   كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ (٢)

ولكنه ، على ذلك ، حازم متيقظ ، فهو لا يطمع فى أن ينخدع فى مدخول مودته الناس ، كما أنه لم ينخدع بمدخول مودتهم :

وَلاَ تَطْعَمَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِى مَوَدَّةٍ   وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ (٣)

وأشهد أن هذا لمن أبرع ما قال أبو الطيب ، بل إنه من أبرع ما قاله الشعراء . فلقد يأمل المرء أن يخدع الناس ، لكن على أن يؤمن بأنه ينخدع كذلك ، أما أن يعتقد وهو مع ذلك قادر على خديعتهم فذلك هو الحمق بعينه (٤) . ويقول مهدى علام :

لقد ظن أبو الطيب بصداقته على الناس ، واختص بها القليل القليل من الأوفياء لقد جعل لتلك الصداقة حرمًا مقدسًا ،وعهدًا محفوظًا . ففى سبيل مرضاة هذه الصداقة يرعى كل ذمة ، ويحتمل كل أذى (٥) :

---

(١) المصدر السابق / ١/ ٣٧٥ .

(٢) المصدر السابق / ٤ / ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى – الجزء الثالث / ٢٣٠ .

(٤) أحمد أحمد بدوى / المتنبى فى مصر / صحيفة دار العلوم – الجزء الأول ١٣٥٣هـ ، ١٩٣٤م / ١١٠ ، ١١١ . محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم – السنة الثالثة – العدد الأول سنة ١٩٣٦م / ٤٦ . وعبد العزيز الدسوقى / قضايا وملاحظات (١) أحزان الشاعر العظيم – الثقافة – السنة السادسة العدد ٦١ ، أكتوبر ١٩٧٨ م / ٧٢ .

(٥) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم – السنة الثالثة العدد الأول ١٩٣٦م / ٤٧ .

إنْ كَانَ سَــرَّكُمُ مَا قَالَ حَـاسِدُنَا ... فَــمَــا لِجُــرْحٍ إِذَا أَرْضَــاكُـمُ أَلَمُ
وبَيْنَنا لَوْ رَعَـيْـتُـمْ ذَاكَ مَـعْـرِفَـةٌ ... إِنَّ المَــعَـارِفَ فِى أَهْلِ الـنُّهَى ذِمَمُ [1]

إنَّ صداقة المتنبى ، محتفظ بأسرارها ، فما تجد إلى الذيوع سبيلا . يقول مخاطبًا سيف الدولة :

رِضَــاكَ رِضَــاى الَّذى أُوثِرُ ... وَسِــرُّكَ سِــرِّى فَــمَــا أُظْهِــرُ
كَــفَــتْكَ المــرُوءَةُ مَــا تَتَّــقِى ... وآمَنَكَ الــوُدُّ مَــا تَحْــذَرُ
وَسِــرُّكُمُ فِــى الحَــشَــا مَــيِّتٌ ... إذَا أُنْشِــرَ الــسِّــرُّ لاَ يُنْشَــرُ
كَــأَنِّى عَــصَتْ مُــقْلَتِى فِــيكُمُ ... وَكَــاتَــمْتِ القَـلْبُ مَــا تُبْــصِــرُ
وَإِفْــشَــاءُ مَــا أَنَا مُــسْــتَــوْدَعٌ ... مِنَ الــغَــدْرِ وَالــحُــرُّ لاَ يَـغْــدُرُ
إِذَا مَــا قَــدَرْتُ عَلَى نَطْــقَــةٍ ... فَــإِنِّى عَـلَى تَرْكِــهَــا أَقْــدَرُ [2]

ويزداد بالسر احتفاظًا ، حتى لكأن حرمة السر عنده تقهر سطوة العقل الباطن . وهو الذى يتحدث فى النوم والشراب وما إليهما :

وَلِلسِّــرِ مِنِّى مَــوضِـعٌ لاَ يَنَالُهُ ... نَدِيمٌ وَلاَ يُـفْـضِى إليــهِ شَـرَابُ [3]

تلك هى فلسفة أبى الطيب فى الصداقة قد لخصناها هنا بقدر ما يسمح به المقام. ولننتقل الآن من رأيه فى مجتمعه الصغير - وهو أسرة الأصدقاء إلى المجتمع الكبير - وهو الدنيا التى يعيش فيها ، والناس الذين يتحرك بينهم .

أن أبا الطيب لم يعرف المداراة فى حياته فاكتسب من جراء ذلك أعداء وحسادًا فى كل مكان ، ولذلك نراه يكثر من ذكر الحساب فى شعره ويستخف بهم أحيانًا ويحمل عليهم تارة أخرى . وفى ذلك يقول رايسكه : « إن المتنبى كان مركبًا من

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / بشرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الرابع / ٨٧ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢/ ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) المصدر السابق / ١/ ١٩٢ .

شخصيتين : إحداهما شخصية الشاعر والأخرى شخصية الفيلسوف، وكانت طبيعته أبية وكان شامخ الأنف محبًا لذاته . مائلاً إلى الخبث والحقد ، وكان إذا كافح أعداءه لم يقبل صلحًا ولا معاهدة . وكان لا يقنع من دنياه بشىء أبدًا ، بل كان يظن أنه هو مركز العالم . وكان يرى أنه لم يلق في الدنيا المكافأة على أفضاله . وبالجملة كان يجد العالم كله مليئًا بأعداء وأخصام يحتقرهم ويشاتمهم ويتوعدهم » (١) .

ومن هنا يتفرع على مذهبه فى الصداقة مذهبه فى شكوى الزمان ، أوهما - على الأصح يتفرعان على مذهبه فى التبرم والتشاؤم بالدنيا ومن فيها . فهذا الرجل العصامى ، الذى يحاول بناء مجده بذكائه النادر ، يعوقه الحظ العاثر ، فيشكو ويتألم ، ويتململ ويتبرم ، وينحجز عن الأصدقاء ، ويثير بكبريائه الحسدة، ويراهم فى كل مكان ، فيزداد ضيقًا بهم ، فتراه يكثر الشكوى من الحساد ، يراهم وراءه وقدامه ، فى حله وترحاله ، كان مرة يجتار «الفراديس» من أرض قنسرين فسمع زئير أسد فقال (٢) :

أَجَارُكَ يَا أُسْدَ الفراديس مُكْرَمُ ... فَتَسْكُنَ نفسى ، أَمْ مُهَانٌ فَمُسْلَمُ ؟
وَرَائِى وَقُدَّامِي عُدَاةٌ كَثِيرَةٌ ... أُحَاذِرُ مِنْ لِصٍّ وَمِنْكَ وَمِنْهُمُ (٣)

ولو رجعنا إلى ديوان المتنبى نتفحصه ونتأمله لكشف لنا الحقيقة حقيقة مشاعره إزاء مواقف الأعداء . فهو يشكو الدهر ، ويتوجع من كيد الناس واصفًا إياهم بالسفلة والصغار ، والحساد المتشاعرين والكذابين :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ ... يَخْلو مِنَ الهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الفِطَنِ (٤)

---

(١) بيتر باخمان / الشاعر أبو الطيب المتنبى كما يراه المستشرقون الألمان / ترجمة كلية دار العلوم/ ٧ .

(٢) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبي من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول ١٩٣٦م / ٤٨ ، ٤٩ . وطه حسين / مع المتنبى / ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٩١ .

(٤) المصدر السابق / ٤ / ٢٠٩ .

ويقول فى قصيدة أخرى :

وَمَا كَمَدُ الحُسَّادِ شَيئًا قَصَدْتُهُ ... وَلكنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ البَحْرِ يَغرَقِ (١)

بل إنه ليشفق عليهم ويعذرهم فى حفيظتهم عليه ، ولكنه إشفاق الشامت الساخر :

وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يُشحُّوا ... عَلَى نَظَرِى إِلَيهِ وَأَنْ يَذُوبُوا

فَإِنِّى قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ ... عَلَيهِ تَحْسُدُ الحَدَقَ القُلُوبُ (٢)

بل ذهب إلى أبعد من ذلك فجعل من أفعال المرء دليلاً على ما يخفيه من مشاعر - وذلك فى شعر صادق العاطفة ، صحيحة النظر فى الإنسان ومعاملته يقول :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ ... وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَولِ عُدَاتِهِ ... وَأَصْبَحَ فِى لَيلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

أُصَادِقُ نَفْسَ المَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ ... وَأَعْرِفُهَا فِى فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ

فَأَحْسَنُ وَجْهٍ فِى الوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ ... وَأَيمَنُ كَفٍّ فِيهِمِ كَفُّ مُنْعِمِ (٣)

وربما لطف من لهجته هذه بتقسيم الناس إلى كريم ولئيم فيقول :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِى مَوضِعِ السَّيفِ بِالعُلاَ ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيفِ فِى مَوضِعِ النَّدَى (٤)

إلاّ أنه نفى وجود الكرام على سبيل الاستفهام الانكارى .

أَمَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمُ ... تَزُولُ بِهِ عَنِ القَلْبِ الهُمُومُ (٥) ؟

---

(١) المصدر السابق / ٢ / ٣١٤ .

(٢) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الأول - الجزء الأول / ٢٠٤ .

(٣) عبد الرحمن البرقوقى/ شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى / الجزء الرابع / ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١/ ٢٨٨ .

(٥) المصدر السابق / ٤/ ١٥١ .

فطريقته فى تجنيد القسوة أن يفرض الفروض مثال ذلك :

إِذَا قِيلَ رِفْقًا قَالَ لِلحِلْمِ مَوضِعٌ ... وَحِلمُ الفَتَى فِي غَيرِ مَوضِعِهِ جَهْلُ [١]

مِنَ الحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الجَهْلَ دُونَهُ ... إِذَا اتَّسَعَتْ فِى الحِلْمِ طُرْقُ المَظَالِمِ

وَأَنْ تَرِدَ المَاءَ الَّذِى شَطْرُهُ دَمٌ ... فَتَسْقِى إِذَا لَمْ يَسْقِ مَنْ لَمْ يُزَاحِمِ [٢]

إنَّه يوصى بالحلم فى معاملة الأحرار ولكنه فى الوقت نفسه ينكر وجود الأحرار:

وَمَا قَتَلَ الأَحْرَارَ كَالعَفْوُ عَنْهُمُ ... وَمَنْ لَكَ بِالحُرِّ الَّذِى يَحْفَظُ اليَدَا [٣]

ولقد كان كل من المتنبى ونابليون يريان أنه لا وفاء ولا صداقة فى هذه الدنيا - ولا يريان فى ذلك ضائرة . وكان نابليون يقول [٤] : « ما للرجال والرأفة والرحمة ؟ ذلك بالنساء أحرى وأخلق بالرجال أن يكونوا كالسيف مضاء وكالطود ثباتا ، ومن لم يأنس من نفسه ذلك فليتنح عن ميادين الحرب والحكم » . ويقول المتنبى :

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِى بِهَا ... وَبالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ

فَلَيسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ ... وَلاَ فِى الرَّدَى الجَارِى عَلَيهِمْ بِآثِمِ [٥]

وسوء الظن بالناس شعور يخامر جميع المجربين المحنكين الذين عرفوا الزمان وخبروا تقلبات القلوب ونفذوا إلى خبايا السرائر . . . وهو كلام طبيعة لا زيف فيها ، بل هو كلام تجريب ولا شك فيه ، ولكنه تجريب أبى الطيب خاصة دون سائر المجربين وسائر المطبوعين ، لأنه الرجل المغامر الطواف الذى عاش فى زمان الدولة الدائلة والمطامع الغادرة ، وبقى الناس فى ميدان الشح والتربص

---

(١) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ٣٠٥ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١١٢ .

(٣) المصدر السابق / ١ / ٢٨٨ .

(٤) إبراهيم المازني / حصاد الهشيم / ١٤٢ / ١٤٣ .

(٥) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ١١٢ .

والمخاتلة ، وتعود أن يتفلسف فى تسويغ أخلاق بفلسفة الطبع لا بفلسفة الأخلاق ولا بفلسفة العرف ولا بفلسفة الدين (١).

أما ذمه الناس فذم حقود برم ، ولقد رأينا فى نظريته فى الصداقة كيف ينفر من الناس وينفر منهم ؟ وهو هنا أبين رأيًا ، وأشد اضطغاغًا ، ففضائلهم زائفة لا حقيقة لها (٢) :

أَذمُّ إلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ ... فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ وَأَحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ ... وَأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ (٣)

إذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ ... فَإِنِّى قَدْ أَكَلْتُهُمُ وَذَاقَا
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إلاَّ خِدَاعًا ... وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إلاَّ نِفَاقَا (٤)

وطبيعى أنه بعد هذه الخبرة وتلك النية لا ينخدع بهم وبمظاهرهم :

غَيرِى بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا
أهل الحَفِيظَةِ إلاَّ أَنْ تُجَرِّبَهُمْ ... وَفِى التَّجَارِبِ بَعْدَ الغَىِّ مَا يَزَعُ (٥)

---

(١) عباس محمود العقاد / شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى / القاهرة - ط حجازى ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م / ١٥٨ ، ١٥٩ . وانظر فى ذلك : كامل كيلانى / في مجلس سيف الدولة . بين المتنبى وأبى فراس - المقتطف - الجزء الرابع من المجلد الخامس والسبعين جمادى الأولى ١٣٤٨هـ نوفمبر ١٩٢٩م / ٤٣٣ ، ٤٣٤ . وبين المتنبى وأبى فراس / حلب - مجلة الحديث - العدد السابع - السنة التاسعة تموز يوليو ١٩٣٥م / ٥٤٧ . وأنور الجندى / المتنبى والجاحظ / الثقافة - العدد ٦٥٦ - ١٢٨ إبريل ١٩٥٢م / ٢١ .

(٢) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة فى دار العلوم - السنة الثالثة العدد الأول ١٩٣٦م / ٥٣ ، ٥٤ . وطه حسين / مع المتنبى / ١٤٧ . وعبد السلام نور الدين / المتنبى وسقوط الحضارة العربية / لبنان مجلة الآداب السنة ٢٥ العدد الحادى عشر نوفمبر ١٩٧٧م / ٤١ ، ومجلة الأقلام / ملف خاص مهرجان أبى الطيب المتنبى - السنة الثانية عشرة العدد الرابع كانون الثاني ١٩٧٨م / ٥٨ ، ٥٩ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ٣٧٤ .

(٤) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٣٠٣ .

(٥) المصدر السابق ٢ / ٢٢١ .

ونلاحظ أن أبا الطيب المتنبى كان هنا أكثر احتياطًا فى تعبيره ، فهو لا يذم البشر جميعًا ولكنه يذم أكثرهم ، ويظهر أن للأحوال التى قبلت فيها هذه القصيدة يدًا فى هذا التعديل الطفيف . فإن هذا البيت مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة على أثر فى غزوة . فلم يكن من حسن الذوق والكياسة أن يقول إذ ذاك إن جميع الناس خداعون : إنْ قاتلوا جبنوا ، أو حدثوا شجعوا ، بل إنَّ المنطق والشعر كليهما يوجبان تعبيرًا يمهد للاستثناء الذى سيكون موضع القصيدة (١).

ولما كان البشر شجعانا وجبناء ، انقسم الناس بحكم الطبع ، فى مذهب شاعرنا قسمين : فى القسم الأول ، يرى الشجعان السادات ، الكرام ، الأحرار وبعض الملوك ، وهؤلاء وحدهم يليقون أن يكونوا أقرنًا للمتنبى ، يكافح معهم، ويحاربهم فيكون له الفضل ، إذا ما انتصر عليهم . أما القسم الثانى فيشمل الجبناء ، اللئام ، البهائم ، والعبيد ، وبعض الشعراء من حساد المتنبى ، وهؤلاء لا تقع منهم إلا تضيق مجال الكون ولا يليق بالكريم أن يناظرهم أو يسابقهم إلى أمره حتى أنه لا يليق به أن يعيش معهم إلا كما يعيش الذهب « بين الرغام » ، أما إذا أجبر الحر على الحياة طويلاً مع هذا النوع من الخلق فيكون الموت والحياة سواء :

وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ   يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَّادِى مَشُوبَا

وَمَا مُوتٌ بِأَبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ   أَرَى لَهُمُ مَعِى فِيهَا نَصِيبَا (٢)

وهذان القسمان من الناس متباينان تمامًا فلا صلة بينهما ، ولو تقاربا فى الظاهر :

العَبْدُ لَيسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ   لَو أَنَّهُ فِى ثِيَابِ الحُرِّ مَوْلُودُ (٣)

حتى أن أفكار القسم منها لا تشابه أفكار القسم الآخر فبينما يرى أحدهما المجد فى الملذات والشرب ، يراه الآخر فى الحرب والانتصار ، وبينما يعتقد الجبان

(١) محمد مهدى علام / فلسفة المتنبى من شعره / صحيفة دار العلوم - السنة الثالثة - العدد الأول - ١٩٣٦م / ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ١ / ١٤٠ .

(٣) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٢ / ٤٣ .

أن الواسطة لبقاء نفسه هى أن يصونها عن الحرب يرى الشجاع عكس ذلك ، أى أنه يحافظ على نفسه بدعم المهالك أما سبب هذا التباين فى الأفكار - فناتج - كما رأينا - عن اختلاف الجبلات ، وتعود العبيد الذل حتى أنهم لا يشعرون بذلهم بعد ذلك [1] .

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ   مَا لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيْلَامُ [2]

ولذا فإنَّ المتنبى يرى كل شىء فى سبيل المجد محببًا إليه فالقتل والموت والعذاب وقطع الفيافى عذب المذاق :

فَمَوتِى فِى الوَغَى أَرَبِى لأَنِّى   رَأَيْتُ العَيشَ فِى أَرَبِ النُّفُوسِ [3]
وَهَانَ فَمَا أُبَالِى بِالرَّزَايَا   لأَنِّى مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِى [4]

★ ★ ★

---

(١) فؤاد أفرام البستانى / أبو الطيب المتنبى / المشرق - السنة السادسة والعشرون العدد الأول كانون الثانى ١٩٢٨م ، ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) أبو البقاء العكبرى / ديوان أبى الطيب المتنبى / ٤ / ٩٤ .
(٣) المصدر السابق / ٢ / ١٩٢ .
(٤) عبد الرحمن البرقوقى / شرح ديوان المتنبى / المجلد الثانى - الجزء الثالث / ١٤٢ .

طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٧٩٤٢٠٧٩